الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية أصول الدين

-قسنطينة- — والشريعة والحضارة الإسلامية

الرقم التسلسلي:..... — قسم/ الدعوة والإعلام والاتصال

رقم التسجيل:..... — تخصص/ الدعوة والإعلام

التجديد عند البشير الإبراهيمي

- منهجه ومضامينه -

رسالة مقدمة

لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام

إعداد الطالب: — إشراف الأستاذ الدكتور:

إبراهيم بريك — **محمد زرمان**

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الصفة	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية
1- أ.د.عبد الله بوجلال	رئيس	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة
2- أ.د.محمد زرمان	مقرر	أستاذ التعليم العالي	جامعة العقيد الحاج لخضر - باتنة
3- د.بشير قلاتي	عضو	أ . م . م . د	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة
4- د.نور الدين سكحال	عضو	أ . م . م . د	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

السنة الجامعية: 2008/2007م

الموافق لـ: 1429/1428هـ

الإهـــداء

إلى والديّ الكريمين –أدامني الله لهما بارًا– أهدي هذا العمل

إلى روح أختي الغالية وزوجها –رحمهما الله– وأسكنهما فسيح جنانه

إلى جميع إخوتي الأعزاء

إلى زوجتي الفاضلة، التي كان لها الفضل الكبير في ظهور هذا البحث وإنهائه، فأدامك الله طيّبة وسندًا

إلى أبنائي، إسماعيل، يوسف، مريم ومحمد أمين

وإلى جميع الأصدقاء والإخوان، وأخصّ منهم كمال الدين حليمي، الذي وقف بجواري وسهر معي اللّيالي، متجشما عناء الكتابة على جهاز الكومبيوتر. فجزاه الله عني كلّ خير

وإلى صهري العزيز، وزوجته وجميع أولادهم وأزواجهم

أهدي هذا العمل.

–إبراهيم بريك–

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

مقدمـــــة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، عليه أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه إلى يوم الدّين، وبعد:

لقد آلت حقيقة هذا الدّين اليوم في كثير من جوانبه إلى الانخرام، وآلت معها الحياة الإسلامية إلى الاضطراب، الذي مسّ واقع الأمّة في أغلب مناحي حياتها التعبّدية والسّياسية والاجتماعية وغيرها، بحيث ترك هذا التردّي آثارًا كبيرة في حياة المسلم، وهو الذي آمن بأنّ الدّين منهج حياة فبات يرصد باهتمام واقع الأمّة بحثًا عن الوسائل الكفيلة للنهوض بها وإيصالها إلى برّ الأمان.

فهذا الاهتمام هو استجابة لفريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُــم أُمَّــةٌ يَدعُونَ إِلَى الخَيرِ وَيَأمُرُونَ بِالمعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ وَأُولَئِــكَ هُمُ المُــفلِحُون** ﴾ [آل عمران: 104]

إذًا فمهمّة التجديد تقتضي حسب مدلول الآية أن يلتزم المسلم إزاء مجتمعه «تجاوز وجوب القيام بالدعوة إلى الإسلام بصفة عامة، إلى وجوب المقاومة لمظاهر الانحراف السّلوكي عن التعاليم الدينية في الممارسة الاجتماعية، سياسةً واقتصادًا وأخلاقًا عامة».(1)

إنّ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دفع المسلم بالتحرّك نحو تحقيق أهدافه وتعميم الخير والتزام التّعاليم الإسلامية، بالرّغم من الصّعوبات التي تستعصي على الاستجابة في الكثير من الأحيان.

ولقد أسفر هذا التحرّك عن ميلاد حلقات متعاقبة من حركات التجديد والتغيير في المجتمعات الإسلامية، بهدف تنزيل هذه التعاليم في الواقع اليومي لحياة النّاس.

ومهما كانت النتائج التي حقّقتها أثناء المعالجة للواقع، فإنّها قد تركت لنا من خلال تجربتها تراثًا ثريًا، ورصيدًا أدبيًا، وفقهًا حيًّا في أدب التعامل الإصلاحي مع الواقع، وهو ما يجعل الاعتبار بماضي هذه المحاولات الإصلاحية والاستفادة منها أمرٌ لازم، وحقيقة دائمة بين أجيال

(1)- عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن -فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط/2، س [1415هـ-1995م]، ص: 33

الأمّة، لأنّ تجارب التغيير بالأمس خير معين على نجاح الكثير من النماذج الهامّة من حركات الإصلاح والتجديد اليوم.

ومن هذه التجارب الإصلاحية في الجزائر، تجربة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التجديد والتغيير، والتي سنقف عليها بالتفصيل في دراستنا –إن شاء الله– مركّزين على جوانب من فكره التجديدي الذي مسّ أغلب مناحي واقع الأمّة الإسلامية بصورة عامة، والأمّة الجزائرية بصورة خاصة.

والحقيقة الثابتة أنّه لولا جهود الإبراهيمي التي بذلها بمعية إخوانه العلماء في سبيل المحافظة على الكيان القومي للأمّة، سواء في مجال التربية والتعليم، أو في مجال الإصلاح بجميع جوانبه لانهارت المقوّمات الأساسية للأمّة، فهذه الجهود المبذولة من قبل الإبراهيمي ورفاقه، هي التي حفظت على الأمّة شخصيتها وكيانها من الذّوبان.

والواقع أنّ الشيخ الإبراهيمي كان واحدًا من أبرز المدافعين عن القومية الجزائرية العربية في العصر الحديث، وقد أطراه إمام النهضة "عبد الحميد بن باديس" بما هو جدير به، حيث عبّر الإبراهيمي عن ذلك في قوله: «أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان ممّا قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا أو يذلّ لاستعمار، ثمّ خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية».(1)

وانطلاقًا ممّا سبق ذكره فإنّ دراسة تجربة هذا الرّجل تستلزم وقوفًا متفحّصًا عند الواقع الذي كان مسرحًا لحركته ونشاطه، سيما وأنّه عاش واقعه بعمق، وتفاعل معه تفاعلاً شمل مختلف جوانبه الدّينية والثقافية والاجتماعية والسّياسية، فكانت النهضة الجزائرية الحديثة نتيجة لذلك التفاعل العميق، وكانت العلاقة بالتالي جدّ متينة بين الواقع وبين حركته المتّسمة بالثّراء والتنوع سواء على مستوى المنهج أو على مستوى المضامين.

والحقيقة أنّ هذه الشخصية لا يُكتفَى للحديث عنها بإعداد دراسة متواضعة، لأنّ له في كل مظهر من مظاهر الحياة في الجزائر أثرًا، وفي كلّ ناحية من نواحي الإصلاح عملاً، لأنّه باعث نهضة ومعلّم جيل، أعاد للعربية مجدها فرغّب فيها ودَفع إليها، وأعاد النّاس إلى اللغة الفصحى والبيان العربي.

(1)– محمد البشير الإبراهيمي، "أنا"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة –الجزائر، س: 15، ع: 87، [1405هـ-1985م]. ص: 23

ومن الخطأ تصوّر أنّ الإبراهيمي كان عالماً بالعربية وفنونها وآدابها فحسب، أو أنّه كان خطيباً ثائراً، بل كان فقيهاً ذكيّ الفكرة بعيد النظرة، وقد كشفت لنا أفكاره وآراؤه عن بعد نظره ومقاصدية في معالجة العديد من القضايا الشرعية.

نعم لقد كان الإبراهيمي عالماً وفقيهاً، يتمتّع بجزالة البيان وقوّة الطرح، وكان مصدر متعة أدبية وعلمية، وكان التواصل معه، إمّا إرشاد لكتاب، أو تلقين لخلق من أخلاق الخير، أو ترغيب في علم وحثّ عليه.

وقد ردّ النّاس إلى لغة القرآن وعرّفهم بفضلها، وأعاد إليهم الثّقة في نفوسهم، ونجح في إعداد جيل النّصر المنشود من الشباب الجزائري المؤمن بعروبته ووطنه ودينه، وكان ذلك الجيل نواة جيش التحرير، الذي استطاع أن يخلّص العباد من قبضة الاستعمار الغاشم الذي جثم على صدرهم مائة وثلاثين سنة.

فهذا الرّجل وإن كنتُ لا أستطيع أن أفيه حقّه إلاّ أنّ ذلك لا يثنيني من حقّ المساهمة في دفع حركية النّشاط الجادّ لحركة تجديدية اتّسمت بالثراء والتنوّع.

وإسهاماً مني متواضعاً في تنشيط دراسة فكر هذه الشخصية البارزة وتعميق الوعي بفكرها التجديدي والإقبال عليه، أقدّم اليوم هذه الدراسة حول "التجديد عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، منهجه ومضامينه".

ومن أهمّ الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع، ما يلي:

1- أنّ الإبراهيمي أخذ على عاتقه إصلاح المجتمع من كلّ جوانبه، اعتمادًا على إصلاح العقيدة الدينية أساسًا، وتصفيتها من شوائب البدع والخرافات التي خلّفها أصحاب الطّرق من المتصوّفة وأرباب الفرق والنِّحل، ممّن سيطروا على الحياة الفكرية والدينية عموماً طيلة فترة الاستعمار، فأردنا تقويم هذه التجربة التجديدية في عملية الإصلاح.

2- أمّا السّبب الثاني فهو حرصي على التعرّف على مكانة هذا المفكّر الديني، ومنزلته في مسار تيار التجديد في الفكر الإسلامي، ومدى مساهمته الشخصية في إثراء الفكر الإصلاحي في العصر الحديث.

3- على الرّغم من الجهود التجديدية الجبّارة التي بذلتها حركات الإصلاح في هذا العصر إلاّ أنّ الضّرورة تبقى ملحّة لبروز مشروع واضح المعالم والأهداف، يتبنّـــى عمليـــة التجديد في الفكر الإسلامي، ولا أدلّ على ذلك وأنفع من جعـــل جمعيـــة العلمـــاء المسلمين نموذجا للنّشاط الإصلاحي الذي ينبغي أن تحذو حذوه حركات التجديـــد والإصلاح في العصر الحديث.

4- أمّا السّبب الرابع فيتعلّق بوجود دراسات متناثرة حول شخصية الإبراهيمي، متفاوتـــة المضمون والقيمة، اختلف أصحابها في ما بينهم من حيث الحكم له أو عليه، وأغلبهـــا -إذا استثنينا الدّراسة الوافية حول الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمـــد البشـــير الإبراهيمي للباحث "محمد زرمان"- تؤرّخ لأطوار حياة الرّجل وتستعرض مختلـــف أعماله الأدبية وأهمّ آثاره، ولا تقدّم لنا أحكامًا واضحة حول قيمة الرّجل الفرديـــة بالنّسبة إلى مجمل أعلام التجديد في الفكر الإسلامي، ولا تحدّد بوضوح تام مساهمتـــه الشخصية في تطوير هذا التفكير، وهو ما نهتمّ به في صلب هذه الدّراسة، لأنّ أصحابها لم يلمّوا إلمامًا كاملاً بفكر الإبراهيمي التجديدي، فهي إذن غير كافيـــة للتعريـــف بالإبراهيمي وأعماله، فضلاً عن تقديمها تحاليل وافية تتعلّق بمختلف جوانب تفكيـــره الإصلاحي، وهو ما أصبو إليه.

5- لقد استطاع الإبراهيمي أنْ يحقّق صورة الفقيه الحقّ، فهو لم يشغل نفـــسه بتنـــاول القضايا الفقهية الجزئية، المبتوتة الصّلة بالواقع والحياة، وإنّما تناول العديد من القضـــايا الشرعية، وعالجها معالجة ذات أبعاد مقاصدية في ضوء نصوص الشريعة الإســـلامية وقواعدها، وانتهى إلى الإدلاء بنظرات دقيقة وعملية، وأذكر منها اجتراءه، رأيـــه في مسألة الذبائح التي تغطّي ساحات منىً يوم الفطر، ومن ذلك أيضا نظرتـــه لمـــشكلة الزّواج وتداعيات إعراض الشباب عنه على الفرد والمجتمع، وكذلك نظرتـــه لـــبعض القضايا السّياسية كموقفه من التعدّدية الحزبية، وغيرها من المواضيع التي عالجها معالجـــة وافية في ضوء نصوص الكتاب والسنّة، إضافة إلى ذلك هناك دافع خاصّ، هو أنّ حـــبّ الرّجل نما في قلبي وكبر معي، وأعجبت بفكره وآرائه الصّائبة، فعزمت على إعـــداد موضوع الرّسالة سائلاً الله التوفيق والرّشاد.

أمّا عن أهداف هذه الدّراسة فإنّها ستكشف لنا عن سيرورة الفكر والتفكير التي قطعهـــا الفكر الإسلامي استجابة للمتطلّبات التي تمليها الوقائع والتحوّلات، كما أنّها تهدف إلى إيجـــاد صلة القربى بين مفهوم الاجتهاد من جهة، ومفهوم التجديد والإدماج بينهما من جهة أخـــرى، بحيث لا ترى تناقضًا بين المفهومين، فنريد أن نقيم هذه الصّلة بين التجديد وبين مبدأ الاجتهاد وبين مقتضيات الحال ومتطلّبات العصر، لتخليص العقلية الإسلامية والواقع الإســـلامي مـــن الجمود وردم الهوة المنقطعة بين عصور الفقهاء والعصر الحالي.

أمّا عن الإشكالية فإنّني من خلال هذه الدّراسة حول التجديد عند الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" –المنهج والمضامين– سأبيّن مدى الصّلة بين الاجتهاد من جهة، وبين تجديد الفكر في الإسلام من جهة أخرى، ويبقى المطلوب هل هو التجديد بمقتضى شـــروط الاجتـــهاد أم المطلوب تجديد شروط الاجتهاد نفسه؟ وكيف استطاع الإبراهيمي أن يسهم في دفع حركيـــة التجديد والاجتهاد في الفكر الإسلامي، الذي لا يمكن أن يبني معاصرته، ويمارسها كفعل وتأثير وحضور من غير التجديد والاجتهاد والإبداع.

هذا هو الإشكال الذي يتناوله البحث، وستتّضح لنا الإجابة عنه من خلال الإطّـــلاع علـــى الفصول التي تتضمّنها الرّسالة، ولتحقيق الأهداف المذكورة، قسّمت البحث إلى مقدّمة وأربعة فصول، وستة عشر مبحثًا، وخاتمة على التفصيل الآتي:

الفصل الأوّل: الشخصية وعوامل التكوين

- **المبحث الأوّل: البيئة التي نشأ فيها الإبراهيمي وإفرازاتها علـــى شخـــصيته:** وخصّـــصته للحديث عن الوضع العام لحالة الشّعب الجزائري في عصر الإبراهيمي من جوانبـــه السّياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، لمعرفة تأثير هذه العوامل في فكر الإبراهيمي التجديدي وبناء شخصيته.
- **المبحث الثاني: شخصية البشير الإبراهيمي:** وخصّصته للحديث عن أهمّ الأحداث التي عاشها الإبراهيمي وأسهمت في بناء شخصيته، وكان لها الأثر البارز في صياغة رؤيته للتجديد.
- **المبحث الثالث: معالم شخصيته:** وتحدثت فيه عن العوامل التي تتقوّم بها شخصيته والتي أسهمت في تشكيل فكره المتجدّد.

- **المبحث الرابع: وفاته وآثاره:** وخصّصته للحديث عن وفاته وآثاره.

الفصل الثاني: مفهوم التجديد ومجالاته في الفكر الإسلامي

- **المبحث الأول: التجديد مشروعيته ومقتضياته:** حاولت جاهدًا الكشف فيه عن مفهوم التجديد ومشروعيته ومقتضياته، مستعينًا بجهود العلماء الذين قدّموا له تفسيرًا أو تحديدًا.
- **المبحث الثاني: ضوابط التجديد:** تعرّضت فيه للضوابط التي تحفظ فكرنا التجديدي من الفوضى الفكرية، حتّى نجنّبه التصادم مع النصوص الشّرعية أو الإخلال بها.
- **المبحث الثالث: أسس التجديد ومرتكزاته:** وعرضت فيه المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها التجديد، مؤكّدًا على أهميته البالغة.
- **المبحث الرابع: مجالات التجديد:** باعتبار أنّ التجديد ضرورة حتمية ولمّا كانت الأحداث والوقائع غير متناهية، وحتّى لا تقف الشريعة عن أداء مهمّتها في التشريع وجب أن يشمل الاجتهاد أمور الدّين والدنيا، وذلك بتوجيه طاقاتنا الفكرية لبناء عزّة الأمّة وازدهارها.

الفصل الثالث: منهج التجديد عند البشير الإبراهيمي

- **المبحث الأول: مفهوم التجديد عند الإبراهيمي:** تحدّثت فيه عن مفهوم التجديد عند الإبراهيمي وما يحمله المفهوم من معاني.
- **المبحث الثاني: شروط وأسس التجديد عند الإبراهيمي:** وتحدّثت فيه عن أهمية معرفة شروط وأسس التجديد عند الإبراهيمي باعتبارها إحدى المعايير الأساسية في فكره التجديدي.
- **المبحث الثالث: أهداف التجديد وغاياته عند الإبراهيمي:** خصّصته للحديث عن الأهداف التي عمل من أجل تحقيقها الإبراهيمي من وراء نشاطه التجديدي.
- **المبحث الرابع: وسائل وأساليب التجديد عند الإبراهيمي:** خصّصته للحديث عن وسائل وأساليب التجديد في فكر الإبراهيمي لما تكتسيه من أهمية بالغة في دفع حركة التجديد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع: مضامين التجديد عند البشير الإبراهيمي

- **المبحث الأول: التجديد في المجال العقدي:** وخصّصته للحديث عن الدّور الذي قام بـــه الإبراهيمي في جمع النّاس على الإسلام الصّحيح، إسلام القرآن والـــسنّة، وكيـــف استطاع أن يحرّره ممّا سوى ذلك من البدع والخرافات، وذلك باعتماد طريقة القرآن في الاستدلال على العقيدة، والدّعوة إلى اعتماد فقه تجديدي يلائم العصر.
- **المبحث الثاني: التجديد في المجال التربوي والثقافي:** وخصّصته للحديث عـــن أهـــداف التربية والتعليم عند الإبراهيمي، وبيان موقفه من مناهج التربية والتعليم الذي لم يكن راضيًا عنه، ودعوته لتطوير مناهج التعليم التقليدي، واعتماده على دوائـــر التربيـــة الأخلاقية –الأسرة –المدرسة –المجتمع، كما تعرّضت فيه لمنهج الإبراهيمي في الكتابة والتعبير واهتمامه بالصّحافة والمثقّف.
- **المبحث الثالث: التجديد في المجال الاجتماعي:** وخصّصته للحديث عن أهمّ ما بـــرز في تفكيره الاجتماعي، حيث انتهى إلى نقد الفساد في المجتمع، وبيان دور الفـــضيلة في تكوين المجتمع الصّالح، كما اهتمّ بموضوع الأسرة، والشّباب، والزّواج،وتعليم البنت محاربة العوائد البالية في نظام الأسرة، ومحاربته لوباء الفجور، والطلاق، وموقفه مـــن دعوات تحرير المرأة، ومحاربته لظاهرة الأمّية.
- **المبحث الرابع: التجديد في المجال السّياسي:** وخصّصته للحديث عن جمعيـــة العلمـــاء والسّياسة، وحقيقة التربية السّياسية ودعائمها عند الإبراهيمي، كما تناولـــت دور الإبراهيمي في الإعداد للثّورة المباركة ومساهمته فيها.

- أمّا **الخاتمة:** فقد انتهيت فيها إلى استخلاص نتائج البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمّا عن المنهج المتّبع في الدّراسة فهو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم أساسًا على رصد جميع الآراء والأفكار المبثوثة في آثار الإبراهيمي، وتحليلها لاستخلاص آليات التجديد والاطّلاع على قواعد وأُسس وأهداف ومجالات التجديد في فكره.

كما اعتمدتُ على المنهج التاريخي لمعرفة الإطار التاريخي الذي نشأ فيه الإبراهيمي وإفرازاته في تكوين شخصيته، وبلورة آرائه وأفكاره المتّسمة بالثّراء والتنوّع.

أمّا عن مصادر البحث، فقد اعتمدتُ على آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهي تمثّل عصارة فكره، وهي عبارة عن مقالات ينشرها الشيخ في الصحف العربية والمجلّات الوطنية.

-وكذلك كتاب "عيون البصائر" وهو يمثّل الجزء الثّاني في سلسلة آثار الشيخ، وهي تتضمّن مجموع المقالات التي تولّى هو نفسه جمع وترتيب مواضيعها، وأشرف على طباعتها بنفسه سنة [1963م].

-كتاب "في قلب المعركة": ويمكن اعتباره الجزء الخامس في آثار الشيخ، وهو عبارة عن مجموعة من الوثائق والبرقيات والخطب والتصريحات ونداءات التعبئة للثورة الجزائرية المباركة حرّرها باسم جمعية العلماء المسلمين، وجبهة التحرير الوطني.

-كما استعنتُ "بسجلّ مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وهو يضمّ مجموعة من التقارير الإدارية لنشاط الجمعية، وكذلك بعض المواضيع من اهتماماتها الفكرية.

-كما استعنتُ ببعض المجلّات والجرائد التي تصدرها جمعية العلماء المسلمين كالبصائر والشّهاب.

-كما استعنتُ ببعض الدّراسات التي تناولت فكر الشيخ محمد البشير بالدّراسة، وأخصّ منها بالذّكر دراسة الباحث "محمد زرمان" حول الأُسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي.

كما كانت لي بعض من المقابلات الشخصية مع أحد تلامذته وهو الشيخ "عبد الحميد زقادة" أحد أعيان ولاية خنشلة ورموزها والتي استفدت منها الكثير من المعاني والخصوصيات التي كان يتميز بها الشيخ البشير الإبراهيمي.

وقد إعترضتني في أثناء إنجاز هذه الدّراسة جملة من الـصّعوبات، يرجـع بعـضها إلى المصادر والمراجع، ويرجع بعضها الآخر إلى نفس المادّة، موضوع البحث.

أمّا ما يرجع إلى المصادر والمراجع فيتمثّل أوّلاً في قلّة ما كُتب عن آراء الإبراهيمي وأفكاره رغم ما كُتب عنه في الجانب الأدبي، فأعوزتني بذلك المصادر التي يمكن أن تساعد علـى اسـتجلاء هذه الآراء وتحليلها، وكذلك ندرة المراجع التي تتحدّث عن فلسفة التجديد في فكـر علمـاء الجمعية، باستثناء بعض ما كُتب عن "الشيخ عبد الحميد بن باديس"، بالرّغم أنّ حركـة ابـن باديس ونائبه الإبراهيمي تندرج بشكل عام في إطار حركة التجديد الإسلامي التي ظهـرت في العالم الإسلامي في العصر الحديث، ممّا تعيّن عليّ بذل الجهد لجمع مادّة البحث مـن مجمـوع الكتب المختلفة، حتّى أتمكّن من إخراج البحث على ما هو عليه.

-وأمّا ما يرجع من الصّعوبات إلى مادّة البحث ذاتها، فتتمثّل أوّلاً في شخصية الإبراهيمي الذي اتّسم أسلوبه بالبيان الجزل، والأدب الرّصين، والسّبك العربي السّامي الذي صعّب عليّ اقتباس ملامح التجديد في فكره.

-وتتمثّل أيضًا في طبيعة النّصوص نفسها إذْ أنّها تتّسم بالطّول، بحيث يـصعب اجتزاؤهـا أو حذف بعضٍ منها بغية اختصارها، لما يسبّبه ذلك من إخلال فاحش بالمعنى والفكرة، كما أنّـه يصعب توليد معنى واحد من خلال النّص لتدافع المعاني وتزاحمها في النّص الواحد.

-كما يتعذّر على كلّ باحث أن يفصل بين جمعية العلماء المـسلمين والإبراهيمـي، لأنّـه لا يستطيع باحث أن يعرف حقيقة الدّور الذي قام به الإبراهيمي، في مجال الإصلاح والتجديـد، إلاّ إذا عرف دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن تأمّل في سيرة الإبراهيمي وفي تراثـه الفكري والأدبي يتبيّن له بوضوح وجلاء هذا الرّباط واللّحمة بينهما، فهو ناطقها الرّسمي بعـد وفاة رئيسها الأوّل، ولسانها المعبّر عن أفكارها وآرائها، وهذا الرّباط بينهما يحول في كثير مـن الأحيان من تحديد معالم التجديد في فكره.

-التأثير النفسي نتيجة للظروف العصيبة التي عاشتها بلادنا في السنوات الماضية حيث سبّب لي عائقًا وحرجًا كبيرًا في كثير من الأحيان على مزاولة البحث، كما شغلني ذلك عن استكمال باقي فصوله لمدّة طويلة من الزّمن، واضطررتُ في مرّات عديدة إلى التخلّي والانقطاع عنه وذلك لما تركته هذه الظّروف من آثار سيّئة لا تسمح بمزاولة البحث.

وعلى الرّغم من ثراء التجربة الإصلاحية في حركة الإبراهيمي التجديدية، وما اتّسمت به آثاره من آراء وأفكار بنّاءة، فإنّ ما كُتب عنه غير كافٍ لتغطية جوانب عظمتـــه الفكريـــة ومن أهمّ الدّراسات التي اطّلعت عليها وتناولت فكر الإبراهيمي بالدّراسة:

1- أطروحة الدكتوراه حول "الأُسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي للباحث محمد زرمان" والتي تقدّم بها إلى معهد الدّعوة وأصول الدّين بجامعة -الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- سنة [1994-1995م] لنيل شهادة دكتوراه الدّولة في الفكر الإسلامي الحديث، وقد حاول فيها جاهدًا الكشف عن الأُسس النظرية لمنهج التغيير في فكر الإبراهيمي المتجدّد، كما حاول التعرّف على أدقّ جزئيات تفكير الرّجل في مختلف الميادين، وتتبّع منطقها الدّاخلي المتحكّم فيها، وإبراز مواطن التغيير فيها بمقارنتها بغيرها من الأفكار الإصلاحية المعاصرة لها، بل وحتّى السّابقة من حيث تاريخ ظهورها في المجال الديني أو الميدان السّياسي أو الحقل الاجتماعي إلخ...

2- كتاب "الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي" للباحث "أسعد السحمراني"، دار النفائس، بيروت، عام [1984م]. ولقد حاول الباحث في هذا العرض رصد الواقع الذي آل إليه حال الأمّة العربية في زمن الكواكبي نتيجة الاستبداد العثماني، وما أصاب الأمّة الإسلامية من ضعف ووهن وكيف قيّض الله لها من يحمل همّها ويذود عن حياظها، مبيّنًا لهم أساليب وطرق مكافحة الاستبداد، حتّى دفع حياته ثمنًا على مذبح الحرّية، وفي مقابل ذلك عرض لمنهج الإبراهيمي في التصدّي للاستعمار مبيّنًا كيف كان الإبراهيمي يجاهد في معركة كبيرة، كثر فيها الخصوم والأعداء، وقلّ فيها الأعوان والنصراء، وكان هدف الإبراهيمي من عمله الكبير، هو إعداد الشّعب لمواجهة الاستعمار الفرنسي الاستيطاني المتغطرس، وقد حاول الباحث أن يعقد مقارنة بين المنهجين.

3- كتاب "البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه"، للكاتب "محمد مهداوي"، دار الفكر دمشق، [1988م]، وقد خصّصه الكاتب للحديث عن حياة الإبراهيمي وأعماله في الجزائر، كما عرّج على آراء الإبراهيمي في اللّغة العربية والتعليم، كما تناول مقالاته

في ميادين الإصلاح وفنّ الخطابة، كما عالج فنّ الرّسائل وأدب الرّحلات في أدب الإبراهيمي، وكذلك شعره وأسلوبه الأدبي وخصائصه.

4- كتاب "بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي" للباحث "عبد الحميد بوزوينة" صادر عن ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر، [1988م]. وقد عالج فيه الخصائص البنائية للمقالة، وعلاقة البنى الإفرادية بالدّلالة وطبيعة البنى التركيبية، والإيقاع الصوتي وتوظيفه الفنّي، والصّور الجمالية، كلّ ذلك في المقالة عند الإبراهيمي.

5- كتاب "الإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي" لـــ"محمد فضلاء"، مطبعة البعث بقسنطينة –الجزائر [1968م]، وهو يتضمّن مجموعة من الخطب والقصائد والمداخلات حول ذكرى وفاة رجل ملأ الدّنيا بالمعجزات والعبر، ووقف حياته كلّها لخدمة الجزائر والأمّة الإسلامية والعربية على حد قول "فضلاء".

6- نثر الشيخ الإبراهيمي في الفترة من [1929-1939م]، لـــ "محمد العيد تاورة"، وهي رسالة لنيل شهادة الماجستير، بجامعة قسنطينة، وقد جمع في الجزء الأوّل منها نصوص الإبراهيمي، ثمّ وثّقها ونظّمها، وشرحها، وفي الجزء الثاني اهتمّ بدراسته وعالج فيها قضايا فنّية، كما تعرّض فيها لأنواع النّثر الأدبية التي استخدمها الإبراهيمي في مقالاته وكتاباته.

7- وهناك عدد من الأبحاث المتنوّعة، والدّراسات الخاصّة بفكر الإبراهيمي، قدّمها أساتذة أفاضل، وقد جُمعت بمجلّة الموافقات، وهي مجلّة جامعية تعنى بالبحوث والدّراسات الإسلامية، تصدر دوريًا عن المعهد الوطني العالي لأصول الدّين بالجزائر مركز الموافقات للدّراسات والأبحاث العلمية، العدد الرابع، السنة الرابعة، [1995م].

8- عدد خاص من مجلة الثقافة يضمّ بحوثًا ودراسات متنوّعة، وانطباعات حيّة احتفاء بالذّكرى العشرين لوفاة الإمام الإبراهيمي، تصدرها وزارة الثّقافة والسّياحة بالجزائر، العدد 87، السنة الخامسة عشر، [1985م].

وأخيرًا لا أقول أنّي وفيّت المراد، ولكّني أجهدتُ نفسي عل قدر طاقتي لعلّـــي أوافـــق الصّواب، واهتدي إلى الرّشاد، فإنْ أصبته فذاك ما أردت ورجوت، وإلاّ فما أنا إلاّ إنسان شأنه الخطأ والنسيان، وقلّما يخلص باحث من الهفوات، أو ينجو دارس من العثرات، وأظنني كابدتُ الشّوق وعانيتُ الصّبابة أثناء إعداد هذه الرّسالة، وصبابتي إلى النّصوص التي عشتُ وأيّاها ليالي طويلة من السّهر والجهد والتعب، وكما قال الشاعر(1):

*لا يَعرِفُ الشّوقَ إلاّ مَنْ يُكابِدُه وَلا الصّبابَـــةَ إلاّ مَنْ يُعَانِيهَـــا**

وقد أرتني هذه الصّعاب أنّ اجتيازها ميسور بالإرادة والصّبر.

وفي الختام أتوجه بخالص عبارات الشكر، وأصدق معاني العرفان للأســـتاذ المـــشرف الدكتور "محمد زرمان"، الذي تفضّل بالإشراف على هذه الرّسالة والذي منحني مـــن علمـــه وتوجيهاته ودقّة ملاحظاته، وسعة صدره، ما مكّنني من متابعة البحث وتقديمه علـــى النّحـــو المطلوب.

كما أتوجّه بجزيل الشّكر إلى الدكتور: -سكحال نور الدين- الذي لم يتوان في تقديم المساعدة والدّعم المعنوي كلّما قصدته، وطرقت عليه بابه.

والوفاء يقتضي منّي أيضًا التقدّم بأسمى معاني الشّكر إلى كلّ من قدّم إليّ يد المساعدة من قريب أو بعيد، وأمدّني بمرجع وكتاب، أو نصيحة.

كما يقتضي منّي الوفاء أيضًا التقدّم بالشكّر الخالص لجميع الأساتذة الذين يعود لهم الفضل في تعليمي وتكويني.

كما أشكر جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة وكلية أصول الدّين والـــشّريعة والحضارة الإسلامية اللذين احتضنا هذا البحث.

وإنّي أضرع إلى الله تعالى أن ينظر إلى ما بذلته من جهد في هذا السّبيل بالقبول، وأن يدّخر لي منه ذخرًا يشفع لي يوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

---

(1) – اسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله [579هـــ-1183م]، شاعر بغدادي كان ينعت بالأبله، في شعره رقّة وحسن صناعة أنظر كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، مطبعة الترقي –دمشق، [1957-1961م]، ج9/ 98

* أحمد ابن خلكان، [ت 681هـــ-1282م]، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مطبعة بولاق –القاهرة، [1299هـــ]، ج2/ 26

الفصل الأول:

الشخصية وعوامل التكوين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

البيئة التي نشأ فيها الإبراهيمي وتأثيراتها على شخصيته

إنّ من يتعرّض لدراسة شخصية ما، لابد من أن يفهمها من خلال مجتمعها حتى تكون أحكامه صحيحة، وتفسيراته لتصرّفاتها صادقة ودقيقة، لأنّ الإنسان جزء من مجتمعه وذرّة من ذرّات تلك التربة التي سعى فوق أديمها ولحظة من لحظات ذلك الزّمن الذي عاشه.

ومن المؤكد أنّ ظهور الحركات الإصلاحية في العصر الحديث -بشكل عام- قد ارتبط بوجود استعمار مباشر أو غير مباشر، بحيث «كانت حدّة هذه الحركات الإصلاحية تشتدّ بقدر توغّل الوجود الاستعماري، وتخفّ عند انحسار هيمنته على مقوّمات الأمّة و الوطن».(1)

ولقد اُبتلي الشعب الجزائري بوجود الاستعمار الذي كبّله بأبشع قيود الظّلم و التعسّف، وهذا ما تتّضح لنا صورته خلال تحليلنا لوضعية المجتمع الجزائري، الذي كان ينعم قبل الاحتلال الفرنسي بخصائص الدولة في ذلك العصر، وكان يهنأ في ظلّ دولة مستقلّة وغنية(2) تتوفّر على جميع الخيرات، لكن فرنسا منذ أن وضعت مخطّطها في النّواحي السّياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي تعمل جاهدة على قتل شخصيتها ومحو مقوّماتها الأساسية، وذلك بالقضاء على الدين، واللّغة العربية، وقطع كلّ صلة بينهما وبين العالم العربي والإسلامي، ليتمّ له مسخ الأمّة الجزائرية وإدماجها في الأمّة الفرنسية.

فعمدت بمخطّطها إلى دكّ قواعد الشخصية الوطنية، لتتمكّن من ابتلاع الجزائر كلّها وضمّها للكيان الفرنسي، الذي فاقت ممارساته الإستيئصالية أيّ أسلوب ولون استعماري عرفته أي بلاد أخرى، فالاستعمار «جاء إلى هذا الوطن بثلاثة أشياء ليمحو بها ثلاثة أشياء: جاء باللاّتينية ليغمر العروبة، وجاء باللّغة الفرنسية ليقضي بها على اللّغة العربية، وجاء بالمسيحية لينسخ بها الإسلام».(3)

وهذه الحملة الصّليبية الشّرسة بمخطّطاتها السّافرة، أدّت إلى بروز استجابة وطنية كانت بنفس مستوى التحدّي، تمثّلت في ظهور حركـــات إصلاحية قويّـــة، وبروز زعماء كثيرين حملـــوا

(1)- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، [1985م]، ص: 15

(2)- محمد البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، المؤسّسة الوطنية للكتاب -الجزائر، [1985م]، ج4/ 392

(3)- محمد البشير الإبراهيمي، من آثار البشير الإبراهيمي - عيون البصائر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر، [1971م]، ص: 165

لواء التغيير والتجديد، إلى أن تسلّم اللّواء علاّمة الجزائر –الشيخ عبد الحميد بن باديس– فأحدث مع زمرة من العلماء نهضة قوية في البلاد، بما بعثوا في الأمّة من روح الجهاد، وأشعلوا فيها إرادة المقاومة حتّى تنتصر على أعدائها وتستعيد حرّيتها وكرامتها.

وكان الإبراهيمي واحدًا من هؤلاء الأبطال العِظام الذين أوقدوا تلك الجذوة في نفوس أبناء الأمّة الجزائرية، وتحوّل معظم هذا الشّعب إلى ميادين الكفاح، وصاروا أبطالاً ينشدون الجهاد والاستشهاد في سبيل الله والوطن، وساهموا في رفع راية الجهاد ضدّ الاستعمار في وطنهم، وفي إيقاظ الوعي بين أبناء أمّتهم، حتّى تحقّق لهم النصر، وتحرّروا من أغلال الاستعمار البغيض وأدركوا أنّ الحقّ لابد أن ينتصر على الباطل ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾. [الأنبياء: 18]

ولقد لَمَعَ نجم الإبراهيمي في سماء الإصلاح بشكل واضح، فكان بحقّ منارة في تاريخ الحركة الإصلاحية التي أضاءت الطريق وقادت إلى النصر.

ونحن إذا أردنا استجلاء طبيعة الواقع الذي عاشه الإبراهيمي بعمق وتفاعل معه، لابدّ من تلمّس أهمّ الأحداث في تاريخ الجزائر المستعمرة، وهي تئن تحت وطأة الاستعمار الغاشم الذي حرص على طمس معالم الشخصية الجزائرية ومحو مقوّماتها، من لغة وحضارة ودين، استعمارٌ امتصّ دمّ الشعب الجزائري وأفسد عليه دينه ودنياه، يحدوه الأمل في أن يفيق على تحقيق حُلُمه الكبير: بأن تصبح الجزائر قطعة من فرنسا.

وفي ضوء ما سبق نستطيع تبيان الأحداث العامّة في المجالات السّياسية، والدينية، والاجتماعية والثقافية، التي ستحدّد لنا طبيعة الواقع وإفرازاته على شخصية الشيخ البشير الإبراهيمي.

أولا: الوضع السياسي:

لم تتوقف جناية الاستعمار الفرنسي ضدّ المجتمع الجزائري عند حدّ القضاء على مقوّمات الشخصية الأساسية للشّعب من لغة ودين، وتحطيم كيانه القومي عن طريق القضاء على جميع مؤسّساته التربوية والثقافية والدينية، أو على مصادرة ثرواته وممتلكاته وابتلاع أوقافه بل تجاوز ذلك إلى حدّ حرمانه من أبسط حقوقه في الحياة، فليس غريبًا على أيّ استعمار أن يسلب الإنسانية حرّيتها ويطوّقها، وينتزعها بمخالب من حديد، ولكن الغريب أنّه استعمار صليبي حاقد يحمل «السيف والصليب، ذاك للتّمكن وهذا للتّمكين، فمَلك الأرض، واستعبَد

الرّقاب، وفرَض الجزي، وسخّر العقول والأبدان، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا: تلك هي طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللّذات فيجري إلى مداها ويقف، وتدفعه الأنانية إلى الحيوانية فيلتقم ولا ينتقم، ولكنّه كان استعمارًا دينيًا مسيحيًا عاريًا، وقف للإسلام بالمرصاد من أوّل يوم، وانتهك حرماته من أوّل يوم، فابتزّ أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرّف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكّم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد. وتدخّل في شعائره بالتّضييق والتّشديد، كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشعّ بالحقد و تفور بالانتقام....»(1).

استعمار يستعمل أسلوبين في سلب حرية الشعب، أسلوب القهر والحرمان والعذاب بشتّى أنواع الأسلحة الفتّاكة والدّمار المعروفة في ذلك الوقت، واستعمال أسلوب الرّحمة في شكل يد بيضاء تُبشّر بالسّلام، ولكنّ مهمّته أخطر من مهمة الأسلوب الأول، لما يتركه من أثر في القضاء على عقيدة الفرد ومقوّمات شخصيته، وأعني به دور المُبشّرين المسيحيين الذين حضروا في ركاب جيش الاحتلال لمساعدته على تنفيذ أهدافه، بإظهاره في صورة الاستعمار الرّحيم من خلال تبييض صورته عن طريق تقديم الإسعاف والإيواء وغيرها، واستغلال جوعة الجائعين وحاجة البائسين لتنصيرهم عن دينهم.

وقد نشط هؤلاء المبشّرون وحاولوا جاهدين تنصير الجزائريين بشتّى الطّرق والوسائل. فالاستعمار الفرنسي حاول منذ البداية على أنْ يُحوّل البلاد إلى أرض محروقة، وإلحاق الوطن الجزائري العربي المسلم بدولة فرنسا، بعدما يتمّ له القضاء عليها قلبًا وقالبًا. ولا أدلّ على هذا الكلام من تصريح الجنرال "بيجو" في الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس النوّاب الفرنسي في سنة [1840م] والذي جاء فيه «أينما وجدتم مياهًا متدفّقة وأراضي مرعة، ومراعي ترعى، أنزلوا بها المعمّرين ولا يهمّكم أمر أربابها، يجب توزيع هذه الأراضي للأوروبيين، حتّى يصبحوا أصحابها وأربابها، ويصير أربابها الأوّلون نسيًا منسيًا. وأخيرًا يجب أن نجعل نصب أعيننا هدفًا متينًا محكمًا، وأن ننشئ إقليمًا فرنسيًا»(2).

ولم تكتف الحكومات الفرنسية بإذلال الأمّة الجزائرية والاعتداء على دينها وابتلاع أوقافها وإلحاق الأذى بمعابدها ومؤسّساتها الشّرعية، وبالعمل على تنصير الجزائريين، بل أوجدت

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 63

(2)- فرحات عباس، ليل الاستعمار: ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة -الرباط- المغرب، د.ت، ص: 70

مخطّطات سافرة يتمّ بمُوجبها تثبيت فكرة الاستيطان الاستعماري، حوّلت حياة المسلم الجزائري إلى جحيم لا يُطاق، ومن أشنع القوانين الجائرة وأشدّها إيلامًا لنفوس المواطنين قانون "الانديجينا". وبالجملة فقد كانت حالة الجزائريين في ظلّ تلك القوانين مزرية للغاية، حبَست عليهم أنفاسهم، ومنعت عنهم أرزاقهم، وتحوّل وضعهم الاجتماعي إلى مستوى معيشي يُنذر بالخطر، فهم يدفعون «ضرائب فادحة، ويحاكمون في محاكم زجرية قاسية، ويحجر عليهم الاجتماع، ولا ينتقلون من مدينة إلى أخرى إلاّ إذا أحرزوا على ترخيص بذلك».(1)

ويمكن تلخيص أهداف هذا المخطّط الذي كاد أن يوطّد دعائم الاستعمار في الجزائر فيما يلي:

1- العمل على مسخ مقوّمات الشعب الجزائري المسلم، ومحو كيانه وذلك بالقضاء على جميع مؤسّسات الدولة ورموزها، وسائر مظاهر السّيادة فيها(2) وهذا رغم جميع العهود والمواثيق التي تكفل للسّكان حريتهم، وعدم التعرّض لهم ولمعتقداتهم وتقاليدهم الدينية والاجتماعية، ولكنّ هذا الاستعمار نابهٌ في المكر والخداع، فما لبث أن ضرب بهذه العهود والاتفاقيات عرض الحائط، وأعاث في الأرض فسادًا بإقدامه على قتل النّساء والشيوخ والأطفال، فشرّد ونكّل وقتل وسلب أموال النّاس وأرزاقهم بلا شرف ولا حياء، فقد جاء في التقرير الذي أعدّته اللجنة الإفريقية المكلّفة بالتحقيق فيما ارتكبته حكومة الاحتلال من خروقات وتجاوزات خطيرة في حق الشّعب الجزائري ما يلي: «لقد حطّمنا ممتلكات المؤسّسات الدينية وجرّدنا السّكان الذين وعدناهم بالاحترام، وأخذنا الممتلكات الخاصّة دون أي تعويض وذبحنا أناسًا كانوا يحملون عهد الأمان.. وحاكمنا رجالاً يتمتّعون بسمعة القدّيسين في بلادهم».(3)

بالإضافة إلى الصورة التي بيّنها المُؤرّخ الإنجليزي واصفًا فيها ممارسات الحكم الفرنسي في لجزائر على حدّ قول أحد الباحثين من «أنّ بعض أحسن مساجدهم قد حوّل إلى كنائس، وأيام المواسم الإسلامية قد أبطلت شرعيتها، وأراضي القبائل قد صودرت، وكلّ رمز وطني قد حُطِّم».(4)

---

(1)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب -الجزائر، ط/2، س: [1984م]، ص: 68

(2)- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر، ط/2، [1981م]، ص: 100

(3)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر، ط/3، [1983م]، ج2/ 18

(4)- المصدر نفسه، ج2/ 28

2- إقرار قانون الإدماج على الجزائريين بواسطة مرسوم عام [1885م] الذي يعتبر الجزائريين بموجبه رعايا فرنسيين، ويُطلق عليهم اسم "المسلمين الفرنسيين".(1)

3- إخضاع الجزائريين للقوانين الاستثنائية الرّهيبة التي سُلّطت عليهم منذ عام [1874م]، وهي القوانين المعروفة بقوانين "الانديجينا" (قوانين السّكان الأصليين أو الأهالي)(2) وهي قوانين عنصرية تهدف إلى إذلال الجزائريين وتحطيم معنوياتهم الرّوحية.

4- إغراء الجزائريين بالتجنّس بالجنسية الفرنسية مقابل التّنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي(3) تمهيدًا لانهيار أواصر الأسرة الجزائرية.

- وضع لا يُطاق عاشهُ الشّعب الجزائري، المحروم من أبسط حقوق الحياة في ظلّ سيطرة استعمارية مطلقة، لا تعرف إلاّ لغة الحديد والنار والمكر والخداع.

وفي ظلّ هذا الوضع الرّهيب ولد -الإبراهيمي- ونشأ في أحضانه، وبدأت ترتسم عنده ملامح الرّفض لممارسات الاستعمار، وتبرز عنده إرادة التحرّر، وهو واحدٌ من أبناء الأمّة التي كانت دائمًا تنتصر على أطماع الغزاة والمستعمرين، مهما طال الليل وأناخ بظلامه على الأهالي احتقارًا وإذلالاً.

لقد مثّل الإبراهيمي حلقة من حلقات الجهاد الطويل في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وأحد الذين شكّلوا وعي ووجدان الأمّة، حيث كان واحدًا من روّاد الحركة الإصلاحية في الجزائر وأحد مؤسّسي "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".

ولا يستطيع باحثٌ أنْ يعرف حقيقة الدّور الذي قام به الإبراهيمي إلاّ إذا عرف دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وما قامت به في الجزائر من إحياءٍ لِما مات ومن تجديد لِما رثّ ولـــمٍّ شمل ما تمزّق وتبدّد، ومن بناءٍ لِما تهدّم ومن تطهيرٍ لِما تدنّس وتلوّث.

استطاع الإبراهيمي برفقة إخوانه العلماء وعلى رأسهم باني النهضة الجزائرية الشيخ -عبد الحميد بن باديس- من تأسيس جمعية العلماء سنة [1931م]، التي تزامن ميلادها مع احتفال الاستعمار الفرنسي بمناسبة مرور مائة عام على احتلال الجزائر.

وقد أقامت فرنسا هذه الاحتفالات في جوّ من الثّقة في النّفس، بأنّها استطاعت القضاء على الأمّة

(1)- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ص: 100

(2)- المصدر نفسه، ص: 101

(3)- المصدر نفسه، ص: 100

الجزائرية بحيث دعت إليه عددًا كبيرًا من الحضور، ليشهدوا تأبين أمّة بجميع مقوّماتها من لغة ودين وتاريخ وحضارة، وكان لهذا الحفل الأثر الكبير في نفوس الجزائريين، حيث آلمهم ذلك وأحدث في نفوسهم جرحًا في الأعماق(1)، وأوقد فيهم جذوة الصّمود والتحدّي والثورة على البغي والظلم، وقد أكّد كثير من الباحثين، بأنّه كان لهذه الاحتفالات الاستفزازية دور عظيم في ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(2) وبداية تحوّل في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية.(3)

وهكذا برزت جمعية العلماء المسلمين للوجود بعد عام مباشرة من احتفال القرن، وأصبح الشّعب الجزائري بفضل جمعية العلماء يعرف من يكون «فاندفع إلى الثورة يحطّم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه العابر».(4) ويذكر الإبراهيمي أنّه «لو تأخّر وجود الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلاً غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمّة وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر».(5)

فهذا المنهج الذي سلكه الإبراهيمي يضعنا أمام فكره السّياسي: فهو رجلٌ مصلحٌ يعرف ماذا يريد من إصلاح لوطنه وشعبه وأمّته، ويَعرفُ الطريق التي توصل إلى تحقيق ما يريد وأنّه يمتلك من الأدوات والمؤهّلات ما يمكّنه من تحقيق هدفه الذي يصبو إليه.

لقد شكّلت تجاوزات الاحتلال ومظالمه تحدّيًا صارخًا للرّوح الإسلامية التي استطاعت مواجهة التحدّي، والقيام بردود فعل قوية، ترتّبت عنها فشل جميع مشاريع فرنسا ومخطّطاتها، بالرّغم من الآثار العميقة التي خلّفتها في النفوس والعقول والحياة. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المضايقات وأساليب الجور والعدوان، مثّلت نقطة تحوّل وانعطاف في تاريخ الأمّة الجزائرية، أيقظت من كان نائمًا، ونبّهت من كان غافلاً، فأحسّ العلماء والسّاسة بضرورة التكتّل والعمل، فنشأ عن ذلك يقظة وصحوة صاحبها عزمٌ على تغيير الواقع.

---

(1)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 73

(2)- رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط/4، [1984م]، ص: 66

(3)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 74

(4)- محمد البشير الإبراهيمي، "أنا"، مجلة الثقافة، ع: 87، وزارة الثقافة والسياحة -الجزائر، السنة 15، [1985م]، ص: 32

(5)- الإبراهيمي، مرجع سابق، ص: 31

ثانيا: الوضع الاجتماعي:

لم تكن حالة الجزائريين الاجتماعية أثناء فترة الاستعمار تقلّ سوءًا عن حالته السّياسية فإنّهم كانوا يعيشون أوضاعًا مزرية للغاية، حيثُ الجهل والفقر والأمراض والأوبئة الهالكة جرّاء انعدام أبسط حقوق الإنسان في الحياة من غذاء ونظافة ودواء وغيرها.

كما لم يعد خافيًا على كلّ من عايش حقبة الاستعمار، ما كانت تتّبعه حكومته في سبيل تحقيق أهدافه من أساليب دنيئة وغير أخلاقية، ولا تقلّ فظاعة وخبثًا عن أساليبه في احتلال البلاد.

فقد أدرك الفرنسيون أنّ عقيدة الجزائريين لا تهتزّ تحت سياط القهر والتعذيب، فلجأ إلى وسائل أكثر فتكًا وخطرًا، وهي تمييع المحيط العام، وتعفينه بمظاهر الفسق والفجور، وتوفير بؤر الفساد والإباحية، حيث تساهلت مع الرّاغبين في فتح دور البغاء، وحانات الخمر، والقمار، وتشدّدت مع فتح دور العبادة والمدارس.(1)

حتى بات وباء الفجور مُتفشيًا في أوساط المجتمع بشكل رهيب، وانتشر البغاء انتشارًا مهولاً وأصبحت الحالة التي يحياها المجتمع حالة أسيفة، من جرّاء الفوضى الأخلاقية التي آل إليها الشعب الجزائري.(2)

كما أنّهم ومنذ أنْ وَطِئَت أقدامهم أرض الجزائر، وحكومتهم تُشجّع هجرة الفرنسيين بصفة خاصة، والأوروبيين بصفة عامة إلى الجزائر، وقدّمت لهم كلّ التسهيلات المادية والمعنوية ومنحت لهم مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة، كانت قد صادرتها من الجزائريين الذين طردتهم إلى الجبال والمناطق الجدباء، وأعطت لهم قروضًا سهلة من أجل استغلالها، كلّ ذلك لجعل الجزائر جزء من فرنسا.

كما أقدمت على إصدار عدّة قوانين توسّعية، تُبيح لهم ضمّ أراضي مملوكة –أملاك العرش– وكان الهدف من كلّ ذلك هو «تفقير الجزائريين وإجبارهم على الهجرة وترويضهم سياسيًا عن طريق الاقتصاد والحصول على الأملاك للأوروبيين (منحة وبيعًا) الواردين على الجزائر بقصد الاستيطان والاستعمار، ولم تكن تلك القرارات مقتصرة على الأملاك في مدينة الجزائر بل

(1)- فرحات عباس، ليل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 116

(2)- محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية –نشأتها –تطورها –أعلامها من [1903م إلى 1931م]، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع –الجزائر، [1978م]، ج1، ص: 214

شملت كلّ المدن التي وقعت بالتدرّج فريسة للاحتلال الفرنسي».(1)

وقد كان هؤلاء –الوافدين– معظمهم ممّن لفظتهم مجتمعاتهم لسوء سلوكهم، ووجودهم في أدنى مراتب السلّم الاجتماعي في بلدانهم، كما كانوا من الطبقات الوضيعة والمتطرّفة، التي تحمل الكراهية، وقلوبها متشبّعة بالحقد على الجزائريين(2) وكان دافعها القوي إلى احتلال البلاد هو الطمع والجشع في خيرات الجزائر، فهم بمثابة الجُوَّع الذين عثروا على رغيف خبز بعد طول انتظار، أو كالوحش الذي انقضّ على طريدته مُبرزًا مخالبه، مكشّرًا عن أنيابه للإجهاز عليها والتهامها.

فمصادرة الثّروة (الأرض–التجارة–المال) نتج عنه «انتشار الفقر بشكل واسع بين الجزائريين الذين أصبحوا يُكوّنون طبقة عاملة في مشاريع الاستعمار المختلفة بثمن زهيد».(3)

وبهذه المعاملة السيّئة التي يُعامل بها الجزائريون، اضطرّ مُعظمهم إلى العمل تحت سلطة "المعمّرين" أُجرَاء مهضومي الحقوق تُعوزهم الحاجة، لا يجدون ما يسدّون به جوعتهم.

وأمام هذا الوضع الأليم، تقرّر مصير الجزائريين بعد أنْ انقسم المجتمع إلى مجموعتين من السّكان.(4)

1– مجموعة تشتمل على غالبية السّكان، وهم السّواد الأعظم من الشعب الجزائري، الذي أصبح يرزح تحت قبضة الاستعمار المغتصب لأرضه وماله، ويعيشون على هامش الحياة، وما زاد في تردّي وضعهم الاجتماعي، هو إبعادهم عن الوظائف وحرمانهم «من الامتيازات الاجتماعية التي يتمتّع بها الأوروبيون في الجزائر، مثل المنح العائلية، والضمان الاجتماعي والعلاج والتعليم إلى آخره».(5)

2– أمّا المجموعة الثانية فهي الجالية الأوروبية الوافدة إلى الجزائر في ركاب الاحتلال، ورغم أنّ أفراد هذه المجموعة كانوا يتكارهون ويتباغضون فيما بينهم، إلاّ أنّهم من ناحية الجزائريين يقفون صفًا واحدًا، ويتحدون في مواقف عنصرية مشتركة ضد مصالح الأهالي(6) واستطاعـــوا

(1)– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، [1992م]، ج1/ 70

(2)– عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطوّر الحركة الوطنية الجزائرية، ط/1 دار البعث قسنطينة، الجزائر، [1981م]، ص: 36

(3)– رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 103

(4)– المصدر نفسه، ص: 90

(5)– المصدر نفسه، ص: 103

(6)– عبد الكريم بوصفصاف، مرجع سابق، ص: 36

السّيطرة على أهمّ النّشاطات الاقتصادية في البلاد، وأصبحوا بموجب هذه الحماية التي حظوا بها من قبل الاستعمار، يتصدّرون مكانة مرموقة ومركزًا اجتماعيًا محترمًا، وأصبحت كلمتهم نافذة ورأيهم مسموعًا في كلّ ما يتعلّق بحاضر الجزائر أو مستقبلها.

ويمكن الإشارة إلى انعدام الحدّ الأدنى من الخدمات الاجتماعية، ممّا ساهم في انتشار الأمراض كالسّل الذي ظهر مع جنود الاحتلال، وإنّ الحرمان الذي كان يعاني منه الفرد الجزائري خلق منه منذ الصّغر فريسة هشّة للجهل والفقر والمرض.

وهكذا يفتح الطفل عينيه في دهاليز البيوت المتوفّرة آنذاك —وهي في معظمها عبارة عن أكواخ وبيوت قصديرية– يعاني آلام الجوع والعُري، تدفعه الحاجة إلى التسكّع والضّياع بحثًا عن قطعة الخبز يسدّ بها جوعته، وينحني مطأطئ الرّأس ماسحًا الأحذية، مُنحني الظّهر، مُنكسر الخاطر رافعًا الأثقال، وهذا ما يُفسّر لنا الحرمان الذي كان يُعاني منه الجزائريون في كلّ الميادين.(1)

ثالثا: الوضع الثقافي:

إذا كان الوضع الثّقافي لأيّ مجتمع يُعتبر انعكاسًا لواقعه السّياسي وبنائه الاقتصادي وتركيبه الاجتماعي، فلا شكّ أنّ حالة الجزائر من الناحية الثقافية تُعتبر سيّئة للغاية نظرًا للضّغوط العنيفة التي تعرّض لها الشعب الجزائري وهو في قبضة الاستعمار، مما أدّى إلى تدهور الفكر والثقافة الإسلامية في الجزائر، وتراجع الحالة العلمية التي «لحقها ارتباك كبير من جرّاء وقائع الحرب وأهوال الاحتلال، وهجرة العلماء، وتشتّت كثير من أهل القبائل والقرى».(2)

فالاستعمار الذي وقعت الجزائر بين براثنه من أخبث أنواع الاستعمار، وذلك لأنّه يهدف إلى محو شخصية الشعب الجزائري وإذابته في بوتقة التّبعية لفرنسا، وقطع صلته بتاريخه القديم ودينه الإسلامي وقوميته العربية.

فمن الناحية العلمية انحطّ مستوى التعليم العربي انحطاطًا كبيرًا، بحيث لم يعد الفـــرد الجزائري نتيجة لظروف الارتحال القصري عن أرضه جرّاء ممارسات الاحتلال– يفكّر في العلم والتعليم بل اقتصر همّه على تحصيل القوت.(3)

---

(1)– محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج1/ 267

(2)– أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، مرجع سابق، ص: 94

(3)– المصدر نفسه، ص: 94

هكذا لم يعد يحافظ على التعليم العربي الذي كانت الجزائر تعجّ بمراكزه ومؤسّساته ومدارسه قبل الاحتلال(1) إلاّ في بعض المساجد والزّوايا في جهات الجنوب وبلاد القبائل، بينما تلاشت الكتاتيب القرآنية شيئًا فشيئًا، وحلّت محلّها المدارس الابتدائية الفرنسية التي ينعدم فيها تدريس مواد الدّين والعربية.(2)

وظلّ الوضع على ما هو عليه من بُؤس وجهلٍ وحرمان، حتّى ظهور فجر الإصلاح وبزوغ شعاع الحركة الإصلاحية وانتشاره، وظهر عصر النهضة العربية بالجزائر، ونبغ عدد كبير من العلماء منهم من «تخرّج من الكلية الزيتونية العامرة بتونس، ومنهم من تخرّج من المدارس الحكومية الثلاث*، ومنهم من ارتوى من مناهل المشرق كالأزهر الشريف، ومساجد الحجاز والشام. والكثير منهم لم يتلق علومه إلاّ بالزوايا الصحراوية والقبائلية».(3)

وعلى الرّغم من نشاط إدارة الاحتلال في محاربة التعليم العربي الحرّ، وإصدارها لقوانين تمنع التعليم إلاّ بموافقة صريحة من إدارتها، إلاّ أنّ إرادة التحدّي التي كان يتمتّع بها الجزائريون وقفت بالمرصاد لكلّ المحاولات، واستمرّوا في تكثيف نشاطهم التعليمي، وكانت هذه الإرادة هي الحصن الذي تكسّرت أمامه كلّ محاولات المسخ ومحو مقوّمات الشخصية الوطنية والاندماج الذي كان يتهدّدها، فالشّخصية الوطنية كانت هدف الاستعمار الأوّل، ويأتي في مقدّمتها القضاء على عروبة الجزائر تمهيدًا للقضاء على الدين الإسلامي.

فالمستعمر بعدما أحكم قبضته على البلاد، وبسط نفوذه عليها راح يدقّ عنق اللغة العربية لأنّها لغة القرآن، ولأنّها تمثّل وعاء الثقافة العربية، فأبعدها عن الإدارة، وجعل بدلها الفرنسية لغة

---

(1)- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 62

(2)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 94

(3)- المصدر نفسه، ص: 96

* بعدما أيقنت إدارة الاحتلال أنّها بحاجة إلى رجال الدين الإسلامي لتبوأ مناصب القضاء والإفتاء والعدالة، أسّست المدارس الرّسمية الثلاث بالجزائر وقسنطينة وتلمسان وهي مدارس عربية تخرّج منها ثلة من القضاة العدول والوكلاء على قدر كبير من المعارف الإسلامية والتحقيق العلمي والإحاطة بفنون العربية ما جعلهم من المتنوّرين بالقطر الجزائري.

التعامل الرّسمي.(1) و لم يكتف بذلـــك فسرّ بها إلى ألسنة الجزائريين، فصارت هي لغتهم بالكاد ويصف هذه الحالة الأسيفة لواقع التعليم في الجزائر كُلّ من زارها في مطلع القرن الماضي بأنّه واقع سيء جدًا، ولو استمرّ الوضع على ما كان عليه لحلّت اللغة الفرنسية محلّ العربية في جميع الميادين وفي جميع المعاملات، بل ربّما اندرست وخسف بدرُها حينًا من الدّهر.(2)

ويتبيّن لنا من الإطّلاع على الوضع التعليمي في الجزائر منذ الاحتلال بأنّ الخطوات المتّبعة فيه بطيئة جدًا بفعل تأثير المستوطنين الذين يقفون في وجه كلّ محاولة لتعليم أبناء الأمّة، وفي هذا يقول أحد الباحثين «إنّ الحكومة الفرنسية بالرّغم من مرور 84 سنة على احتلالها للجزائر لم تتحرّك بجدية لنشر التعليم بين الجزائريين، بل يظهر أنّها سايرت رغبة الكولون الذين عارضوا كلّ وسيلة لتعليم الجزائريين، كذلك أهملت بارتياح، الجزائريين الذين نفروا من التعليم الفرنسي حفاظًا على شخصيتهم العربية».(3)

أمّا تعليم المرأة فهو منعدم تمامًا، فهي محرومة منه باعتبار عاملين أساسيين، فلا إدارة الاستعمار تشجّعه، ولا وضعها الاجتماعي يسمح لها بالخروج لطلب العلم على غرار الأوروبيات اللّواتي التحقن بالمدارس.

كما تعرّض التراث العربي الإسلامي إلى النّهب، حيث نشط تجّار الكتب الأوروبيين وأرسلوا أعدادًا كبيرة من الكتب والمخطوطات التي عثروا عليها «إلى ذويهم في فرنسا، أو يبيعونها لتجّار الكتب الأوروبيين».(4)

كما تجدر الإشارة إلى ظاهرة امتداد يد التخريب بجميع أشكاله للكتب والمكتبات، حيث تمّ إحراقها عن آخرها، كما فعلوا بمكتبة "الأمير عبد القادر" قائد المقاومة الجزائرية في سنوات الاحتلال الأولى [1832م-1847م].(5)

وتعتبر هذه الظاهرة واحدة من مجموع حلقات الإبادة التي حرص الاستعمار على تحقيقها، كما يدخل في نطاق محاربة الثقافة العربية، والعمل على طمس معالمها، لأنّها مقوّم من مقوّمات الشخصية الوطنية.

---

(1)- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 94

(2)- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص: 97

(3)- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 68

(4)- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 96

(5)- المصدر نفسه، ص: 96

وإذا انتقلنا إلى واقع الصحافة الوطنية منذ الاحتلال الفرنسي نجده لا يقلّ فظاعة عن غيره حيث نجد إدارة الاحتلال تحارب بكلّ شدّة كلّ صوت ينير طريق الأمّة ويعلّمها، كما اتّسمت المرحلة من تاريخ الصّحافة الجزائرية، بظهور صحافة –الكولون- التي تعتبر امتدادًا للصّحافة الفرنسية الصّادرة في فرنسا، إذْ أنّها تتبنّى حظّها السياسي وتعكس مواقف أحزابها، كما أنّها مسخرة لخدمة مصالح المستوطنين بشكل واضح، وإهمال لمصالح الجزائريين.(1)

باختصار لقد كان وضع الشعب الجزائري من الناحية الثقافية، سيّئًا للغاية بسبب محاربة فرنسا للمراكز الثقافية، وإقدامها على نهب تراث الأمّة، المتمثّل في الكتب والوثائق التاريخية النفيسة والمخطوطات، إلى جانب محاربتها للغة العربية، بغرض ترك الجزائريين دون ثقافة ولا علم حتى يظلّون أسرى الجهل والأمّية، ليسهل فيما بعد استغلالهم على أوسع نطاق بعد القضاء على مقوّمات شخصيتهم الوطنية، كما لم يسلم من بطشها أي مجال معرفي أو ميدان علمي، إلاّ وامتدّت إليه بجملة من التدابير والإجراءات لشلّ حركته، تمهيدًا للقضاء عليه نهائيًا، ويصف أحد الذين عاينوا الوضع الثقافي في الجزائر سنة [1901م] بقوله: «هُجّرت ربوع العلم، وخُرّبت دور الكتب، وصارت الدّيار مرتعًا للجهل والجهلاء، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى وتطرّقت إلى اللّغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها».(2)

ويمكن القول في الأخير لئن كانت مقوّمات الأمّة العربية المسلمة قد خُسف بدورها حينًا من الدّهر، فإنّها عائدة إلى سالف تألّقها وستعود أكثر من ذلك، لأنّ الأمّة التي تنتبه من سُباتها وتنفض عنها غبار الخمول لا تترك مقوّمات شخصيتها تتلاشى، ولا تترك الصّلة بينها وبين أسلافها تنقطع، وستغدو الأمّة إلى زاهر مجدها وعزّها وإنّ غدًا لناظره قريب.

رابعا: الوضع الديني:

تبيّن لنا ممّا سبق أنّ الحكومة الفرنسية لأوّل عهدها باحتلال الجزائر، ولأجل إحكام قبضتها على البلاد والعباد، وضعت يدها وبسطت نفوذها وسيطرتها على مساجد المسلمين وأوقافهم، وفرضت سلطتها على أئمة المساجد وموظّفيها تحت طائلة قوانين جائرة. وبالرّغم

(1)- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 71

(2)- المصدر نفسه، ص: 64

من تعهّدها باحترام الدّين الإسلامي وأوقافه ومساجده، إلاّ أنّ شيئًا من ذلك لم يتمّ.

وظلّ الإسلام ومعاهده في الجزائر لا يحظى باحترام كما تنصّ على ذلك العهود والمواثيق، ولا يتمتّع بالانفصال عن الحكومة كما قرّرته أصول الجمهورية الثالثة.

ولقد تلقّى المواطن الجزائري صدمات في مشاعره الدينية، وهتكت مقدّساته الرّوحية، وبالفعل فما أنّ بسط الاستعمار المحتلّ سيطرته على أرض الجزائر، حتىّ اتّبع سياسة واضحة للقضاء على مقوّمات الأمّة، وتجلّت بصورة واضحة في:

- القضاء على المساجد وتحويلها إلى كنائس وعلى سبيل المثال تمّ «الاستيلاء على أعظم وأجمل جامع* في المدينة من أجل تحويله إلى معبد لإله المسيح».(1)

- الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، وعلى جميع الأملاك بكلّ أنواعها، والتي صدرت في شأنها قرارات، واستمرّت في الظّهور بين [1830م-1837م]، وازدادت تضييقًا وظلمًا بتاريخ: 1839، 1842، 1848.(2)

- السيّطرة على القضاء الإسلامي

- دعم التبشير المسيحي، ومن أبرز الأحداث التي هزّت المجتمع الجزائري والتي تدلّ على الأهداف الدنيئة للغزو المسيحي، وتواطؤ رجال الدّين، ورجال السياسة والعسكرية "قصة تنصير عائشة بنت محمد" والتي أدّت إلى إحداث انتفاضة شعبية ساخطة مُندّدة بهذا الفعل الذي مسّ مشاعر الأمّة، ولكن السلطات الفرنسية لم تتراجع، وتحدّت الرأي العام وأبقت المرأة على نصرانيتها ووفّرت لها الحماية، بل وهرّبتها إلى فرنسا لتظلّ على النصرانية.(3)

- وإمعانًا في الظّلم من قادة فرنسا وساستها في حقّ الجزائريين لجأوا إلى جمع الأطفال الأيتام حيث يأتي الواحد بهم إلى القسّيس قائلاً له: «حاول يا أبتي أن تجعلهم مسيحيين، وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم».(4)

لقد تولّى قادة فرنسا سلوك هذا السبيل، وتحمّلوا مسؤولية تنصير أرض الجزائر

---

(1)- رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص: 43

* هو جامع كتشاوة بالعاصمة الذي حوّلته فرنسا إلى كاتدرائية وهو من أعظم مساجد العاصمة.

(2)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1/ 70

(3)- المصدر نفسه، ص: 73

(4)- فرحات عباس، ليل الاستعمار، ص: 91

وجعلها مهدًا لدولة مسيحية، تدين بالولاء لفرنسا حامية المسيحية وكانت تغمرُهم نشوة وسعادة بتحقيق هدفهم المنشود، وكان لسان حالهم يقول: «إنّ أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عامًا لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أنّ هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يُمكننا أن نشكّ بأي حال من الأحوال أنّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أمّا العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلاّ إذا أصبحوا مسيحيين جميعًا».(1)

وقد بيّن الإبراهيمي حقيقة نوايا فرنسا التوسّعية وطبيعة الصّراع القائم آنذاك بين الإيمان وبين الكفر، حيث اتّبعت فرنسا كلّ الأساليب لأجل تمسيح الأمّة، فهي تُؤسّس «مراكز التبشير وتعمّرها بالدّعاة والأطباء والمعلّمين، وتجهّزها بكل وسائل الإغراء والإغواء، وتغتنم المجاعات والأوبئة فرصًا لاصطياد الجوّع، واليتامى، والمرضى، لتفتنهم عن دينهم بلقمة أو ثوب أو جرعة دواء، وما مهّد لها تلك الأسباب إلاّ الاستعمار، فهو الذي أجاع وأعرى، وهو الذي أفقر وأمرض، وهو الذي مكّن للجهل والجمود، كلّ ذلك عن عمد وقصد، وكلّ ذلك ليذل ويقلّ ويهيئ للمبشّرين وسائل التنصير».(2)

ولقد أدّت هذه السّياسة الظالمة والتي يراد منها تقويض أركان الإسلام وهدم دياره، والقضاء على مؤسّساته إلى سخط عام، ملأ جوانح المسلمين، وأثار غضبهم، فرفعوا أصواتهم مطالبين ببعض حقوقهم في لين ورفق، ولكن إدارة الاحتلال واجهتهم بالقمع، وسلّطت عليهم أبشع أنواع التعذيب والعقاب، فعوقبوا من تعليم دين الله في المساجد، وطالتهم يد الاستعمار في كلّ مكان يُذكر فيه اسم الله.(3)

ومن مظاهر الاستهتار بمشاعر الأمّة أن صار الوالي العام الفرنسي في الجزائر هو القائد العام للمسلمين في الأمور الدينية، فهو الذي يعيّن الأئمة في المساجد والمفاتي والقضاة، ويعزلهم، كما أنّه هو الذي يقرّر مواعيد الأعياد الإسلامية إلى غير ذلك ممّا يتصل بأمور الدين، وكلّ هذا إمعانًا في إذلال المسلمين الجزائريين من ناحية، ومحاولة فرض التنصير والفرنسة عليهم من ناحية أخرى.(4)

ولكن هذه السيطرة لم تفتّ في عضد الأمّة الجزائرية، بل زادتها ثباتًا ورسوخًا على

---

(1)- جانسون، كوليت وفرنسيس: الجزائر الثائرة، ترجمة محمد علوي الشريف، خليل فهمي وهونري يوسف، دار الهلال -القاهرة -مصر، [1957م]، ص: 41

(2)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 64

(3)- محمد خير الدين، مذكّرات الشيخ محمد خير الدين، مطبعة دحلب، حسين داي الجزائر، [1985م]، ج1/ 135

(4)- رابح تركي، "الشيخ عبد الحميد بن باديس"، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص: 47

الحقّ، فلم تتحوّل عن دينها ولم تغيّر، ولم تفرّط في لغتها العربية وتصدّت لجميع محاولات التّنصير ومسخ الهوية، لأنّ الإسلام في الجزائر على حدّ قول الإبراهيمي: «ثابت ثبوت الرّواسي، متين القواعد والأواسي».(1)

لقد تأكّد لنا ممّا سبق ذكره أنّ المهمّة التي اضطلع بها الإبراهيمي مهمّة صعبة ومعقّدة، وخاصّة إذا أضفنا إليها تأثير الطرقية والبدع والضلالات التي أصبحت راسخة في أذهان الكثير من الجزائريين، فمشائخ الطرق يستحوذون على عقول العامّة السُذّج ويُسخّرونها لخدمة مآربهم وأغراضهم، ويُخدّرون أفكارها بخرافات وأباطيل العصور البالية، مع ما يُوفّره الاستعمار من حماية رسمية لهم، الأمر الذي زادها رسوخًا في أوساط المجتمع الجزائري.

فالصّدمات المتتالية التي تلقّاها الشّعب الجزائري في مشاعره الدينية، وهتك مقدّساته وسلب لإرادته وحرّيته، كان له جميل الأثر في يقظة الضمير الوطني، وصحوة رجال الإصلاح الذين بدأ نجمهم يتصاعد في العشرينيات من القرن الماضي بزعامة رائد النهضة الجزائرية "عبد الحميد بن باديس" ورفاقه "محمد البشير الإبراهيمي" و"الطيب العقبي" وغيرهم من العلماء الذين تصدّوا لمخطّطات الاستعمار، ففتحوا المدارس العربية، وهاجموا الطرقية، ودعوا إلى الإصلاح في كافة الميادين السياسية والدينية والثّقافية والاجتماعية.

وكان أمام رجال الحركة الإصلاحية عدوّان: أحدهما داخلي وهو الطرقية، والآخر خارجي وهو الاستعمار، فارتأوا أنّه من الحكمة القضاء على نفوذ الطرقية والإجهاز عليها، حتّى يتفرّغوا للقضاء على العدوّ الخارجي، وكانت نظرتهم لأهل الطرق والبدع، كما يراها الإبراهيمي «أنّها علّة العلل في الإفساد ومنبع الشّرور، وأنّ كلّ ما هو متفشٍّ في الأمّة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكلّ شيء، وغفلة عن الحياة، وإلحاد في النّاشئة، فمنشؤه من الطّرق ومرجعه إليها.... وإنّنا حين نقضي عليها إنشاء الله —نقضي على كلّ باطل ومنكر وضلال».(2)

ومن هنا أجمع العلماء أمرهم، واتّجهوا إلى الإصلاح والتجديد، وانبرى الإبراهيمي وصحبه إلى إسماع صوت الحق، معلنين الحرب على هذه الطرقية المشئومة، وعلى ما لها من سلطان على

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 66

(2)- محمد البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتب —الجزائر، [1982م]، ص: 61

الأرواح والأبدان، وعلى ما فيها من إفساد للعقول والقلوب.

وهكذا اتّجه رجال الإصلاح إلى توحيد جهودهم في جمعية منظّمة تشدّ أزرهم، وتوحّد جهدهم وتنظّم نشاطهم التجديدي. فكانت "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي شكّلت فيما بعد المرجعية لتحرّك العلماء في جميع الميادين.

ونخلص إلى القول بأنّ الشّعب الجزائري ظلّ عهدًا من الزّمن يرزح تحت وطأة الاستعمار وظلمه، الذي أذاقه أصنافًا شتّى من الاضطهاد والقهر والفقر والحرمان، والذي بسط نفوذه وهيمنته الضّاغطة على مقوّمات الشّعب لطمس شخصيته، لكن هذا أدّى إلى بروز استجابة وطنية، كانت في نفس مستوى التحدّي، فباءت جميع محاولاته بالفشل والخسران على أيدي رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:

شخصية البشير الإبراهيمي

كانت حياة الشيخ البشير الإبراهيمي حافلة بالأحداث المتنوّعة المؤثّرة، فقد عاش الرجل حياته بعمق، سواء في المجال العلمي أو السّياسي أو الاجتماعي، إلى جانب المجال الديني والثقافي.

وقد كانت سعة الرّقعة التي تحرّك فيها، عاملا مهمّا في تنشيط حياته، وربطها بالأحداث، في مختلف البلاد ومختلف الميادين، وقد كان لهذه الأحداث المتنوّعة التي عاشها الإبراهيمي أثر فعّال في صنع شخصيته وبناء أُسسها، كما كان لها الدّور الفعّال في صياغة رؤيته للتجديد، وفي حركته بتلك الرّؤية على بساط الواقع، والأساليب التي تبنّاها في تحرّكه، ولذلك سنعرض فيما يلي لأهمّ الأطوار التي مرّ بها الإبراهيمي في حياته، والأحداث التي كان لها تأثيرٌ بارزٌ في شخصيته.

أولا: مولـده ونشأتــه:

هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، وُلد يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاث مائة وألف للهجرة، الموافق لـــ: الرابع عشر من شهر يونيو سنة 1889م(1)، بجنوب مدينة سطيف من الشرق الجزائري بقرية تعرف باسم قرية "أولاد ابراهم".

ويرجع نسبه إلى إدريس بن عبد الله الجدّ الأول للأشراف الأدارسة، وكانوا يُسمّونه إدريس الأكبر، وترجع إليه أنساب جميع الأشراف الحسنيين في المغربين الأقصى والأوسط(2) لقد انحدر من أسرة كريمة المحتِد، يتحلى جميع أفرادها بالإيمان العميق بالله، ويجعلون من سنة نبيّ الله محمد –صلى الله عليه وسلم– هدياً لهم «وهو وحيد والديه من الذّكور، وثالث أختين، أُمّه حدّة بنت محمد، لم تكن أسرته على سعة من الثّراء المادي، ولكنها كانت على قدر كبير من الشهرة بالعلم والدين، تتوارثه جيلا بعد جيل».(3)

---

(1)- محمد البشير الإبراهيمي "أنا"، الثقافة، عدد 87، ماي-حوان [1985م]، ص: 11

(2)- المصدر نفسه، ص: 11 /عادل نويهض، البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر، م.نويهض الثقافية، بيروت لبنان، ص: 26

(3)- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر دمشق، سوريا، ط/1، [1988م]، ص: 33

ولقد تولّى الشيخ الإبراهيمي الترجمة لنفسه، ممّا سهّل علينا استبانة الخطوط الأساسية لحياته في عهد طفولته وشبابه، فهو الذي نشأ في بيت والده، كما يثبت ذلك عن نفسه «نشأت في بيت والدي، كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت في التعلّم وحفظ القرآن الكريم في الثالثة من عمري على التقليد المتّبع في بيتنا الشائع في بلدنا، وكان الذي يعلّمنا الكتابة ويلقننا حفظ القرآن جماعة من أقاربنا من حفّاظ القرآن الكريم، ويشرف علينا إشرافا عاليا عالم البيت، بل الوطن كلّه في ذلك الزّمان، عمي شقيق والدي الأصغر الشيخ "محمد المكي الإبراهيمي" رحمه الله....»(1).

وقد تولّى عمّه تربيته وتعليمه بنفسه، فكان لا يفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، وما إن بلغ سن التاسعة حتى استكمل حفظ القرآن الكريم كلّه، كما ألـــمّ بمفرداته وغريبه، وحفظ إلى جانب ذلك ألفية ابن مالك، ومعظم الكافية له، وألفية ابن المعطي الجزائري، وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وحفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب، كما حفظ الكثير من شعر شعراء المغرب والأندلس وبلغائهم، والكثير من دواوين فحول المشارقة ورسائل بلغائهم وغيرها.

وقد أرشده عمّه إلى حفظ كتاب كفاية المتحفّظ للأجدابي الطرابلسي، وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت، وتعتبر هذه المراجع الدّعامة الأساسية في تكوين شخصيته العلمية وأهمّ مكوّن لثقافته، حيث يقول في ذلك «هذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللغوية»(2).

لقد أنعم الله على الإبراهيمي أن قيّض له عمّاً يرعاه ويتعهّده في كل شأن، يتدرّج به من كتاب إلى كتاب تلقيناً وحفظاً ومُدارسة للمتون والكتب التي تلقاها من قبل، فيقول «بدأ لي في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصّغيرة قراءة تفهّم وبحث، وكان يُقرئني مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويُقرئني وحدي، ويُقرئني وأنا أماشيه في المزارع، ويُقرئني على ضوء الشّمع وعلى قنديل الزيت في الظلمة حتى يغلبني النّوم، ولم يكن شيء من ذلك يُرهقني لأن الله تعالى

(1)- مجلّة الثقافة، مرجع سابق، عدد 87، ص: 12

(2)- المصدر نفسه، ص: 13

وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيّرة، وذهنا صيورًا للمعاني ولو كانت بعيدة».(1)

فهذه الملازمة التي حظي بها الإبراهيمي، كان لها الأثر الفعّال في تكوين رصيده المعرفي، وتحديد وجهته التي سار عليها فيما بعد. فلمّا اشتدّ عوده، وقويت شوكته، انتدبه عمه، لمهمة التعليم وهو في سن الرابعة عشرة، فشَرَعَ في تدريس العلوم التي حصّلها على عمه، والتي أجازه فيها فانثال عليه طلبة العلم من كل مكان، ولّما مارس مهمّة التعليم مدّةً شعر بنقص معلوماته، فرأى أنّه من الضّروري استكمال تلك المعلومات، فالتحق بزاوية سيدي علي بن شريف بجبال القبائل ليدرس على شيخها الطيب بن مبارك اليعلاوي الزاوي.(2)

وهنا استكمل ما نقص، ووثّق ما كان، وحصّل علمًا شرعياً أهّلَهُ لُمهِمة التدريس بزاوية سيدي الحوّاس بجنوب مدينة سطيف مدّة لا تقل عن "ستّ سنوات" أكسبته خبرة بفن التعليم ومعرفة لطبائع الناس(3) واختلاف مشاربهم وخصائصهم.

وتبيّن لنا مما سبق أنّ البشير الإبراهيمي، أبدى نباهة في طلب العلم، وكان على شغف بتحصيله وهذا ما أكّدته لنا كثرة ملازمته لعمّه، وتعلّقه بكلّ علم وكتاب، وقد كان ذلك مناط ملاحظة من قبل أسرته وقومه، ومع هذا فقد تاقت نفسه إلى علوم أخرى بالمشرق، فآثرها وشدّ إليها الرّحال، لاكتساب المعدّات التي تمكّنه من التغيير والتجديد، وأوّل هذه المعدّات هي تحصيل العلم. ولذلك وجد الإبراهيمي نفسه في الطريق إلى المشرق، وهي البداية في طريق الإصلاح.

ثانيا: رحلاتــه ومكوّنــات ثقافتــه:

لّما بلغ الإبراهيمي من العمر عشرين عاما، تاقت نفسه إلى الهجرة، فشدّ الرّحال سنة 1912م إلى المدينة المنوّرة رغبة في تحصيل العلم، وفرارًا من ظلم فرنسا وبطشها، ولذلك خرج متخفيًا كما خرج والده من قبل.

وما يمكن قوله عن رحلته أنّه كان لها الأثر الفعّال في بناء شخصيته، بل أنّها كانت أهمّ حدث في حياته، وأكثرها تأثيرا في آرائه، خصوصا ونحن نعلم أنّ المشرق يُعتبر بالنسبة لأهل المغرب عامّة، محطة آمال الرّاغبين في العلم، التوّاقين إلى التبحّر فيه، وملاذًا لكلّ خائف من بطش عدوّ.

---

(1)- محمد البشير إبراهيمي "أنا"، الثقافة، عدد 87، ص: 14

(2)- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص: 34 / محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، دار البعث قسنطينة، ط/1 [1974م]، ص: 20

(3)- محمد مهداوي، المصدر نفسه، ص: 34 / وقد ذهب الباحث محمد زرمان في رسالته "الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي" بأن المدة الزمنية التي قضاها الإبراهيمي مدرسا بزاوية سيدي الحواس هي أربع سنوات

فلا يتحقق التحصيل والأمن سوى بالارتحال، وقد وجد الإبراهيمي من شغفه المبكّر بالعلم دافعًا إلى الرّحلة في طلبه، وتأمينًا على حياته، وللسّبب الأوّل أهميته في عرف أهل المغرب العربي، خاصة وقد تناهت إلى مسامعهم أخبار شخصيات علمية فذّة، وعلى رأسهم الشيخ "العزيز الوزير التونسي" والشيخ "أحمد الفيض أبادي الهندي" فهما على حدّ قول الإبراهيمي: «عالمان محقّقان واسعا أفق الإدراك في علوم الحديث، وفقه السّنة»(1)، وأنّه لم يكن يرغب إلاّ في الاستزادة من علم الحديث رواية ودراية، ومن علم التفسير.

كما يشهد أنّه لم يكن يرى لهذين الشيخين نظيرًا من علماء الإسلام، وهو الذي علا سنّه واستحكمت التجربة عنده، وتكاملت لديه ملكة العلم في بعض العلوم، واحتكّ بالكثير من العلماء(2) وتعلّق بهم، فكان ذلك سببًا قويًّا، ذكّى فيه الشوق إلى زيارة تلك البقاع، أمّا خروجه متخفياً، ففيه إشارة واضحة لطبيعة الاستعمار الظالم، الذي يضرب بيد كلّ من شعرت وأحسّت منه بالخطر.

فلمّا اختمرت في نفسه هذه الدّواعي، واتّضح له الطريق، التحق بمنبع العلم والأمن اللّذين يعدّان من المعدّات الأساسية لتغيير أيّ وضع وتجديده. وليس ببعيد على طالب العلم كالإبراهيمي، الذي لاحظ الواقع الجزائري السّياسي والاجتماعي والثقافي والدّيني وعايشه عن كثب أنْ يتحسّس ويتعرّف على الأصول التي ينطلق منها الرّفض للاستعمار، فكانت أوّل محطّة نزل بها في مسيرة ذهابه إلى المشرق —القاهرة- مرورا بتونس وليبيا وذلك في سنة 1911م، وفي ذلك يقول: «مررتُ في وجهتي هذه بالقاهرة فأقمتُ بها ثلاثة أشهر».(2)

1- في القاهرة: بعد انطلاقة الإبراهيمي من أرض الوطن، نزل بالقاهرة التي درس بها على أشهر فحول العلماء آنذاك في الأزهر، الذي يعدّ أحد منارات العلم، لما يتمتّع به من مكانة مرموقة وشهرة عالية في نفوس طلبة العلم، حيث يقول الإبراهيمي: «وحضرت بعض دروس العلم في الأزهر، وعرفت أشهر علمائه، فممّن عرفته وحضرت دروسه، الشيخ سليم البشري والشيخ محمد بخيت، حضرت درسه في البخاري في رواق العباسي، والشيخ يوسف الدجوي

(1)- محمد البشير الإبراهيمي "أنا"، الثقافة، عدد 87، ص: 15

(2)- المصدر نفسه، ص: 14

حضرت درسه في البلاغة، والشيخ عبد الغني محمود، والشيخ السمالوطي، حضرت لكليهما درساً في المسجد الحسيني.... وحضرت عدّة دروس في دار الدّعوة والإرشاد التي أسّسها الشيخ رشيد رضا في منيل الروضة»(1) كما كانت له زيارات لفحول الشعراء أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم اللّذين أعجبا كثيراً بقوّة حافظته.

فالإقامة بمصر لم يطل أمدها، رغم أنّها كانت حافلة بالنسبة للإبراهيمي الذي سرعان ما شدّ رحاله إلى المدينة المنورة.

2- في المدينة المنوّرة: وصل الإبراهيمي إلى المدينة المنوّرة أواخر سنة 1911م، بادئ الأمر لم يرق له شيء إلا لقاء أبيه، حيث يذكر لنا واقع الجوّ العلمي السائد آنذاك فيقول: «اجتمعتُ بوالدي رحمه الله، وطفتُ بحلق العلم في الحرم النبوي مختبراً، فلم يرق لي شيء منها، وإنّما هي غثاء يُلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيءٌ، فلم أجد علماً صحيحاً إلاّ عند رجلين هما شيخاي: الشيخ "العزيز الوزير التونسي"، والشيخ "حسين أحمد الفيض أبادي الهندي"».(2)

لاشكّ أنّ الإبراهيمي الطالب الشغوف بالعلم، حرص على الاستفادة من العلماء، فبذوقه المتخصّص المضطلع بفنون العلم والمعرفة، انتخب أفضلهم علماً، فلازم كلاً من الشيخين وانقطع إليهما، واستفاد منهما الشيء الكثير، وهو الذي نشأ محباً للعلم، شغوفاً به، حريصاً على تحصيله.

فاتخذ من المدينة وعلمائها مقاماً أساسياً له، لأنّها موطن ثراء علمي، ومقرًّا لأشهر علماء الإسلام، وهي بغيتهُ التي من أجلها سافر ليُغذّي روحه من مهبط الوحي، ويوسّع آفاق معلوماته النقلية والعقلية بفضل مجموعة من الشيوخ الأفاضل(3) فحصّل علم التفسير عن الشيخ "إبراهيم الأسكوبي"، والجرح والتعديل وأسماء الرّجال عن الشيخ "أحمد البرزنجي الشهرزوري"، أمّا علم الأنساب وأدب العرب الجاهلي والسيرة النّبوية عن الشيخ "محمد عبد الله زيدان الشّنقيطي" وعلم المنطق عن الشيخ "عبد الباقي الأفغاني"، كما كانت له مراجعات دقيقة ومذاكرات طويلة دامت سنين مع الشيخ "أحمد خيرات الشّنقيطي" في اللغة والشعر الجاهلي، وكذلك مع الأديب

(1)- محمد البشير الإبراهيمي "أنا"، الثقافة، عدد 87، ص: 14

(2)- المصدر نفسه، "أنا"، الثقافة، عدد 87، ص: 15

(3)- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص: 36

"محمد العمري الجزائري" حول أمّهات الأدب المشهورة، خصوصا الكامل للمبرّد، والبيان والتبيين للجاحظ، الذي أتيا عليه عن آخره مطالعة مشتركة فاحصة متأنية، وكذلك فعلا مع كتاب الأغاني من أوّله إلى آخره.(1)

وقد عدّ الإبراهيمي إقامته بالمدينة المنورة، على أنّها خير وبركة عليه، وأنّها هي المرحلة في حياته التي تفتّقت فيها مداركه وتوسّعت فيها معارفه، فيصف لنا ذلك قائلا: «هذا الطور هو الذي تفتّح فيه ذهني لأعمال عامة، فشاركت برأيي في الآراء المختلفة بالسياسة العامة بالدولة العثمانية، وعلاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلمي بالحرم النّبوي، وباشرت هذا الأخير بنفسي مع ثلّة من شبان الطلبة المتنوّرين وقد كاد أن ينجح لولا أن فاجأتنا الحرب العالمية الأولى وثورة الشريف حسين بن علي، التي كنت من المقاومين لها بقلمي ولساني».(2)

لقد تبيّن لنا ممّا سبق أنّ الإبراهيمي درس على أساتذة ومشائخ أجلاء، ممّا أتاح له ثقافة إسلامية متنوّعة الجوانب، لكنّها أصيلة الأسس أهّلته لأن ينتظم وقته بين الأخذ والعطاء، بحيث يقول: «كنت أنفق أوقاتي الزائدة في إلقاء دروس في العلوم التي لا أحتاج فيها إلى مزيد....».(3)

ولم يكتف الإبراهيمي بما حصّله من علم، بل عكف داخل المكتبات العامة للاستزادة حيث يقول: «فلا يراني الرّائي إلاّ في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حتى استوعبت معظم كتبها النادرة قراءة، وفي مكتبة السّلطان محمود، وفي مكتبة شيخنا الشيخ الوزير، وفي مكتبة بشير آغا، أو في مكتبات الأفراد الخاصة بالمحفوظات.... كما كنت استعير كثيرا من المحفوظات الغربية من أصدقائي وتلامذتي الشناقطة، أذكر منها ديوان غيلان ذي الرمة، فأقرأها وأحفظ عيونها، وقد حفظت في تلك الفترة معظم ديوان ذي الرمة».(4)

من خلال هذا النظام المحكم في حياة الإبراهيمي العلمية، يمكن اعتبار هذه المرحلة العامل الأساسي في تكوين شخصيته، لأنّه تمكّن من تكوين ذاته وإنضاجها في كلّ من الجانب العلمي الفكري، والجانب السياسي الاجتماعي، وحصّل فيها من الزّاد ومن الممارسات والتجارب ما كان قِواماً لمستقبل حياته في القيام بالدّور الإصلاحي، فشارك برأيه في السّياسة العامة للدولة

---

(1)- محمد البشير الإبراهيمي "أنا"، الثقافة، عدد 87، ص: 16

(2)- محمد مهداوي، مرجع سابق، ص: 36 (وقد نقله عن محاضرة للأستاذ أحمد بن ذياب، ألقاها في ملتقى الإبراهيمي بجامعة وهران، أفريل 1985)

(3)- محمد البشير الإبراهيمي: مرجع سابق، ص: 16

(4)- المصدر نفسه، ص: 16

العثمانية، وعلاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلمي بالحرم المدني.(1)

ويبدو أنّ هذا الاستقرار النسبي بالمدينة المنورة، كان مناسبة صالحة للإبراهيمي، الذي رتّبت له العناية الإلهية لقاء العلاّمة الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، ليرسما فيه معًا طريق المستقبل، ويَضعَان ملامح خطّتهما في الإصلاح والتجديد، ولعلّ هذا ما قصد إليه الإبراهيمي نفسه حينما قال: «كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبّئات الغيوب لها، أن يرد عليّ بعد استقراري بالمدينة المنوّرة سنة وبضعة أشهر أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ "عبد الحميد بن باديس" أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أُغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر».(2)

والحقيقة أنّ هذا اللقاء كان بمثابة السّر لعنصر أساسي، لأنّه تقرّر عندهما حقيقةً أنّ ما يعتزمانه من عمل المستقبل، يحتاج إلى عناصر من الرّجال الأقوياء يتعاونون على القيام به، وقد أدرك "ابن باديس" بعد الفحص والاختبار أنّ الإبراهيمي هو أحد هذه العناصر الصالحة للإعانة وشدّ الأزر. فاستهلا يبحثان من خلال جلسات وسمرات طويلة عن الصيغة المُثلى للنهوض بالشّعب ولعلّ هذا ما قصد إليه الإبراهيمي حينما قال: «كانت هذه الأسمار المتواصلة، كلّها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصّلة لتلك النهضات التي كان لها صوراً ذهنية تتراءى في مخيّلتنا، وصحبها من حسن النية، وتوفيق الله، ما حقّقها في الخارج بعد بضعة عشرة سنة، وأشهد الله، أنّ تلك الليالي من سنة 1913ميلادية هي التي وضعت فيها الأُسس الأُولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلاّ في سنة 1931م».(3)

3- انتقالــه إلى دمشــق: خرج الإبراهيمي من المدينة المنوّرة رفقة أبيه سنة 1917م متقدّما جموع المدنيّين، بسبب استفحال ثورة "الشريف حسين بن علي" وكانت وجهة المبعدين دمشق موطن الثّراء العلمي، ومقرًّا لأشهر علماء عصره «وكان من أوّل ما يعنيني لقاء رجال العلم وكانوا أوّل من بدأ بالفضل فزاروني في مترلي، وتعارفنا في أوّل لقاء».(4)

---

(1)- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص: 36

(2)- محمد البشير الإبراهيمي "أنا"، الثقافة، عدد 87، ص: 18

(3)- المصدر نفسه، ص: 19

(4)- المصدر نفسه، ص: 17

وكانت غاية الإبراهيمي من هذه اللقاءات، هي زيادة الاطّلاع والتّحصيل العلمي، وبذوقه المتخصّص المضطلع بمادته، انتخب منهم جماعة وعلى رأسهم الشيخ "بهجت البيطار" الذي هو علم من أعلام الإسلام وإمام من أئمة السلفية الحقّة(1)، وكان أمله معقودًا على ملاقاة العالمين الجليلين عبد "الرّزاق البيطار" و"جمال الدين القاسمي" لكن إرادة الله لم تجمعه بهما، وفي السّنة نفسها عند وصول الإبراهيمي دمشق، وفد عليه زمرة من العلماء يتقدّمهم الشيخ "محمد بهجة البيطار"، وهو ما أكّده الإبراهيمي في معرض حديثه «فزارني لأوّل مرّة في رهط، أذكر منهم شيخ الجماعة الأستاذ البيطار، والأستاذ جودت المارديني والأستاذان قاسم ورضا القاسميين، والأستاذ سعيد الغزي، والأستاذ عبد القادر المبارك وكان بيننا في لحظة ما يكون بين إخوان الصفا، وإخوان الصبا من تأكّد المحبة، وارتفاع الكلفة وسقوط التحفظ».(2)

فكان يغمره جوّ عربي إسلامي مفعم بالحيوية والثراء العلمي، وكأنّ العناية الإلهية وفّرت له كلّ هذه الظروف والإمكانيات، لتعدّه لمهمة الريادة في ظل حركة التجديد والإصلاح في الجزائر والعالم الإسلامي، فكان وأصحابه لا يفترقون من اجتماع إلاّ على موعدٍ لاجتماع آخر، فهو يعتزّ متشرّفا بذلك في قوله: «لقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلاّ قليلا، فأشهد صادقا، أنّها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنّها هي الجزء العامر من عمري الغامر»(3)، وما إن لبث مدّة قليلة، حتى تولّى مهمّة التعليم بالمدارس الأهلية، كما ألقى بالجامع الأموي دروسًا في الوعظ والإرشاد، وبعد ما اطمأنت به الدّار، أصبح أستاذًا للآداب العربية وتاريخ اللغة وأطوارها وفلسفتها في المدرسة السلطانية، وقد تخرّج على يديه «جماعة من طلبة العلم، هم اليوم عماد الأدب العربي في سوريا منهم: الدكتور "جميل صليبا"، والدكتور "أديب الروماني"، والدكتور "المحايري"، والدكتور "عدنان الأتاسي"».(4) وبذلك يكون الإبراهيمي قد وقف على وظيفته الطبيعية.

ويبدو لنا ممّا سبق أنّ الإبراهيمي تلقّى بالمشرق علومًا متنوّعة، لكن نشاطـــه العلمي لم يثنه عن

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 646

(2)- المصدر نفسه، ص: 648

(3)- المصدر نفسه، ص: 649

(4)- الإبراهيمي، "أنا" الثقافة، عدد 87، ص: 18

الاهتمامات السياسية، ومشاركته في كثير من الحركات التحرّرية التي عمل ضمن أطرها كالنادي العربي الذي أسّسه "عبد الرحمان الشهبندر"، وتأييده لثورة الأمير "فيصل بن الحسين" الذي دخل دمشق.

وأثناء إقامة الإبراهيمي بدمشق، يكون قد حصل له شيء من الانشغال بشؤونه الخاصة حيث أنّه تعرّف على فتاة تونسية(1)، وتمّ الزواج بها، وأنجبت له ولدًا، إلاّ أنّ القدر عاجله فأخذه منه، كما أخذ والده وحماه أو حماته، وهو لم يبرح دمشق بعد، وهو ما ظهر في قول الإبراهيمي لمّا خاطب مقبرة الدحداح بدمشق قائلاً: «ويا تربة الدحداح، بوركت من تربة، ولا يذوق الغريب فيها مرارة الغربة، ولا زلتِ مسقطا لرحمات الله، إنّني أودعت ثراك أعزّ الناس عليّ: أبي وابني وجدّي أولادي، فاحفظي الودائع إلى يوم تجزى الصنائع».(2)

4- عودته إلى الجزائر ومشاركته في تأسيس جمعية العلماء: لم تكن رحلة العودة إلى الجزائر بالنسبة للبشير الإبراهيمي رحلة عادية، كتلك التي يقوم بها أغلب طلبة العلم المتشوّقين إلى أوطانهم وأهليهم، ولكنّها كانت رحلة عمل جاد، لم يتخلّ عنه في أي مكان وعند كل مناسبة. فالعلم النظري الغزير، الذي تلقّاه على مشايخه، لم يبق مجرد صورة في ذهنه، بل حرّك فيه دواعي العمل، فانطلق من حين خروجه إلى حين وصوله يبث العلم كلّما توفّرت له الفرصة لذلك، وبالرّغم من الشجاعة في الحق التي كان يتّسم بها، إلاّ أنّه أثناء عودته، التزم مع الواقع الجديد جانب الحذر، مفوّتا على السّلطات الفرنسية الفرصة.

ويعتبر هذا المسلك في منهج الإبراهيمي في الدّعوة من الفقه الصّحيح الذي يدعم آليات التجديد ومعدّاته.

بدأ الإبراهيمي في وضع ملامح خطّته ومنهجه في التجديد، وكان أن بدأ بعقد ندوات علمية للطّلبة، والدروس الدينية للمجموعات القليلة، ولا شك أنّه كانت تصل إلى أسماع المشتغلين بالعلم أخبار عن الإبراهيمي، وما كان من غزير علمه وفصاحة لسانه، ومستجدّ منهجه في التدريس، فبدأت تميل إليه قلوب الناس، وبدأت آراؤه تجد طريقها إلى نفوسهم، وإيمانًا منهم بتحصيل العلم وتطلّعًا له، رأى هؤلاء أن يستقدموه ليدرس أو يحاضر لهم، وهو ما يُبيّنه

(1)- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص: 42

(2)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 649

الإبراهيمي في قوله: «فلمّا تهيأت الفرصة انتقلت إلى إلقاء الدروس المنظّمة للتلامذة الملازمين ثمّ تدرّجت لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الآهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الديني كلّ جُمعة في بلد».(1)

ولم يكتفِ الإبراهيمي بهذا القدر، فتدرّج بالجماهير إلى مرحلة التأسيس، فأنشأ مدرسة صغيرة لتستقطب الطلبة من كلّ مكان وفي ذلك يقول: «لمّا تمّ استعداد الجمهور الذي هزّته صيحاتي إلى العلم، أسّستُ مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشبان، نشأة خاصة وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير، بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم».(2)

وبهذا العمل يكون الإبراهيمي قد شرع في خطواته الأولى في العمل التنظيمي، وكانت صلته بالشيخ عبد الحميد بن باديس قوية، خاصة ما بين سنة [1920-1930م]، بحيث كلّلت بزيارات مكثّفة ومتبادلة بينهما، «فكانت هذه السنوات العشر كلُّها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين».(3)

فكان من سداد الرأي، ورجاحة العقل، أن تكون عوامل تكوين جمعية العلماء بسيطة وعن قصد، بحيث ضمّت علماء جزائريين من مختلف الاتجاهات «لئلا تثير من الاهتمام ما يدعو إلى مقاومتها قبل أن تستوي على سوقها، فتكون الضربة القاضية عليها».(4)

ولعلّ هذه البساطة المقصودة والمعتمدة من قبل رجال الإصلاح في الجزائر، هي التي كانت وراء إسراع الإدارة الفرنسية «إلى الاعتراف بالجمعية وتوافق على قانونها الأساسي بعد خمسة عشر يوما فقط من تقديمه».(5)

وإنّ ظهور جمعية العلماء في ظروف صعبة مرّت بها الجزائر ليس بالأمر السّهل المنال، لأنّ أعداءها كثيرون، ويتربصّون بها الدوائر للإطاحة بها، الأمر الذي عناه أحد الباحثين في قوله: «بأنّ خصوم العلماء كثيرون، فبالإضافة إلى الإدارة الفرنسية، هناك المرابطون، والنخبة والنواب أحيانًا والمبشّرون».(6)

---

(1)- الإبراهيمي، "أنا" الثقافة، عدد 87، ص: 20

(2)- المصدر نفسه، ص: 20

(3)- المصدر نفسه، ص: 21

(4)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، جمع وتصدير د/أبو القاسم سعد الله، شركة دار الأمّة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان –الجزائر، ط 1 [1997م]، ص: 94

(5)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، [1930-1945]، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان، ط/4، [1992م]، ج3/ 83

(6)- المصدر نفسه، ص: 95

ولكن أمام إصرار المصلحين وتجلّدهم تشكّلت نواة هذا الإطار، الذي ظهرت باكورته سنة 1931م.

فبذرة تأسيس الجمعية، نبتت في نفس الإبراهيمي منذ الشباب، متمثّلة فيما كان يضمره من المآخذ على واقع الشعب الجزائري في جميع مناحي الحياة، ومازالت ينميها إيمانه العميق بمبدأ التجديد، وقد كان للعشر السنوات التي سبقت ميلاد هذا التنظيم الدّور الأساس في دفع الإبراهيمي نحو التفعيل وإحداث التغيير، بحيث كان الهدف الذي أراد تحقيقه، هو جعل المجتمع يعيش الإسلام الصحيح، عقيدة تقوم على التوحيد الخالص، تنتفي معه كلّ مظهر للشّرك والتشبيه وسلوك فردي واجتماعي يخضع لأوامر الشرع ونواهيه، وحكم عادل يسهر على تطبيق الشرع، وتحقيق مصالح النّاس.

وهكذا ظلّ بعد الإعلان الرسمي عن ميلاد جمعية العلماء، ينفق كلّ جهده من أجل استيعاب الأتباع المتزايدين ويقوم على تهيئتهم نفسيًا وتنظيميًا لبناء المجتمع الجديد، الذي تهدف الجمعية إلى إقامته، وقد استدعى منه ذلك القيام بعمل متعدّد الجوانب والأبعاد. وهذا ما قصد إليه في قوله: «حسبنا أن نسعى السعي المتواصل لتأسيس جمعيات علمية مكشوفة الجبين، عريانة المقاصد، تقوم للمعلمين بما عجزوا عنه من المال، وتقوم للأغنياء بما طلبوه من الثّقة والثبات وتنوب عن الكل في إدارة المؤسّسات إدارة رشيدة تضمن سلامة العقبى والوصول إلى النتيجة».(1)

تحرّك الإبراهيمي بشكل مدروس بعيدًا عن التلقائية التي لا تضمن استمرارية مقاومة المستعمر ومواجهته بالأسلوب الصّحيح، غير أنّ السلطات الاستعمارية كانت تعدّ هذا التوّجه من الإبراهيمي عملاً سياسيًا، يشكل خطرا على وجودها، فقاومته بمختلف الوسائل، ولكنّه لم يأبه لتهديداتها ووعيدها، وهذا ما صرّح به في معرض حديثه «يا حضرة الاستعمار إنّ جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه، وتُسمّي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه —عدوانا بصريح اللفظ.... فإذا كانت هذه الأعمال تعدّ- في فهمك ونظرك سياسة، فنحن سياسيون في العلانية لا في السّر، وبالصراحة لا بالجمجمة».(2)

(1)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ط/1، ش.و.ن.ت، الجزائر، [1987م]، ج1/ 11

(2)- المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 42

ولأنّه لا انفصال بين الدين والسياسة في الإسلام، ولأنّ مهمة عالم الدين دينية تربوية سياسية واصل الإبراهيمي عمله ضمن هذا المفهوم، فشرع في العمل الجاد والمضني من غير أن يطعم نومًا أو يخلد لراحة، وهو في حلّه وترحاله ينشط في عزيمة لا تفلّها الأحداث، حتى استطاع أن يوفّر العوامل الصّالحة لنمو بذرة الفلاح والنّصر، وبموازاة ذلك عمد إلى عقد المؤاخاة بين الأفراد والقبائل، تأصيلاً للمودّة، وتسييرًا لإقامة العلاقات الاجتماعية، وهذا ما قصد إليه في قوله: «وتمرّ الليالي ذوات العدد من غير أن أطعم النوم، وقد أقطع الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تُفتح إلاّ وأحضر افتتاحها، وأخطب فيه، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلاّ وأحضر بنفسي، وأبرم الصّلح بينهما، وأرغم الاستعمار الذي من همّه بث الفتن وإغراء العداوة والبغضاء بين الناس، وكنت مُعطِّلا لتدبيراته في جميع الميادين».(1)

لقد كانت شخصية الإبراهيمي، شخصية فذّة، متميّزة المعالم، تتقوّم بخصائص ذاتية نسجتها عوامل حياته الثّرية بالأحداث، وتضافرت في بنائها الظروف التي تقلّبت فيها تلك الحياة وأسهمت رحلته المشرقية برصيده العلمي، ونضجه الفكري وعمق إيمانه بتحمّل مهمة الإصلاح، فاكتسب بُعداً في الهمّة، وشدّة في العزيمة وقوّة في النفس، وصبراً وتحملاً للتّعب والأذى، وهو الذي يقول: «يقبح بالمجاهد أن يذكر للنّاس ما أصابه في سبيل الله من بلاء ولكنني مطلوب بهذا كجزء من تاريخ حياتي....»(2) وكإشارة للدّلالة على إخلاصه قوله: «أخجل حين أتحدّث عن عملي في الجمعية، فأترك الشّهادة للواقع الذي عرفه من عرفه وسيعرفه كل من بحث عنه».(3)

فالرّجل كان يؤمن بأنّه صاحب قضية، وقد ملك عليه هذا الإيمان نفسه، فجعله صادق الهمّة كثير الصبر على الأذى غير مكترث بما يلقاه في سبيل الله من متاعب وآلام، فيقول: «أشهَدُ لقد كنت ألقَى في أسفاري أنواعًا من التعب، فلا يهوّنها عليّ ولا يُغريني بالإقدام على غيرها إلاّ يقيني أنّها مزيد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء»(4) فقد دفعته هذه الهمّة إلى أن يعلن رفضه المطلق للاستعمار بشقيّه المادي المتمثّل في الاستعمار الفرنسي، واستعمار روحاني يمثّله مشائـــخ

(1)- محمد البشير الإبراهيمي، "أنا" الثقافة، عدد 87، ص: 29

(2)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 95

(3)- المصدر نفسه، ص: 95

(4)- الإبراهيمي، "عيون البصائر"، ص: 485

الطرق الذي طال أمده و «ثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألّم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد خوفًا من الله بزعمه».(1) كان في سبيل نصرة القضية دائم الانشغال بها، لا يبالي بما يلقاه من أذى، وهذا ما أكّده في قوله: «منها ما بدأناه بالفعل، ولاقينا فيه الأذى، فصبرنا حتى كانت العاقبة لنا، ومنها ما طالبنا به، حتى أقمنا حق الأمة فيه، وفضحنا الاستعمار شرّ فضيحة».(2)

وكان له إلى جانب هذا كلّه، دورٌ بارز في تأسيس المدارس الحرّة في أغلب جهات القطر وكان يشرف بنفسه على مشاريعها، وينتقي لها أحسن المهندسين، لتصميمها على نمط وطراز واحد لتؤكّد للأجيال القادمة أنّها نتاج فكرة واحدة.(3)

وقد كلّل جهده المبذول بأن توفّرت له من الأسباب، ما دفعه للقيام بهيكلة وتنظيم جموع الطلبة الوافدين على المدارس، فعمل على تمرين الطلبة على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير، ونشّأهم تنشئة للاضطلاع بجسام المهام والأمور. وكان يتستّر لأعماله ونشاطه، بأنّه يلتمس قوت أسرته عن طريق التجارة وغشيان الأسواق العامة، ليدفع عنه عيون الإدارة الفرنسية التي كانت تلاحقه في كل مكان.

واستطاع وأصحابه بفضل مهارتهم وذكائهم، أن يفسدوا على الاستعمار حلمه الأكبر المتمثّل في احتفاله بالعيد السنوي المائة، فلم تدم احتفالاته التي رتّب لها وأعدّ مدّة ستة أشهر إلاّ شهرين فقط، وكما ذكرنا من قبل بأنّ تاريخ 1930م وما تبعه هو أزهى أيّام نشاطه، ومناط فخره واعتزازه بعلمه، لأنّه أعطى لدينه ولغته ووطنه الكثير، وحينما زفّ للشعب الجزائري بشرة ميلاد الجمعية، عُيّن نائباً لرئيسها الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، وقد عهد إليه الإشراف على مقاطعة وهران، فما لبث إلاّ قليلاً حتى أحيا بها رسوم العلم، بحيث خصّص للتلامذة الوافدين دروساً على حسب مستوياتهم، وبعدها أنشأ بها مركزا للإشعاع العلمي والثقافي فأسّس بمدينة تلمسان داراً للحديث* وانتدب لها من الأساتذة خيارهم، وتولّى هو شخصياً

(1)- الإبراهيمي، "أنا" الثقافة، عدد 87، ص: 23

(2)- المصدر نفسه، ص: 25

(3)- المصدر نفسه، ص: 28

* هي مدرسة على الطراز الأندلسي، أسّسها الشيخ الإبراهيمي، وتحتوي على مسجد وقاعة محاضرات وأقسام لطلبة العلم، وقد حضر الافتتاح وفود وكبار العلماء يتقدمهم الشيخ عبد الحميد بن باديس وكان للشيخ الإبراهيمي كلمة الافتتاح أشاد فيها بخصال المدينة وفضل علمائها.

القيام بتعليم الطلبة الكبار، مستهلاً دروسه بالحديث بعد صلاة الصبح ويختمها بدرس في التّفسير قبل صلاة العشاء، وبعد تأدية فريضة العشاء، يعمد لبعض النّوادي ويجتمع بروّادها مذكّراً تارةً، ومحاضراً أخرى حول موضوعات تتعلق بالتاريخ الإسلامي فيقول: «فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العبّاسية بضع مئات من المحاضرات»(1)، وما إن توشك العطلة الصيفية على الاقتراب حتى يكون قد ختم الدّروس وأنهى البرامج المسطّرة، فيخرج إلى المدن والقرى الآهلة بالسّكان داعياً وواعظاً إلى الخير، ومحذّراً من مغبّة الاستسلام للواقع المعيش، فبدأت أفكاره وآراؤه تجد طريقاً إلى نفوسهم ممّا أقض مضجع الاستعمار، «فكان ذلك في نظر الاستعمار تحدّياً له ولسلطته، وفي نظر الشعب تمجيداً للعلم والدين وإغاظة للاستعمار».(2)

وبهذا يكون الإبراهيمي قد شرع في خطوته الأولى نحو العمل التنظيمي، باحثاً في المجتمع عن الجماهير العريضة، لتعينه على القيام بما رسم من جسام المهام، وبعزيمة لا تكلّ وإرادة لا تقهر واصل الإبراهيمي نشاطه، وسلك طريقه نحو الهدف المرسوم، يبثّ العلم في الناس، ويغيّر المنكر لدى العامة، لا يُثنيه عن ذلك ما يجده الداعية من مضايقات، ولكن إدارة الاحتلال أحسّت بخطورة الرّجل على كيانها، وأيقنت بأنّ الرجل لم يكن له من قصد سوى التّآمر ضد فرنسا وتأليب النّاس عليها، فعزمت على إلقاء القبض عليه، فأصدرت قراراً يقضي بإبعاده إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني بتاريخ 10 أفريل 1940، وذلك غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية، وقد دام نفيه ثلاث سنوات تقريباً.

وبعد وفاة العلاّمة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بأسبوع فقط من تاريخ اعتقال الإبراهيمي اجتمع المجلس الإداري للجمعية ورؤساء الشُّعب وأنتخب الإبراهيمي رئيساً لجمعية العلماء بالإجماع، فأصبح يدير أمور الجمعية، ويصرف أعمالها من المنفى، وفي ذلك يقول: «أبلغوني الخبر وأنا في المنفى، فأصبحت أدير الجمعية وأصرّف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين إخواني»(3) و لم تكن حادثة اعتقال الإبراهيمي إلاّ حدثاً ذكّى فيه العزم ودفعه إلى المضي في نشاطه بعد الإفراج عنه، بحيث خرج أمضى قلباً وأحدّ لساناً وأصلب عوداً ممّا كان عليه من

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 222

(2)- المصدر نفسه، ص: 222

(3)- الإبراهيمي، "أنا"، الثقافة عدد 87، ص: 27

قبل، فأسّس في عام واحدٍ ثلاثاً وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر.(1)

وهكذا عرفت عملية إنشاء المدارس حركية قوية وواسعة بفضل مال الأمّة، فزادت على الأربعمائة مدرسة، كل هذا والإبراهيمي لم يتخلّ عن نشاطه المتمثّل في إلقاء دروس ذات أبعاد عقدية وسياسية، تهدف إلى تكوين جيل قويّ يرفض الوضع القائم، ويتبنّى فكرة التغيير والتجديد وتحرير البلاد من قبضة الاستعمار الذي كان يراهن على مسخ عقيدة الأمّة، فكان ممّا قال أحد ساستها: «لا تظنوا أنّ هذه المهرجانات من بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرّومان قبلنا فيه ثلاثة قرون ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أنّ مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الدّيار».(2)

فكان هذا البعد الجديد في دروسه يجد وقعاً في نفوس النّاس، فتكاثروا حوله يأخذون علمه وينصتون إلى دعوته، فامتلأت قلوبهم محبة ومهابة، وتعظيماً له، فبلغ عدد المتأثّرين به وبدعوته من الكثرة، ما أثار تخوفات فرنسا من جديد، فعاودت مضايقته والتشديد عليه من جديد وهذا ما أكّده الإبراهيمي في قوله: «فلمّا رأت فرنسا أنّ عقابها لي بالتغريب ثلاث سنوات لم يكف لكسر شوكتي.... انتهزت فرصة نهاية الحرب ودبرت للجزائر ثورة مفتعلة، فقتلت من الشعب الجزائري المسلم ستين ألفاً، وساقت إلى المعتقلات سبعين ألفاً معظمهم من أتباع جمعية العلماء، وألقت بي في السجن العسكري المضيق تمهيداً لمحاكمتي بتهمة التّدبير لتلك الثورة، فلبثت في السجن سنة إلاّ قليل».(3)

ولمّا أطلق سراحه من السجن العسكري الذي ذاق فيه شتّى أصناف التعذيب والأهوال، عاد إلى نشاطه في عزيمة لا تكلّ مذكية فيه روح العمل، فأعاد للمدارس المعطّلة نشاطها، وأحيا جميع الاجتماعات من جديد، وبعث جريدة البصائر التي تولّى إدارتها ورئاسة تحريرها مكرهاً وهي المهمة التي استنزفت منه جهده ووقته، فكان يقوم للجمعية بكل شيء حتى تصحيح النماذج ويكتب الافتتاحيات بقلمه من غير أن يخلد للرّاحة أبداً، وقد شيّد إلى جانب هذه المدارس كلّها، معهداً ثانوياً بمدينة قسنطينة نُسب اسمه إلى إمام النهضة ابن باديس، «وكان هذا المعهد

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 225

(2)- المصدر نفسه، ص: 223

(3)- المصدر نفسه، ص: 224

تاجاً لمدارس جمعية العلماء وغرّة في أعمالها»(1) كما أنّه اشترى من مال الأمة داراً أخرى تتّسع لإسكان ما يربو على سبعمائة طالب، تتوفر على كلّ المرافق الضرورية، وقد نجح الإبراهيمي أيّما نجـــاح في إيفاد بعثات من الطلبة المتفوّقين إلى دول شقيقة، لمواصلة دراستهم بعدما ضمن لهم منحاً دراسية.

كما يمكن القول أنّ للإبراهيمي اهتمامات بقضايا الشعوب المكافحة، وأنّه دائم الاهتمام والانشغال بالقضية الفلسطينية التي أولاها من نفسه ومن قلمه الكثير، وخصّ لها مقالات متنوّعة يفضح فيها المؤامرات التي حيكت على فلسطين السليبة من قبل اليهود وأعوانهم.

كما تجدر الإشارة إلى الوقفة التاريخية التي كانت للإبراهيمي سنة [1952م] بباريس حينما خطب في وفود ورؤساء الدول العربية على هامش انعقاد اجتماع جمعية الأمم المتّحدة واستطاع بفضل مهارته وحنكته أن يعرّف بالجزائر، وخاصة بعدما استطاع الاستعمار أن يعزل الجزائر عن المحيط الخارجي حيناً من الزّمن، فلا تكاد تسمع لها صوتاً، كما استطاع أن يعرّف بجمعية العلماء وأعمالها للإسلام والجزائر، وما يواجهها من صعوبات في سبيل تأدية دورها الحقيقي، وما إن انتهى حتى انتزع من قبل الوفود المشاركة عهوداً على دعم الجمعية مادياً ومعنوياً.

5- رحلته إلى المشرق العربي: لم يكن خروج الإبراهيمي هذه المرّة من الجزائر إلى الشرق لنفس الغرض، الذي من أجله سافر في المرّة الأولى، بل يمكننا رصد طبيعة الدّوافع التي أشار إليها هو نفسه وتتمثّل أساساً في الوقوف على أحوال المسلمين، ودراسة أوضاعهم في مواطنهم ومشاركة دعاة الخير فيما يدعون إليه، وهو يرى أنّ هذا واجب لزام عليه أن يؤدّيه، والدافع الثاني المتمثّل في التعريف بالجزائر المنسية من إخوانها، ودعوة الحكومات الإسلامية والعربية على الخصوص للوقوف بجانبها(2) وقد أكّد لنا ذلك بقوله: «فإنّ إخواننا في الشرق لا يعلمون عنّا إلاّ القليل المشوّه، وقد قمت بهذا التعريف في دواخل باكستان على أكمل وجه، فأصبحت أحوالنا وأعمالنا معروفة على حقيقتها».(3)

وعلى العموم بأنّ الرحلة كانت منظّمة البرنامج واضحة المقاصد، وكانت مصر من أبرز

(1)- الإبراهيمي، "أنا" الثقافة عدد 87، ص: 30

(2)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 97، الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 10

(3)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 16

المحطّات التي تركت في نفسه أثراً بالغ الأهمية، بحيث كانت له مقابلات مع شخصيات سامية في العلم والدين، كما كانت له وقفات بجامع الأزهر، وما يضمّ من معاهد وكلّيات وقاعات للبحث والمحاضرات، ممّا نالت منه إعجاباً كبيراً، وتمّ اللقاء بينه وبين مدير الجامعة الأزهرية الأستاذ "محمد عبد اللطيف دراز"، كما تشرّف بإلقاء درس بالمركز العام للإخوان المسلمين، وقد كانت هذه الرحلة الفرصة التي تجلّت فيها مواهب الإبراهيمي العلمية ومكانتها السامية في نفوس العامّة والخاصّة، الذين منهم الأستاذ الحاج "محمد الأمين الحسيني" مفتي فلسطين، والأستاذ "عمر بهاء الدين بك الأميري" وزير سوريا و"الفضيل الورتلاني"، والدكتور "الزبيري" ومنهم الدكتور "عبد الوهاب عزام" سفير مصر، والسيد "عبد الحميد الخطيب" وزير المملكة العربية السعودية، والأستاذ "أبو بكر حليم" مدير الجامعة ورئيس مؤتمر العالم الإسلامي والأستاذ الأكبر الشيخ "سليمان الندوي" أحد أعلام علماء باكستان ورئيس مؤتمر العلماء والأستاذ "محمد محمود الزبيري"، كما تشرّف بزيارته في مكان إقامته كل من وزراء إيران واندونيسيا وغيرهما.

وللإشارة فإنّ مدّة الإقامة في باكستان دامت قرابة ثلاثة أشهر، استوعب فيها معظم مدن باكستان من كراتشي إلى كشمير وما بينهما، وقد اكتسى تحرّكه هذا طابعاً حيوياً حيث ألقى في هذه المدن كلها «نحو سبعين محاضرة في الدين والاجتماع والتاريخ وأمراض الشرق وعلاجها»(1)، وقد نالت هذه المحاضرات والخطب إعجاب الحضور، فجعل النّاس يهرعون إليه من كل مكان ويتصايحون «أنّ من لم يشهد جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا فليشهد الإبراهيمي فإنّ فيه أقباساً من روح جمال الدين، ولمحات من إصلاح محمد عبده وفيوضاً من علم رشيد رضا».(2) كما كانت للإبراهيمي وقفة أخرى بالعراق أسهم فيها إسهاماً فعّالاً بعدما طاف بأغلب مدنها محاضراً، وقد ألقى العشرات من المحاضرات الاجتماعية والدروس الدينية، وما إنْ تسامع الناس أنّ العلاّمة الإبراهيمي سيتحدّث إلى الناس في اليوم الثاني والعشرين من شوال في الجامع الكبير حتّى «بدأ النّاس يتوافدون على هذا المسجد الجامع من كل مكان حتى امتلأ المسجد وصحن الجامع لكثرة الجموع من الرّجال والنّساء والشباب وطلاب العلم».(3)

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 97

(2)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 64

(3)- المصدر نفسه، ص: 64

وهكذا استطاع الإبراهيمي من خلال دروسه أن يقدّم صياغة جديدة للفكر الإسلامي واستطاع أن يردّ للمفاهيم الإسلامية الصحيحة اعتبارها، بعدما ظلّت آماداً طويلة غائبة عن أذهان المسلمين البسطاء، وبعد أيام من الإقامة بالعراق غادرها نحو الحجاز، وكان دأبه دائماً عدم تفويت الفرصة كلّما سنحت له ذلك، فألقى بها الكثير من المحاضرات والدروس، وأخيراً رجع إلى القاهرة، حيث يقول: «ثمّ رحلت عنها بعد نحو ثلاثة أشهر إلى الحجاز في حج [1952م] نفسها، وألقيت كثيراً من المحاضرات والأحاديث ثمّ رجعت إلى القاهرة يوم 24 أكتوبر من تلك السنة».(1)

وعند اندلاع ثورة التحرير من سنة 1954م عهد إليه القيام بمهمّة الاتصال بزعماء العرب والمسلمين، للتعريف بالقضية الجزائرية ومباركة الغضب الشعبي الذي اختار طريق الثورة على الاستعمار، والحصول على التأييد والمساندة. تحرّك الإبراهيمي والأمل معقود عليه لإيصال صوت الثّورة لكل البلدان عن طريق أحاديث إذاعية على أمواج "صوت العرب".

وما يمكن التركيز عليه أنّ آراء الإبراهيمي التي كان ينفثها من خلال أحاديثه الإذاعية من "صوت العرب" بالقاهرة كانت عبارة «عن فتوى تقول للشعب الجزائري أنّ الجهاد قد حقّ عليك، وأنّ السّلطات الفرنسية في الجزائر إنّما هي سلطات كافرة يجب مكافحتها شرعاً، بالإضافة إلى الوزن السياسي لهذه الفتوى، فالشيخ الإبراهيمي كان من رجال الدين البارزين، وكان مشهوداً له بالتّعمق في الفقه والأصول وأحكام الشريعة الإسلامية....فقد كان ينظر إليه على أنّه يمثل فتوى شرعية للجهاد والتحرير».(2)

فمن خلال رصد الوثائق التي حواها كتاب "في قلب المعركة" ودراستها، يبدو لنا واضحاً أنّه عندما أعلن الشعب ثوّرته، كان الشيخ الإبراهيمي من الأوائل الذين احتضنوها ودعوا إلى الالتحام بها منذ الأيام الأولى لشهر نوفمبر، وكردّ على الذين يريدون الانتقاص من الدّور الجهادي الثّوري للجمعية، ما ضمّه كتاب "في قلب المعركة" من وثائق، ونصوص، وخطب وتصريحات، تبرهن على أنّ الجمعية كانت في الطّليعة، وأنّ رئيسها الإبراهيمي، كان لسانها البليغ المعبّر عن توجهاتها وعقيدتها وحسبه ما قال: «وأنا أرجو للثورة الجزائريـــة التي شاركت

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 97

(2)- المصدر نفسه، ص: 8

في التمهيد لها، وتهيئة أسبابها ختاماً جميلاً تنال به الجزائر حريتها واستقلالها».(1)

وعلاوة على هذه المهام الجسام، نشّط الإبراهيمي ندوات فكرية وأدبية ودينية كثيرة بالقاهرة كما أنّه أسّس "ندوة الأصفياء" مع جماعة من العلماء والمفكرين، تُعنى بقضايا ومواضيع مختلفة وقد عهد للإبراهيمي تولّي منصب مشيخة جامع الأزهر، فرفض ذلك لأنّها تتعارض ودوافع المهمة التي من أجلها ارتحل، ولكي لا يخلط عملاً عاماً من أجل الجزائر، رفض كل العروض الخاصة المقدّمة له إلاّ عرضاً واحداً وهو تولّيه العضوية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمجمع العلمي بدمشق، لأنّ ذلك يتّفق ومكانة الإبراهيمي العلمية والأدبية.

وعاد الإبراهيمي إلى الجزائر بعد غياب دام عشر سنوات، قضاها مجاهداً من أجل تحرير البلاد فوجد البلاد تنعم تحت راية الحرية والاستقلال، والتقى بالأهل والخلاّن الذين غصّ بهم مسجد "كتشاوة"، الذي استعاد صفته بعدما حوّله الاستعمار إلى كتدارئية طيلة مدة الاحتلال، فأمَّ القوم في ذلك اليوم التاريخي في [2 نوفمبر 1962م]، وبعد ذلك لازم الإبراهيمي بيته لا قعوداً عن الواجب الذي طالما أوضح معالمه، بل أعياه المرض من جهة نتيجة العمل المتواصل الذي قضاه مجاهداً طيلة مشوار حياته، ومن جهة ثانية ما حمل في نفسه من المآخذ على الواقع الجزائري اجتماعياً وسياسياً وثقافياً ودينيًا، فساءته هذه المظاهر والتّحولات والتنكّر للخط الأصيل الذي قامت من أجله الثورة، فتكوّن لديه رفض لها، ونقمة عليها، فلاحظ بنظرته الثاقبة بأنّ الثورة التي هيأ لها أسبابها، وشارك فيها «قد حادت عن طريقها منذ برنامج طرابلس والممارسات العشوائية التي تلت الاستقلال، وبداية الدخول في متاهة الغموض الفكري والتقليد الأعمى لتجارب الدول الأخرى، والابتعاد عن تجربة الجزائر والمبادئ التي وضعها الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وحافظ عليها الشيخ الإبراهيمي باسم جمعية العلماء».(2)

ولكنّه في الأخير خرج من صمته الذي قطعه على نفسه، ووجد نفسه مطالباً بإسداء النصيحة، فكان منه البيان التاريخي في 16 أفريل 1964م الذي يعارض فيه سياسة الحكم، محذّراً من مغبة الانزلاق عن المبادئ، والانحراف، الذي تتخبّط فيه البلاد قائلاً: «إنّ وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة، ويتخبّط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل ولكن

(1)- الإبراهيمي،"أنا"، الثقافة عدد 87، ص: 36

(2)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 9

المسؤولين –فيما يبدو– لا يدركون أنّ شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأنّ الأُسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية».(1)

ونخلص في خاتمة المبحث إلى القول بأنّ رحلته المشرقية أسهمت برصيده العلمي، ونضجه الفكري، وإيمانه القويّ على تحمّل مهمة الإصلاح والتجديد، حتّى إذا ما تفاعل ذلك مع واقع الجزائر السّياسي والاجتماعي والديني والثقافي، مكّنه من تقويمه بما حدّده من عيوب ومفاسد حقيقية في المجتمع، نتيجة لاحتكاكه الدّؤوب مع ذلك الواقع، وهذا ما يعتبر عنصرا مهمّا في عملية التجديد والتغيير.

(1)– محمد الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مطبعة البعث قسنطينة –الجزائر، [1967م]، ص: 15

المبحث الثالث:

معالم الشخصية

كانت حياة الإبراهيمي ثرية بالأحداث، فهو الذي عاش واقعه متفاعلاً مع أوضاعه فهو يتمتّع بشخصية فذّة متميّزة المعالم، تتقوّم بخصائص ذاتية، نسجتها عوامل حياته الخصبة والثرية بالأحداث، وعليه يمكننا رصد مجموعة من الخصال الفكرية والأخلاقية والنفسية، التي تشكّل لنا الأركان الأساسية في بنية شخصية البشير الإبراهيمي.

أولا: التأسيس الشرعي والتحصيل العلمي: عُرف الإبراهيمي منذ طفولته بنبوغه في مختلف العلوم، وتضلّعه في بعضها، وقد تجلّى ذلك في تولّيه تدريس زملائه الطّلبة حيث بيّن ذلك قائلاً: «ففعلت ووفق الله، وأمدّتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها، فتصدّرت دون سن التصدّر وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخاً في سن الصبا».(1)

فقد تمكّن الإبراهيمي منذ طفولته من استيعاب جملة من العلوم، وبلوغه فيها درجة الامتلاك والتصرّف، ولا شك أنّ من قدّر له الدّراسة على أشهر علماء الوطن في عهده، عمّه الشيخ "محمد المكي الإبراهيمي"، مع ما كان له من الشغف العلمي، هو الذي مكّنه من الوقوف على دقائق العلوم ومن استيعابها وامتلاكها، فقد كان حافظاً للحديث عارفاً بأصولي الدين والفقه، متحققاً في علم العربية وأشعارها، مُلمًّا بدقائقها وأدواتها، حافظاً للشّعر القديم والحديث، ويمتاز بقوّة الحافظة، بحيث يحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد.

فقد تمكّن خلال المدة الطويلة التي قضاها بالمشرق محطّ آمال الراغبين في العلم، التوّاقين إلى التبحّر فيه، وملتقى النزعات والآراء، ومجتمع المِلل والنّحل، من أن يقف على سائر المذاهب في الفقه، ومختلف المنازع في الفكر والاعتقاد، وهو ما أتاح له تحصيلاً علمياً وعقلية تأصيلية قادرة على محاجّة الغير، فإذا هو ذو شخصية ثقافية وتأسيس شرعي مكين، درس الفقه وعمل به في أصالته، وهو ما تجلّى في ملازمته للشيخين المبرّزين في العلم، العزيز الوزير التونسي، وحسن أحمد الفيض، اللذين استزاد منهما في علوم الحديث رواية ودراية، والتفسير، وأخذ الموطأ دراية عن

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 92

الشيخ الوزير، ولازم درسه في فقه مالك، ودرسه في التوضيح لابن هشام، كما أنّه استوعب علومًا كثيرةً ومتنوّعةً يمكن الرّجوع إلى تفاصيلها في مقاله(1) المشهور، حيث ترجم فيه لنفسه وأثبت اقتداره في هذه العلوم واكتفائه فيها، فقال: «كنتُ أنفق أوقاتي الزائدة في إلقاء دروس في العلوم التي لا أحتاج فيها إلى مزيد كالنّحو والصرف والعقائد والأدب».(2)

وبالجملة فقد كان الرّجل ذا حافظة في كلّ علم تقع عليه عينه، أو يتلقّاه عن شيخ، وكإثبات على صحة ما قيل، نسوق الشهادة التي خصّه بها إمام النهضة ابن باديس في قوله: «عجبت لشعب أنجب مثل فلان، أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار»(3)، وقد أطراه علماء المغرب والمشرق في كثير من الحفلات والمناسبات، منها ما أقدم عليه الباحث "منصور فهمي" من نزع حذائه لمـــّا اعتلى المنصّة، وهو يقول: «إنّ هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ أصبح ساحة مقدسّة، ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم، وأُعلن هنا أنّي لم أر ولم أسمع في حياتي، من هو أفصح وأبلغ من الشيخ البشير، لهذا أتوجه إليه قائلاً: أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكت نواصيها ونواصينا، وأنّي أدعو العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يلقوا إليك بمقاليد اللغة والبيان».(4)

وهذه التزكية، فيها إشارة واضحة، ودلالة قوية على البسطة العلمية عند الإبراهيمي، ونبوغه الشّرعي والثقافي على حدّ سواء، فهو يتوفّر على حصيلة علمية وتأسيس شرعي يفوق حصيلة الكثير ممن اشتهروا بالعلم، ولو تفرغ للكتابة لكان أحد أيمة المغرب والمشرق، ولكن للإبراهيمي عذره في ذلك، حيث بيّن قائلاً: «لم يتّسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلّى بأنني ألّفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصحّحت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبياً، وحسبي هذا مقرباً من رضى الرّب ورضى الشعب»(5) ومع هذه المعاذير الموضوعية إلاّ أنّنا نجد من ينحو عليه باللاّئمة لعدم اشتغاله بالكتابة والتأليف، فيورد الإبراهيمي في معرض حديثـــه عن الإمام "المودودي" مثالاً عن ذلك حيث يقول: «وهو ينعى عليّ شيئاً واحداً، وهو

(1)- الإبراهيمي، "أنا"، الثقافة عدد 87، ص: 15

(2)- المصدر نفسه، ص: 16

(3)- المصدر نفسه، ص: 23

(4)- محمد الطاهر فضلاء، "من جوامع الكلم لحكيم العلماء وعالم الحكماء الشيخ البشير الإبراهيمي" الثقافة عدد 87، ص: 399

(5)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 228

أنّني لم اشتغل بتأليف كتب على أحوال المسلمين على النّمط الذي سمعه من كلامي، فأجبته بما لم يقتنع به، لأنّه يعتقد أنّ هذه الأحاديث العادية التي سمعها منيّ، كتبٌ لا ينقصها إلاّ التدوين». (1)

ثانيا: القدرة على الحركة وتحمل الجهد: من الخصائص التي تميّز بها الإبراهيمي، قدرته على تحمّل الجهد الشاق والمضني، الذي كان يبذله، لإيقاظ الناس من سبات طال أمده، وهنا تبدو المهمة الشاقة، لأنّ إيقاظ قوم نيام استعذبوا النوم واسترخوا له، عمل يحتاج إلى مؤهّلات خاصة، قد لا تتوفّر عند كثير من رجال الإصلاح، وإنّ فكرة رفض الواقع المرير لا تخطر ببال أحدهم، وإنّ التفكير في التجديد أمرٌ لا تقبله عقولهم، ولا تستقبله أذهانهم، لأنّ فلسفتهم التي اقتنعوا بها ليس في الإمكان أبدع ممّا كان، ولقد أثّر عليهم سلوك مشائخ الطرق، وبيادق الاستعمار بالرّضوخ له، والاطمئنان إلى الحاضر، واليأس من المستقبل، مع أنّ حاضرهم هو مزيج من الهوان والصّغار وهذا ما قصد إليه الإبراهيمي في قوله: «وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير، وثقُلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألّم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد خوفاً من الله بزعمه، والاستعماران متعاضدان يؤيّد أحدهما الآخر بكلّ قوته، ومظهرهما معاً تجهيل الأمّة لئلاّ تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات....». (2)

وقبل أن يبدأ الإبراهيمي مهمّته التي رسم معالمها بمعية بن باديس، لم يغب عن ذهنه ثقل المهمة ومع ذلك أقدم وفي داخله إيمانه بالله وثقته المطلقة به، كان الإيمان والثّقة مصدراً لعزيمة صادقة لا تقبل التردّد وترفض اليأس، فانطلق من المسجد، لكنّه رأى أنّ المسجد وحده لا يكفي لإيصال تعاليم الإسلام إلى الناس وانتشالهم من براثن الاستعمار، فراح يتنقّل بين المداشر والمدن يغشى النوادي والمناسبات، ينفث تعاليم الإسلام ويحذّر من مغبة الاستسلام للواقع الذي يهيمن عليه الاستعمار، فأسّس المدارس والمعاهد وساهم في تشييد المساجد، وخطب في الناس كلّما سنحت الفرصة، وكانت له قدرة عجيبة على تحمّل الجهد والمشاق، من غير أن يعرف لنفسه راحة، ويشهد لنفسه بذلك في قوله: «وقد تمرّ اللّيالي ذوات العدد من غير أن أطعم النوم، وقد أقطع الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تُفتح إلاّ وأحضر افتتاحهـــا وأخطب فيه ومـــا من عداوة تقع بين قبيلتين أو فرديـــن إلاّ وأحضر بنفسي، وأبرم الصلـــح بينهما، وأرغم

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 692

(2)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 219

الاستعمار الذي همّه بثّ الفتن، وإغراء العداوة والبغضاء بين النّاس، فكنت معطّلاً لتدبيراته في جميع الميادين».(1)

كانت حركات الإبراهيمي وتنقلاته مبعث إثارة لدى الاستعمار وأدواته، ففزع وفزعت أدواته -مشائخ الطرق والزعماء الذين ينتظرون دورهم ليتربعوا على كرسي الحكم- فاعتقلته الإدارة الفرنسية وزجّت به في غياهب السّجن العسكري وألبسته تهمة تقضي عليه بالإعدام «وعذّب في سجنه ممّا أورثه أمراضاً مزمنة بقيت معه إلى آخر حياته»(2) وسيق إلى زنزانة ضيّقة تحت الأرض لا يرى الضوء ولا يستنشق هواء الحياة نحو سبعين يومًا، فلمّا انهارت صحته أخرجوه ليجد نفسه داخل السجن مدّة إحدى عشرة شهراً، ولمـــّا أُفرج عنه عاد إلى نشاطه أصلب عوداً وأقوى عناداً.

وفي إشارة إلى قدرته على التحمّل، وعلى ما كان يقوم به من جهد في الدروس وعقد للندوات الليلية، بيانه الذي يؤكّد فيه قائلاً: «كنت ألقي عشرة دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي»(3) وهكذا كان دأبه في العطلة الصيفية بحيث لا يخلد للرّاحة أبداً، حيث يقول: «وفي فترة العطلة الصيفية أختم الدروس كلّها وأخرج من يومي للجولان في الإقليم الوهراني مدينة مدينة وقرية قرية، فألقي في كل مدينة درساً أو درسين بالوعظ والإرشاد، وأتفقد شعبها ومدارسها».(4)

وقد دفعته هذه الهمّة إلى أن يعلن رفضه للاستعمار رغم المصاعب الجمّة التي كانت تحفّ به والأخطار التي كانت تعترضه، وفي سبيل تحقيق آمال الأمة كان دائم الانشغال بقضيته، لا ينقطع فكره عن التأمّل فيها والتخطيط لها، ولذلك فهو لا يُرى إلاّ عميق الفكر أو كثير التحرّك والنّشاط، أو هو يكتب افتتاحيات الجريدة أو تحرير المقالات، ولاسيما لمّا عهد إليه بإدارة ورئاسة الجريدة، وربما هذا ما أدّى به إلى القول «وتضاعفت المسؤوليات، وثقلت الأعباء فرئاسة الجمعية وما تستلزم من رحلات وما يتبع الرحلات من دروس ومحاضرات، كلّ

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 225

(2)- محمد خير الدين، "إنا لله وإنا إليه راجعون" الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص: 28

(3)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 222

(4)- المصدر نفسه، ص: 222

ذلك كان يستترف جهدي، فكيف إذا زادت عليها أعباء الجريدة وتحريرها، ولكن عون الله إذا صاحب إمرءاً خفّت عليه الأثقال».(1)

كل ذلك والإبراهيمي لا يبالي بما كان يلقاه في سبيل الله من متاعب ومشاق الحياة. ويذكر الأستاذ "مدحت" إنّه استضافه في بيته في "بني غازي" الليبية كعادته في أحد الأيام، وقال له: «أتعبت نفسك يا شيخ دع هذا العمل لغيرك من الشباب وأستكفي بالتوجيه، فبدنك لا يحمل هذا التنقّل الطويل المرّ ما بين الجزائر وليبيا والباكستان، فما كان منه إلاّ أن زمجر ورمى بالملعقة قائلا بلهجته الجزائرية "أنعم أتنقل وارفدك حتى، أنت فوق أكتافي وما نعياش"»(2)، وحدث أيضاً أن جمعتهما الأيام بدمشق، وكان بصحبة الأستاذ "مدحت" ابنه، فعرض على الإبراهيمي أن يتناول العشاء معهما، فأجابه قائلاً: «عشائي الليلة في بغداد، ومال على ابني قائلاً له: نب عني يا ثابت في حفل العشاء وكله تماماً، سألته وكيف عرفت اسم الولد؟ فردّ أنسيت أنّي كنت أداعبه في زيارتي منذ ست سنوات....؟».(3)

إنّ هذه الشهادات تعكس لنا مدى قدرة الإبراهيمي على الحركة وتحمّل المشاق، وأنّه كان على قدر كبير من النّشاط وكثرة التجلّد، وهي الصفة التي تبقى إحدى مميّزات شخصيته.

ثالثا: الفطنة والحنكة: كان الإبراهيمي على جانب كبير من الذّكاء والفطنة منذ الصغر فقد انتهت التربية العلمية التي تلقّاها على مشاهير العلماء إلى تزكية هذه الصفة وإنمائها، فكانت إحدى الأدوات الأساسية في خوض غمار الإصلاح والتجديد.

ومع هذه الخصلة الفطرية النامية، فإنّ الإبراهيمي مكّنه سفره إلى بلاد مختلفة، وإقامته الطويلة بالمشرق من الوقوف عن كثب على تجارب اجتماعية وسياسية مختلفة، وعلى الاحتكاك المباشر بالجماهير العريضة من النّاس أثناء قيامه بالدعوة، فتكوّن له بكل ذلك حسّ اجتماعي مرهف جعله يقف على خبايا النّاس وما انطوت عليه نفوسهم، فأصبحت له خبرة معلومة بالناس وأحوالهم وحنكة بالغة في التعامل معهم، وفي إنفاذ الدعوة إلى قلوبهم، وتكتيل جهودهم لمقاومة الاستعمار وصوره، من ذلك هذه الصورة التي يرسمها للاستعمار، في قوله: «يا هؤلاء! إنّ

(1)- الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص: 225

(2)- م. مدحت، "الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بطل من أبطال الجزائر في ذمة الله وفي ذمة التاريخ" الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص: 177

(3)- المصدر نفسه، ص: 177

الاستعمار شيطان، وإنّ الشيطان لكم عدوّ، فاتّخذوه عدوًّا، وإنّ الاستعمار شرّ، ومحال أن يأتي الشرّ بالخير، ومحال أن يُجنى من الشوك العنب. إنّ فرنسا نبية في الاستعمار، وإنّها ترى أنّه شرع لا ينسخ وعقد لا يفسخ، فدعوها وشرعها لله وسنن الله، وللزمان وتصاريف الزمان».(1)

وبفضل حنكته يلجأ في كثير من الأحيان إلى تجسيد المعنى المقصود عن طريق التعبير بالأمثلة أو الكناية، ويستمر كلما دعت الحاجة في توليد المعاني والمقاصد، ويساعده في كل ذلك ذاكرته القوية واطّلاعه الواسع، ومن ذلك مثلاً هذه الصورة التي يرسمها لبعض الأئمة الذين تنصّبهم فرنسا -وهي لا تنصبّ إلاّ من باعوا ضمائرهم للاستعمار- حيث يقول: «هل رأيت الجوْزة المؤوفة*؟.... إن رأيتها رأيت ظاهراً جميلاً، وقشرةً صلبة، ثمّ تكسّرُها فتجد نخالة ممّا أسأر الدود، أو سواداً ممـــّا فعل الماء المتسرّب، وهي -مع ذلك- جوزة تشترى، ويُدفع فيها الثمن وتُقدّم تكرمةً للضيف.... وذلك شأن الاستعمار في رجال الدين منّا».(2)

رابعا: الجرأة في القول الحق والشجاعة في إبداء الرأي: تمكّن الإبراهيمي أثناء إقامته الطويلة بالمشرق من الاطلاع عن كثب على أنظمة سياسية مختلفة، وكان له لقاء مع العديد من رجال السّياسة والرؤساء، ممـــّا أكسبه ذلك معرفة واسعة بالواقع السياسي للمسلمين، وما كان يتّصف به هذا الواقع في كثير من الأحيان من مظاهر سلبية تتضح بالخصوص في انقسام المسلمين، وتسلّط الاستعمار وهيمنته على دول كثيرة من بلاد المسلمين كما تمكّن أيضاً من الوقوف عن كثب على واقع المجتمع الجزائري، وعاش حياته اليومية واختلط بأفراده على اختلاف مستوياتهم، فاطّلع بذلك على مظاهر الانحراف والفساد فيها، فشرع في محاولة التجديد وتغيير هذه الأوضاع بعزيمة وإرادة لا تكلّ.

وأظهر القضايا التي اتّسمت عنده بهذه الصفة، هي القضايا السّياسية والاجتماعية، حيث تستدعي المواقف الحرجة شجاعة وجرأة، قلّما اتّصفت بها شخصيات أخرى، ولاسيما في الظروف السياسية الاستعمارية المعروفة التي مرّت بها الجزائر، وأصبح هذا المبدأ عنده رسالة

---

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 321

* المؤوفة: التي أصابتها آفة فأفسدت لبّها.

(2)- المصدر نفسه، ص: 205

يوجّه إليها كل الكتّاب ليسلكوا مسلكه ويقتفوا أثره وذلك في قوله «ألا إنّ فرسان الكلام والأقلام، كفرسان النزال والعراك في كثير من الخصائص.... إنّ بيع القلم واللسان أقبح من بيع الجندي لسلاحه».(1)

وتتجلّى قوته في قول الحقّ في مواقفه من السياسة الاستعمارية، وكمثال على ذلك قوله الذي تحدّى به الإدارة الفرنسية في وقت لا يسمح فيها بأن ينبس الواحد ببنت شفه، فضلاً على أن يقول كلمة حق أمام نظام جائر، فيقول متحدّياً: «أمّا نحن فقد كنّا علماء دين، ودعاة علم وتربية، وزرّاع خير ورحمة، ولكن الحكومة تعدّ هذا كلّه سياسة وتعتبرنا لأجله سياسيين.. فليكن ذلك، ولنكن علماء وسياسيين، ولنكن كلّ شيء ينفع أمّتنا ويحمي ديننا ولغتنا».(2)

وكان له موقف من الأحزاب المتنازعة في الجزائر، فتوجّه إليها بالنّصح المصحوب باللائمة وذلك في قوله: «يا إخواننا! إنّكم أحرَجتُمونا بأعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، فأخرجتمونا من مقام التلطّف في النصيحة إلى مقام الإيجاع في التنديد، وأردتم أن تثلموا سيفًا من سيوف الحقّ فلا تلوموه إذا خشن متنه وآلم جرحه، فتجرّعوا هذه النصائح على مرارتها في لهواتكم، فما نحن -بمكاننا في الدين- أقلّ من أن ننصح، ولا أنتم -بمكانتكم في أنفسكم- أجلّ من أن تنتصحوا».(3)

كما يحذّر من مغبّة إفساد واقع الأمّة وحالها، وذلك في قوله: «يا قومنا! إنّنا نخشى أن تفسدوا على الأمّة (بهذه الدروس) جيلاً كاملاً كنّا نجهد أنفسنا في تربيته على طهارة الإسلام، وهمم العرب، ومجد العروبة، والإيمان بحقوق الوطن، والعمل على تحقيق استقلاله وحريته، ونبنيه طبقاً عن طبق، ونعلي أخلاقه خلقاً عن خلق، نخشى أن تضيّعوا على الأمة هذا الجيل، وتفسدوا مواهبه، وتلهوه بالمناقشات الحزبية عن الحقائق القومية».(4)

وقد كان لشدة إيمانه بقضيته، وكثرة ما سخّر من نفسه في سبيلها عقلاً وشعوراً، حتى ملأت حياته واستوعبت ضميره، هي ذكر ما كان يتوفّر عليه الإبراهيمي من قدرة عجيبة على مناقشة

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 17

(2)- المصدر نفسه، ص: 275

(3)- المصدر نفسه، ص: 48

(4)- المصدر نفسه، ص: 49

كلّ الأمور، وإبداء الرّأي فيها من غير تردّد، بحيث لا يثنيه عن ذلك رأيٌ تقادم عليه العهد أو ألفه النّاس جميعًا، كما لا يخيفه تفسيرٌ من سبقه من العلماء وأذعنوا له بالتسليم، من إبداء ما كان يعتقده ويؤمن به، وهو قبل هذا وذلك لا يفعل ذلك عن تكلّف بغية الظّهور بمظهر العلماء المحقّقين، وإنّما هو هذا العالم الذي يكون البحث عن الحقيقة أقصى مراده، والوصول إلى الرّأي المقنع هو هدفه(1).

ونخلص من خلال ما استعرضناه عن معالم شخصية الإبراهيمي، أنّها تتقوّم بخصائص ذاتية، نسجتها عوامل فطرية، وأخرى رسمتها عوامل حياته الحافلة بالأحداث، تفاعلت فيما بينها، لتفرز خصالاً قيادية، أكسبته بعدًا في الهمّة، وقوّة في الإرادة، ورغبةً في التغيير والتجديد.

(1)- محمد ناصر، "الإبراهيمي من خلال نثره الفني"، الموافقات، عدد 4، مطبعة زاعياش للطباعة والنشر، السنة 4، الجزائر، ص: 459

المبحث الرابع:

وفـــاتـــه وآثـــــاره

قضى الإبراهيمي عقودًا من الزّمن يضع منهجًا لتجديد واقع المجتمع الجزائري في مضامينه العقدية والاجتماعية والثقافية والسياسية، في جهد لا يكلّ، وعزيمة لا تفلّها الأحداث ولا توهنها عوامل التثبيط المتنوّعة، حتى استطاع أن يوفّر بمعية العلماء المجاهدين العوامل الصّالحة لنمو البذرة التي سخّر حياته من أجلها، ليشهد نجاح الثورة وبسط سلطانها الفكري والسياسي والعسكري على ربوع الوطن. عاد إلى وطنه من رحلته الأخيرة إلى الشّرق ليجد علم الحرية لِيُرفرف فوق ربوع الجزائر، وتحقّقت بذلك أمنيته إذْ عاد إلى بلاده فوجدها حرّة بعد ما غادرها وتركها موثقة، حيث يقول: «خطّت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني وأنت موثقة فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار على ألاّ أملك من أرضك شبراً، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبراً؟....»(1).

والتقى من جديد بالأهل والأحباب وبرفاقه في الجهاد، فزاره من كلّ جهات القطر العلماء والطلبة والمحبّون، وتعانقت الأرواح والأجساد في جوّ أخوي مهيب، فأمّ الجموع بجامع "كتشاوة" في 02 نوفمبر 1962م، فكان في ذلك اليوم للجزائريين فرحتان، تمثّلت الأولى في استرجاع مسجد "كتشاوة" الذي صادرته إدارة الاحتلال وحوّلته إلى كتدرائية طوال مدّة الاحتلال، وتمثّلت الفرحة الثانية في عودة الشيخ الإبراهيمي إلى وطنه.

لكنّ الشيخ الذي عُرف بكثرة نشاطه وقدرته على تحمّل الجهد، والذي كان لا يقرّ له قرار قرّر هذه المرّة -بعد تلك السّنين الطويلة- التي قضاها في خدمة وطنه ودينه، أن يلزم بيته وقد أنهك جسمه الإعياء، وهدّه تعب تلك السنوات الطويلة في الدعوة والنّضال، فاستسلم للشيخوخة وما تتركه من أعراض وأمراض، وللوحدة التي أبت إلاّ أن تزيد في حسرته وآلامه فلازم بيته يغالب الأمراض المزمنة والآلام الحادّة، فعاده الزوّار من كل أنحاء الوطن العربي والإسلامي.

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 484

ومن ظهر يوم الخميس 20 ماي 1965م أسلم روحه إلى خالقه، وخرج الشعب عن بكرة أبيه لتشييع جنازته، الذين غصّت بهم جنبات مقبرة "سيدي محمد" بالعاصمة، وكل الشّوارع المحيطة بها، ووُضِع جثمان الشيخ في ضريحه في جوّ مهيب تتقدّمهم شخصيات دينية وسياسية وجيوش من الأنصار والمحبّين، وتسامع النّاس مع تباعد الأقطار والمسافات نبأ وفاة الإمام، فبكوه وحزنوا لمصاب الأمّة الإسلامية لفقدان رجل صنع أمجاد أمّة أراد الاستعمار تقويض أُسسها، وأبّنه في هذا اليوم المشهود رفيقه في الجهاد وأحد أبرز أعضاء جمعية العلماء الشيخ "محمد خير الدين"، ثمّ تلاه شاعر الجمعية والجزائر الأستاذ "محمد العيد آل خليفة"، الذي ألقى قصيدة أجهشت لها القلوب والعيون، وحبست على الناس أنفاسهم من هول الأسى، وجلال الموقف(1)، وقد رثاه زمرة من العلماء والأدباء ورجال السياسة.

وأمّا عن آثاره فكان الإبراهيمي رجل إصلاح ودعوة ذات مضامين متعدّدة عقدية وشرعية وسياسية وأدبية، وقد حرص على تبليغ هذه المضامين بالطريق المباشر المتمثّل في التّدريس وإلقاء الخطب والمحاضرات والمواعظ الشفاهية، أمّا من حيث الإسهام عن طريق التصنيف والكتابة فلم يتّسع وقته لذلك، فقد صرّح قائلاً: «لم يتّسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلّى بأنني ألّفت للشعب رجالاً وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصحّحت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبيّاً، وحسبي هذا مقرّباً من رضى الرّب، ورضى الشعب، ومع ذلك فقد ساهمت بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعدني الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلّها مسودّات في مكتبتي بالجزائر».(2)

ولمـّا أنتدب للقيام بواجبه المتمثّل أساساً في التعريف بالقضية الجزائرية وما يعانيه الشعب من قمع واضطهاد للرأي العام الدولي، وحمل الحكومات الإسلامية ودعوتها إلى الدّعم والإعانة، لم يشأ الإبراهيمي أن يصطحب معه مسودّات مؤلّفاته حتى يتجرّد من كل هدف شخصي، حيث يقول: «تركت مسودّات مؤلّفاتي كلها بالجزائر، ولم أصحبها معي لتطبع أو يطبع بعضها هنا كما كنت آمل، لأنّي لم أشأ أن أخلط عملاً عمومياً للجزائر، بعمل شخصي لنفسي....».(3)

(1)- محمد الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص: 23

(2)- الإبراهيمي في قلب المعركة، ص: 228

(3)- المصدر نفسه، ص: 233

ويمكن لنا حصر هذه المؤلّفات من خلال ما أشار هو نفسه(1) لذلك، فمن أجلّ ما كتب:

- ***عيون البصائر***: وهي مجموع المقالات التي تولّى هو نفسه جمع وترتيب مواضيعها على النحو الذي عليه الجزء الآن، وقد أشرف على طبعه بنفسه سنة [1963م] بمطابع دار المعارف بمصر وكانت هذه المقالات عبارة عن افتتاحيات لجريدة البصائر خاصة، وتغطي مواضيعها اهتمامات الإبراهيمي العلمية كما تحدّد طبيعة الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال حول مجموع القضايا من أبرزها قضية فصل الدين عن الحكومة، وقضية التعليم العربي الحرّ والحكومة ومواضيع أخرى تتعلّق بمناحي الحياة الاجتماعية، وقضية جمعية العلماء والسياسة الفرنسية بالجزائر وغيرها، وهي تبرز مرحلة مهمة من حياة الإبراهيمي التي تمتدّ من سنة [1946م] إلى سنة [1952م].

- كتاب: بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر.
- كتاب: النقايات والنفايات في لغة العرب.
- كتاب: أسرار الضمائر في العربية.
- كتاب: التسمية بالمصدر.
- كتاب الصفات التي جاءت على وزن فعل بفتح العين.
- كتاب نظام العربية في موازين كلماتها.
- كتاب الاطراد والشذوذ في العربية.
- رسالة في الفرق بين لفظ المطرود والكثير عند ابن مالك.
- كتاب ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.
- رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.
- رواية كاهنة أوراس بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال.
- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية.
- كتاب: حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام.
- كتاب: شعب الإيمان جمع فيه بين الأخلاق والفضائل الإسلامية.
- ملحمة رجزية تضمّ حوالي ست وثلاثين ألف بيت تعنى بمواضيع متباينة في الفكر والسياسة والأدب هي جامعة وشاملة.

(1)- الإبراهيمي، "أنا" الثقافة، عدد 87، ص: 32

- رسالة الضب.(1)

- أمّا عن باقي أجزاء آثار الشيخ البشير، فقد تحمّلت نخبة من تلاميذه الأوفياء جمع آثاره نشرتها تحت عنوان آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والتي يمثل عيون البصائر جزءها الثاني وتدور مواضيع هذه الأجزاء الثلاثة حول مواضيع شتّى –نستطيع القول إذا ما أضفنا إليها مواضيع عيون البصائر– بأنّها تمثّل عصارة فكر الشيخ محمد البشير، وهي عبارة عن مقالات ينشرها الشيخ في الصحف العربية والمجلاّت الوطنية، وهي على النحو التالي:

- الجزء الأول: ويشتمل على ما كتبه في المرحلة الأولى من حياته في الحقل الوطني بعد عودته من المشرق العربي في العشرينات من القرن الماضي، وجملة ما ورد في هذا الجزء منصب على محاربة الاستعمار والطرقية، وحول قضايا الإصلاح.

- الجزء الثالث: ويشتمل على المقالات التي صدرت له بجريدة البصائر في سلسلتها الثانية، والتي لم تنشر في عيون البصائر.

- الجزء الرابع: ويشتمل على ما كتبه الشيخ الإبراهيمي منذ رحلته إلى المشرق العربي والإسلامي، من أجل الجزائر، في بداية عام 1952م حتى قيام ثورة نوفمبر المباركة. وتتضمّن هذه المقالات مسيرة رحلته إلى المشرق العربي والإسلامي، ومجموعة من المقالات والخطب التي تعنى بالقضية الجزائرية، ومواضيع أخرى ذات مضامين عقدية واجتماعية وسياسية.

- ***في قلب المعركة***: ويمكن اعتباره الجزء الخامس من آثار الشيخ الإبراهيمي وهو عبارة عن مجموعة من الوثائق والبرقيات والبيانات والتصريحات والخطب والنداءات حول الثورة الجزائرية المباركة، حرّرها باسم جمعية العلماء وجبهة التحرير الوطني.

- وإلى جانب إسهامه في مجال الكتابة والتأليف هناك –وعلى الخصوص– فتاوى متناثرة بين المراجع والمجلاّت(2)، ويمكن اعتبار أحاديثه العادية على حدّ قول العلاّمة "المودودي" كتباً لا ينقصها إلاّ التدوين(3) لما تتضمّنه من فوائد جمّة، ولاسيما إذا كانت منشورة على شكل كتب صغيرة الحجم.

---

(1)- موسى الأحمدي، "الشيخان" الإمام الرائد الشيخ البشير الإبراهيمي، ص: 90

(2)- محمد الغزالي، "مع البشير الإبراهيمي في القاهرة" الثقافة، عدد87، ص: 96-97، يورد الإمام الغزالي فتوى جرئية في زمانها للإمام الإبراهيمـــي، ويقرر بأنّ الإبراهيمي "كان فقيها ذكي الفكرة بعيد النظرة"

(3)- الإبراهيمي، "من هو المودودي" عيون البصائر، ص: 692

ومن ثمار الشيخ في مجال التربية والتعليم أجيال من العلماء هم اليوم عماد الأدب العربي ومراجع في علوم ومعارف مختلفة، ويذكر الإبراهيمي منهم «....وتلامذتي الأوفياء: جميل صليبا، وبديع المؤيد، ونسيب السكري والأيوبي....»(1) ومن تلاميذه الشاميين أيضاً «عدنان الأتاسي وأديب الروماني، ومصطفى المحايري»(2) وكذلك «القاضي الشيخ الطنطاويّ، والشاعر الحومّاني»(3) أمّا عن تلامذته الجزائريين فهم كُثر.

وقد كان الإبراهيمي طيلة مسيرة حياته يتخيّر من التلاميذ والطلبة الذين يلمح فيهم الكفاءة ويضمّهم إلى الحركة التي آمن بها أسلوباً للتجديد، ويمكننا أن نقرّر بأنّ الإبراهيمي أدرك أنّ ما يعتزمه من عمل المستقبل يحتاج إلى عناصر من الرجال الأقوياء يساعدونه على القيام به، وهذا ما دفع بالإبراهيمي لينتظم الطلبة الوافدين عليه -لطلب العلم- على حسب درجاتهم، وكان يخصّ بعض من يتوسّم فيهم خير البلاد والعباد، بدروس مكثّفة في جوانب العلم المختلفة.

ونخلص في خاتمة هذا الفصل إلى القول: أنّ سياسة فرنسا الاستعمارية، باءت كلّها بالفشل أمام إرادة أصحاب الحق الذين لا يرضون عن ضيم، ولا يقبلون الدنية في دينهم ودنياهم، والإبراهيمي واحد من أبرز وجوه الإصلاح الذين تفاعلوا مع الواقع الأسيف، الذي كان عليه وضع الأمّة في الجزائر، وعاش فيه بمظاهره المختلفة، وأنّه انخرط فيه مربّيًا ومصلحًا، حاوره بمشاعره وفكره، وأسهم برصيده العلمي ونضجه الفكري وإيمانه القويّ في التحرّك لكشف مؤامرات الاستعمار الفرنسي وأعوانه، وذلك بدعوة أبناء الأمّة إلى ما ينطوي عليه حالهم من زيغ عن الحقّ، وبعد عن الشّرع، سواء في وجهه العقدي والاجتماعي أو في وجهه السّياسي والثّقافي، وهذا ما يجعلنا مطمئنّين إلى أنّه انطلق في تصويره للواقع وتقويمه له من معاينة ميدانية له، ومن فهمه الشّخصي لحقيقته في مختلف الجوانب، والحقيقة أنّ ما حفظ لنا من آثار الإبراهيمي يكفي من حيث حجم مقالاته، ومن حيث شموله لمختلف اهتماماته العلمية والاجتماعية والسّياسية، لكي نتبيّن من خلاله، آراءه وأفكاره، ونبني منها بعد تحليلها وتصنيفها صورة متكاملة عن منهج التجديد ومضامينه في فكر الإبراهيمي.

---

(1)- الإبراهيمي، "من هو المودودي" عيون البصائر، ص: 650

(2)- الإبراهيمي، "أنا" الثقافة، عدد 87، ص: 18

(3)- عادل نويهض، البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر، ص: 51

الفصل الثاني:

مفهوم التجديد ومجالاته في الفكر الإسلامي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

التجديد مشروعيته ومقتضياته

أولا: يعتبر مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تنازعتها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة وقد انعكس هذا التنازع على المفهوم ذاته من حيث معناه ودلالاته، فالجدل قائم ومثار في الآونة الأخيرة في سياق تنازع كلّ فريق على امتلاك الحق في تفسيره وتجسيده، وقد زاد الصّراع المتفاقم مؤخرًا حول طبيعة هذا المفهوم (التجديد) ومجالاته وقضاياه وأساليبه ووسائله، فلا نكاد نجد اتفاقًا ذا شأن حول جوهره، في الوقت الذي لا نجد فيه اختلافًا حول ضرورته، وراهنيته. وبالرّغم من كلّ ما تعرضّ له مصطلح "التجديد" من شروح وتبيان أو اعتراض أو انتقاد، فإن مفهومه يبقى ضبابيًا، يتباين من كاتب إلى آخر، ومن مفكّر إلى مفكّر آخر، وهكذا أصبح من الصعوبة الإمساك بمعنى واحد له، وسأحاول جاهدًا الكشف عن مفهوم "التجديد" مستعيناً بجهود العلماء الذين قدّموا له تفسيرًا أو تحديدًا.

1- **"الجديد" لغة:** نقيض "الخَلِق"، والخلق: القديم، فالجديد خلاف القديم (1) وجدّد الشيء يجدّده، صيّره جديدًا: أي جعله جديدًا، أي حوّل القديم فجعله جديدًا.

والجِدَّة: نقيض البِلَى، يقال: شيء جديد والجمع أجِدَّةٌ، وجُدُدٌ وجُدَدٌ، وحكى اللحياني: أصبحت ثيابهم خُلقَانًا وخَلَقَهم جُدُدًا، أراد وخُلقَانُهُم جُدُدًا، فوضع الواحدَ موضع الجمع، وقد يجوز أراد: وخَلَقَهم جَدِيدًا فوضع الجمع موضع الواحد، وكذلك الأنثى(2)

كما جاء في قواميس اللّغة ومعاجمها ما يلي:-

- جدّ الثوب تَجديدًا: صيّره جَديدًا.
- وتجدَّدَ الشيء تجدّدًا: صيَّره جَديدًا، نقول جَدَّدَه فتجَدَّدَ وأَجَدَّه أي الثوب، وجَدَّدَه واستجدَّه: صيَّره أو لَبِسَه جَدِيدًا فَتَجَدَّدَ.

(1) – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق محمد خاطر، دار مكتبة لبنان، بيروت،[1415هـ-1995م]، مادة جدّد، ص: 65

(2) – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم -ابن منظور- لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، [1996م]، مادة جدّد، ج3/ 111

- ويُقال جَدّد الشيء، صيّره جديـــدًا، وجَدّد العهـــد. وثوبًا لبِسه جديـــدًا والضّرع ذهب لبنه.(1)

وقال أمير الشعراء:

آياته كُلّمـــا طـــال المدى جُدُدٌ يُزيّنهن جَلال العتقِ والقِـــدَمِ(2)

وقال يزيد المهلبي:

ليشكر بنو العباس نِعمَى تَجَدَّدَت فَقَد وَعَدَ اللهُ المزيد عَلى الشُّكرِ(3)

إذًا فكُلّ بال كان في أوّل أمره جَديدًا، فتقادم عليه العهدُ، وأصابهُ البلى فجُدِّدَ بإعادته إلى حداثة نشأته، وهذا المعنى بارز من قولهم: جَدَّدَ الوضوء والعهدَ(4) فتَجديدُ الوضوء إعادته، وتجديد العهد إحياؤه وتأكيده.

---

(1) - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الدعوة، -اسطنبول -تركيا، ط/2، عام [1989م]، ج1/ 109

(2) - أحمد شوقي، [1868م - 1932م]، ديوان أحمد شوقي "الشوقيات"، ط/1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، د.ت عدد أبيات القصيدة: 190 رقم البيت 70: ومطلعهـــا:

ربّمْ على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحُرُمِ

(3) - أبو العباس المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق أحمد الدالي، ط/2، مؤسسة الرسالة، بيروت، [1418هـ - 1977م]، ج2/ 138 وأصل هذا البيت للشاعر يزيـــد المهلـــبي [؟-259هـ/؟-873م] وهو من البحر الطويل لقصيدة عدد أبياتها ثلاثة، ويكنى يزيد بن محمد المهلب بن المغيرة، من بني المهلب بن ابي صفرة ابو خالد المعروف بالمهلبـــي من أهل البصرة اشتهر ومات ببغداد وكان فيه اعتزاز وترفّع.

(4) - لسان العرب ج3/ 111

- ولقد استخدمت كلمة "جديد" في القرآن الكريم بمعنى البعث والإحياء، والإعادة لما كان موجودًا وبلى ودَرَسَ. فمنها قوله تعالى:

﴿ إِنَّا لَفِي خَلقٍ جَدِيد ﴾ [السجدة: 10]

﴿ وَقَالُوا أَئِذا كُنّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنّا لَمَبعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيـــدًا ﴾ [الإسراء: 49]

﴿ وَقَالَ الّذِينَ كَفَـــرُوا هَلْ نَدُلُّكُـــم عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُـــكُم إِذَا مُزِّقتُم كُلَّ مُمَـــزَّق إِنَّكُم لَفِي خَلْقٍ جَـــدِيدٍ ﴾ [سبأ: 06]

﴿ بَل هُم فِي لَبْسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِيد ﴾ [ق: 15]

ممَّا تقدّم يتَّضح بأنَّ معنى التجديد هو إعادة الخلق البالي بعد أن عفا ودرس إلى ما كان عليه أوّل الأمر.

ومن خلال هذه المعاني اللغوية يمكن القول بأنّ «التجديد يبعث في الذهن تصوّرًا تجتمع فيه ثلاث معان متصلة:

أ - أنّ الشيء المجدّد قد كان في أوّل الأمر موجودًا وقائماً وللنّاس به عهد.

ب- أنّ هذا الشيء أتت عليه الأيّام فأصابه البلى، وصار قديمًا.

ج - أنّ ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق».(1)

2- أمَّا مفهوم "**التجديد**" اصطلاحاً:

- فقد بيّنه -عبد الرؤوف المناوي- عن العلمي بأنّه «إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسّنة والأمر بمقتضاهما».(2)

- وذهب -المناوي- في شرحه للجامع الصغير بأنَّ معنى قول النبيّ -صلى الله عليه وسلم- "يُجَدّد لها دينها" «أي يبيّن السّنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله، ويكسّر أهل البدعة ويدلّهم».(3)

(1) - عبد الفتاح سيف الدين، أستاذ النظرية السياسية جامعة القاهرة [موقع إسلام أون لاين-مفاهيم ومصطلحات]

(2) - عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة -بيروت -لبنان، ط/2، سنة: [1391هـ-1972م]، ج2/ 281

(3) - المصدر نفسه، ج2/ 281

- بينما عرّفه الترابي بأنّه «إحياء لمعاني الدّين الحقّ في النّفوس، ثمّ إقبال على واقع التديّن لترقية الالتزام بأحكام العمل المقرّرة شرعًا ولمكافحة ما طرأ على التديّن من بدع غشيت الدّين من ممارسات سالفة خاطئة ليست منه في شيء أو أشكال تعبير عفوية لابسته لعهد سبق و لم تعد مناسبة، ثمّ جهاد لتحقيق الدين في ثوبه المتجدّد».(1)
- ويراه المودودي بأنّه «تنقية الإسلام من كلّ جزء من أجزاء الجاهلية ثمّ العمل على إحيائه خالصًا محضا على قدر الإمكان».(2)
- ويعرّفه الشيخ يوسف القرضاوي بأنّه «محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنّه جديد، وذلك بتقوية ما وهي منه، وترميم ما بلى ورتق ما أنفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى».(3)

ويَتَّضِح ممّا تَقدّم بأنّ مفهوم التجديد هو القيام بإحياء ما انطمس من معالم الدين وتطهيره من «أدناس الجاهلية وجلاء ديباجته حتى يشرق كالشمس ليس دونها غمام».(4)

ومن هنا يتبيّن أن تجديد الدين لا يعني تغييره أو تبديله وإنّما يعني المحافظة عليه ليكون غضًا طريًا كما أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– «إنّ تجديد شيء ما لا يعني إزالته واستحداث شيء آخر مكانه، بل تجديده يعني إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى يوم ظهر لأوّل مرّة، والمحافظة كلّ المحافظة على جوهره وخصائصه ومعالمه وعدم المساس بها».(5) فالمعنى الأنسب لمفهوم التجديد هو "الإحياء" أي إحياء تعاليم الدين بعد طمسها من قبل المبتدعة وأهل الضلال والانحراف، والعودة به للمنابع والأصول عودة كاملة صافية، ودعوة للثّبات على الحقّ وترك التقليد الفاسد القائم على الإتّباع والمحاكاة على غير بصيرة.

(1) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي دار البعث، –قسنطينة –الجزائر، ط/1، [1990م]، ص: 155

(2) – أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه، دار الفكر، ط/3، [1387هـ–1968م]، ص: 52

(3) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، ط/1، [1408هـ–1988]، ص: 28

(4) – أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه، مرجع سابق، ص: 16

(5) – يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية، الدوحة –قطر، [1410هـ–1990م]، ص: 102

ثانيا: مشروعية التجديد:

التجديد في الإسلام وارد أثبتته السّنة، دون تناول النصوص والثّوابت في العقائد والأوامر والنّواهي التي جاءت منصوصًا عليها بمنطوق المنقول الصحيح أو دلالته «إنّ الإسلام نفسه قد أقرّ شرعية التجديد بما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم وغيره، وصحّحه الأيمة الثقات: " **إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** "*.

فالتجديد مشروع وثابت وواقع بالنّص، وليس بعد بيان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيان فلا ينبغي أن نخاف من كلمة التجديد في الدين بعد أن صحّ بها الحديث »(1).

فالتجديد المشروع هو إعادة الدين إلى النّحو الذي كان عليه زمن النبي -صلى الله عبيه وسلم- سواء كان من حيث حفظ اللّفظ أو حفظ المعنى أو حفظ العمل، وعلى هذا المعنى اتّفقت كلمة علماء الإسلام العدول «فيُنفى عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وغلو المتنطعين وتفلّت الفاسقين»(2).

---

(1) – يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية، مرجع سابق، ص: 101

* سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود سنن أبي داود، (أوّل كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قدر مائة)، دار الكتاب العربي بيروت –لبنان حدثنا سليمان بن داود المهري، أخبرنا ابن وهب أخبرني سعيد ابن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة، عن أبي هريرة، فيما أعلم عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"، ج2/ 209

– أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، طريق الربيع بن سليمان بن كامل المرادي، عن ابن وهب، كتاب الفتن والملاحم، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان، د.ت، ج4/ 522

– رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد

– رواه ابن عدي في الكامل

– رواه البيهقي في معرفة السن والآثار

– رواه ابن عساكر في تبيين كذب المفتري

وقد صحح الأئمة هذا الحديث حتى نقل عن بعضهم الإجماع على تصحيحه

وقال السيوطي: اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح

وقال الألباني: والسند صحيح، ورجاله ثقات، رجال مسلم، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج/2 ص:150، رقم: 599

(2) – محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مجلة البيان، مكتبة الملك فهد الوطنية –الرياض، ط/1 [1425هـ-2004م]، ص: 13

وأمّتنا اليوم في ظلّ هذا التردّي الذي تعاني منه هي أحوج ما تكون إلى من يجدّد إيمانها ويجدّد فضائلها ومعالم شخصيتها، ولا بد من الاعتراف، «أنّنا نعيش مرحلة جديدة من قراءة الإسلام بأجندية علمانية، ولئن كانت في الماضي تأتي من الخارج الإسلامي فتشكّل تحدّيًا، واستفزازًا...فهي اليوم تأتي من الدّاخل الإسلامي، وتتسلّل على يد طبقات من المحرّفين، والصوفية المنحرفة، والمرجئين الجدد بعيدًا عن أيّة مسؤولية تجاه الأمّة».(1)

وإنّ أخطر الأخطار التي تُهدّد هذا الدين ما كان داخليًا نابعًا من صفوف متّبعيه، فالذي يتتبّع حركة هذا الدين في التاريخ يجد مصداق ذلك.

فكلّ أنواع الإخفاق والانهزام التي مُني بها أصحابه كانت أسبابها الرئيسية ترجع إلى تراخ في التّمسك بهذه العقيدة، أو غفلة عن مبدئية هذا الدين في خضمّ تصارع القوى والأفكار حوله. وكلّ العلامات المضيئة في مسيرته التاريخية ترجع إلى انتباه المسلمين إلى ما يملكون من رصيد مادي ومعنوي، حيث يعتزّون بدينهم، ويشعرون بفداحة الأخطاء التي تهدّدهم من خلال استهداف الأعداء دينهم، فيجتمعون على هدف واحد ويسيرون إليه بخطى واثقة يستهدفون كتاب ربّهم وسنّة نبيهم -عليه الصلاة والسّلام- وقد اقتضت حكمة الله أن يكون علمهم هو الهادي للمسلمين فيبثّون بهذا العلم الثّقة في النفوس المهزومة، ويبعثون الأمل الضاحك في القلوب المقهورة، ويُشخصّون الدّاء ويصفون الدواء ولذلك قامت دعوات، ونهض أفراد يرفعون رايات الإصلاح والتجديد، ويُبيّنُون مكامن الخطر كلٌّ حسب رأيه وقدراته، «وقد بدأ هذا التجديد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، من أمثال حسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، وأبي الأعلى المودودي رحمهم الله، وعلى من بعدهم أن يكملوا المسيرة ويصحّحوها حتّى يتمّ الله نوره».(2)

(1) – أحمد عبادي، الإسلام وهموم الناس، كتاب الأمّة، عدد 49، دار الكتب -قطر، ط/1، [1996م]، ص: 16

(2) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، ص: 52

ثالثا: دواعي التجديد ومقتضياته:

بالنّظر إلى الحديث المتّفق عليه من كبار رواة الحديث "**إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة، من يجدّد لها دينها**".(1)

يتبيّن لنا الوعد النّبوي بأنّ حقيقته إنباء عمّا سيكون في مستقبل الأزمنة والعصور، وهو تجديد الدّيـــن، ومن وجهة التحليل فإنّ التجديد لا يكون إلاّ متى حصل البلى و الضّعف، وأن تفريطًا في الدين سيحصل وأن تنكبًا عن سبيله سيحدث، وأنّ الغاية هي حفظ الأمّة من الانحراف والدين من التفريط.

قال تعالى: ﴿ **إنّا نَحْنُ نَزّلنَا الذّكرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُون** ﴾ [الحجر: 09]

فهذا الحديث «وإنْ كان فيه البشرى بعدم خلو قرون أمّة المسلمين من المجدّدين إلاّ أنّه تضمّن في ثناياه الإشارة إلى ما يطرأ على حياة النّاس بمرور الزّمن في العصور المتعاقبة، مما يستدعي الحاجة إلى التجديد».(2)

فمن دواعي التجديد، اتّساع رقعة الأقطار الإسلامية، وتعدّد المقبلين على الإسلام، بحيث ستَجدّ وقائع وأمور لم يصدر بشأنها نص قاطع الدّلالة وثابت الوجود، فلا يكون من الحكمة هنا، ولا من الشّرع استدعاء مفردات الفقه القديم، أو البحث عن عبارات الفقهاء وفتاويهم لأزمنتهم لمعالجة هذه الأمور، بل لابد من فقه تجديدي يلائم الواقع، يُيسِّر الأمور ولا يعسّرها، ويساير روح العصر ولا يقاطعه، ويستأنس بما هو أصيل ومناسب من التّراث الفقهي ويستعين به ولا يستغني عنه.

فالحياة الإنسانية حافلة بوقائع جديدة تتطلّب مواجهتها بحلول تناسبها إن اقتضى الأمر، وهي لا تتحقّق كما ذكرت باستنساخ الحلول الاجتهادية القديمة أو بالرّجوع إلى مفردات الفقه القـــديم، بل بفهم الواقع الجديد، «ويكون بذلك للواقع دور في فهم الدين باعتماد العرف الصالح، على أنّه جزء من الدين حينما لا يرد فيه نص، ولا يكون معارضاً لنص».(3)

---

(1) – سبق تخريج الحديث

(2) – محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مرجع سابق، ص: 15

(3) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، كتاب الأمة، دار الكتب –قطر، ط/1، [1989م]، ج1/ 115

ويتناغم مع هذا المفهوم ما ذهب إليه –علي شريعتي– حين اعتبر أن لا إصلاح ديني في الإسلام «بمعنى إعادة النظر في الدين بل إعادة النظر في رؤيتنا وفهمنا الديني والعودة إلى الإسلام الحقيقي.... ونحن إذا لم نكيف رؤيتنا مع منطق العصر، ولم نتعرّف على الإسلام الفاعل الإيجابي المسئول فمن المحتمل أن نضيع الكثير من أصولنا العقائدية خلال جيلين آتيين، وسنفقد الأجيال القادمة أبسط الميل والتّفاعل مع هذه الأصول، ويضحى لها الإسلام الواقعي والإسلام الخرافي على حد سواء».(1)

وإنّ من طبيعة الحياة الإنسانية أن ترتدّ وتأسن، ويطرأ عليها بمرور الزّمن ما يكدّر صفائها، فلا يكاد النّاس يستقيمون على الإيمان والتّوحيد، حتى تبدأ عوامل الانحراف تتسرّب إليهم شيئًا فشيئًا، ولا يلبث نقاء العقيدة أن يشوبه شيء من ذرائع الشّرك ووسائله وأسبابه ثمّ تظهر بعد حين النتائج المخوّفة من وراء ذلك الانحراف «وفي هذا العصر وجد المسلمون حياتهم تجري في كثير من مجالاتها على غير هدى من الدين».(2)

وإذا كان المنافقون والضّالون يجدون من يستمع إليهم ويصغي إلى وساوسهم رغم وجود الرّسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– الذي يمثّل القيادة السليمة والقدوة الصّالحة، فكيف يكون الأمر إذا ضاعت السُبل، وتفرّقت الأهواء، وكثرت الأصوات المضلّلة، وخَفَتَ صوت الحقّ، والتبست معالمه، وإلى هذه الحقيقة المرّة من واقع الأمّة يبيّن –حسن الترابي– دواعي التجديد ومقتضياته قائلا: «ما يجعل وقع التّجديد الحاضر شديدًا أنّه يقع على غالب جوانب الحياة الدينية، يستدعيه اتّساع مدى التقادم والبلى فيها، ومن خصائص الانحطاط الديني أنّه يتدارك ويمتدّ بتطاول العهد، لأنّ الدين وحدة متكاملة ما يبلى منه جانب إلاّ أوشك سائره أن يبلى. وقد تطاول العهد بالفعل دون أن تدركنا نفحة تجديد شافية».(3)

إنّ الحاجة في مثل هذه الحالة تتطلب بروز قيادة راشدة متميّزة تجدّد للأمّة أمر دينها، وتجلّي الحقائق الملتبسة، وتُحيي الفرائض المعطّلة، وتُزيل ما علق بهذا الدين من الآراء الضّالة، والفهومات المنحرفة «يتعاونون فيما بينهم فيما يشبه الرّابطة أو الجمعية، وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدّعوة والثقافة وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التّربية

(1) – علي شريعتي، الأمّة والإمامة، مؤسّسة الكتاب الثقافية، –طهران –إيران، [2006م] ص: 09

(2) – عبد المجيد النجار، مرجع سابق، ج1/ 36

(3) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، دار البعث –قسنطينة – الجزائر، ط/1، [1990م]، ص: 171

والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعي، وفئة أخرى في المجال الاقتصادي، وخامسة في المجال السياسي. ولا مانع من تعدّد هذه المجالات واختلاف ألوان العمل والتجديد».(1)

وبمثل هذه القيادة التي تضطلع بمهمّة الخلافة عن التبيين في تجديد الدين وإحيائه، بشّر الحديث النبوي الشريف.

إذًا فمسؤولية التجديد منوطة بالعلماء وجماعة المسلمين الذين استخلفهم الله في الأرض جيلاً بعد جيل، فإليهم تُسند أمانة التكليف بإقامة الدين، وبهم تُناط المسؤولية.(2)

ومن أجل ذلك تميّز فرد أو أفراد بأنّهم المجدّدون، لأنّهم صابروا العقبات وغلبوها، لأنّ همّتهم كانت أعظم من كل العقبات، كانت تجديد الدين لهذه الأمّة، وإعطاء المسلمين دورهم الريّادي بين الأمم، مع تحقيق معنى انتمائهم للإسلام بعد أنْ جثم على الأمّة الإسلامية «عهد الانحطاط طويلاً واستحكمت الغفلة الرّوحية والعطالة العقلية والتبلّد العلمي».(3)

وممّا يُبيِّن لنا دواعي التجديد ومقتضياته أنّ الأحداث والمصائب النّازلة بالمسلمين في دينهم ودنياهم في ظل غياب المجدّد، هي أحداث متسلسلة ولا موقوفة بأزمنة خاصة، ولا يُقال بأنّ الإسلام أحكامه محكمة وثابتة بالكتاب والسّنة، وهذان لا يدخلهما أي تجديد وهو صالح لكل زمان ومكان، لا يُقال ذلك، لأنّ التجديد المراد ليس نسخًا أو تغييرًا لأحكام الإسلام المحكمة فتلك لا يدخلها تغيير أو تجديد، فالمراد من التجديد هو مسايرة العصر دون مساس بالأحكام المحكمة، والمقصود بمسايرة العصر، النّظر في الأمور المستجدّة والأشياء المستحدثة، أمور لم تكن في عصور التّشريع.

ومن دواعي التجديد ومقتضياته النّظر في هذه الأمور المستحدثة وإيجاد حلٍّ لها حتّى لا نقف حيارى في أمور ديننا، إذ ليس من أمور الدين الإسلامي الوقوف على القديم وعدم الأخذ بما أستجدّ من معاملات، فإن ذلك يجعلنا في عزلة عن العالم الذي نعيش فيه، بل سيكون ذلك سببًا لعزوف كثير ممن يرغبون في اعتناق الإسلام، فيجب على المسلمين أن يُظهروا محاسن الإسلام وأنّه صالح لكل زمان ومكان، فإذا لم يكن هناك سعة صدر لتقبّل ما استجدّ من أمور وإيجاد الحكم المناسب لها فلن يكون صالحًا لكلّ زمان ومكان.

---

(1) – يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية، مرجع سابق، ص: 55

(2) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 36

(3) – المصدر نفسه، ص: 170

يقول -يوسف القرضاوي- مؤكّدًا على أنّ الحاجة إلى الاجتهاد «حاجة دائمة مادامت وقائع الحياة تتجدّد وأحوال المجتمع تتغيّر وتتطوّر، ومادامت شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان وحاكمة في كل أمر من أمور الإنسان».(1)

فليس معنى التجديد إذن إهمالٌ للأحكام الثّابتة المحكمة، بل هي الأساس الذي يُبنى عليه التجديد المراد هنا وبدونها فلا تجديد. بل هدم وتقويض لهذا الصّرح الشامخ، ويؤكّد هذا المعنى نفسه -حسن الترابي- في قوله: «أليس الدين هديًا أزليًا خالدًا لا مكان فيه للتجديد، والذي يتجدّد ويتقادم ويبلى إنّما هو الفكر الإسلامي، والفكر الإسلامي هو التّفاعل بين عقل المسلمين وأحكام الدين الأزلية الخالدة».(2)

فالإسلام ليس «دينًا مرعبًا يُمثّل التسلّط على العقل البشري والحياة البشرية ليزجّها في قوقعة من الثوابت تشمل كلّ شيء ولا تكاد تغادر شيئًا. فالإسلام لا يُصادر العقل السليم ولا الحياة المستجدّة ولا التطوّر الذي هو من سنن الحياة وطبيعتها كما أنّه لا يصادم أيّة نظرية علمية صحيحة ولا قضية من القضايا التي حكم عليها العقل الإنساني بالبقاء».(3)

إذن فتجديد الدين مشروع ومأمور به، وهي واحدة من المهام التي يجنّد الله لها العلماء الربّانيين بعد أنْ ختمت الرّسالات ببعثة خاتم الرّسل والأنبياء محمد -عليه الصلاة والسلام- أمّا التّبديل فتضييع للأمانة، وخيانة للعهد «فالتجديد إحياء لمعاني الدين الحقّ في النفوس، ثم إقبال على واقع التديّن لترقية الالتزام بأحكام العمل المقرّرة شرعًا ولمكافحة ما طرأ على التديّن من بدع غشيت الدين من ممارسات سالفة خاطئة ليست منه في شيء أو أشكال تعبير عفوية لابسته لعهد سبق و لم تعد مناسبة، ثم جهاد لتحقيق الدين في ثوبه المتجدّد».(4)

(1) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، -القاهرة، [1414هـ-1994م]، ص: 06

(2) – حسن الترابي، الفكر الإسلامي هل يتجدد؟، مكتبة الجديد، -تونس، د.ت، ص: 23

(3) – محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، خصائص الفكر الإسلامي، دار الإمام الاوزاعي -دمشق، ص: 42

(4) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 155

فلا نذهب بعيدًا في تلمس دواعي التجديد ومقتضياته وبين أيدينا نصٌّ قاطع من نصوص السّنة الصّحيحة يؤكّد على ضرورة التجديد في الدين بصورة منتظمة على أيدي النابهين من علماء هذه الأمّة **"إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها"**.(1)

كما يجب أن ننتبه إلى أن كثيرًا من المحاولات الفكرية التي رفعت شعار التجديد تعمّدت إقصاء الفكر الإسلامي، يقول الباحث -منير شفيق- بأنّ «إقصاء الفكر الإسلامي من قبل النزعة الغربية بدأ بلفظ التجديد. ومن هنا إذًا كان التجديد يقصد به إقصاء الفكر الإسلامي».(2)

وقد كان لهذه المحاولة انعكاس محدود التّأثير على دواعي التجديد في الفكر الإسلامي، فلا يكاد صوت يرتفع اليوم مناديًا بالتجديد في الفكر الإسلامي شاكيًا من الجمـــود والانغلاق، مناقشًا في ذلك أقوال العلماء من السّلف أو من المعاصرين، أو داعيًا إلى مراعاة ظروف الزّمان والمكان، حتى تتناوشه من كل جانب صيحات المحذّرين والمنذرين، يذكّرون بالمزالق والمخاوف والمحاذير، ويؤكّدون على أنّ الدّعوة إلى التجديد مدخل لإسقاط الالتزام بالشريعة وباب شرّ ينفذ من خلاله المغرضون، والرّد على هؤلاء هو أنّ الإسلام بما هو دين الزّمان والمكان لا بد أنْ يشتمل على ثوابت خالدة وعلى متغيّرات متحرّكة، وأنه في مجال الثوابت جاء بتحديدات خالدة لا تتأثّر بتقلّبات الزّمان والمكان ولا بحركات التطوّر، والأمر بالعكس في مجال المتغيّرات الذي خوطب فيه النّاس بمبادئ عامّة ومجملات مرنة، وظنّيات واسعة يمكن أن تنزل على الواقع بوجوه شتى تبعًا لتطوّر ظروف الحياة وعلاقاتها.

ولا نختلف مع أحد في حاجتنا إلى التجديد، لأنّ التجديد من مقتضيات تطوّر الحياة والمجتمعات.

وبما أنّ التجديد هو مطلب اجتماعي فهو كذلك مطلب عقلي، إذْ ليس من العدل والإنصاف أن نطلب من أحد أنْ يأخذ بفكر من سبقه من غير المناقشة أو إبداء رأي إذْ أنّ الإنسان منذ فجر التاريخ وإلى يومنا هذا يعيش في تطوّر مستمر في جميع أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.... وهذا أمر محسوس لا يحتاج إلى دليل لإثباته.

فهذا التطوّر في الحياة يجب أن يواكبه فكر متجدّد ينبع عن رؤية متفحّصة لقضايا الإنسان

---

(1) – سبق تخريج الحديث

(2) – منير شفيق، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، بيروت، دار النشر، سنة [1991م]، ص: 68

واهتمامه، وكلّما كان الفكر متجدّداً متوافقاً مع النّهضة التي يعيشها المجتمع كلّما كان الإشباع أكمل والفكر الإسلامي يواكب تطوّر الحياة.

فمن القواعد الفقهية المقرّرة أنّ الأحكام الشّرعية التي وضعها المجتهد بناء على ما كان في عرفه وزمانه فإنّها تتغيّر بتغيّر الزّمان والمكان، وبما أنّ الإنسان كائن حي له حاجات متعدّدة، وهذه الحاجات تختلف من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، ومهمّة التجديد تقتضي تلبية حاجات الإنسان وهي مقياس نجاحه، فالفكر الناجح هو الفكر الذي يُلبّي حاجات الإنسان المشروعة المتجدّدة مهما اختلفت العصور أو الأمكنة بقابليته للتجديد، ويُمثّل فقه الضّرورة في الفكر الإسلامي تطبيقًا عمليًا لتلبية ضرورات الإنسان وحاجاته، وقد استعمله فقهاؤنا في كثير من المسائل نذكر منها على سبيل المثال:

- الإفتاء بجواز أخذ الأجرة على الطّاعات كالإمامة والأذان وتعليم القرآن لحاجة النّاس إلى من يقوم بأداء هذه الشعائر وإن كان الأصل أنّ كلّ طاعة تجب على المسلم لا يجوز الاستئجار عليها.(1) لأنّه لا يضير «ديننا ونبيّنا –صلوات الله عليه– في شيء أن نُفيد من كل شيء في هذه الحياة من العلوم والدّراسات وتجارب الشعوب والأمم، فنكون كالنّحلة، نأخذ من كلّ شيء أحسنه ورحيقه ثم نُخرج لأنفسنا من الحلول والإجابات ما يتناسب مع وضعنا وعقليتنا»(2) بشـــرط أن تكون هذه الإفادة موزونة بمعيار الشرع، مضبوطة به ومنبثقة من روحه من غير تعارض مع نصوصه وقواعده.

فعظمة الدين الإسلامي تتجلّى في قابليته لاستيعاب مشكلات العصور، فما من مجتمع على وجه الأرض إلاّ وله مشكلاته المختلفة، والفكر النافع هو الفكر الذي يقدّم حلولاً لمشكلات مجتمعه، ولا شك أن المشكلات تتجدّد بتطوّر المجتمع، فتظهر مشكلات لم تكن موجودة من قبل فيستلزم ذلك فكرًا جديدًا أو متجدّدًا لحل هذه المشكلات «فلا قوام لإسلام بغير حركة تدين نشطة تحقّقه من مادة حركة الحياة، فإذا جمدت حركة المسلمين –من حيث هم مسلمون– جمد إسلامهم وتشكّل تاريخ حياتهم بطبيعة غير إسلامية، وإذا كان التجدّد معنى مُلزمًا للحركة والحركة معنى مُلزمًا للإسلام، فإن التجديد من ألزم مقتضيات دين الإسلام».(3)

(1) – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسوعة الفقهية، الكويت، ج1/ 168، www.islam.gov.kw

– ياسر بن طه علي كراوية، المعاملات المالية المعاصرة في الفكر الاقتصادي الإسلامي، ص: 35، www.kantakji.org

(2) – محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، مرجع سابق، ص: 45

(3) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 191

وقد لمعت في سماء تاريخنا المعاصر فرصة لتجديد حقيقي يضع أقدامنا على طريق نهضة إسلامية حقيقية، اضطلع بها رعيل من المجدّدين المحدثين والمعاصرين، ممّن حملوا شعلة التجديد الحديث في طول العالم الإسلامي وعرضه، بدأها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وسار في دربها مجدّدون في كثير من الأقطار الإسلامية في مصر، والهند وتركيا والعراق وإيران وسوريا والمغرب وتونس والجزائر وغيرها.(1)

ورغم أن حركات التجدّد هذه أحرزت نجاحات عديدة لا تنكر، إلاّ أنها لم تنجح في تفعيل الفكر الإسلامي، بحيث يواكب المستجدّات السياسية والاجتماعية والثقافية، ويتعامل معها تأثيرا وتأثّرًا «ولعلّ سبب إخفاق حركة الإسلام، مهما صدقت نياتها المؤمنة، في تحقيق الإصلاح الداخلي والعز الخارجي هو أنّها لم تجعل منهج التجديد شاملاً شمول الدين التوحيدي»(2) حيث يحيا الإيمان منبعثًا ليلد علماً متفجرًا، يثمر عملاً مباركاً ويتمثّل جماعة فاعلة.

ومن الجدير بالملاحظة والاعتبار أنّه ليس كلّ ما صحّ في وقت ما في تعامله مع ظروف ذلك الوقت صالحًا بالضرورة لوقت آخر وظروفه، وعليه فإنّ الإصلاح ليس بالضّرورة أن يكون إصلاحًا لشيء فاسد، بل قد يكون لتحريك ساكن أو إصلاح ما أصيب بخلل، وإن من مقتضى التجديد ودواعيه أن نتحرّك بذكاء وحكمة وإتقان، وأن يكون التّفاعل مع الواقع الحي هو الذي يعرّض الفكر لتحديات الظروف المتجدّدة كل يوم ويستفزّه إلى أن يستجيب لها فيتجدّد.

ونخلص إلى القول ممّا سبق بيانه أنّ التجديد كلمة إسلامية أصيلة، وليست دخيلة ولا غريبة، ودلالتها إسلامية، وبهذا لا معنى لتوجّس البعض خيفة منها، وقد جاء ذكرها وبيانها في الحديث النبوي الشريف، فلم يعد يسَع مسلمًا أن يتخوّف من استعمالها، وإنّما المهمّ هو تحديد مدلولها، حتّى لا يستخدمها كلّ فرد بما يحلو له، كما أنّ واقع الأمّة حافل بالوقائع والأحداث، فمن دواعي التجديد ومقتضياته النّظر في هذه الأمور المستحدثة، وإيجاد حلٍّ بما يلائم الواقع، إذْ ليس من الإسلام الجمود على القديم وعدم الأخذ بما استجدّ من معاملات، فإنّ ذلك يجعلنا في عزلة عن العالم الذي نعيش فيه، وعليه يجب إظهار أنّ الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان.

---

(1) – محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبه –القاهرة، [1981م]، ص: 143

– ولمزيد من التوضيح حول ريادة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لتجديد الفكر الإسلامي يمكن الرجوع إلى الصفحات 143-151 من المرجع نفسه.

(2) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص: 179

المبحث الثاني:

ضوابط التجديد

إنّ أشدَّ ما نحتاج إليه اليوم، هو وضع ضوابط للتجديد المشروع في ظل تنامي الأفكار والآراء الوافدة إلينا من جميع الحضارات وخاصة منها الغربية، فعصر العولمة وما سبقه من تطور علمي كبير وطفرة هائلة في مجال الاتّصالات، ونقلة نوعية في مجال الإدارة وغيرها، كل ذلك أوجد تحدّيات كبيرة متنوعة أمام الفقه أو بالأحرى الفكر الإسلامي، شملت مجالات الاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية والعلوم الطبيعية، الأمر الذي يتطلّب معالجة جذرية عبر آلة التجديد والاجتهاد، وعليه كان لزامًا علينا وضع ضوابط تُغربل هذه الأفكار التي يتبنّاها بعض المسلمين لتجديد فكرنا الإسلامي، وأيضًا فإنّ هذه الضوابط تميّز لنا ما يقدّمه لنا مفكّرونا من آراء تجديدية من خالص فكرهم، فنعرف من خلالها ما يتّفق ومبادئ شريعتنا وما يخالفـــها، إذ أنّ العقل لا حدود له فهو يتصوّر المستحيلات ويجمع بين المتناقضات.

إنّ هذه الضوابط هي التي تحفظ فكرنا التجديدي من الفوضى الفكرية التي قد تكون سببًا لنشوء النّزاعات، وهدم المجتمعات، وبذلك نكون قد أُصبنا في مقتل: « وأخشى ما أخشاه هو الهزيمة النفسية أمام الحضارة الوافدة، والاستسلام للواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يضعه الإسلام و لم يضعه المسلمون، بل وضعه لهم الاستعمار المتسلّط، وفرضه عليهم بالقوّة والمكر، وقام هذا الباطل الدخيل، في غفلة من أهل الحقّ الأصيل»(1) وهذا الشّعور بالخوف هو ما دفع –القرضاوي– إلى التّنويه بدور المجدّد الحقيقي الذي يجدّد الدّين بالدّين وللدّين، أمام كلّ المحاولات الهادفة لتجديده من خارجه بإيحاءات دخيلة عليه وأفكار مستوردة، تخدم مصالح أعداء الدّين والأمّة، وهو أبعد ما يكون عن التجديد المنشود.(2)

(1) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، مرجع سابق، ص: 46

(2) – المصدر نفسه، ص: 55

والتجديد من الأمور التي لا يمكن أن تتمّ بغير ضوابط صحيحة وواضحة، وبالنّظر إلى أن الهدف من التجديد هو محاولة «ردّ الاعتبار للقيم الدينية، ورفع ما أثير حولها من شبه وشكوك، قصد التخفيف من وزنها في نفوس المسلمين، وكذلك محاولة السير بالمبادئ الإسلامية، من نقطة الرّكود التي وقفت عندها في حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر، حتى لا يقف مسلم موقف المتردِّد بين أمسه وحاضره، عندما يصبح في غده».(1)

فَنقْل الدّين من قرن إلى قرن، ومن جيل إلى جيل، وهو محاط بالحفظ والصّيانة، بحيث لا يزاد فيه ولا ينقص منه، ولا يُحال بينه وبين قيادة الحياة الدنيا وتوجيهها والتي جاء لإصلاحها، هي غاية ما يصبو إليه الفكر الإسلامي المتجدّد.

ولعلّ أهم ضوابط التجديد ما يلي:

أولا: ألاّ يؤدّي الفكر التجديدي إلى التصادم مع النصوص الشرعية أو الإخلال بها:

لأنّ الأصل هو التمسّك بالنّصوص الشرعية لقوله تعالى: ﴿ **وأطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرّسُول فَإن تَوَلّيتُم فَإنّمَا عَلى رَسُولِنا البَلاغ المُبِين** ﴾ [التغابن: 12] وغير ذلك من الآيات والأحاديث الداعية إلى طاعة الله تعالى ورسوله. فأي فكر يتعارض مع النّصوص الشرعية القطعية لا اعتبار له وعليه فإنّ «الأمر الذي يجب تأكيده بقوّة هو أن ما ثبت بدليل قطعي لا يجوز أن ندع للمتلاعبين أن يجترئوا على اقتحام حماه. فإنّ هذه القطعيات هي عماد الوحدة الاعتقادية والفكرية والعلمية للأمّة، وهي لها بمثابة الرّواسي للأرض، تمنعها أن تميد وتضطرب ولا يجوز لنا التساهل مع قوم من الأدعياء يريدون أن يحوّلوا القطعيات إلى محتملات، والمحكمات إلى متشابهات، ويجعلوا الدين كلّه عجينة ليّنة في أيديهم يشكّلونها كيف شاءت لهم أهواؤهم ووسوست إليهم شياطينهم».(2)

---

(1) – محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص: 329

(2) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد شروطه حكمه مجالاته وحاجتنا إليه اليوم، مؤسّسة اتحاد المغرب العربي للتأليف والترجمة والنشر والتوزيع البليدة –الجزائر، [1983م]، ص: 42

وإلى هذا المعنى نفسه يُشير -عبد اللطيف فرفور- في قوله بأنّ: «الدّين معايير ومنطلقات وركائز وهو كذلك مجموعة ضوابط تضبط الحياة البشرية من التردّي في مهاوي الضـــلال في التصوّر والسّلوك».(1)

فالفكر الذي يبيح الرّبا ويرفض الحجاب الشرعي للمرأة، أو يجيز السّماح بالخمر من أجل رفاهية ومتطلّبات السيَّاح أو تعطيل فرضية الصّيام بدعوى زيادة الإنتاج، أو تعليق الزكاة اكتفاء بالضرائب الحالية، ونحو ذلك ممّا جاءت به النّصوص القطعية في ثبوتها، القطعية في دلالاتها —هو فكر مرفوض. وحقيقة التجديد كما بيّن -أبو الأعلى المودودي-: «لا يكون عبارة عن التماس الوسائل لمسالمة الجاهلية، ولا هو عبارة عن إعمال خلط جديد من الإسلام والجاهلية، بل التجديد في حقيقته هو تنقية الإسلام من كلّ جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل على إحيائه خالصاً محضًا على قدر الإمكان».(2)

صحيح أنّ الإسلام جاء بإرساء القيم الأساسية والمبادئ العامة للحياة الإسلامية، ويقيّم العِوَج ويتمّ مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ويضع الأمور في موازينها، ويُنقّي العقل من الخرافات والأوهام، والنفس من الشرك والوثنية، ويخفّف من غلواء التشدّد «وترك أمر الخطط والبرامج والصياغة والتنـــزيل للفكر البشري —الاجتهاد- لكن لابد أيضا لهذا الاجتهاد أنْ يبقى محكوما بأبعاد العقيدة كما وردت في الكتاب والسنّة، والقيم الضابطة لمسيرة العقل والحياة الإسلامية لا يخرج عنها، فالقيم والمبادئ وحي من الله، ومن هنا فهي ثوابت وأُسُس».(3)

فلا يضيرنا في شيء أنْ نفيد من كل شيء في هذه الحياة من العلوم والدّراسات وتجارب الشعوب والأمم وعلينا «أنْ نفسح صدورنا للاجتهاد وإنْ خالف ما نشأنا عليه من آراء وأن نتوقع الخطأ من المجتهد، ولا نضيق به ذرعًا، لأنّه بشر غير معصوم، وقد يكون ما قد حسبناه خطأ هو الصواب بعينه، وربَّ رأي رفضه جمهور النّاس يومًا ثم أصبح بعد ذلك هو الرّأي المقبول والمرتضى».(4)

ونحن بهذا الفكر الواعي نأخذ من كل شيء أحسنه، ونخرج لأنفسنا من الحلول والإجابات ما يتناسب مع وضعنا وعقليتنا، ونقيمه على أساس صحيح موزوناً ومضبوطاً بمعيار الشّرع متوافقاً مع أهدافه ومقاصده، ولا يتعارض مع نصوصه وقواعده.

(1) — محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، خصائص الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص: 44

(2) — أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، مرجع سابق، ص: 52

(3) — عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلاً، مرجع سابق، ج2/ 10

(4) — يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، مرجع سابق، ص: 47

ثانيا: أن يكون تخصصيًا:

فالعلم الشرعي ليس كلأ مباحًا لكلّ من هبَّ ودب، بل علم له أهله قال الله تعالى: ﴿ **فَاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إِنْ كُنتُم لا تَعلَمُون** ﴾ [النحل: 43] ومادام التجديد مضافاً إلى الدين فإنّ من العبث أن يقوم بالتجديد أو يدّعيه من لا تربطه بالدين أيّة علاقة، كما أنّ من العبث وإضاعة الوقت والجهد أنْ يقوم بالتجديد من لا يتجاوز علمه بعض الواجبات أو بعض المحرّمات على سبيل التقليد، وعصرنا قد غلب عليه التخصّص، فلا مانع من أن يضطلع أهل كل تخصّص في الشّرع بتخصّصهم، ويستفرِغوا جهدهم في سبر غوره وحلّ مشكله وتذليل معضله، وعلى ذلك فإنّه يمكننا أن نحدِّد بعض الملامح والمواصفات الضّرورية التي يجب توفرها في المجدّد فمن ذلك:

أ - أنْ يكون من أهل هذا الدّين المؤمنين به على النحو الذي جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ب- أنْ يكون من المتفقّهين فيه المتمسكّين به في أقوالهم وأفعالهم لا يظهر منه تهاون فيه أو خروج عليه، أو تساهل وتفريط فيما دلّ عليه.

ج- أنْ يكون خبيرًا بواقع الأمّة عارفًا بعللها، وأنْ يكون محيطًا بالأحوال العالمية من حوله والتي لها علاقة بأمّته فإنّه لا يتحرّك في فضاء.(1)

وعلى هذه الصّفات نفسها أكّد -يوسف القرضاوي- في قوله: «بأنّ المجتهد الحقّ هو الذي ينظر إلى النّصوص والأدلة بعين، وينظر إلى الواقع والعصر بعين أخرى، حتى يوائم بين الواجب والواقع ويعطي لكلّ واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها».(2)

ويؤكّد -يوسف القرضاوي- على أهمية شرط معرفة النّاس والحياة فيقول: «وهذا شرط لم يذكره الأصوليون في شروط الاجتهاد، وهو معرفة المجتهد بالنّاس والحياة من حوله، وذلك أنه لا يجتهد في فراغ، بل في وقائع تنزل بالأفراد والمجتمعات من حوله، وهؤلاء تؤثّر في أفكارهم وسلوكهم تيارات وعوامل مختلفة، نفسية وثقافية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، فلا بدّ للمجتهد أن يكون على حظ من المعرفة بثقافة عصره وظروف مجتمعه ومشكلاته».(3)

(1) – محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مرجع سابق، ص: 18

(2) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، مرجع سابق، ص: 44

(3) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد،شروطه حكمه مجالاته وحاجتنا إليه اليوم، ص: 26

وعلى هذا الاعتبار فإن فهم الواقع الإنساني بالنّسبة للمجدّد، يصبح عاملا بالغ الأهمية لأنّ «الاحتكام إلى الكتاب والسنّة يفرض بالضّرورة إحداث عملية إخصاب بين النّص الشرعي والواقع المعيش، وهذا يستلزم بالضّرورة أيضا تجاوز الاجتهادات الفقهية السابقة التي كانت وليدة بيئتها وعصرها. وهو بمعنى آخر إعادة تنزيل الإسلام من جديد على واقع النّاس بمعطياته وظروفه، باكتشاف إجابات جديدة على التحدّيات المعاصرة».(1)

فعلى المجدّد أن يجمع بين علم النّص والواقع، إذْ لا بد لهيئة التجديد والاجتهاد أن تجمع بين معرفة النّصوص الشّرعية وأحوال الواقع حتى يكون الحكم صحيحًا: «فقد كان أكثر الأئمة الأوائل يولون أهمية لهذا الواقع، في فهم الدّين، وخاصة منهم الإمام مالك الذي توسّع فيه توسعًا مشهورًا، ولكن بمرور الزّمن وتناقص الثّراء في الواقع الحضاري للمسلمين، والميل إلى التمسّك بالفقه النظري الذي هو أقل عرضة للاختلاف، تناقص الاهتمام بأصول الواقع في فهم الدين، وأُسقط من الاعتبار في هذا المجال. في جملة ما أصاب الفكر الديني عامة. من بُعدٍ عن التفاعل مع واقع الحياة الإسلامية».(2)

فالتجديد هو مقاربة للأفكار في إطار سياقات يتحكّم فيها الزّمان والمكان، وتحكمها الثوابت والعقيدة والأحكام، والإسلام كرسالة خاتمة للرّسالات السماوية يدعو البشرية للانفكاك من القيود التي تعيق وتمنع حركتها نحو التقدّم، ويهيب بالإنسان أنْ ينفتح على الآراء والأفكار المختلفة ليكتشف الأفضل منها إذا ما احتاج إليها مع مراعاة مشروعيتها قال تعالى: ﴿ **الّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحسَنَه** ﴾. [الزمر: 18]

فالإسلام يذمّ عقلية الرّكود وحالة الجمود، لأنّها تنتهي بالإنسان إلى التخلّف عن ركب الحياة «ولكن عصبية التقليد تأبى أن تنفتح لمقتضيات التجديد، وتؤدّي إلى قلق شديد إزاء كل تغير جديد فضلاً عن المعنى الجديد».(3)

فالحياة الإنسانية حافلة بوقائع جديدة تتطلّب مواجهتها بحلول تناسبها إن اقتضى الأمر، وهي لا تتحقّق باستنساخ الحلول الاجتهادية القديمة بل بفهم الواقع الجديد، وبالبحث المستفيض عن المبادئ التي تحكم أمثاله، يقول -عبد اللطيف فرفور-: «أعتقد أن لو أنصف المفكّرون

(1) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي الحديث، جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة– الجزائر، [1995/1994م]، ص: 80

(2) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 116

(3) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 200

الإسلاميون الحقيقة لتركوا التنطّع في الدين جانبًا، ولذهبوا يبحثون عن حلول لمشكلات العصر على ضوء هذه النظرية إذا لأَغنَوا المعارف الإنسانية، وأراحوا أنفسهم، وأراحوا النّاس من تَجَشّم عناء البحث عن كل فتوى لكل واقعة مستجدّة من كتب الأقدمين بالنّص الحرفي....»(1)

ثالثا: المزاوجة بين النصوص والمقاصد:

إنّ الشريعة الإسلامية السّمحة تتّسع لتجديد الفكر، ولتغليب المقاصد على الالتزام الشكلي الصّارم بحرفية النّصوص، فهي تشجع البحث والاجتهاد للأفضل والأحسن، قياسًا على المقاصد الكلية واعتبارا بهدي الإسلام «فما أمر الله عباده بشيء إلاّ لما في فعله من المصلحة الرّاجحة إليهم، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما، وكذلك ما نهى عن شيء إلاّ لما في تركه من المصلحة الرّاجحة إليهم، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي الأَرضِ جَمِيعًا** ﴾ [البقرة: 29]»(2)، ومع أنّ الهيئات العلمية المتخصصة تُقرُّ بالاجتهاد والتجديد، إلاّ أنّ الملاحظ هو أنّ ما يجري من الاجتهاد من المستجدات و النّوازل لا يخرج عن إطار التشبث بالفقه القديم التقليدي، فهو قائم عل فقه المباني دون فقه المعاني، القائم عل دراسة الواقع ومقاصد الشّريعة مع علمهم بأنّ مقاصد الشريعة قطعية.

فعملية التجديد تقتضي مزاوجة بين النّص الشرعي ومقصده، إذْ لا يصحّ حكم شرعي إذا بُني على علم بالنّص وجهل بالمقصد والمآل.

فعلى المجدّد الذي يبتغي المواءمة بين الفقه الإسلامي والواقع المتجدّد باستمرار، أنْ يستعين بمقاصد الشريعة ومبادئها العامة التي تُشخِّص الاتّجاه الحقيقي لمعالجة قضايا النّاس، وتعالج التضارب الذي قد يحصل في تفسير النّصوص التي تتناقض بشأنها مختلف الدّلالات والمعاني، ومن أهمّ مؤيّدات هذا القول، أنّه سبحانه وتعالى ما أرسل الرُّسل وأنزل الشرائع إلاّ لإقامة نظام للبشر يُعينهم على إدراك مصالحهم، وتحقيق العدل بينهم قال تعالى: ﴿ **لَقَد أَرسَلنَا رُسُلَنا بالبيِّنَات وأَنزَلنَا مَعَهُم الكِتَابَ والميزَان لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسط** ﴾ [الحديد: 25] ، والقسط هو العدل الذي يحقق مصالح النّاس ويرفع الحرج عنهم، ومن هنا جاز للمسلم أن يحنث بيمينه

(1) – محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، خصائص الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص: 46

(2) – محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مرجع سابق، ص: 24

ويأتي بما هو خير ومصلحة لما ثبت عن الرّسول –صلى الله عليه وسلم– حينما قال: "**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنهَا فَلْيُكَفِّر عَنْ يَمِينِه وَلْيَفْعَل**"*(1). وقد دلّت النّصوص الشرعية على أمور مطلوب تحقيقها وإيجادها، وعلى أخرى مطلوب نفيها وإبعادها، كلّ ذلك لحكم وغايات «فالحكم والغايات التي يطلب تحقيقها بتلك النّصوص هي المراد بمقاصد التشريع، ومن البيِّن أنّ المقاصد هنا مقاصد شرعية، لأنّها مأخوذة من نصوص الشريعة، كما أنّ المقاصد لا يمكن أن تتعارض مع النّصوص».(2)

وإذا كان إيجاد الأحكام الشرعية لما استجد من أمور داخل في تجديد الدين فإنّ معرفة المقاصد وفقهها ومعرفة ضوابطها وشروطها وكيفية استنباطها تُعدّ من الضوابط المهمّة في تحصيل التجديد المشروع، من غير إفراط في تغليب المقاصد على النّصوص لأنّه مسلك خاطئ ولأنّ فيه إهدارا للنّصوص والمقاصد معا.

رابعا: أن يكـون جمـاعيـا:

إنّ وجود العلماء أصحاب العلم الموسوعي قد ندر، إنْ لم يكن قد انعدم ولا بد من قيام هيئات جماعية تقوم بالتجديد، لأنّ الله تعالى عصم هذه الأمّة أنْ تجتمع على خطأ، فما أجمعت عليه لا يكون إلاّ صوابًا، وهذا لا يتنافى بطبيعة الحال مع الجهد الفردي في الاجتهاد والتجديد: «وينبغي أن يكون الاجتهاد في عصرنا اجتهادًا جماعيًا في صورة مجمّع علمي يضمّ الكفايات الفقهية العالية، ويصدر أحكامه في شجاعة وحرّية، بعيدًا عن كل المؤثّرات والضّغوط الاجتماعية والسّياسية، ومع هذا لا غنى عن الاجتهاد الفردي، فهو الذي يُنير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي».(3)

فالتجديد الجماعي يعصم من الوقوع في الخطأ في الفهم والاستدلال وقد علّق –حسن الترابي– نجاح عملية التجديد بضابط الجماعة فقال: «إنّ التجديد اليوم الواسع الشّامل وبمغزاه الأصولي وبوسائله الشديدة لا يمكن أن يتأتى إلاّ بقيادة جماعية، تتّسع لتستوعب كل هموم التجديد

---

* حدثنا قتيبة عن مالك بن أنس، عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريـرة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال "من حلف علـى يميـن فرأى..."

(1) – أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الجامع الصحيح، –سنن الترمذي–، كتاب النذور والإيمان، باب ما جاء في الكفارة قبل الحنث، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، ج/4، رقم الحديث: 1530، ص: 107

(2) – محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، ص: 26

(3) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد، شروطه–حكمه–مجالاته وحاجتنا إليه اليوم، ص: 63

وتقوى على النهوض بأعبائه الفكرية والعلمية».(1)

فالتجديد السليم هو ما كان لجماعة المسلمين الذين أُسندت لهم مهمّة التكليف بإقامة الدين والذين تُناط بهم المسؤولية، لاسيما في عصرنا هذا الذي تشعّبت فيه الحياة وتعقّدت، من أن يقوم به شخص واحدٌ مهما كانت مكانته العلمية وقدرته على دفع عملية التجديد.

وعليه فإنّ مجال التطلّع إلى التجديد وإرادته صدقًا لا قولاً يجب أن يتّسع ليشمل علماء الدين أوّلاً، القادرين على القول في الدين عن معرفة كافية وضرورية، كما تشمل النُّخَب المسلمة الأخرى المتشبِّعة بقيم الحرية والحداثة والقادرة على توظيف وتفعيل دور العقل في إطار الثوابت الشّرعية.

وغير بعيد عن هذا المعنى يؤكّد -يوسف القرضاوي- على ضرورة اعتماد «الاجتهاد الجماعي الذي يقوم في صورة مجمّع فقهي عالمي، يضمّ الكفايات العلمية العالية، ويصدر أحكامه بعد دراسة وفحص، بشجاعة وحرية، وبعيدًا عن ضغط الحكومات، وضغط العوام. ومع هذا أؤكد أنّه لا غنى عن الاجتهاد الفردي الذي يُنير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدّم من دراسات متأنّية مخدومة».(2) ولكن، وتجنّبًا للوقوع في الخطأ والزلل في حالة الاجتهاد الفردي، وخشية وجود خلل في شروط قبول الاجتهاد، ينبغي ضرورة التوجّه إلى الاجتهاد الجماعي، بلقاء أهل العلم مع وجود أصحاب الاختصاص في المسائل المعروضة.

خامسا: الجمـــع بين الانتقـــاء والإنشـــاء:

لا يُقال إنّ الإسلام أحكامه محكمة وثابتة بالكتاب والسنّة، وهذان لا يدخلهما أيّ تجديد وهو صالح لكلّ زمان ومكان، فهو كما كان في عصر النبوّة سيستمر إلى آخر الدنيا وإلى أقصاها والتجديد مناهض لذلك.

فالتّجديد ليس تغييرًا لأحكام الإسلام المحكمة، فتلك لا يدخلها تغيير أو تجديد كما أوضح ذلك -يوسف القرضاوي-: «البعد عن منطقة القطعيات، فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنّيًا من الأحكام»(1)، فالمراد من التجديد العمل على مسايرة العصر دون مساس بالأحكام المحكمة والمراد بمسايرة العصر، هو النّظر في الأمور المستجدَّة والأشياء المستحدثة التي لم تكن في عصور التشريع الأولى، فننتقي من التّراث ما وافق الدّليل ونُقابل المستحدثات بإنشاء البديل وذلك بالنّظر في هذه الأمور المستحدثة وإرجاعها إلى ما يشابهها من الأشياء في العصور السّابقة لإيجاد الحكم المُناسب لها حتى لا نقف حيارى في أمور ديننا.

فليس من الحكمة في شيء ولا من روح الدين الإسلامي الوقوف على القديم وعدم الأخذ بما استجدّ من معاملات، فإنّ ذلك يجعل المسلمين في عزلة عن العالم الذي يعيشون فيه، وإذا لم يكن هناك سعة صدر لتقبّل ما استجدّ من أمور وإيجاد الحكم المناسب لها، فلن يكون صالحًا لكل زمان ومكان، ويبيّن -يوسف القرضاوي- أنّ «الحاجة إلى الاجتهاد حاجة دائمة ما دامت وقائع الحياة تتجدَّد، وأحوال المجتمع تتغيّر وتتطوّر، ومادامت شريعة الإسلام صالحة لكلّ زمان ومكان، وحاكمة في كلّ أمر من أمور الإنسان».(2)

فكلمة هذا الدّين صالح لكل زمان ومكان قد اختلف النّاس بالأخذ بها، ويمكن للباحث أنْ يرصد اتجاهين واضحين في المراد بالدّعوة إلى التجديد.

1-الاتجاه الأول: يذهب إلى أنّ هذه الأحكام الواردة غير قابلة للتّغيير أو التبديل، فهي تؤخذ كما هي نصًا، ولا يُقاس عليها غيرها ولا يُؤتى بأيّ حكم يشابهها أو يُقاس عليها، ولذا فإنّه في رأي أصحاب هذا الاتّجاه، أنْ ننبذ كلّ شيء سواها، وألاّ نبحث في أيّ شيء ممّا استجد وننبذه وراءنا ظهريًا، دون النّظر إلى مصلحته، أو فائدته أو ضرره، وهذا الرّأي في الحقيقة

(1) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، ص: 46

(2) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد المعاصر، بين الانضباط والانفراط، دار التوزيع والنشر الإسلامية –القاهرة، [1994م]، ص: 06

ضرره أكثر من نفعه، حيث سيجعلنا في عزلة عمَّا يجري من حولنا، وهو جمود لا يقرّه الإسلام ولا يرضى به لمعتنقيه، وخروج عن سنّة الحياة المتطوّرة التي لا تقف عند حدّ، بل كلّ يوم هي في جديد وتجديد، جديد لم يكن، وتجديد لما كان.

2-الاتجاه الثاني: يرى أصحاب هذا التوجّه أنّ الحياة ما دامت كلّ يوم تأتي بجديد، فهذا الدّين الذي تقولون أنّه صالح لكلّ زمان ومكان لن يكون كذلك لأنّه ثابت ولا يتغيّر ولا يتطوّر، بل لا بد أن نأتي كل يوم بجديد جدّة الحياة والوقت، ولا معنى لوقوفنا جامدين مع القديم لا نعدوه وهذا الفريق أخطر من الأوّل، فهو بتوجّهه هذا، لا يُريد الدين أصلاً ولا تجديده، وإنّما يريد هدم الدّين والتخلّص منه: «فالتّجديد عند هذا الفريق هو: إجراء التغيير -كلّما أُحتيج إليه- في أصول هذا الدّين وفروعه لتتوافق مع تغيّرات قيم هذا العصر ومعطياته ومنطلقاته المستمدة من الثّقافة الغربية المعاصرة التي هي نتاج تفكير بشري محض، ليس للوحي المعصوم أثر فيه».(1) فالتجديد بهذا المفهوم الثاني ينطوي على أخطار عظيمة، وعليه ينبغي أنْ نَحذَر من «الوقوع تحت ضغط الواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يَضعه الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ولم يَصنعه المسلمون بإرادتهم وعقولهم وأيديهم، إنّما هو واقع صُنع لهم وفرض عليهم في زمن غفلة وضعف وتفكّك منهم، وزمن قوّة ويقظة وتمكّن من عدوهم المستعمر».(2)

فالتجديد هو رعاية للثّوابت والمحكمات، إذ أنّ بعض المسلمين ضعفوا أمام ضغط الغرب والمتغيّرات الدولية والاجتماعية، ودعوا إلى استبعاد بعض المحكمات وتغيير بعض الثوابت. فالمُراد ليس تغيير حقائق الدّين الثّابتة لتُلائم أوضاع النّاس وأهواءهم، ولكنّه تغيير للمفاهيم المترسّبة عن الدين، ورسم للصّورة الصّحيحة الواضحة: «فهو حركة واعية ومنظّمة تهدف إلى تبديل واقع الأمّة المريض بواقع جديد، أكثر ملاءمة، وأحسن حالاً من القديم»(3) ثمّ بعد ذلك هو تعديل لأوضاع النّاس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين.

ويتبيّن من حديث التجديد فضل الله -تعالى- على هذه الأمّة المرحومة التي هي خير أمّة أُخرجت للنّاس، حيث لا تمرّ عليها مائة سنة من عمرها إلاّ وقد قيّض الله تعالى لها مَن يجدّد الدين، فيعيده إلى ما كان عليه وهذا لا يعني أنّ الدين يظلّ غريبًا مجهولاً، أو متروكًا العمل به طوال القرن، فيظل خاملاً أو في حالة موات، حتّى إذا كان آخر القرن ظهر المجدّد فلم يزل

(1) – محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، ص: 37

(2) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد سلسلة الفكر الإسلامي، ص: 66

(3) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 64

العلماء والنّاصحون متواجدين في القرن كلّه يقومون بما يقوم به المجدّد من مهام وأعمال «ويستدعي القيام بتكاليف الاجتهاد في مثل ظروفنا جرأة في الرّأي وقوّة في الصّبر على ضغوط المحافظين لاسيما أنّ التجديد لن يكون محدودًا بل واسعًا يكاد يشكّل ثورة فقهية تصلح الأصول مع الفروع وتسعى لتبدّل الأحوال بسرعة الذي تذكر بعد غفلة طويلة».(1)

فهذه بعض من القواعد والضوابط التي ينبغي مراعاتها في عملية التجديد، الذي أصبح عصرنا الحاضر أحوج ما يكون إلى الاجتهاد، فلا يضيرنا في إطار هذه الضوابط أن نفيد من كل شيء في هذه الحياة دون خوف غير مبرّر، وعليه فإنّنا مطالبون بأنّ «نفسح صدورنا للاجتهاد، وإنْ خالف ما نشأنا عليه من آراء وأنْ نتوقع الخطأ من المجتهد ولا نضيق به ذرعًا، لأنّه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسبناه خطأ هو الصّواب بعينه».(2) ولا داع لمسايرة ومحاكاة بعض فقهاء الدّين الذين يقصرون التجديد على إحياء روح التديّن ويرتابون في كلّ تجديد يعرضُ لهم. وعليه فإنّه لزام علينا لكي تنجح عملية التجديد والاجتهاد أنْ نتوقّع حدوث الخطأ من المجتهد إذْ لا عصمة لغير نبي، فيجب أنْ لا نَنحو باللاّئمة والتّجريح على من أخطأ في اجتهاده ونتّهمه بالزّيغ والمروق، فلكلّ مجتهد نصيب، وإنّ شيوع هذا الأسلوب يقتل روح الاجتهاد، «ويُخيف كلّ ذي اجتهاد حرّ من إعلان رأيه، خشية أنْ تصبّ عليه سياط التشنيع وتصوّب إلى صدره سهام الاتّهام، وبذلك تختنق الآراء الاجتهادية الحرّة في صدور أصحابها ويَسود جوّ الخوف من التجديد، والرّهبة من مخالفة المألوف».(3)

ونخلص إلى القول بأنّ الخوف الذي يكتنف مسيرة التجديد والاجتهاد سرعان ما تتبدّد محاذيره، إذا تعامل فقهاؤنا وعلماؤنا مع قضايا عصرهم المتجدّدة من خلال رؤية إسلامية ترتكز على أصول الإسلام ومبادئه الكبرى، وقواعد التشريع العامة فيه، وعلى وضع منهج دقيق يضبط مسيرته، وينظّم معالمه وضوابطه ويحدّد غايته.

تلك هي المعالم والضوابط الضّرورية التي ينبغي أن تُراعى في عملية التجديد، وفي ضوء هذه الضّوابط يستطيع المجدّد أن يمضي قُدمًا إلى الأمام، وتستطيع الشّريعة بما تتمتّع به من مرونة أن تستجيب لحاجات كلّ عصر وكلّ مجتمع.

---

(1) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 94

(2) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، ص: 47

(3) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، مع نظرات تحليلية في الاجتهاد المعاصر، دار القلم، الكويت، ط1،[1985م]، ص: 184

المبحث الثالث:

أسس التجديد ومرتكزاته

تتميّز المنهجية الإسلامية ومن ورائها الفكر الإسلامي بمنطلقات أساسية لا يمكن التّعامل معها دون فهمها أو العمل السليم البنّاء من خلالها، وهذه المنطلقات تمثّل الرّكائز والفرضيات الأساسية التي تُضيء الطريق أمام العقل المسلم في حركته الفكرية الإبداعية والتجديدية، ولكي تتّضح لنا طبيعة التجديد في الفكر الإسلامي يجب أنْ نحدّد بصورة منهجية الأُسس والمرتكزات التي يقوم عليها التجديد، وأيّ خارطة لا تنطلق من هذه المنطلقات لا تجد في الضمير المسلم والإرادة المسلمة طاقة للحركة ولا مبرّرًا للتغيير «وعلى هذا الأساس، كان من الضروري تحديد الإطار المرجعي في أيّة عملية هادفة إلى إحداث تغيير جوهري في البناء الثّقافي أو الحضاري لأيّ مجتمع، لأنّ أيّ مسعى لإحداث هذا التّغيير لا بد أنْ يبدأ من نقطة جلاء الإطار المرجعي وحسم الموقف منه على نحو واضح.... والإطار المرجعي للأمّة الإسلامية هو الإسلام بمصدرية الكتاب والسُّنة».(1)

أولا: القــرآن والسُّنـــة:

-الكتاب والسُّنة فيهما بيان كلّ شيء، فإذا انطلق التجديد من هذه القاعدة كان التجديد من داخل هذا الإطار محكوما به، أمّا إذا انطلق التجديد من أنّ القرآن والسنّة لم يحويا بيان كلّ شيء، كان التجديد من خارج أصول الإسلام ومبادئه الكبرى، وكان تغييرًا له أو استدراكًا عليه. قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعتُم في شَيء فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُول** ﴾ [النساء: 59].

فمن الأمور المسلّم بها في الفكر الإسلامي أنّ القرآن الكريم والسُّنة النبوية هما من حيث الإجمال مجموعة متكاملة من الأصول والقواعد والمقاصد العامة. فالأساس الإسلامي للتجديد لا ينفصل عن نظام الاعتقاد والقيم، بل ينبع منها بقدر ما تنبع منه «وفي سبيل تحريك الفكر الإسلامي في داخل الإطار الثّابت من الأصول والقواعد العامة، عدّ الإسلام الاجتهاد موقفًا صحيًّا وعملاً مُثابًا عليه في حالتي الصواب والخطأ».(2)

(1) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 70

(2) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر –مصر، [1985م]، ص: 30

فالعقل المسلم يستمدّ قوّته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته بما لديه من علم الوحي، فعلى الفكر الإسلامي أنْ ينطلق إلى «الحياة والأحياء والسُّنن والطبائع وإلى الإمكانات والحاجات والوقائع والبيئات والتركيبات والظّروف والمواقع الحياتية المختلفة، تدرسها وتتفهمها وتفيد وتتعلّم منها، وتجد لمعضلاتها الحلول، وتقيم لأدائها التنظيمات وتضع لحاجاتها الضوابط والقواعد والتشريعات على أساس من المنظور الإسلامي، وفي ضوء ما جاء به الوحي من مقاصد وتوجيهات وضوابط وأحكام».(1) والوحي منضبطٌ ومحدّدٌ في أصلين هما القرآن الكريم والحديث النّبوي الشريف الذي لا ينطق صاحبه عن الهوى، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم: 04].

ولتسهيل مهمّة التعامل مع هذين الأصلين فيما يتصل بتطوّر الحياة العملية نجد القرآن يفتح المجال واسعًا لحركة العقل الإنساني، ويظهر لنا واضحًا عندما نجد أنّه لا يُقدّم نصوصًا قاطعة في كثير من المسائل، بل تأتي تلك النّصوص مرنة أو عامة أو ذات مقاصد كلّية.(2)

ومن هذا المنطلق كان في كل عصر يظهر مجدّد أو مجدّدون يحاولون أنْ يُعيدوا إليها الحياة، وينفخوا فيها الحركة من جديد، تارة في التجديد في العقيدة، وأخرى في الشّريعة وثالثة في معالجة انحراف السّلوك والدّعوة إلى إعداد القوّة، ورابعة بالمراجعة الحضارية الشّاملة لنواحي الحياة كلّها.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ لهذه النّصوص المستوعبة للوحي خصائص وأحكام، سواء في طبيعتها من حيث هي وحي إلهي، أو من حيث استيعابها لتعاليم الهُدى، أو من حيث طريقة عرضها على النّاس لتتمثّلها عقولهم وتستجيب لها نفوسهم.(3)

ويتوّقف فهم الدّين على حدّ كبير على خصائص والتي منها:

1- **شرعي المنطلق:** بمعنى أن الفكر الإسلامي ينطلق من مصدري الشريعة الإسلامية وهما القرآن الكريم والسُّنة النبوية الشريفة. ويترتّب على هذه الخاصية ما يلي:

أ –أنّ الفكر الإسلامي أصبح في منأى عن المصالح الإنسانية الخاصة، «فهو بجميع آرائه الاجتهادية يحقّق مصلحة الجماعة وليس مصلحة مجموعة معيّنة فهو فكر إنساني قبل أنْ يكون إسلاميًا».(4)

---

(1) – عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، دار الهدى –الجزائر– الطبعة الثانية، [1992م]، ص: 115

(2) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 24

(3) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ص: 45

(4) – فاروق النبهان، منهج التجديد في الفكر الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مؤسسة الملك عبد العزيز آل السعود، د.ت، ص: 50

ب-ضبط العقل: ذلك أنْ العقل إذا أُرخى له العنان، و لم يكن له مصدر متين يرجع إليه فإنّه تميل به الأهواء، ويغلّب مصلحة ينتفع هو بها، على مصلحة لا نفع له بها، فخير ما يضبط عمل العقل هو مصدره الشرعي، الذي يُنير له الطريق ويبلّغه طريق الرّشاد. «والعقل المسلم يستمدّ قوته وتوازنه وثبات خطواته واستقامته بما لديه من علم الوحي».(1)

ج-سهولة القبول: ذلك أنّ الإنسان متديّنٌ بطبعه، يألف الدين ويركن إليه، ومن ثمَّ فإنّ الآراء والأفكار المبنية على أساس ديني تجد طريقها إلى نفسه من غير عناء، باختلاف الآراء التي لا تكون مبنية على أساس ديني فإنه ينازع فيها وقد يرفضها إنْ لم تحقّق مصلحة «فالقرآن والسّنة منسجمان مع فطرة الإنسان لأنّهما يعالجان ثوابت إنسانية فطرية، عضوية ونفسية وعقلية وروحية، لذلك جاءا متجاوبين مع النّظام الذي أوجده الله في الآدمي ومع السّنن التي تُسيّره».(2)

2- **الثبات والاستمرار**: فمن خصائص الفكر الإسلامي أنّ له أصولاً عامة ثابتة، وثبات هذه الأصول لم يمنع من استمرار العطاء الفكري من كلّ جيل، فالجميع يستلهم أفكاره من تلك الأصول الثابتة، فهناك تواصل وتكامل بين الأجيال المتلاحقة «وقد ضربت هذه الأجيال مثلاً رائعًا في سمو الحوار الفكري بينها، فلم يسفّه جيل ما قدّمه الجيل الذي قبله، بل كان كلُّ جيل مؤتمنًا على منجزات ما قبله مضيفًا إلى ما قدّمه رؤيته الجديدة».(3)

3- **من خصائص الفكر الإسلامي أنه عقلاني في آرائه وأفكاره**، فلا يصطدم مع المسلّمات والثوابت العقلية كما في بعض الأفكار الدينية في الدّيانات الأخرى، إنّ التصادم بين الفكر الديني والعقل يجعل النفس تنفر من فكرها الديني، لأنّه يجعلها تعيش في تناقض بين ما يمليه عليها فكرها الديني وبين ما يمليه عليها عقلها «فدور الوحي الرَّباني هو إمداد العقل المسلم بحاجته من علم عالم الغيب، وتوضيح غايته الخيِّرة من خلق الإنسان في عالم الشهادة، ودوره في خلافة

(1) – عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ص: 112

(2) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 72

(3) – فاروق النبهان، منهج التجديد في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص: 50

الأرض، ودور العقل المسلم هو السّعي في عالم الشّهادة وإقامة الخلافة في الأرض على نور من توجيه الوحي والرّسالة الربّانية».(1)

ثانيا: الإحاطة بعلمي الفقه وأصوله:

إنّ الشريعة الإسلامية السمحة تتّسع لتجديد الفكر، ولتغليب المقاصد على الالتزام الشّكلي الصارم بحرفية النّصوص، وهي تشجّع البحث والاجتهاد للأفضل والأحسن قياسًا على المقاصد الكليّة واعتبارًا بهدي الإسلام، وممّا لابد للمجتهد من معرفته: علم أصول الفقه «وهو علم ابتكره فقهاء الإسلام لإرساء قواعد الاستنباط فيما فيه نصٌّ، وضبط الاستدلال فيما لا نصّ فيه وهو من مفاخر التّراث الإسلامي، ودراسة هذا العلم والتعمّق في فهمه ألزم ما يكون للمجتهد وذلك لما تعطيه دراسة "أصول الفقه" لمن يتصدّى للاجتهاد من قدرة على الاستدلال وتمكّن من الاستنباط بشروطه».(2)

ومع أنّ المؤسّسات العلمية الفقهية الحديثة تقرّ بالاجتهاد، إلاّ أنّ الملاحظ هو أنّ ما يجري من الاجتهاد في المستجدّات والنّوازل لا يخرج عن إطار التشبّث بالفقه التقليدي، الذي هو قائم على فقه المباني والآلية القديمة لعلم أصول الفقه، دون فقه المعاني القائم على دراسة الواقع ومقاصد الشريعة.

فعلى المجدّد الذي يبتغي المواءمة بين الفقه الإسلامي والواقع المتجدّد باستمرار أن يستعين بمقاصد الشريعة ومبادئها العامة التي تشخّص الاتجاه الحقيقي لمعالجة قضايا النّاس، وتعالج التّضارب الذي قد يحصل في تفسير النّصوص التي تتناقض بشأنها مختلف الدّلالات الأصولية فلا تصلح عبارات الفقهاء والأئمة الأعلام أساسًا لاستنباط الأحكام منها، بمثل ما كان المجتهدون الأوائل يستنبطونها من الكتاب والسّنة.

فالاجتهاد يؤصّل بنص قطعي من الشارع أو بالحكمة التي هي مرجع للفقه بمقتضى آيات واضحات، ولا يُؤسّس على عبارات وردت من كُتب الفقهاء، ولكن يستأنس بآرائهم. «لأنّ الفقهاء الأصوليين عبّروا عن واقعية الإسلام تعبيرًا صادقًا، وتحرّكوا في إطار الكتاب والسّنة واستنبطوا منهما القواعد الأصولية التفصيلية والمقاصد العامة التي قادت حركة الاجتهاد الفقهي

(1) – عبد الحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، مرجع سابق، ص: 112

(2) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص: 39

في نواحي الحياة كلّها، فأنتجت مذاهب فقهية متنوّعة في غاية الخصوبة والدّقة، استوعبت حياة الإنسان بأدق تفاصيلها ومشاكلها خلال قرون طويلة من الزّمان».(1) فكان لابدّ من البحث عن مدخل جديد للاجتهاد يُضاف إلى علم أصول الفقه، يُلاحق التطوّر ويعالج المستحدثات ويؤصّل للتجديد وفقًا لمعايير الشريعة العامة.

ولا أدعو بهذا إلى إلغاء علم أصول الفقه، فهو إبداع منهجي وفكري ولغوي ومنطقي وإسلامي يساعدنا على ضبط فهم التّراث الفقهي للمذاهب الفقهية التاريخية، ويقوي مَلَكَة الاجتهاد ويمرِّن العقل على التمحيص والتحقيق في الحكم، ويعين طالب الفقه على فهم مسالك التحليل ولكني أرى أنّه لا يكفي لمعالجة المستجدات، أو لتأصيل التجديد «لابدّ أن نقف وقفة مع علم الأصول تصله بواقع الحياة، لأنّ قضايا الأصول في أدبنا الفقهي أصبحت تؤخذ تجريدًا، حتّى غدت مقوّلات نظرية عقيمة لا تكاد تلد فقها البتّة، بل تولد جدلاً لا يتناهى، والشّأن في الفقه أنْ ينشأ في مجابهة التحدّيات العملية».(2)

ثالثا: مبدأ اعتبار المقاصد:

الحديث عن التجديد في الفكر الإسلامي، صدر بشأنه خلال عهد طويل ما لا يُحصى من المقالات والمؤلّفات والأبحاث، ومثل ذلك من النّدوات واللقاءات على امتداد العالم الإسلامي وخارجه، فلماذا لم يتحقّق هذا التجديد إلى الآن وما نزال تكرر النّقاش حوله؟ هناك دعوات إلى الاجتهاد وإلى اعتماد مقاصد الشريعة، لكن كلّ ذلك لم يغيّر من الواقع شيئًا ويبدو أنّ السبّب في ذلك راجع إلى الاكتفاء بترديد بعض المصطلحات كالاجتهاد، والمجتهد والحكم الشرعي، ومقاصد الشريعة وفقه الأولويات، دون التعمّق في النتائج التي تترتّب عن التمسّك بمفاهيمها وحقيقة مدلولاتها وأبعادها «فلكل حكم من الأحكام الدينية مقصد يهدف إلى تحقيقه في حياة النّاس، وبتحقّقه في الواقع تتحقّق للإنسان منفعة أو تُدرأ عنه مفسدة.

والرّابطة بين الحكم وبين مقصده، رابطة تلازم على مستوى التجديد، فما من حكم إلاّ له مقصد إليه يفضي، ومن أجله وُضِع، والكشف على هذا المقصد يكون بالاجتهاد في الفهم».(3)

(1) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 62

(2) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 68

(3) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج2/ 95

ولكن لتحقيق هذا المقصد والغاية المتوخّاة من وراء النص الشّرعي «أضحى من الضروري أنْ نُبلوِر علمًا جديدًا مجانسًا لعلم المقاصد وموازيًا لعلم الأصول، يحتوي على نظرية المقاصد، ضامًا إليها علوم المستقبل الحديثة بشكل يخدم النّظرية، ويهدف إلى بلوغ المقاصد الشرعية واضعًا أركانه على علم الأصول، مفصّلا لبرامج بحث واجتهاد في مختلف الفروع، وموّجهًا لأبحاث ودراسات تسعى إلى دفع عجلة المعرفة نحو الأمام على درب الابتكار والإبداع الهادف والنّافع للإنسان وللإنسانية جمعاء».(1)

فتطوير مباحث مقاصد الشريعة هو من صميم رعاية الشريعة لمصالح البشر المادية والمعنوية، الفردية والاجتماعية، فمنذ كتاب الموافقات للعلاّمة –الشاطبي– الذي يعتبر قفزة في تاريخ المقاصد، وكتاب –الطاهر بن عاشور– في المقاصد و–علال الفاسي– في منتصف القرن الماضي، تجدّد الاهتمام، فصدرت خلال السّنوات الأخيرة عدّة كتب وبحوث ومازال الاهتمام متواصلاً، وقد رصد أحد الباحثين مجموعة المسائل الخاصة بالموضوع فيما يلي:–

- التفرقة بين مقاصد الخلق ومقاصد الشريعة ونتائج هذه التفرقة.
- محاولة صياغة مقاصد الشريعة العالية.
- اشتمال المقاصد على مجموع رتب الضروري والحاجي والتحسيني وتعلّق هذه الرّتب بالوسائل وليس بالمقاصد.
- افتقاد الدّراسات القانونية لمباحث الاقتصاد، وافتقاد الدّراسات الشرعية لمباحث وظيفة القانون في تنظيم المجتمع ومدى التدخل في حرّيات الأفراد.
- محاولة تحديد دور العقل في تحديد المقاصد، إلى غير ذلك من الدّراسات التي ساهمت في تطوير مباحث مقاصد الشريعة.(2)

ولعلّ هذا المفهوم هو الذي عناه –محمد إقبال– بقوله: «إنّ لهذا التجديد ناحية أعظم شأنًا من مجرّد الملاءمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها».(3)

ويتوافق هذا مع ما أكّده –عبد المجيد النجار– في قوله: «بأنّ الشريعة الإلهية مبنية في أوامرها ونواهيها للإنسان على مقاصد تهدف إلى تحقيقها في حياته. فهذا الهدي هو إرشاد إلى تلك

(1) – محمد ريش، حاجتنا إلى علوم المستقبل، مجلة المستقبل العربي، بيروت، لبنان، ع/144، [13 فبراير 1991م]، ص: 49

(2) – جمال الدين عطية، توسع مجال الاجتهاد...آفاق وعقبات[موقع إسلام أون لاين]، [2003/02/25]

(3) – محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، القاهرة، دار آسيا للطباعة، [1985م]، ص: 206

المقاصد لا إرشاد إلى كيفية جريان الأفعال في ذاتها.... والمُراد الإلهي فيما ينبغي أن تكون عليه أفعال الإنسان وهو المعبّر عنه بمقاصد الشّريعة، هو تحقيق مصلحة الإنسان».(1) وقد جاء البيان الإلهي في الإرشاد إلى المقاصد الشرعية في أكثر من موضع للدّلالة على أنّ اعتبار المقاصد أمر مستقلٌّ بذاته، قال الله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: 185]، وفي قول الرّسول –صلّى الله غليه وسلم-: "**لا ضرر ولا ضرار**"* للدّلالة على مقصد رفع الضّرر عن الإنسان وعلى مقصد اليسر ورفع الحرج، كما قد تأتي مضمّنة في الأحكام بالإشارة إلى علل الأمر والنّهي فيها، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾. [البقرة: 179] وغيرها من الأحكام.

رابعا: معرفة الواقع وفهمه:

تُعدّد كتب أصول الفقه التقليدية شروطًا للمجتهد ليس من بينها شرط معرفة الواقع وقد تنبّه إلى أهمية ذلك من المتقدمين الإمام أحمد، إذْ ذكر ابن القيّم في "إعلام الموقعين" نقلاً عن الإمام أحمد أنّه قال: «لا ينبغي للرّجل أن يُنصّب نفسه للفتيا حتّى يكون فيه خمس خصال: أوّلها أن يكون له نية.... والخامسة: معرفة النّاس».(2)

فعلى المجدّد المجتهد أن يكون محيطًا بالواقع علمًا، واقع النّاس وتعقّد الحياة والقوانين الوضعية فيها، ولابدّ عليه من معرفة أعراف النّاس وسلوكهم الأخلاقي والسّياسي، وفروق هذه الأعراف بين البلدان، كما عليه أن يتعرّف على المحيط المائج وأصول المؤثّرات التي تؤثّر فيه وعلى العلوم الإنسانية كلّها، لتكون الصّورة متناسبة مع الواقع والممكن معًا ومراعية اعتبارات الماضي واحتمالات المستقبل، محروسة بالحكمة وبعد النّظر ومستفيدة من تأمّلات العقول لأنّه لا يتقن الاجتهاد من لم يفهم أسرار حركة الحياة.

وتوسّع –يوسف القرضاوي- في هذا الشّرط إلى حدّ: معرفة النّاس والحياة، فقال: «وهذا شرط لم يذكره الأصوليون في شروط الاجتهاد، وهو معرفة المجتهد بالنّاس والحياة من حوله وذلك أنّه لا يجتهد في فراغ، بل في وقائع تنزل بالأفراد والمجتمعات من حوله، وهؤلاء تؤثّر في أفكارهم وسلوكهم تيّارات وعوامل مختلفة نفسية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية. فلابد

(1) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 62

(2) – محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله المعروف "بابن قيم الجوزية"، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد دار الجيل –بيروت، س [1973م]، ج4/ 199

* حدثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد، عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قضى أن "لا ضرر ولا ضرار"

– أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، [1975م]، ج2، رقم الحديث: 2340

للمجتهد أنْ يكون على حظّ من المعرفة بأحوال عصره وظروف مجتمعه، ومشكلاته، وتيّاراته الفكرية والسّياسية والدينية، وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى ومدى تأثّره بها وتأثيره فيها».(1)

وممّا ينبغي أنْ يتّسع له نشاط المجدّد المعاصر، أنْ يقوم بالمعالجة الواقعية للأوضاع المعاصرة، فلا يقف نشاطه عند البحوث النّظرية المثالية، وإنّما ينزل إلى الواقع ليُدلي فيه بالرّأي المناسب والموقف الصحيح، ولكي يتسنّى له تحقيق ذلك عليه «أنْ يكون ملمًّا بثقافة عصره، حتّى لا يعيش منعزلاً عن المجتمع الذي يعيش فيه ويجتهد له، ويتعامل مع أهله».(2)

ومن ثقافة العصر اليوم أنْ يتعرّف على شيء من علوم الاقتصاد والإدارة والاجتماع والفلسفة، وأن يطّلع على التاريخ والسّياسة، كما ينبغي أنْ ينميّ ثقافته العامة عن طريق تمييز تجارب الأمم وحوادث العالم، بأنْ يقرأ تاريخ الحضارات وفلسفة التاريخ، كما لابد عليه من قدر من المعارف العلمية مثل: الأحياء، والرياضيات، والطبيعة، والكيمياء، ونحوها، فهي تشكّل أرضية لازمة لكلّ مجدّد معاصر.(3)

فلم يعد يكفي الاقتصار -كمثال- على أحكام الزّواج التقليدية، فهناك أوضاع طرأت على واقع العلاقات الزّوجية، تحتاج إلى دراسة تُبنى عليها أحكام جديدة مثل حالة عمل المرأة وإسهامها في أثاث المترل وتكاليف المعيشة، وحالات الزّواج الغير موثّق وغير ذلك، وعليه فإنّ الضّرورة داعية والحاجة مُلحّة في إعادة النّظر في المسائل القديمة، والاجتهاد مُجدّدا في المسائل القديمة، فإنّ من المقرّر أنّ لتغير ظروف الزمان والمكان والأشخاص أثر في تغيّر الاجتهاد والفتوى «وعلى هذا الاعتبار، فإنّ فهم الواقع الإنساني يغدو عاملاً بالغ الأهمية في التديّن، ولا يقل أهمية عن فهم الدين نفسه، فهما الشّرطان المتلازمان في مرحلة الفهم اللّذان يعتبران الخطوة الأولى في سبيل تحقيق الدين في الواقع، أيّ في سبيل تحقّق التديّن».(4)

ولن يكتمل تحقيق هذا المقصد من معرفة الواقع، دون تحديد ومعرفة المنطلقات الأساسية لفهم الإنسان، والمنطلق الأوّل لفهم الإنسان وواقعه، هو الانخراط الفعلي في هذا الواقع ومعايشة النّاس والتعامل معهـــم، والتقرّب منهم، والإطّلاع على تصرّفاتهم المختلفة، ووقوفًا على مشاكلهم عن

(1) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 47

(2) – المصدر نفسه، ص: 48

(3) – المصدر نفسه، ص: 48

(4) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 122

كثب ومحاولة إيجاد حلّ لها ومعالجتها، ومساهمة واقعية في مناشطهم المتنوّعة. إنّ هذا الاحتكاك بالواقع الإنساني قدرٌ ضروري لا غنى عنه لمن يريد فهمه، سواء كان فقهيًا مشرّعًا أو فيلسوفًا مصلحًا أو أديبًا معبّرًا عن الطموح الإنساني.(1)

وقد أنحى أحد الباحثين باللاّئمة على الحركات التجديدية التي لا تضع في حسبانها اعتبار الواقع في وقت كان لزامًا على كلّ تغيير حضاري يريد أنْ ينقل المجتمع من حال إلى حال، أن تكون له رؤية واضحة المعالم ومنهج متكامل يُستنبط من أوضاع الحياة الاجتماعية، ويخطّط لكيفية البدء، ويرتّب الأولويات بصرامة، ويبني فكره على حسابات دقيقة جدّا تمكّنه من دفع مسيرة التجديد نحو الهدف الصّحيح وعليه «كان الأولى بالحركات التغييرية في العالم الإسلامي أنْ تولي هذه القضية اهتمامًا كبيرًا، وبخاصة إذا أدركنا الأهمية القصوى التي أولاها الإطار المرجعي الإسلامي بمصدرية الكتاب والسّنة إلى ضرورة اكتشاف الواقع، واستيعابه، والإحاطة بجميع جوانبه من أجل تنزيل الإسلام في حياة النّاس، باعتباره دينًا إلهيًّا يحمل في ذاته قابلية الوقوع».(2)

ولعلّ من أهمّ أسباب فشل الحركات التجديدية (الإصلاحية) واستمرار حالة التدهور العامة التي شملت جميع مظاهر الحياة، في الوقت الذي بدأ فيه الغرب نهضته الحديثة، واستمر تخلف علماء المسلمين عن مواكبة هذا التطوّر من منطلق إسلامي بتطوير مبادئ الاجتهاد والتجديد يعود إلى ذات الحقيقة المتمثّلة في الإحاطة بالواقع ومعرفته معرفة دقيقة «وقد شهد التاريخ الإسلامي العديد من الحركات الإصلاحية، ومن المذاهب الهادفة إلى تغيير الأوضاع المنحرفة عن مقتضيات الدين لتكون متوافقة معه، وهي حركات ومذاهب لا يتقصها في أغلب الأحوال الإخلاص في القصد والإنباء على أصول من الحقّ النّظري، ولكن أكثر ما كان يأتيها من فشل في النتائج، أو من ضمور فيها، كان يأتيها من قصور في تمثّل الواقع الإنساني، الذي تهدف إلى إصلاحه».(3)

---

(1) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 125

(2) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 102

(3) – عبد المجيد النجار، مرجع سابق، ص: 121

خامسا: ضرورة التراث وأهميته في فهم الدين:

إنّ الرسالة الإسلامية –بطبيعتها وجوهرها– رسالة تغييرية تجديدية –بحكم واقعيتها وتوازنها وشمولها وعالميتها، جاءت على فترة من الرّسل لتضع عن النّاس الآثار التي خلفتها فيهم القرون المنصرمة، لانحرافاتهم عن الشريعة، ولتفكّ عنهم الأغلال التي قيّدهم بها التقليد الأعمى للتطبيقات البشرية خلال العصور الغابرة، ولتكّسر عنهم صخور الجمود على التّراث بما يحمل من تراكمات، وما ينطوي عليه من قصور في الاجتهاد، وعجز في التطبيق، وميل للهوى وإتّباع للأطماع والمصالح العاجلة والميول والنّوازع النّفسية، وهي كذلك متجرّدة متطوّرة بحكم ما صيغت عليه لتكون صالحة لكل زمان ومكان ﴿ **إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَهدِي لِلَّتِي هَيَ أَقوَمُ وَيُبَشِّرَ الـــمُؤمِنِينَ الَّذِي يَعمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُم أَجرًا كَبِيرًا** ﴾. [الإسراء: 09]

أمّا التطبيقات البشرية فهي محاولات لا تعدو إلاّ أن تكون اجتهادات وتطبيقات ربّما تكون ناقصة، فهي ليست حجّة علينا للاهتداء بها أو السّير على نهجها، ولذلك فإنّ الجمود عليها جمود على نسبة من الخطأ، والجهل، والعجز، والتقصير، وإنّ التحجر عليها لا يؤدي إلاّ إلى التخلّف.

فلابد إذًا من التّفريق بين الدّين والتّراث، وأن نعلم أنّ الدّين للإتّباع وأمّا التّراث فللاسترشاد «وبهذا المعنى يخرج من مدلول التّراث مصدر الدين، من نصوص القرآن والحديث، إذْ هما من الوحي الإلهي الملزم، في حين أنّ التّراث هو أفهام بشرية ظنّية في أكثرها».(1)

فعدم التّفريق بين الشّريعة وبين الفقه، وإضفاء الشّرعية على آراء وفهوم بشرية واعتبارها في رتبة النّص المعصوم أمر له مخاطره. فالشّريعة يجب أنْ تتميّز عن الفقه تميزًا حاسمًا وأنْ تنحصر في المقام الأوّل في نص القرآن والسنّة الصّحيحة، أمّا استنباطات العلماء من فقهاء وأصوليين ومفسّرين ومحدّثين ومتكلّمين فيجب أن يُنظر إليها على أساس أنّها معارف بشرية أو تراث يُؤخذ منه ويُترك.

ولا ينبغي أن يُفهم من ضرورة هذه التفرقة أنّنا نُدير ظهورنا لتُراثنـــا الفقهي، أو نُقلّل من أقدار فقهائنا، أو أننا نستبدل به عناصر غريبة عنه تناقض طبيعته، ولكن هذا شيء، وتجاوز حدود بشرية هذا التّراث شيء آخر، فالتّراث ليس كلّه مقبولاً، وليس كلّه مرفوضًا فلا نتّخذ

(1) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 67

منه سدًّا حاجزًا عن الوصول إلى الفهم الحقيقي للدّين، أو على الأقل إلى محاولة فهوم جديدة تخصّ زمانَنا، واجتهاد حي لمشاكل العصر الذي نحن فيه، وتطبيق للدّين في جيل آخر له قضاياه ومشاكله وحاجاته.

والذين يظنُّون أنّهم قادرون على مواجهة المستجدّات بمجرد استدعاء الأحكام من تراث القرون الماضية، يُسيئون لطبيعة هذا التّراث العظيم القادر على معانقة الواقع المتجدّد وتنزيل الخطاب الإلهي عليه. فالتّراث صدًى لنصوص الوحي الإلهي، مفهومة بطريقة معيَّنة في عصر معيّن، فإذا اختلفت طريقة استلهام النّص تحرّك التّراث، وإذا ثبت، ثبت النّص وتجمَّد. وثـــمَّتئذٍ يكون العيب في التراث المتوقف لا في النّص «وما لم يتم التمييز الدقيق بين الوحي الإلهي وبين ما أُحيط به من معارف... ما لم يتمّ هذا الفصل بشكل دقيق، وعلى سائر المستويات فإنّ ذلك الأمر قد يستمر وإنّه يمكن أن يُصادر سائر محاولات التجديـــد والإصلاح التي يمكن أن تقوم الأمّة بهـــا».(1)

ولعلّ هذه المحاذير هي ما دفعت أحد الباحثين إلى الإشادة بدور بعض الحركات التغييرية في الاعتزاز بتراث الماضين فقال: «قد قامت في تاريخ الفكر الإسلامي حركات عدّة تدعو إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، بالرّجوع المباشر إلى مصدر الدين في استنباط الحلول لمستجدّات الأحداث، ولكنّها لم تكن حركات داعية إلى قطع الصّلة بالتّراث وإسقاطه من الاجتهاد في الفهم، كما تدعو إليه اليوم بعض الاتجاهات المعاصرة».(2) فهذه الحركات في نظره هي حركات تصحيحية تهدف إلى إصلاح ما تمّ الوقوع فيه من إغراق وعكوف على التّراث والاقتصار عليه في فهم الدّين، وتصويب مسيرة الاجتهاد بالاعتماد على الوحي بمصدريه الكتاب والسنّة، ويكون التّراث هو المساعد على ذلك.(3)

وقد أدّى الخلط بين الدّين والتّراث إلى الوقوع في مطبّة التقليد المطلق، واتخاذه منهجًا ثابتًا في البحث عن إجابات لا تتطابق مع أسئلة ومتطلّبات هذا العصر، ولكن هذا ليس مبرّرًا لإسقاط التراث في عمليـــة التجديد «لأنّ الدعوة إلى إسقاط التراث كلُّه بصفة مبدئية، والتوّجه مباشـــرة

(1) – طه جابر العلواني، أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي، ضمن كتاب الفكر الإسلامي المعاصـــر، تحرير عبد الجبـــار الرفاعـــي، دار الفكر المعاصر، بيـــروت –لبنان، دار الفكر، [1421هـــ-2000م]، ص: 139

(2) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 71

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 71

إلى مصدر الدين من نصوص القرآن والحديث، لبناء فهم ابتدائي منهما لا علاقة له بالتّراث هي دعوة تلغي شطرًا كبيرًا من الشّروط الموضوعية التي يتوقّف عليها فهم حقيقة الدين الفهم الصّحيح، من حيث إنّها تَستبعد من العمل الاجتهادي في فهم تجربة ثرية في ذلك تنامت طيلة قرون، وخبرتها العقول والتطبيقات الواقعية جيلاً بعد جيل».(1)

لكن من الحق أنْ لا تركن الأمّة إلى التقليد في عصرنا هذا، وتتّخذ منه ما يشبه المنهج الثّابت في علاج قضايا العصر، وهي تَقرأ فيما تَقرأ من كلام أيمة الفقه، تحذيرًا واضحًا ونهيًا صريحًا عن التقليد باعتباره طريقا يُفضي إلى الجمود وقتل ملكة التفكير، وشلّ حركة التجديد والإبداع وربّ قائل يقول، وماذا تفعلون بكتب الفروع والفقه المذهبي والمسائل؟ والجواب: «إنّها معين لا ينضب ونبع لا يغور وكنز ثمين نُنفق منه، ولكنّ للفقهاء عصرهم ولنا عصرنا، نحن نأخذ عنهم الفكرة وندع الأسلوب، نأخذ النّظرة الفقهية العلمية ونترك ما عداها، وفيما يتغيّر من الأحكام الفرعية بتغيّر العصر، نأخذ بما يوافق عصرنا من الأحكام، ونُفيد من هذا الفقه كما نفيد من غيره».(2)

ويتناغم هذا الكلام مع ما ذهب إليه -محسن عبد الحميد- في قوله: «إنّ الفقيه المفكر المعاصر في مواجهته قضايا الإنسان الجديدة، الجزئية والكلّية، لا يستطيع أنْ يستغني عن المادة المعرفية الفقهية بمذاهبها المتنوّعة، لأنّها عالجت أصلاً قضايا ومشاكل الإنسان».(3)

فالمذاهب الفقهية والأصولية الكثيرة تضع أمام المجدّد اليوم عدّة حلول للقضية الواحدة وأنّها تعتمد في معالجتها على مادة فقهية ضخمة.

(1) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 70

(2) – عبد اللطيف الفرفور، خصائص الفكر الإسلامي، ص: 44

(3) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 63

سادسا: التواصل في حركة التاريخ الحضاري الإسلامي:

إنّ حركة تطوّر الفكر الإسلامي القديم تستدعي إحاطة كاملة، ورؤية واضحة، لتُعرَف مواضع أفكارنا تجاه التّغيرات الكبيرة التي حدثت في العصر الحديث، أو التي يجب أنْ تحدث وهذه بعض الملاحظات الجوهرية التي تُعدُّ أساسًا ومرتكزًا في عملية التجديد التي تستند على حركة التاريخ الحضاري والتي تجب الإشارة إليها:

لا شك أنّ لكلّ عصر مشاكله ورؤيته التي تنبثق من طبيعته، وترتبط ارتباطًا كبيرًا بالتغيرات المتنوّعة والصّراعات التي تنتج منها «فالفكر الإسلامي في عصرٍ ما: هو محاولة فهم وهضم تلك التغيّرات والصّراعات في ضوء أصول الإسلام وقواعده ومقاصده»(1) وقد تكون تلك المحاولة ناجحة تستطيع أن تَنفُذ بذكاء إلى تلك الأصول والقواعد والمقاصد، كما كان عليه الحال في عهد الخلافة الراشدة التي اتّسمت مؤسّسات المجتمع الإسلامي فيها والمنظومة الفقهية للأمّة بالفعالية والنّشاط، «فكتاب عمر لأبي موسى الأشعري –رضي الله عنهما– في القضاء مثلاً شاهدا على ذلك إذْ فيه توجيهات إلى الفهم والاستشارة، كما فيه دعم وتأصيل للمؤسّسة القضائية التي كانت مؤسَّسة مجتمعية محضة مستقلّة عن الدولة قائمة بذاتها مُستبقيه مباشرة من المرجعية العليا للأمّة، أقصد القرآن والسّنة مضافًا إلى ذلك اجتهاد القضاة وفهمهم».(2)

وغير أنّ الحلول الفكرية في شتّى المجالات التي يقدّمها ذلك الفكر، والتي تعبِّر عن حاجة العصر الذي ظهرت فيه لا يمكن أن تكون صالحة لكلّ عصر في تفاصيلها، ولا يمكن أن تكون هي الإسلام، من حيث هو وحي معصوم، وإنّما الصحيح أن يقوم الفكر الجديد في العصر المتأخر بعملية تواصل عميق مع الفكر الذي تقدمّه، ويقوم بموازنة تُعبِّر عن المتغيّرات الجديدة، ليكون الفكر الجديد في العصر الجديد أكثرُ تعبيرًا عن أصول الإسلام، في ضبط الحركة الاجتماعية على اعتبار أنّ الإسلام من حيث هو دين كلّ عصر يستطيع أنْ يستنبط منه ما يُعينه على فهم ثوابته ومتغيّراته، وبذلك يكون الفكر الإسلامي مرنًا متطورًا إسلاميًا دائمًا في منطلقه دون إعادة الصياغات الفكرية السّابقة.(3)

(1) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 58

(2) – أحمد عبادي، الإسلام وهموم الناس، ص: 113

(3) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 58

وهذا ما نلمسه في طبيعة الفقه الإسلامي وتجربته التاريخية، ففي التّراث الفقهي الهائل والزّاخر بتجارب مئات السّنين، وألوف العقول لأئمة ومجتهدين ومجدّدين شهادة تاريخية موفقة على قدرة الفقه الإسلامي العظيمة على التجدّد مع كل قفزة اجتماعية واقتصادية وسياسية تحدث، ذلك أنّ في مرونة مرجعياته، وطبيعة معاييره الكلّية، وقواعده العامة وخطوطه العريضة، مجالاً رحبًا للتّعامل المنسجم مع المستجدّات الحياتية ومقتضيات الأوضاع الجديدة: «فتاريخ الإسلام من ثمّ سجّل لهذه الحركة الدائبة من التديُّن. ولا قِوام لإسلام بغير حركة تديّن نشطة تحقّقه من مادة حركة الحياة، فإذا جمدت حركة المسلمين من حيث هم مسلمون –جمد إسلامهم وتشكّل تاريخ حياتهم بطبيعة غير إسلامية. وإذا كان التجديد معنى ملازمًا للحركة والحركة معنى ملازمًا للإسلام فإنّ التجديد من ألزم مقتضيات دين الإسلام».(1)

ويذهب –حسن الترابي– في إجابته عن سؤال يتعلّق بمدى وفاء تاريخ المسلمين لشروط الصّفة الواجبة فيه –وهي أن يكون تاريخًا إسلاميّا– يواكب تطوّر ظروف الزّمن، تأسيًّا بالرّواد الأوائل الذين لم يكتفوا بمعالجتهم الفقهية لحاضرهم، بل قدّروها لما يتوقّع حدوثه في مستقبل الأيام. فقد بيّن بأنّ الأمّة الإسلامية مرّت بسلسلة طويلة من التجديد الفقهي انسياقًا مع تطوّر التّاريخ الحضاري وتوقّعات المستقبل وذلك في قوله: «وإذا سألنا عن كسبنا من واجب تجديد التديّن وجدنا الأجيال الأولى من المسلمين قد نهضت بذلك الواجب ووفّته حقّه ثم خلّفت خلوف ركنت إلى السّكون والجمود إلاّ قليلاً وأورثتنا نمطًا من التدّين سكوني جامد يُفرّط في تسخير الظّروف المتجدّدة».(2)

وانطلاقًا من هذا الفهم وباعتبار الحياة الإنسانية حافلة بالوقائع الجديدة التي تتطلّب مواجهتها بحلول تناسبها إنْ اقتضى الأمر، وهي لا تتحقّق باستنساخ الحلول القديمة أو اعتمادها، بل بفهم الواقع المتجدّد، واقعٌ يجمع بين الأصالة والمعاصرة، يُيسّر الأمور ولا يُعسّرها، ويُساير روح العصر، ويتفاعل إيجابًا مع التراث الفقهي بمدارسه المذهبية المتنوّعة، وليس هذا ببدعة من التجديد، أو باستحداث لمنهج جديد لم يسبق إليه، أو دعوة لتجاوز التراث الفقهي الثّري أو تجاهله بل ما هي إلاّ دعوة لدفع العقول المعاصرة باتّجاه مواصلة التطوّر والتاريخ الحضاري

(1) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 191

(2) – المصدر نفسه، ص: 191

تأسيًا بمن سبقونا. «أمّا ولوع الإسلاميين بالهروب إلى الماضي والارتداد إلى قضاياه ومشكلاته ومفاهيمه، فإنّ غالبيتهم إنّما يفعلون ذلك، لأنّ الماضي لا يزال هو الذي يشكّل إطار الحجّية وإطار المرجعية ومؤيل الخيرية، فليس بمستغرب آنذاك أنْ يرتدّوا إلى قضاياه ومشكلاته ومفاهيمه خاصة».(1)

أو قد يكون بعضهم تحت تأثير اتجاه يتشبّث بفكر سكوني، ويرفض الاعتراف بالصّيرورة التاريخية، ويعتبر تجارب آلاف العقول تكرار لقديم، وتراكم كمّي لا أكثر، وإنّه ليس هناك تغيّر نوعي، بالرّغم أنّ كلّ ما في الماضي هو خير، وقد يكون فيه حلّ لكثير من مشاكل العصر. وعليه فإنّ توهّم هؤلاء أنّه بإمكانهم الاستغناء عن الاجتهاد بالرّكون إلى نصوص الكتاب الكريم والسنّة النبوية وفقه السّلف فقط فهم مجانبون للصّواب، لأنّ الشّرع جاء بحجّية الاجتهاد كما جاء بحجّية النصّ، والشارع الحكيم -سبحانه وتعالى- قد أصّل للاجتهاد وحدّد له شروط ومرتكزات كما أصّل للنصّ وأمر بإتباعه.

ونخلص إلى القول بأنّ التجديد الحقيقي المنشود يتمّ بناءً على أساس العودة إلى الينابيع الأولى، وإعادة التقويم بها، ليصبح الوحي الإطار المرجعي والضّابط المنهجي والمعيار للمراجعة المستمرّة، وإعادة تقويم الواقع بقيم الكتاب والسنّة، كما يجب التّأكيد على أنّ علماء الأمّة عبّروا عن واقعية الإسلام تعبيرًا صادقًا، وتحرّكوا في إطار الكتاب والسنّة، واستنبطوا منها القواعد الأصولية التفصيلية والمقاصد العامّة التي قادت حركة الاجتهاد والتجديد في نواحي الحياة كلّها، وتواصل كلّ ذلك مع العلوم والمعارف العقلية التي انتجه العقل الإنساني، واستفادته منها، باعتبارها تراثًا مشتركًا بين الأمم والحضارات، لذلك لا يجوز أن يمارس هذا العمل التجديدي إلاّ مؤهّل للنّظر في الأدلّة بشروطها.

(1) – طه جابر العلواني، أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص: 144

المبحث الرابع:

مجـــالات التجديـــــد

يحمل التجديد في الشّكل بُعدًا مفاهيميًا جديدًا، ولكنّ ماذا يقصد به في المضمون والهدف هل هو عودة إلى تجديد نظرتنا في تراثنا وأفكارنا وماضينا؟ أم هو انقلاب على هذا الماضي وهدمه؟

فالتّجديد هو مقاربة للأفكار، ولا تولد تلك من العدم واللاّشيء، بل هي سياقات يتحكّم فيها الزّمان والمكان وتحكمها الثّوابت في العقيدة والأحكام. والإسلام كرسالة خاتمة للرّسالات السماوية يدعو البشرية للانفكاك من القيود التي تُعيق وتمنع حركتها نحو التقدّم، وهو يذمّ عقلية الرّكود وحالة الجمود، لأنّها تنتهي بالإنسان إلى التخلّف عن ركب الحياة، ولذلك ركّز القرآن الكريم على أهمية تغيير ما في النّفس، ويعتبره الشّرط الأساسي لتغيير الواقع الخارجي فالانطلاق يبدأ من داخل الأمّة والإنسان. يقول الله تعـــالى: ﴿ **إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم** ﴾. [الرعد: 11]

وهذا المعنى هو الذي قصد إليه -بن نبي- في قوله: «ولن نستطع فهم هذه الملاحظات الاجتماعية إلاّ إذا فهمنا الآية الكريمة التي اتّخذها العلماء شعارًا لهم في تأسيس دعوتهم (إن الله لا يغير...) وما بقي الإصلاح متمسّكا بأهداب هذه الآية فلن يستطيع درويش جديد أن يهدّد البلاد بخطر خرافته».(1)

إنّ عبارة "من يجدّد لها دينها" الواردة في الحديث تبيّن لنا أمورًا:-

1: التجديد عام للأمّة، لا لجماعة معيّنة في إقليم معين.

2: التجديد جهد متّصل عبر التاريخ، ويحدث في كلّ وقت يضعف فيه الخير، ويكثر الشّـــر وتنطمس معالم الشّرع.

3: الانتفاع بالتّجديد لا يقتصر على فئة معيّنة بل يمتدّ لكل الأمّة بكل فئاتها.

(1) – بن نبي مالك، شروط النهضة، داري الفكر(الجزائر-دمشق سوريا) ط/4، [1407هـ-1987م]، ص: 34

4: التجديد ليس في جزئية واحدة بل في كلّ الدّين "دينها" ولفظة دين تعني أمرين:

- الدّين بمعنى الوحي المنزّل وهذا قد اكتمل.
- الدّين بمعنى الكسب البشري: وهذا الذي يشمله التجديد، ويمكن أنْ نوجز مجالاته وآفاقه فيما يلي:

أولا: التجديد في مجال العقيدة:

وذلك باعتماد منهج القرآن الكريم والسّنة المطهرّة، والسّلف الصّالح في أمر العقيدة إذْ أنّهم أصفى النّاس فطرة، وألينهم قلوبًا، وأدقّهم إدراكًا للمقاصد، وأعرفهم بمواقع الألفاظ والجمل والتراكيب.

فأوّل خطوة في مجال التجديد العَقَدي:

1- هو تنقية العقيدة الإسلامية من آثار علم الكلام، ومن جميع ما علق بها «فالفهم الصحيح لمسائل العقيدة الإسلامية لابد أنْ يستند إلى القرآن الكريم والسّنة النبوية وعدم محاولة التعمّق الكلامي في الغَيْبيات التي تبعد العقول المسلمة عن واقع عالم المادة وتقحمها في الانحرافات والاختلافات والضّلالات، لاسيما وأنْ تلك القضايا بشكلها القديم لا تثار في هذا العصر»(1).

2- الاهتمام ببيان أثر العقيدة على النفوس: فمن التجديد في مجال العقيدة ربط آثارها الواقعية بها، فلا يكفي أنْ يؤمن المرء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله على مقتضى ما يدين به أهل السّنة إيمانا عقلانيا جافا، بل لابد من العمل على إحياء الآثار القلبية النّابعة من صدق الإيمان، فلابد أنْ تُطرّق المعاني الباطنة التي هي جزء لا يتجزّأ من العقيدة والإيمان، فمن الواجب على الحركة التجديدية أنْ تولي هذه القضية عنايـــة

(1) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 99

كبيرة، فهي الأثر العملي المباشر للتّصديق بالعقيدة «فالدّين الذي هو في أسمى مظاهره، ليس عقيدة فحسب أو كهنوتًا أو شعيرة من الشعائر، هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصري إعدادًا خُلُقيا يُؤهّله لتحمّل التبعة العظمى التي لا بد أن يتمخّض عنها تقدّم العلم الحديث وأن يَرُدّ إليه تلك النّزعة من الإيمان التي تجعله قادرًا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا، والاحتفاظ بها في دار البقاء».(1) فالعلم بالله والمعرفة بأسمائه وصفاته هي أجلّ أنواع العلوم، لأنّها إذا استقرت في النفوس واستولت على القلوب أثمرت حقائق إيمانية ومعارف وجدانية، ووصلت الأرواح بالملأ الأعلى فالإيمان في نظر القرآن ليس مجرّد قوّة كامنة في النّفس، ونية طيّبة داخل الوجدان، «وإنّما هو طاقة نفسية هائلة، وقدرة ذهنية فائقة، وعزيمة إرادية صلبة، وحركة عَضَلية دؤوب، وسعي حثيث خلاّق، وعمل حضاري مبدع، وبناء هندسي مرسوم، وتوجيه تربوي مقنّن، ومدروس ونظرة إلى الوجود متعمّقة راشدة ومسؤولة».(2)

3- **اعتماد** طريقي المعرفة النقلية والعقلية في العقيدة: -فالمعرفة النقلية مصدرها الوحي بشقّيه الكتاب والسّنة، وإنّ من أُسُس العقيدة الإسلامية أنّ مصدرها الوحيد للدّين هو الوحي، بمصدريه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. والمعرفة العقلية مصدرها الكون بشقّيه الطبيعي والبشري، وذلك وفق قاعدة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول «وما جاء به الوحي، ليس فيه ما يناقض العقل، بل هو جَارٍ كلّه على مقتضى مبادئه: فقد جاء في هذا الوحي أنّ العقل هو أساس التكليف، فلو كان فيه ما يناقض العقل لكان فيه تكليف بما لا يطاق»(3) والحال أنّ الله تعالى بيّن أنّه ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا إِلاّ وُسعَهَا** ﴾. [البقرة: 286].

(1) – محمد إقبال، تجديد التفكير الدّيني في الإسلام، مرجع سابق، ص: 217

(2) – محمد التومي، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ط/1، [1407هـ-1986م]، ص: 39

(3) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين، ج1/ 48

4- ردّ الشّبهات العقدية الحديثة وذلك بالوقوف في وجه التحدّيات الرّاهنة مثل الإلحاد، والمادّية الجدلية ونحوها، وهذا في الحقيقة إعمال لمنهج السّلف الذين جابهوا تحدّيات عصرهم وزمانهم بالوقوف أمام «البدع وتحرير الفكر من الخرافات والزّيغ والتخلّص من مظاهر الشّرك والتخطيط للقضاء على استغلال الطرقية الصوفية، التي لعبت في بعض الأحيان دورًا تخريبيًا في الفكر، ودورًا استسلاميًا ذليلاً في الواقع للمستعمرين».(1)

ثانيا: التجديد في مجال النظر والاستدلال:

وذلك بإحياء الحركة العلمية التي تهدف إلى دراسة القضايا الشّرعية كلّها دراسة مبنية على الدّليل الشرعي الصحيح بعيدًا عن عصبية المذاهب. فلسنا نعتقد أنّ الحقّ محصور في مذهب بعينه لا يخرج عنه بحال، ولذا فالبحث عن الحقّ هو ضالّة المسلم المنشودة، أنّى وجده سَعِد به وقبِله غير ناظر إلى هذه الحواجز المذهبية.

ولضمان سير منهج التفقّه والاستنباط سيرًا سليمًا بعيدًا عن الانحراف أو الفوضى التشريعية لابد من صياغة المنهج السليم للتفقّه من خلال استقراء طريقة السّلف الصالح –رضوان الله عليهم– وهذه ليست «دعوة لإهمال الفقه الإسلامي، وإهدار الجهود الضخمة العظيمة التي بذلها الأيمة الكبار. والتي تحوي من أصول الصناعة التشريعية، ومن نتاج الأحكام الأصلية، ما يفوق –في نواح كثيرة– كلّ ما أنتجه المشرّعون في أنحاء العالم ولكنّها فقط بيان للمنهج الذي قد يأخذ به المجتمع الإسلامي الذي ينشأ –عندما ينشأ– وبيان لطبيعة المنهج الإسلامي في إنشاء الأحكام الفقهية».(2)

وهذا ما نلمسه في طبيعة الفقه الإسلامي وتجربته التاريخية، ففي التّراث الفقهي الهائل والزّاخر بكثير من التجارب لأئمة ومجتهدين ومجدّدين لخير دليل على قدرة الفقه الإسلامي العظيمة على التجدّد، وأمام هذا الانفجار المعرفي على السّاحة الإسلامية نجدنا بحاجة إلى وضع ضوابط

(1) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 92

(2) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 191

شرعية لهذه العلوم الجديدة، تحدّد مقاصد كلّ منها في ضوء مقاصد الشريعة العامة، وتوضّح الأحكام الشّرعية من نصوص الكتاب والسّنة التي تحكمها وتثري مادّتها في القواعد الشّرعية التي تنطبق عليها. وعندما نرجع إلى التّراث الفقهي الإسلامي، نستجلي الصّورة أكثر فإنّنا نجدها واضحة في فقه الأيمة المجتهدين في العصر الذهبي الأوّل للفقه الإسلامي، حينما كان فقهها اجتهاديًا واقعيًا حيًّا، فهؤلاء «الأيمة رغم أنّهم كانت مطروحة عليهم بأولوية وإلحاح مهمة تقنين الأحكام الدينية باستخلاصها من أصول الوحي، فإنّهم كانوا يقومون بالإضافة إلى ذلك في ذات الوقت بمهمّة صياغة الأحكام، بما يعالج مجريات الواقع في البيئات التي كانوا يعيشون فيها، وتبدّى ذلك في بعض الأصول الواقعية، التي وضعوها قواعد للاجتهاد، مثل أصول المصالح المرسلة والاستحسان، والعرف، وعمل أهل المدينة وما شابهها».(1)

فالحاجة إلى التجديد في مجال النّظر والاستدلال أصبحت محطّ اهتمام العلماء حديثًا، ولعلّ ممّن أشار إلى أمور بعينها هو -حسن الترابي- حينما حاول تحويل فكرتي الإجماع والاجتهاد إلى وضع مؤسّس أصبح إحدى ركائز النّظام الدّستوري في الإسلام، وكذلك حين دعا إلى التوسّع في معنى القياس.

كما لا ننسى دور -جمال الدين عطية- ومساهمته الجادة في ترتيب الأدوات الأساسية في مادة أصول الفقه، وذلك في قوله: «كما أني -إلى جانب اقتراحات تتعلّق بالشّكل والتّرتيب في مادة أصول الفقه وفي تصنيف أدلّة الأحكام والتفرقة بين المصدر والمنهج والأدوات- بحثتُ كذلك في مدى إمكانية استفادة أصول الفقه من مناهج العلوم الاجتماعية الحديثة، وفي مدى إمكانية استفادة العلوم الاجتماعية من منهج أصول الفقه».(2)

وبخصوص الفقه الإسلامي بالذّات نجد أن علمه المنهجي "أصول الفقه" قد نما وتطوّر في القرون الأولى، ثم توقف عن النمو والتطوّر، وقد ظنّ البعض أنّه لا مجال فيه للإضافة، بل أنكر بعضهم مجرّد التفكير في الاجتهاد فيه، فضلاً عن أنّ النّظر إلى دراسته لا تعدو أنْ تكون لغرض

(1) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج2/ 65

(2) – جمال الدين عطية، المنهجية الإسلامية -بحث ضمن مناهج التجديد، تحرير وحوار عبد الجبار الرفاعي، [دار الفكر المعاصر -بيروت، لبنان، دار الفكر - دمشق، سوريا] ط/1، [1421هـ-2000م] ص: 185

فهم كيف توصّل الفقهاء إلى الآراء التي قالوا بها، وليست بأيّ حال لغرض استخدامه حاليّا والاجتهاد في إطار قواعده «وأكثر من ذلك أنّ الاجتهاد الذي ندعو إليه لا ينبغي أنْ يقف عند حدّ الفروع الفقهية فحسب، بل ينبغي أن يتجاوزها إلى دائرة أصول الفقه نفسها».(1)

وممّا ينبغي أنْ يتّسع له نشاط الفقيه المعاصر أنْ يقوم بالمعالجة الواقعية للأوضاع المعاصرة لأنّ «الفقهاء الأصوليين عبّروا عن واقعية الإسلام تعبيرًا صادقًا، وتحرّكوا في إطار الكتاب والسّنة واستنبطوا منهما القواعد الأصولية التفصيلية والمقاصد العامة التي قادت حركة الاجتهاد الفقهي في نواحي الحياة كلّها، فأنتجت مذاهب فقهية متنوّعة في غاية الخصوبة والدّقة، استوعبت حياة الإنسان بأدق تفاصيلها ومشاكلها».(2)

ولا يسعني في ختام هذه النّقطة المتعلّقة بالتّجديد في مجال النّظر والاستدلال أو ما يطلق عليه البعض تجديد أصول الفقه، أو الاجتهاد في أصول الفقه، إلاّ أن أشير إلى أنّه لا توجد مخاوف ولا مبرّرات للانزعاج من بحثها كما هو مذكور في بعض الكتابات الحديثة، والذي يثيره بحث هذه المواضيع هو إضافة جديدة لتعميق البحث فيهـــا، وعلى خلفية إثارة هذه القضية، ذهـــب -جمال الدين عطية- إلى القول متسائلاً: هل سيظلّ إطلاقُ اسم أصول الفقه على هذه المباحث مطابقًا لمضمونها، أم يكون الأولى البحث عن اسم جديد له؟

فردّ بأنّ نتيجة البحث هي التي ستحدّد الإجابة عن هذا السّؤال، وذلك بالقول: «فإنْ كانت محصّلة التجديد جزئية فلا بأس من استبقاء اسم علم أصول الفقه وتعريفه التقليدي بأنّه العلم بالقواعد التي ترسم المناهج لاستنباط الأحكام العملية من أدلّتها التفصيلية، إذْ يتّسع هذا التّعريف للتجديدات الجزئية داخل العلم، أمّا إذا كانت محصّلة التجديد كلّية وشاملة فنرى في هذه الحالة الحاجة إلى إنشاء علم منهجي جديد تكون أصول الفقه جزء منه».(3)

---

(1) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 97

(2) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 62

(3) – جمال الدين عطية، توسيع مجال الاجتهاد... آفاق وعقبات [موقع إسلام أون لاين] بتاريخ [2003/03/25م]

ثالثًا: التجديـد في السلوك الفردي والاجتماعي:

وذلك بالعمل على صياغة حياة المسلمين بتفصيلاتها صياغة إسلامية شرعية، والإفادة من المعاني الوجدانية وذلك بإحياء الربّانية والأخلاق الإيمانية والكيفيات الباطنية، بعيدًا عن شطحات الغلاة الذين رسموا الدين في رسوم معيّنة وكيفيات مخصّصة، وتوسّعوا في جانب الكشف والإلهام، وبعيدًا عن شطط الحرفيين، الذين جعلوا الدّين مظاهر وحركات وتمسّكوا بظاهر النّصوص، وتغافلوا عن الأحوال التي كانت تلازم الرّسول –صلى الله عليه وسلم– قيامًا وقعودًا، ركوعًا وسجودًا، داعيًا وذاكرًا، آمرًا وناهيًا، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد من إخلاص واحتساب وصبر وتوكّل وخشوع في الصلاة وابتهال في الدّعاء، وزهد في زخارف الحياة، وإيثار للآخرة على العاجلة وشوق إلى لقاء الله إلى غير ذلك، ممّا هو جوهر الشريعة وروحها ومحطّة اهتمام المجدّدين الربّانيين، الذين فهموا «أنّ الأمور الأساسية هي الدّين، ويبيّنوا دينهم على أساس الحقائق بدلاً من أنْ يعتمدوا على الكرامات والطلاسم ليذوقوا لذّة الدين الحي الفعّال وليهجروا الأعمال الخاوية من الرّوح.... وليدخل الإسلام في أعماقهم كقوّة محرّكة ولا يكون كذيل أو "خاتم ماسي" في اليد لا عمل له في حياة الإنسان، وليتذوّقوا حقيقة التقوى بدلاً من أنْ يعتبروا بعض الأعمال الصناعية دينا، وفي هذا الإيمان الصّحيح يكمن حلّ أكبر معضلة تواجه المسلمين في الوقت الحاضر».(1)

فالانحراف السّلوكي في حياة المسلمين المؤمنين حقّا بهذا الدّين، مردّه إلى أحد سببين:

1- إمّا الجهل بحكم الله ورسوله في هذه المسألة.

2- وإمّا ضعف الإيمان وضعف الإرادة بحيث تغلب الإنسان شهوته، أو تغلبه ظروفه فيقع في المحظور.

فمعالجة الجهل هي بالتعليم والتفهيم وربط النّاس بالنّصوص الشّرعية، ومعالجة الضعف الداخلي هي بمخاطبة القلوب والتأثير عليها والالتزام بالأخلاق والقيم، التي تعتبر من أهم المرتكزات «فالأمّة التي حَسُنت أخلاق أفرادها واستقام اعوجاجهم وسادتهم القيم الفاضلة، وخيّمت عليهم الفضيلة وانتفت عنهم الرّذيلة أمّة متحضّرة بحق إذْ بالأخـــلاق يرتفع الإنسان عن مرتبة

(1) – وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي: المنهج والشروط، ترجمة محسن عثمان الندوي، مراجعة الدكتور عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع –القاهرة، [1405هـ–1984م]، ص: 30

الحيوان، فإذا كانت الأمّة يتعامل أفرادها فيما بينها معاملة أخلاقية، ويهتمّ كلّ منهم بالآخر ويحرص على ماله وعرضه وكرامته، فهي أمّة تصل بذلك إلى قمّة الهرم الحضاري، وتكون المسافة بينها وبين المرتبة الحيوانية الهابطة مسافة بعيدة».(1)

لقد امتازت الحضارة الإسلامية بالانسجام والأمن، وعندما فقدت المجتمعات الإسلامية هذه المعاني فقدت الرّوح الحضارية الحقّة، وأصبحت تدور في فلك جاذبية الحضارة الزّائفة التي تهتمّ بالجانب المادّي النّظري، وتهمل الجوانب الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية، وتعتمد على إرواء الغرائز وإرضاء العواطف وإهمال الدّين وفساد العقل وتحطيم الأخلاق. وهذه الحالة هي نفسها التي عبّر عنها -حسن الترابي- بقوله: «إذا وهت دوافع العقيدة وضوابطها، وأظلمت شعاب الحياة بانخساف نور الفقه الشرعي. فقد فترت حركة المسلمين وتعوّقت، ونشطت ضدّهم قوى الأقدار التي يصرّفها الله ابتلاء فأورثتهم البيئة الطبيعية مرضًا وفقرًا وضرب عليهم النّاس مسكنة وفتنة».(2)

ويعزو سبب إخفاق حركة الإسلام إلى هذا السّبب المتمثّل في أنّ دوافع الإيمان لم تزل منحطّة عن مُثَل الإسلام، فالبدع والظلم، والانحرافات السّلوكية الفردية والجماعية، ما تنفكّ تتراكم وتتكاثر «ولعلّ سبب إخفاق حركة الإسلام، مهما صدقت نيّاتها المؤمنة، في تحقيق الإصلاح الدّاخلي والعزّ الخارجي هو أنّها لم تجعل منهج التجديد شاملاً شمول الدّين التوحيدي، حيث يحيا الأيمان منبعثًا ليلد علمًا متفجّرا ويثمر عملاً مباركًا ويتمثّل جماعة فاعلة».(3)

(1) – عبد المؤمن محمد النعمان، قضايا في ظلال الفكر، دار العلم للطباعة والنشر –المملكة العربية السعودية، ط/1، سنة [1406هـ-1985م]، ص: 18

(2) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 172

(3) – المصدر نفسه، ص: 178

رابعاً: التجديد في مواجهة التحدّيات المعاصرة عبر الاجتهاد:

إنّ عصرنا هذا المتّسم بالتطوّر العلمي والانفجار المعرفي، والذي مسّ تقريبًا مناحي الحياة كلّها أوجد تحدّيات كبيرة أمام الفقه الإسلامي شملت جميع الميادين. الأمر الذي تطلّب معالجة فورية عبر آلة الاجتهاد والتجديد. وأوّل ما يتبادر إلى الذّهن و لم يعد يُماري فيه أحد ضرورة الاجتهاد في المستجدّات من المسائل، سواء على المستوى الجزئي -كفوائد البنوك أو نقل الأعضاء أو التأمين على الحياة أو زكاة المستغلات- أو على المستوى الكلّي -كدور الدّولة في مجال الاقتصاد والتنمية.

وممّا ينبغي أن يتّسع له نشاط الفقيه المعاصر أنْ يقوم بالمعالجة الواقعية للأوضاع المعاصرة، فلا يقف نشاطه عند البحوث النظرية المثالية، وإنّما ينزل إلى الواقع ليُبدي فيه رأي الشريعة، ومن المؤسف أنّ جُلّ فقهاء العصر اليوم يحاولون جاهدين استيعاب مشكلاته، وقراءة أفكاره بعيون غيرهم، ويفكّون ألغازه وتعقيداته بأدوات من سبقهم، في حين أنّه «لا يمكن تركيب تلك الأقوال وتحويلها إلى إجابات عن الأسئلة المعاصرة إلاّ بكثير من التعسّف، للقيام بعملية قياس مفتعل لا تستقيم على قياس، ناسين أو متجاهلين أنّ القياس مستحيل لوجود الفارق والمتغيّر النّوعي، والمتغيّرات النوعية في الاقتصاد، وعلاقات الإنتاج والاستهلاك، وكذلك في السّياسة وقضايا الاجتماع، لا تسمح بتركيب جواب فقيه القرن الثالث أو الرّابع أو حتّى القرن الماضي عن سؤال هذا العام.... ولذلك فقد رأينا كثيرًا من فتاوى ذوي الفتوى والمجامع الفقهية المعاصرة تتكشّف بعد قليل عن كثير من العيوب والمشكلات».(1)

ومن هَاهُنا كما نوّهتُ سابقا، يكون التجديد ضرورة شرعية لا مفرّ منه، خصوصًا في ظلّ العولمة وما سبقه من تطوّر علمي كبير، وطفرة هائلة في مجال الاتّصالات، ونقلة نوعية في عالم الإدارة، وعلم الطبيعة والحياة، وإفرازات كلّ ذلك على واقع الأمّة المعيش، وحيث ستَجدّ أمور لم تكن لتوضع في الحسبان، ولم يرد فيها دليل واضح، فليس من الصواب الرّكون إلى اجتهادات ورؤى من سبق من الفقهاء والاعتماد على ما توصّلت إليه فهومهم، وليس هذا من قبيل التنكّر لرصيدهم المعرفي وتراثهم الفقهي الزّاخر بكنوز المعرفة أو الدعوة إلى الارتداد عليه

(1) – طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعا [ضمن مناهج التجديد، سلسلة آفاق التجديد، تحرير وحوار: عبد الجبار الرفاعي] (دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر دمشق سوريا)، ط/1، [1421هـ-2000م]، ص: 121-122

بل هي دعوة لدفع العقول الفكرية المعاصرة باتّجاه مواصلة التطوّر الفقهي والتشريعي وبالتّالي «فإنّ المستجدّات والنوازل لا يمكن استيعابها والإجابة عنها بالفقه الفروعي مهما اتّسع وتعدّدت فرضياته، واتّسعت جوانب الآراء فيه ولكن يتمّ استيعابها بالمناهج والقواعد المنهجية والأصول لا بالفروع».(1)

فالاجتهاد في عصرنا الحالي لا بديل عنه مادامت الحياة الإنسانية حافلة بوقائع جديدة تتطلّب مواجهتها بحلول تناسبها إنْ اقتضى الأمر، وهي لا تتحقّق باستنساخ الحلول الاجتهادية القديمة أو بالتوسّل بمفردات الفقه القديم كما بيّنتُ، بل بفهم الواقع الجديد وبالالتجاء إلى الاجتهاد الجماعي للخبراء والفقهاء «فآليات الكشف عن التغيّرات النوعية غير آليات الكشف عن التغيّرات الكمّية وبالتّالي فإنّ الاجتهاد الفردي، والفتوى الفردية لم تعد مُمكنة، بل لابد من مراكز بحوث ومؤسّسات متنوّعة الاختصاصات تكون مع الفقيه ويكون معها، ليتمكّن من ممارسة دوره بشكل سليم».(2)

وهذا المعنى يتناغم مع ما ذهب إليه الترابي في قوله بأنّ «التجديد اليوم بمداه الواسع الشّامل وبمغزاه الأصولي، وبوسائله الشديدة، لا يمكن أنْ يتأتّى إلاّ بقيادة جماعية تتّسع لتستوعب كلّ هموم التجديد، وتقوى على النهوض بأعبائه الفكرية والعملية».(3)

وتجدر الإشارة إلى أنّ المؤسّسات العلمية الفقهية الحديثة تُقِرُّ بالاجتهاد، إلاّ أن ما يجري من الاجتهاد في المستجدّات والنّوازل لا يخرج عن إطار التشبث بالفقه التقليدي، وهذه ليست دعوة للتقليل من قدر أولئك الأيمة العظام الذين أثروا أزمنتهم المتعاقبة بكنوز من العلم والمعرفة وتركوا لنا تراثًا عظيمًا لا يمكن بأيّ حال الارتداد عليه، ولكن من الحقّ الاعتراف بأنّ ما تضمّنته كُتبهم لا يستطيع الإجابة على أسئلة العصر وتحدّياته ذلك أنّ لكل «عصر مشكلاته وواقعه، وحاجاته المتجدّدة، والأرض تدور، والأفلاك تتحرّك والعالم يسير وعقارب السّاعة لا تتوقف ومع هذا الدّوران المستمر، والحركة الدائمة، والسّير الحثيث، تتمخّض أرحام الأيام واللّيالي عن أحداث ووقائع جديدة لم يعرفها السّابقون، وربّما لم تخطر ببالهم، بل ربّما لو

(1) – طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعا، مرجع سابق، ص: 121

(2) – المصدر نفسه، ص: 122

(3) – حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 174

ذكرت لهم لعدّوها من المستحيلات! فكيف نتصوّر حكمهم عليها، وهي لم تَدُر بخلدهم لحظة من الزّمـــان؟»».(1)

إذن الحاجة إلى التجديد حاجة دائمة مادامت وقائع الحياة تتجدّد، وأحوال المجتمع تتغيّر وتتطوّر، ومادامت شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان «وعصرنا خاصّة أحوج إلى الاجتهاد من غيره نظرًا للتغيّر الهائل الذي دخل الحياة الاجتماعية بعد الانقلاب الصناعي والتطوّر التكنولوجي والتواصل المادي العالمي، الذي جعل العالم الكبير كأنّه بلدة صغيرة».(2)

خامسا: التجديد في الجانبين (الاقتصادي المالي والطب الحديث):

ممّا ينبغي أن يتّسع له نشاط المجدّد والفقيه المعاصر قيامه بالمعالجة الواقعية للمستجدّات والقضايا المعاصرة، فهناك أوضاع طرأت ومسائل استحدثت تفرض على المجدّد الفقيه إبداء رأي الشريعة فيها، وأذكر هنا مجالين شغلا بال وعقول العلماء والمختصّين، ويتعلّق الأمر بمجالات الاقتصاد والمال ومجال الطّب الحديث، ويبيّن –يوسف القرضاوي– أهمّية هذه الميادين وحساسيتها في الوقت الرّاهن فيقول: «إنّ عصرنا هذا قد حفل بأشكال وأعمال ومؤسّسات جديدة في ميدان الاقتصاد والمال لم يكن لأسلافنا –بل لأقرب العصور إلينا– عَهدٌ بها وذلك كالشّركات الحديثة بصورها المتعدّدة، كشركات المساهمة والتوصية وغيرها، وفي مجالاتها المختلفة كالتّأمين بأنواعه المتعدّدة: تأمين على الحياة وتأمين على الممتلكات...الخ والبنوك بأنواعها المختلفة من عقاري وصناعي وزراعي وتجاري واستثماري...الخ وأعمالها الكثيرة من حساب جار، وودائع وقروض وتحويل صرف، وفتح اعتمادات وإصدار خطابات ضمان و(خصم كمبيالات) وغير ذلك ممّا قد يحلّ أو يُحرم من معاملات البنوك».(3)

ففي مجال الطبّ الحديث مثلاً، فإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ العلم بما توصّل إليه من نتائج واكتشافات جدّ متطوّرة، إلاّ أنّه لازالت تعترض الفقه الإسلامي صعوبات نتيجة للتّحديات التي يفرضها العصر عليه وخصوصًا في المجال الطبي، وقد أثار هذا مشكلات كثيرة تبحث لها عن حلول شرعية، وتساؤلات عديدة لازالت عالقة إلى يوم النّاس هذا تتطلّب أجوبة دقيقة من الفقه

(1) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 101

(2) – المصدر نفسه، ص: 102

(3) – المصدر نفسه، ص: 102

الإسلامي. وتقتضي من المجتهد المعاصر أنْ يبذل جهده ويستفرغ وسعه في استنباط الحكم المناسب لها.

وعلى هذا الاعتبار فإنّ فهم طبيعة هذه التحدّيات غدت عاملاً أساسيًا بالغ الأهمية في حياة الفقيه المجدّد الذي لا يقف نشاطه عند البحوث النظرية، وإنّما يترل إلى الواقع ليُبدي فيه رأي الشريعة «فالمنطلق الأوّل لفهم الإنسان وواقعه هو الانخراط الفعلي في هذا الواقع معايشةً للنّاس، وتعاملاً معهم، في تصرّفات الحياة المختلفة، ووقوفًا على مشاكلهم عن كثب ومساهمة واقعية في مناشطهم المتنوعة».(1)

فهذا التّفاعل بين المجدّد وواقعه، أمر ضروري لا غنى عنه لمن يريد فهم واقعه، وحسب المرء في مثل هذه الأمور أنْ يأخذ برأي العالم المتخصّص، إذ ليس من الإنصاف أنْ نأتي لعالم الدّين نطالبه بأنْ يغوص على نصوص الدّين واجتهاداته، وأنْ يوافينا من ذلك بنظام اقتصادي متكامل(2) بل الذي ينبغي أن يكون عليه الأمر هو أن يتولّى إعداد ذلك من في استطاعته فهم آلياته واستيعاب متغيرّاته، والإحاطة بأسراره وقواعده «فإذا أراد المسلمون أنْ يعيشوا في هذا العصر الحديث فعليهم أنْ يفهموا المتغيّرات الاقتصادية الجديدة وذلك بصورة أساسية وضرورية وأنْ يعملوا على مسايرة اقتصاديات العصر الحاضر، وإلاّ ظلّوا فريسة سهلة لسيطرة الأمم الأخرى، ثم يصبحون في النهاية أمّة منبوذة اقتصاديا بين دول العالم».(3)

إنّ تحقيق التلاؤم بين الواقع والقيم هو مناط النجاح في إدارة أي مؤسّسة من أيّ نوع كانت صغرت أو كبرت، من العائلة إلى الدولة فالوطن والأمّة، وهذا الأمر ليس باليسير في ظروف عالمنا المعاصر، ولكن ليس بالأمر المستحيل.

فتجديد الرّؤيـــة وابتكار الحلول والاجتهاد أمور يضمنها النظام الإسلامي المعرفي، ويؤكد الحاجة إليها فقد عبّر القرآن الكريم عن المال بالقيام ﴿ **أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ﴾ [النساء: 05].

---

(1) – عبد المجيد النجار، في فقه التديّن فهما وتنزيلا، ج1/ 125

(2) – عبد اللطيف الفرفور، خصائص الفكر الإسلامي، ص: 41

(3) – وحيد الدين خان، واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام، دار الصحوة –القاهرة، ط1، [1984م]، ص: 193

كما جعل الله المال أو الاقتصاد عونًا اقتصاديًا للإنسان في هذه الدنيا، وعن طريقه يستطيع أن يسدّ حاجات حياته التي يتمكّن بـــها من الحفاظ على جسده.(1)

وقد أرجع أحد المفكّرين فشل الحركات الإسلامية في هذا العصر إلى عدم فهمها واستيعابها لاقتصاديات العصر الحديث فقال: «وحركات المسلمين الكبرى التي ظهرت في العصر الحاضر، راحت بدون استثناء تقريبا –ضحية هذا الخطأ، فقد أعطت للثّورة السياسية اهتمامًا أكثر ممّا تستحق، بينما الاقتصاد وماله من صلاحيات ومكانة في عصرنا الحاضر يحتلّ المكان الأوّل ويليه بالدّرجة الثانية السّياسة، فالسّياسة، هي اليوم في يدّ أولئك الذين يمتلكون الاقتصاد، ومن لا توجد في يده القوة الاقتصادية لا تكون له أيّة سياسة».(2)

ولقد تمحورت اتجاهات المجدّدين في الإسلام في العصر الحديث وتنوّعت اهتماماتهم، فهناك من عكف على فقه الأسرة أو الأحوال الشخصية وتفرّغوا له وأتقنوه، كما اختصّ آخرون وتفرّغوا لفقه المعاملات المالية أو الجانب الاقتصادي في التشريع الإسلامي، واهتمّوا بكلّ ما يتعلّق به أو بجانب معيّن منه، وهؤلاء أقدر النّاس على الاجتهاد والتجديد.(3)

وجرت داخل الفكر الإسلامي محاولات لتقديم الإسلام برؤية معاصرة بعيدًا عن التلفيق والانتقائية، بل من خلال منهج أصيل ومتجدّد من نُخب تحاول تجسيد التواصل بين الأصالة والمعاصرة، وبين المعرفة الإسلامية والعلوم الحديثة، وقد تناولت عناوين أبحاثهم وكتاباتهم متطلّبات التغيير الاجتماعي تبعًا لمتغيّرات العصر، وفي مقابل ذلك شهدت نهاية القرن العشرين موجة كبيرة من الإنجازات على مختلف الصّعد الحياتية من الاختراعات والأفكار، ابتداء من الأغذية المصنّعة إلى التطوّر الذي طرأ في حقل العلم على عمل الأطباء من نقل الأعضاء وزراعتها إلى التلقيح الصناعي والاستنساخ والتلاعب بجينات الإنسان وهندستها الوراثية وتغيير الجنس، كلّ هذه المسائل فرضت نفسها على واقع حياة المسلمين، فكان على عاتق الفقه وعلمائه مسؤولية الفتوى في جوازها أو منعها أو قبولها، أو التّحذير منها وبيان رأي الشّرع

(1) – وحيد الدين خان، واقعنا ومستقبلنا في ء ضوء الإسلام، ص: 192

(2) – المصدر نفسه، ص: 193

(3) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 112

فيها وذلك كلّه لا يتأتّى عمله إلاّ بالاجتهاد والتجديد «وهذا نموذج لموضوع واحد من الموضوعات الكثيرة التي يثيرها الطبّ الحديث وتحتاج إلى اجتهاد جديد من فقهاء الإسلام».(1) وقد ألمح –يوسف القرضاوي– إلى جهود العلماء والمنظّمات الإسلامية للعلوم الطبيّة في كثير من النّدوات والمؤتمرات، في إشارة إلى المؤتمر الذي انعقد بدولة الكويت، والذي جمع بين رجال الفقه ورجال الطّب حول "الإسلام والإنجاب" وكذالك إلى موضوع الندوة الخاصة ببداية الحياة البشرية ونهايتها، إلى غير ذلك من هذه الاجتهادات المعاصرة.(2)

ونخلص إلى القول بأنّ الأمّة في حاجة إلى تجديد يُتيح لها التفوّق في فرض الكفايات من العلوم الكونية، والرياضية، والتكنولوجية، والمجالات المدنية والعسكرية وغيرها، وعليه يجب أن يتّسع نشاط المجدّد ليشمل جميع المجالات التي لا تخالف معلومًا من الدّين بالضّرورة، وأن يقوم بالمعالجة الواقعية لها، ويُبدي فيها رأي الشريعة.

وأخيرًا إنّ هذه الدّراسة التي نحن بصددها ستكشف لنا عن سيرورة الفكر والتفكير التي قطعها الفكر الإسلامي استجابة للمتطلّبات التي تمليها الوقائع والتحوّلات، كما أنّها تهدف إلى إيجاد صلة القربى بين مفهوم الاجتهاد من جهة ومفهوم التجديد والإدماج بينهما من جهة أخرى بحيث لا ترى تناقضًا بين المفهومين، فنريد أن نقيم هذه الصّلة بين التجديد وبين مبدأ الاجتهاد وبين مقتضيات الواقع ومتطلّبات العصر.

لأنّ الانطلاق في هذه الدراسة من الدّائرة التقليدية التي تقادمت مصطلحاتها والتي لم تعد تفيد في فهم شؤون العصر –ونعني بها العمل بالقواعد التي حدّدتها كتب الأصول حرفيًا– والتي يقود العمل بها إلى إنتاج الشروط ذاتها التي كانت في السّابق، والتي أدّت إلى إفراغ الاجتهاد من مغزاه العميق، وبهذا المعنى فإنّ الظّروف التاريخية ليست هي التي أدّت وحدها إلى إغلاق باب الاجتهاد، ولكن المنظومة الفكرية التي تقادمت مصطلحاتها هي التي لم تعد قادرة على استيعاب متجدّدات العصور اللاّحقة.

إنّني من خلال دراسة موضوع التجديد عند الإبراهيمي سأبيّن مدى الصّلة بين الاجتهاد من جهة وبين تجديد الفكر في الإسلام من جهة أخرى، ويبقى المطلوب هل هو التجديد بمقتضى شروط الاجتهاد، أم المطلوب تجديد شروط الاجتهاد نفسه، هذا ما سيأتي بيانه وتفصيله لاحقًا.

(1) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 106

(2) – ارجع إلى تفصيل ذلك إلى كتاب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية من ص: 102 إلى ص: 106

الفصل الثالث:

منهج التجديد عند البشير الإبراهيمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

مفهوم التجديد عند الابراهيمي

إنّ مصطلح التجديد ليس حديثا ومعاصرا فحسب، بل هو مصطلح عريق في التراث الإسلامي. ولقد اتّضح مفهومه من النّص النّبوي و لم يُغادر موضعه طوال التاريخ حتى هذا القرن.

وهذا النّص هو قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– "**إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها**"*.

ولقد جاءت تفسيرات هذا النّص متباينة في الشّكل ولكنّها متّفقة في المعنى، وساعد في ذلك المرونة التي تتمتّع بها كلمة "التجديد" على مستوى الدّلالة اللغوية، وقابليتها أيضا لاستيعاب الدّلالات المتعددة. وتنتهي هذه التفسيرات إلى إلباس التجديد معاني تجعله مرادفًا لمصطلحات أخرى من قبيل الاجتهاد، إحياء الدين، وإتّباع السّنة والتغيير.

غير أنّه لا بد من الإشارة إلى أنّ تعريف التجديد لا يصف بشكل دقيق المشروع التجديدي بقدر ما هو تعريف إجرائي للمفهوم، وهذا ما حمل –طه جابر العلواني– إلى القول بإلزامية النّظر إلى قضية الاجتهاد والتجديد من زاوية أخرى، لا تختص بالمجال الفقهي مهما اتّسع ومهما بلغت أهميته وإنّما «الاجتهاد الذي استهدف الكتاب الكريم والرّسول الأمين –صلى الله عليه وسلم– أن يجعلا منه فريضة لازمة على كلّ مسلم ومسلمة هو: حالة عقلية ونفسية تُطلق طاقات الإنسان كلّها للقيام بركن القراءة في الكون لتحقيق غاية الحق من الخلق في "العمران" بتسديد من قراءة الوحي لتتحقّق التزكية».(1)

ولقد جاء مفهوم التجديد عند البشير الإبراهيمي –من خلال النّصوص المبثوثة في كتاباته– مُتقولبًا في أشكال الرُّدود "على تحدّيات العصر" التي ظهرت بدورها في صور مختلفة، بحيث ينتهي مفهوم التجديد عنده إلى إلباسه معاني: (الاجتهاد، الإحياء، الإصلاح، النّهضة، التغيير....).

---

(1) – طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعا، مناهج التجديد، تحرير وحوار: عبد الجبار الرفاعي، ط/1، دار الفكر –دمشق، [2000م] ص:110

* سبق تخريج الحديث

ويمكننا أن نلاحظ من خلال هذا التفسير بروز اتّجاه فكرة الإحياء من خلال نصوصه التي سنعرض لها، ويتجلّى هذا المعنى عنده خاصة عندما تكون "تحدّيات العصر" من النّوع الذي يُهدّد وينخر كيان الأمّة على المستوى الوجودي والاجتماعي أو السياسي.

ويُفسَّر التجديد هنا بمعنى إحياء لما أندرس واندثر وذهبت منه العين أو الأثر، يقول الإبراهيمي: «إنّ الجمعيات لا تبقى ولا يضمن لها الدّوام إلاّ إذا كان في المعنى الذي أُسِّست لأجله عنصر من عناصر التجديد لطائفة أو لأمّة، وتكون قواعد العمران وأصول الأديان مقتضية له في حياة تلك الأمّة الرّوحية أو المادية، وما من جديد في حياة الأمّة إلاّ وله أصل اندثر وذهبت منه العين أو الأثر، فتقوم الجماعات أو الجمعيات بإحيائه أو تجديده».(1)

كما تجدر الإشارة إلى أنّه ليس كلّ ما صحّ في وقت ما في تعامله مع ظروف ذلك الوقت صالحاً بالضرورة لوقت آخر وظروفه، وعليه فإنّ الإصلاح ليس بالضرورة أن يكون إصلاحًا لشيء فاسد، بل قد يكون لتحريك فاسد أو إصلاح ما أصيب بخلل، يقول الإبراهيمي: «اليقظة استئناف حياة والحياة، المستأنفة ليست وجودًا من عدم، وإنّما هي تجديد لما أهدم، فلها تكاليف ثقيلة، ولها صعداء مطالبها طويلة».(2)

والتجديد بهذا المعنى هو وريث الإصلاح وامتدادٌ له، وبهذا المعنى يكون التجديد في مفهوم الإبراهيمي هو إحياء لأصول الإسلام وثوابته، وذلك بالرّجوع إلى المنبع الجوهري والنقي لهذا الدين، وبالنّظر فيها بعقل معاصر يفقه أحكامها كما يفقه الواقع الذي يعيشه عاقدًا القران بين فقه الواقع وفقه الأحكام.(3)

ونجد هذا المعنى بارزًا في موضوعات الإبراهيمي بشكل لا يحتمل التأويل، ومنها: «أنّ المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر ونظام اجتماعهم العمراني، ولذلك كانت أغلب أحكام المعاملات المأخوذة من القرآن كلّية قلّ أن نعثر فيها على التفصيل، وأنّ الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان، أن يكون للزّمان والمكان والعرف والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات، وتطبيقها على الحوادث الجارية».(4)

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 59

(2) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 285

(3) – محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية موقع www.alazhr.org

(4) – الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1/ 9

ويتجلّى مفهوم التجديد وحقيقته عند الإبراهيمي أكثر فأكثر لمّا ينحو باللاّئمة في معرض حديثه عن العلماء الذين أغفلوا الواقع وأسقطوه من حساباتهم ومن كتاباتهم، لأنّه يرى بأنّه ليس من الحكمة، ولا من مقصد الشرع الإفادة فقط من مفردات الفقه القديم والاكتفاء باجتهادات الفقهاء وفتاويهم الخاصة بأزمنتهم لمعالجة قضاياهم، بل لا بد من الالتجاء إلى نظرة تجديدية تُيسّر الأمور ولا تعسّرها، وتُساير روح العصر ولا تقاطعه، ولذلك نجده يقول: «أمّا مؤلّفاتهم –رحمهم الله ورضي عنهم– التي خلّفوها لنا في الفقه فقد كتبوها وهم في ديارهم وخلواتهم، ولم يُبنَ الكثير منها على مراعاة الأحوال العامة، وقد يبنون الأحكام في المعاملات على ما تقتضيه أنظارهم الخاصة، ويولّدون من كلام من قبلهم اقتضاءات ووجوهًا من التأويل.... ولذلك يرى الباحثون أنّ هذه التفريعات التي امتلأت بها كتب الفتوى لا ينطبق الكثير منها على مصالح النّاس، لأنّها لم تُبن على رعاية تلك المصالح التي هي أساس حكمة التشريع».(1)

ولمّا كانت حياة النّاس حافلة بالوقائع والمستجدّات التي تقضي بإيجاد حلول لها تناسبها، فهو يرى أنّ الحلّ لا يكون بإستنتاخ الحلول الاجتهادية القديمة أو الالتفاف حول مفردات الفقه القديم لصياغة حلول يستدعيها السؤال كما بيّن ذلك "طه جابر" في قوله: «أمّا السؤال الفقهي فإنّه يختلف من عصر لآخر ومن بيئة لأُخرى.... ومن المؤسف أنّ جُلّ فقهاء العصر يحاولون استيعاب مشكلاته وأسئلته بأقوال فروعية لمن سبقهم».(2)

وتحقيقًا لمفهوم التجديد عند الإبراهيمي نلاحظ أنّه لم يكتف بالاحتماء وراء سياج المدرسة التقليدية، ومكتفيًا بالدّعوة إلى إحياء الماضي لتحقيق الإصلاح والتجديد، واسترجاع ما كان عليه حال الأمّة، بل عمد إلى تجلية المفهوم وإيضاحه على نمط جديد لا يخلو من التعليل والتحليل والاجتهاد متذرّعًا بنزعة نقدية جليّة، توجّه بها إلى بعض فقهاء عصره وإلى أصحاب النّزعات الطرقية، فيقول مُعاتبًا: «ثمّ مالهم –سامحهم الله– يجمعون بين المتناقضات، فيحجرون الاجتهاد على الأحياء والأموات إلاّ على طائفة معيّنة كانت في زمن معين، وقد مضت ومضى زمانها، وجفّ القلم بأقوالها، ويبنون على هذا أنّه لم يبق من سبيل في علم الدين إلاّ التقليد قلنا لمن؟ قالوا لأولئك المجتهدين، قلنا سلّمنا فهلمَّ بنا إلى كتبهم وآرائهم المتّصلة الأسانيد إليهم ولكنّهم يتناقضون فيقلّدون حتّى في أدقّ العبادات العملية التي لا تُؤخذ إلاّ من نصّ صريح

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 78

(2) – طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعا، ص: 121

من آية محكمة أو حديث صحيح».(1)

ولمّا كان دور المُجدّد النّظر في القضايا المستجدّة من المسائل، وجب القيام بالمعالجة الواقعية للأوضاع المعاصرة، وذلك بعدم الوقوف عند البحوث الجزئية والارتكاز على المسائل القديمة بل يجب النزول إلى الواقع وإبداء رأي الشريعة فيه، وخصوصًا وأنّ العلوم الشرعية واكبتها تطوّرات الحياة في ظلّ هذا الانفجار المعرفي الكبير «لأنّ لمعة الفكر هي التي تقود العمل، والفكر المقلّد لا يقود، بل يشطح أو تصل حلوله متأخّرة وناقصة، وإنّما الفكر الاجتهادي الإبداعي هو الذي يقود ويدقّ باب المستقبل، وهذا الفكر الاجتهادي الإبداعي إنّما يُؤسّسه وقوف مع آي القرآن الكريم، ولبث مع سيرة النبي -ص- وقوله، وفحص لمذاهب المسلمين السّالفين والمحدثين، ومعرفة بأخبار التّاريخ والحضارات وإطلاع على آفاق الفلسفات والتأمّلات العقلية، وجري مع خيالات الشعراء ونبرات البلاغة، ونظر في صفحات الجمال».(2)

فمِن سماحة التشريع الإسلامي ومرونته —حسب رؤية الإبراهيمي- أن يتناول المستجدّات برؤية جديدة، وفي ذلك إشارة واضحة الدّلالة إلى أنّ مفهوم التجديد عنده، هو مسايرة العصر دون مساس بالأحكام المحكمة، وبضرورة النّظر في الأمور المستجدّة والقضايا المستحدثة التي لم تكن في عصور التّشريع، وفي هذا إشارة إلى أنّ الفقه ينبغي أن يحتلّ دوره كقائد للدّورة الحضارية للأمّة، وأن يكون الفقيه رائدًا ومُصلحًا وليس تابعًا محافظًا، وفي بيان ذلك يقول الإبراهيمي: «وقد استحدث العمران أنواعًا جديدة من المعاملات الدنيوية لا عهد للإسلام الفطري بها. وصورًا شتّى من المعايش ووجوه الكسب لم تكن معروفة فمن سماحة التشريع الإسلامي ومرونته أن تتناول هذه المستحدثات الجديدة بأنظار جديدة، وتستنبط من أصوله أحكام لفروعها. وكلّ هذا لا حرج فيه وليس داخلاً في ما نشكوه، بل نحن أوّل من يقدّر قدر تلك الأنظار الصّائبة والمدارك الرّاقية ويُقيمها دليلاً على اتّساع التشريع الإسلامي لمصالح النّاس وصلاحيته لجميع الأزمنة، وينكر على من سدّ هذا الباب على الأمّة فزهّدها في استجماع وسائله، ونحن أوّل من يقدّر قدر أولئك الأئمّة العِظام الذين هم مفاخر الإسلام».(3)

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 74

(2) – محمد أحمد الرّاشد، أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدّعوة الإسلامية، دار المحراب، زيورخ سوسرا، فان كوفر —كندا، ط/1، [2002م]، ج1/ 95

(3) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 95

وبوصف الإبراهيمي لحقيقة الفقهاء الذين عملوا على توحيد الأمّة، و لم يكونوا عامل هدم لكيانها ووحدتها، يكون قد وضع ورسم ملامح الفقيه المجدّد حيث قال:«والمذاهب الفقهية في حدّ ذاتها ليست هي التي فرّقت المسلمين، وليس أصحابها هم الذين ألزموا الناس بها أو فرضوا على الأمّة تقليدهم، فحاشاهم من هذا بل نصحوا وبيّنوا وبذلوا الجهد في الإبلاغ وحكموا الدّليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل.... ولهم في باب استخراج علل الأحكام وبناء الفروع على الأصول، وجمع الأشباه بالأشباه، والاحتياط ومراعاة المصالح ما فاقوا به المتشرِّعين من جميع الأمم».(1)

وفي خِضم معركة الأصوات والسّجال الحاصل في شأن تحديد مفهوم واضح ودقيق للتجديد وقف الإبراهيمي يدلي بدلوه في الموضوع، مبرزًا حقيقة المفهوم في أكثر ما من موضع في كتاباته ومنها على وجه الخصوص:

أنّه يؤمن بأنّ التغيير يبدأ من الذّات لا من خَارجها، ولاعتقاده أنّه من يهن يسهل الهوان عليه، نجده يؤكد على ذلك في قوله: «لك الله-أيّها الشعب المعذّب، لقد هُنتَ عليهم حين هُنتَ على نفسك، إنّهم ما ضربوك، إلاّ بعد أن جرّبوك، وما جرفوك، إلاّ بعد أن عرفوك، وما جنوا عليك واتّهموك، إلاّ بعد أن قرءوك وفهموك، فلا تلمهم، ونفسك فلم، وغيّر ما بنفسك وهلمّ.... أعنتهم في إفساد دينك وأخلاقك، فارتفعوا وانحدرت، وأعنتهم على إفساد دنياك فاستغنوا وافتقرت».(2)

ولمّا كانت محاور التجديد كثيرة الجوانب متشعبة المسالك لا تنحصر في ميدان واحد ولا تقتصر على مدى محدود، كانت مهمة تحديد المفهومية عند الإبراهيمي خاصة أمرًا شاقًا لأنّها مهمة واسعة الأرجاء متشعّبة المسالك يتعذر الإمساك بتعريف محدّد له.

فالتجديد في نظر الإبراهيمي لا ينحصر في الدائرة الفقهية مثل ما نزع إلى ذلك بعض علماء الأمّة بل مجاله عنده يتعدّى تلك المفهومية الضيّقة، فيشمل الإصلاح في جميع مجالات الحياة، إصلاح عام يشمل الدين والعلم والاجتماع.(3)

كما تجدر الإشارة إلى أنّ سبب وقوع الأمّة في الوهن والضعف كان «يوم سُحب الاجتهاد إلى الجانب الفقهي وألبسه -وحده- وحمل سماته فصار مفهومه بذل الفقيه جهده

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 95

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 422

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 122

في.... وانقسم النّاس منذ ذلك الحين إلى مجتهد وهم القلّة النّادرة ومقلِّدٍ، واستحال الاجتهاد من حالة عقلية راقية على مستوى الأمّة إلى حالة محصورة في الدائرة الفقهية على مستوى نخبوي متخصّص».(1)

فعملية سحب المفهوم إلى الجانب الفقهي وإسقاطه عليه من قبل المتقدّمين، وحصره في المعنى الضيّق، جعل كلَّ دعوات الإصلاح والتجديد –فيما بعد– ينحسر مجالها في مجال الفتوى وتقديم اجتهادات فقهية، ممّا حدا بالعقل المسلم من حرمانه من حقه في ممارسة الاجتهاد والإبداع وإعادة الفاعلية له.(2)

وقد عبّر الإبراهيمي عن مفهوم التجديد عنده بأبعاده الشمولية، من خلال نصوصه المبثوثة في آثاره، حيث تجلّى هذا البعد الشّمولي فيما يلي:-

1. في الناحية الاقتصادية وذلك بالدخول في ميادين الكسب المتنوّعة التي كانت وقفًا على غير المسلم.
2. وتجلّى في الناحية العلمية بالإقبال على القراءة والتعليم باللغتين العربية والفرنسية وبالإقبال على العلم وتحمّل جميع المشاقِ في سبيل تحصيله.
3. وتجلّى في الناحية الدينية بتشييد المساجد في القرى، والمداشر والمدن والإنفاق عليها من مال الأمّة الخالص.
4. وتجلّى في الناحية النفسية، وذلك بالتفكير الجدّي المستقيم.
5. ويتجلّى بصفة خصوصية وحارّة في جهات الدّين واللسان العربي.(3)

وبهذا الاهتمام الشّمولي للتجديد عند محمد البشير الإبراهيمي –رئيس جمعية العلماء المسلمين– الذي يخالف حقيقة الدعوة التي ذهب إليها "فهمي جدعان" من أنَّ الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين كان رهين التفكير العلّي الأحادي، الذي ميّز إلى حد بعيد كلا من فكر "محمد عبده" و"رشيد رضا" و"أرسلان" وهو الفكر الذي يدير النهضة والتأخر على علّة "التعلم" "والتربية والتعليم" المدعومين بالأخلاق(4).

---

(1) – طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعًا، مناهج التجديد، ص: 112

(2) – المرجع نفسه، ص: 112

(3) – الإبراهيمي، ج/1، ص: 122

(4) – فهمي جدعان، أسّس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، ط/2، [1981م]، ص: 456

فالاهتمام الشّمولي في فكر الإبراهيمي كما تبيّن، يرتكز في توثّبه للنهضة والتجديد على تعدّد العلل ولا تستطيع أية هيئة من الهيئات مزاحمة الجمعية أو منافستها على نشاطها الشّمولي واهتمامها الواسع «أو تدّعي أنّ لها يدًا مثل يدها في توجيه الأمّة الجزائرية للصالحات وتربيتها التربية العقلية والرّوحية المثمرة، ورياضتها على الفضيلة الشرقية الإسلامية، وتصحيح نظرها للحياة، ووزنها للرّجال، وتقديرها للأعمال».(1)

وانطلاقًا من هذه الرؤية يتجلّى مفهوم التجديد عند الإبراهيمي، المفهوم الذي عمل له وحرص على ترسيخه في الأذهان، فكان بمثابة الغُرّة اللاّمعة في جبين جمعية العلماء المسلمين، وكان أوّل مفاخرها في هذا الباب، تحرير العقل من الأوهام والضلالات في الدّين والدّنيا، وتحرير النّفوس من إتّباع الهوى وتأليه العباد إلى عبادة ربّ العباد(2) وهذا ما عبّر عن معناه –المودودي– في قوله: «بالسّعي لأحداث الانقلاب الفكري والنظري، أي تغيير أفكار النّاس وطبع عقائدهم ومشاعرهم ووجهة نظرهم الخلقية بطابع الإسلام، وإصلاح نظام التعليم والتربية، وإحياء العلوم والفنون الإسلامية، وبالجملة بعث العقلية الإسلامية الخالصة من جديد».(3)

وهذا المدلول لن يتحقّق بالاهتمام الجزئي ولا بالمعالجة العلّية الأُحادية، لأنّه لا يمكن استيعاب مشكلات العصر ولا أسئلته بأقوال وآراء فرعية لمن سبقهم. وبهذا الإدراك والاهتمام الشّامل المبني على فهم عميق وواقعي لموضوع التجديد عند الإبراهيمي، تمكّنتُ من الوقوف على تحديد معنى للمفهوم في حركته التجديدية التي حدّد باختصار معالمها ومضامينها حيث قال: «من الغلط أنْ يقال أنّ جمعية العلماء جمعية دينية يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني بمعناه الذي عرفه الناس، ومن فروع هذا الغلط ما رماها به بعض مرضى العقول وصرعى الجهل من أنّها خرجت عن مدارها حين زجّت نفسها في بعض شؤون الحياة غير الدين، والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، وكل ذلك يسع الإسلام وكل ذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها. فالإسلام دين واجتماع».(4)

كما يستدعي مفهوم التجديد إلى ذاكرة العقل الإنساني مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 34

(2) – المصدر نفسه، ص: 34

(3) – أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، ص: 55

(4) – الإبراهيمي، مرجع سابق، ج1/ 215

سادت أوساط مثقفي الأُمّة منذ منتصف القرن الماضي ولا تزال سائدة حتى اليوم، من هذه المصطلحات والمفاهيم نجد مثلاً: «الوعي، اليقظة، النهضة منسوبة إلى الإسلام أو مضافة إلى المسلمين. والكلمة الأولى منهن حديثة الاستعمال.... والوعي في معناه.... إدراك بعد جهل واليقظة في قصدهم تنبه بعد غفلة، والنهضة معناها حركة بعد ركود».(1)

وقد وضع الإبراهيمي لهذه المصطلحات مفاهيمًا واضحة المعاني والدلالات، إذ أكّد أنّ الصفات لا تتحقق إلاّ بظهور آثارها في الخارج، ويشهد لها الواقع مصدّقًا لحقيقتها حتى لا يكون في بيان معناها خلاف، ولا يلبسها شك أو تأويل.

فبيّن أنَّ الوعي الحقيقي لا بد أنْ يصحبه وعي ويعقبه سعي، وأنّ اليقظة الحقيقية يصحبها علم ويتبعها عمل لا مجال فيه للشّك، والنهضة الحقيقية في نظر الإبراهيمي هي التي لا ينفكّ عنها عزم ولا حزم، بل تتّسم بالإقدام الذي لا إحجام فيه.(2)

وبناء على هذه المفاهيم يمكن تحديد أنّ هذه المصطلحات منها ما يمكن أن يكون خادماً لمفهوم التجديد ومبيّناً له، ومنها ما يمكن أن يكون مُتمِّمًا ومكمّلاً.

والمعنى الحقيقي للنهضة على حدِّ قول الإبراهيمي هي: «بتجديد وإصلاح، ولا يكون التجديد إلاّ لشيء تقادم، ولا يكون الإصلاح إلاّ لشيء فسد، فالتجديد والإصلاح وصفان عارضان والشيء في ذاته هو هو».(3)

وعليه يُمكن أن نُؤكد أنّه من غير التجديد والاجتهاد والإبداع لا يمكن للفكر الإسلامي أن يبني معاصرته ويمارسها كفعل وتأثير وحضور. لأنّ التجديد هو تأهيل وتطوير وانتقال من الجمود إلى الحركة، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، ومن الانقطاع إلى التواصل، ومن الانشغال بالقضايا الجزئية إلى الانشغال بالقضايا الكلّية، وبحث هموم الأمّة وقضاياها حاضرًا ومستقبلاً.

وعليه فإنّ الإبراهيمي لم يكتف بالاحتماء وراء مفاهيم المدرسة التقليدية، والاهتمام بالدّعوة إلى إحياء أمجاد الماضي لتحقيق الإصلاح والتجديد، بل عمدَ إلى إظهار المفهوم وإبراز وتوضيح معناه ومدلوله على نمط جديد يتّسم بالنّقد والتّحليل والاجتهاد.

وعليه فإنّ قراءة فكر الإبراهيمي، وبيان معالم حركته، والوقوف على شروط ووسائل التجديد

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، [1985م]، ج4/ 175

(2) – المصدر نفسه، ج4/ 175

(3) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 570

فيه، يضعنا أمام وضع صورة واضحة لذلك البديل الذي يهدف لتنزيله الواقع الفاسد.

ولئن قضى الله بأن يرحل عن هذه الدنيا بجسمه، فإنّ مبدأه الذي كان يسير عليه وتسير عليه الجزائر غير قابل للرّحيل إذ لم يكن فكراً ابتدعه من عنده، وإنّما هو شرع الله وحكمه استلهمهما من كتاب الله وسنّة نبيّه، وما كان عليه سلف هذه الأمّة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:

شروط وأسس التجديد عند الابراهيمي

لقد سبق التأكيد على أنّ التجديد الحقيقي، هو الذي يعمل على إبراز البدائل وتقديم الحلول والعلاج لأمراض الأمّة المزمنة، على أساس استيعاب القديم وتقويمه، ودراسته وتحليله، وإعادة قراءته، وإدراك تحدّيات الحاضر من أجل استشراف متطلبات المستقبل، وهو عودة إلى الينابيع، وعودة إلى المعايرة بالقيم وإعادة تنزيلها على الواقع، وعودة إلى تحريك وتشغيل آليات التغيير الاجتماعي، والتعامل مع السنن الجارية وهزّ البرك الرّاكدة.(1)

ومن هنا تتجلّى أهمية معرفة شروط وأُسس التجديد عند الإبراهيمي باعتبارها إحدى المعايير الأساسية في حركته «لأنّ التجديد لابدّ أن يكون من داخل إطاره وبأدواته وآلياته المشروعة عن طريق المستجمعين لشروط التجديد والاجتهاد، سواء تعلّق الأمر بالشّروط النظرية أم الشروط التطبيقية، أي الشروط المساعدة على تنزيل النّص على الواقع».(2)

ولبيان حقيقة العلاقة بين الاجتهاد والتجديد –كمفهوم معاصر– أشار يوسف القرضاوي إلى أنّ بينهما صلة تلازم، بحيث يمكن للقضية الواحدة أن تكون تجديدًا واجتهادًا في الوقت نفسه «فتجديد الدّين ثابت بالنّص، ولكنّه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعاً منه، ولوناً من ألوانه. فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أمّا التجديد فيشمل الجانب الفكري والجانب الرّوحي والجانب العملي، وهي الجوانب التي يشملها الإسلام».(3)

وشروط التجديد وأُسسه أسهب في ذكرها العلماء، وقد اتّفقت كلمتهم على أنّ الفكر الاجتهادي الإبداعي، إنّما يُؤسّسه وقوف مع كتاب الله، وسنّة رسوله، وهدي السّلف الصّالح، والإطلاع على مقاصد الدّين، ومعرفة بأحوال النّاس.

وبالرّجوع إلى أفكار الإبراهيمي المبثوثة في آثاره، يمكننا تحديد أهمّ الأُسس والشروط التي اعتمدها في نظرته لعملية التجديد، والتي يأتي في مقدّمتها: –

(1) – الحسن الحمدوشي، التجديد الفكري: قراءة في المفهوم www.kalema.net ، المجلة عدد 50، السنة الثالثة عشرة، [1427هـ-2006م]

(2) – يوسف القرضاوي، ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ط/1، دار الشروق، القاهرة [1412هـ-2000م]، ص: 54

(3) – يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة، ص: 52

أولا: القرآن والسنة:

لا شك أنّ المصدرين الأساسيين للفكر الإسلامي هما –القرآن والسنّة النبوية الشريفة– ولو تأملنا حركة الإبراهيمي التجديدية، لوجدناه يدعو إلى القرآن الكريم وفهم السنّة النبوية والعمل بمقتضاهما.

فهو يدعو ويحثّ على الالتزام بالقرآن الكريم وتعهّده بالحفظ والتلاوة حيث يقول: «القرآن القرآن! تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة وربّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللّغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدّين والأخلاق، وعلى الاستظهار به في الجدل، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون».(1)

وفي موضع آخر يبيّن أنّ لا حياة للإنسان ولا وجود له إلاّ في ظلّ القرآن والالتفاف عليه حيث يقول: «أحيوا قرآنكم تحيوا به. حقّقوه يتحقّق وجودكم به. أفيضوا من أسراره على سرائركم، ومن آدابه على نفوسكم، ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء».(2)

كما بيّن أنّ الاهتداء به متوقفٌ على فهمه فهماً صحيحًا، وفهمه الصحيح متوقف على فقه أسرار اللّغة العربية، والإطلاع الواسع على السّنة النبوية التي هي شرح وبيان للقرآن. كما أكّد على ضرورة استعراض القرآن الكريم عند الإقدام على تفسير آية منه، أو الوقوف على أبعادها لأنّ القرآن وحدة متكاملة يفسّر بعضه بعضاً.(3)

وبهذه النظرة المتبصّرة لأهمية القرآن والسنّة النبوية في حركته التجديدية، استطاع الإبراهيمي أن ينشئ جيلاً يعتمد في الاستدلال على النوازل بالقرآن، وعلى التعامل مع السنّة النبوية المطهّرة باعتبار العلاقة بينهما علاقة مصدر مُنشئ للأحكام والمعارف والتصوّرات، بمصدر مبلِّغ ومبيِّن له، حيث يقول مُشيداً بخصال هذا الجيل «فأصبحت نفوسهم نزّاعة إلى طلب الدليل في أمور دينهم، وأصبحت أبصارهم تخشع، وأعناقهم تخضع، إذا أُقيم لهم دليل من آية قرآنية أو حديث نبوي ممّن يعتقدون أمانته وصدقه، وإذا كان قصور أفهامِهم قد قعد بهم عن فهم ما بين الدّليل

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 218

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 256

(3) – المصدر نفسه، ج4/ 205

والحكم من صلة، فقد كان من ثمرات هذه النّزعة الجديدة فيهم أنّهم صاروا عارفين بقيمة الدّليل».(1)

وقد تحقّق للإبراهيمي ما كان يصبو إليه، ويتطلّع إلى تحقيقه، حيث أعرب عن فرحته وعميق سروره لّما كُلّلت جهوده وجهود إخوانه من العلماء بنتائج تبعث على الارتياح والطمأنينة وخاصّة وأنّهم بذلوا الجهد وتحمّلوا المشاق في سبيل الذّود عن هذا الدين، واستئصال نوابت السّوء، ومحاصرة البدع والخرافات والأوهام. فهو لم يخفِ شعوره بالابتهاج ساعة رجوع الأمّة إلى الاهتمام بالقرآن، واصطباغ حركته التجديدية بالصّبغة القرآنية فقال: «وقد قوي أملنا في رجوعهم إليه وإقبالهم عليه، ما نراه من اصطباغ الحركة الإصلاحية الحديثة بالصّبغة القرآنية، فهي سائرة إلى غايته، داعية إليه، مرشدة به، مستدلّة بآياته، به تصول، وبه تحارب، وعليه تحامي، ودونه تنافح.... وإنّ هذا لموضع الرّجاء في رجوع المسلمين إلى القرآن».(2)

ولتسهيل مهمّة التّعامل مع هذين المصدرين فيما يتّصل بتطوّر الحياة العملية نجد القرآن الكريم يفتح المجال واسعًا لحركة العقل الإنساني، وقد تجلّى هذا بوضوح في أنّ أغلب أحكام المعاملات المأخوذة من القرآن كلّية، قلّ أن نعثر فيها على التفصيل، وأنّ الأنسب لِسماحة الدين وبقائه وصلاحيته، أن يكون للزّمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية.(3)

ومن فوائد تجديد الدين أيضًا أنّه يفتح الباب واسعًا إلى الاستزادة من العلم، والمعرفة وذلك بالرّجوع إلى المعين الذي لا ينضَب، كتاب الله سبحانه وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلم، والثّقة فيهما والاستنباط منهما، حتّى لا يكون هناك أمرٌ يَجِدُّ في حياة النّاس، أو نازلة تنزل بهم إلاّ والقدرة على استنباط الحكم الملائم لها قوية ومتوافرة «أمّا العلوم النقلية فهي علوم انبثقت وتكوّنت حول الكتاب الكريم، باعتباره المصدر المُنشئ للأحكام، ولكثير من المعارف الإسلامية وحول السنّة النبوية باعتبارها المبيِّن والمجسّد لقيم القرآن المجيد في واقع مجدد».(4)

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ج1/ 75

(2) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 92

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 9

(4) – طه جابر العلواني، إسلامية المعرفة فكرة ومشروعًا، ص: 218

ثانيا: الإلمام بعلمي الفقه وأصوله:

إنّ التطوّر على أهميته ومخالفته للالتزام المذهبي الذي ظلّ طابع الفقه الإسلامي عدّة قرون –لم يكفِ لمواجهة الجديد من العلاقات الاجتماعية النّاشئة عن نظم الحياة في المجتمع الحديث بعد تقدّم الصّناعة وتداخل العلاقات التجارية وتنوّعها، وما تبع ذلك من صور جديدة للمجتمعات لم تكن موجودة عند وضع المذاهب الفقهية حتّى يرد بشأنها رأي فيها.

ولو وُجد أيمة المذاهب الفقهية الإسلامية في عصرنا لكانت لهم في كل ذلك آراء وأحكام وفتاوى ونظريات مختلفة.

ولهذا قام الإبراهيمي مناديًا بفتح باب الاجتهاد والتجديد، وبضرورة أن يعمل القادرون من علماء الأمّة باستنباط الأحكام الشّرعية لهذه الحوادث الجديدة بطريقة القياس على ما ورد في نصوص الكتاب والسّنة، كما كان الشّأن في المذاهب الفقهية عند نشأتها.

وقد شعر الإبراهيمي بواجبه في هذا المجال كما شعر غيره من علماء الجمعية بنفس الواجب فكانت لهم فتاوى وآراء في المسائل المستحدثة، بنوها على أصول الاجتهاد المعروفة في علم أصول الفقه، وقد نوّه بجهود الأوّلين وثمّنه، واعترف لهم بقدرتهم على استجماع أدوات الاجتهاد والتجديد، فقال: «نحن أوّل من يقدّر قدر تلك الأنظار الصّائبة والمدارك الرّاقية ويُقيمها دليلاً على اتّساع التشريع الإسلامي لمصالح النّاس، وصلاحيته لجميع الأزمنة وينكر على من سدّ هذا الباب على الأمّة فزهّدها في استجماع وسائله».(1)

ونظرًا لما يحتلّه علم أصول الفقه من أهمية في عملية التجديد، ومن مكانة متميّزة في علم المقاصد باعتباره يتضمّن الآليات الأساسية لاستنباط الأحكام الشّرعية من أدلّتها التفصيلية، أعتبِرَ من الشروط الأساسية في عملية الاجتهاد والتجديد. ولئن كان للعصبية المذهبية أثر في تفريق كلمة المسلمين والقضاء على وحدتهم، فإنّ الإبراهيمي لا يرى من سبيل للخروج من هذه الآفة إلاّ بصرف النّاشئة إلى تعليم فقهي، يستند على نزعة الاستدلال المُستقل الذي لا تُؤثر فيه شرور العصبية للمذاهب الفقهية.(2)

كما عزا الإبراهيمي الجهل بحقائق الدّين ومقاصده إلى جفاف الفقه عند علماء الأمّة من الفقهاء الذين يستنبطونه من كتب تُعلّم الأحكام المجرّدة ولا تبيّن الحِكم.

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 95

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 96

فكان لذلك أسوأ الأثر على نفوس المتفقّهة، الذين اكتفوا بالتّسليم بأنّ هذه الأحكام تعبّدية تُحفظ ألفاظها، ولا مجال فيها للفكر لالتماس عللها وطلب حكمها وتعرّف مقاصدها.(1)

ومن هنا كان لزاماً على الفقيه المعاصر «طالب الاجتهاد أن يكون عالمًا بأصول الفقه بحيث يكون صاحب رأي في مسائل هذا العلم».(2) الذي عدّه "جمال الدين عطيّة" علم المنهج الأساسي في العلوم الإسلامية، وذلك لأنّه العلم الذي يضبط عملية التكليف وينظّم عملية الاستمداد من الوحي.(3)

ثالثا: معرفة اللغة العربية والإحاطة بقواعدها وفنونها:

لقد شُهد للإبراهيمي بقوة إطّلاعه على اللغة العربية، وإحاطته الواسعة بآدابها وفنونها وتعمّق كبير في قواعدها وبلاغتها، وإلمامه القوي بأسرارها، ومعرفة بغريبها، وفهم دقيق لمعانيها ودلالاتها، وهو أمر شهدت له به مجامع اللغة العربية في مصر، وسوريا والعراق.

وقبل أن نتعرّض بالتفصيل لأهمية هذا الشّرط في التجديد والاجتهاد، وبيان مكانه وموقعه، أودّ أن أسجل شهادة أدلى بها محمد سعيد رمضان البوطي في حق نبوغ الإبراهيمي، ومقدرته الفائقة في ميدان اللّغة والأدب، حيث يقول: «أذكر عهداً كان اسم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فيه مُرتبطًا في ذهني بالبيان الجزل والأدب الرصين والسّبك العربي السّامي».(4) وأخرى "لعبد الحليم عويس" مفادها أنّ الشيخ الإبراهيمي، كان من أبلغ من عرفتهم العربية «وهو واحد من هذا النّسق البليغ الذي عرفته العربية في عصرنا الحديث في عدد من أعلام الفكر الإسلامي الذين وقفوا في وجه الحملة التغريبية، ويقف في القمة منهم أمراء البيان الثلاثة: مصطفى صادق الرّافعي (المصري)، وشكيب أرسلان (الشامي) والبشير الإبراهيمي (الجزائري)».(5)

إنّ الطريق لفهم الإسلام وحقائقه في منظور الإبراهيمي يتلخص في مدى قدرة الإنسان على التضلّع في اللغة العربية، والإلمام باللسان العربي الذي هو لسان هذا الدين، الذي نزل به القرآن

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 329

(2) – محمد مهدي شمس الدين، الاجتهاد في الإسلام، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، ع: 9، س: 3، [1411هـ-1990م]، ص: 19

(3) – جمال الدين عطية، المنهجية الإسلامية، مناهج التجديد، تحرير حوار عبد الجبار الرفاعي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق، ط/1، [1421هـ-2000م]، ص: 193

(4) – محمد سعيد رمضان البوطي، نقاط هامة استوقفتني في فكر الإمام الإبراهيمي، النبراس المنير، www.binbadis.net/al_ibrahimi

(5) – عبد الحليم عويس، الشيخ البشير الإبراهيمي وجهوده في الإصلاح الديني في الجزائر، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشرة، عدد87، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر [1985م]، ص: 358

كما أنّه يُعدّ ترجمانه الذي نقل أسراره وحقائقه وأحكامه، وكلّ ما حواه وشمله الدين إلى ثقافات الأمم الأخرى، ومن غير أمة الإسلام، فصارت القناعة عندهم أنّ الدين هو اللغة، وأنّ اللغة هي الدين.

وقد تبوّأت اللغة العربية مكانة عظيمة في الإسلام بما حباها به، وباتخاذه لها وسيلة للبيان حتى صارت جزءاً من معناه.(1)

إنّ الخلفية الفكرية الأصيلة التي تشبّع بها الإبراهيمي، والتي تغرف من معين القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، هي التي حدت به إلى اعتبار أنّ فهم اللغة العربية والوقوف على أسرارها شرط لفهم حقائق الإسلام، حيث يقول مؤكّدًا: «ولم نَجد في التاريخ قديمه وحديثه عالماً غير مسلم، حذق العربية فهماً وأتقنها حفظاً وغاص على أسرارها، ولابست روحه روحها ثم لم تهده إلى حقائق الإسلام، ولم تقف به على بابه، وأقلّ المراتب التي يضعه علمه الكامل بالعربية فيها أن يكون فيه صغو إلى الإسلام، وسير في اتجاهه، وتفتّح ذهن إلى فهمه....».(2)

فهذه المكانة العظيمة للغة العربية هي التي جعلت الإبراهيمي يتخذها أساساً وشرطًا للتجديد، فهي التي خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام، ولم تختصّ بخدمة علم خاص بأمّة، بل توسّعت اهتماماتها لتشمل جميع العلوم النّافعة للبشر، ومن يستقرئ التاريخ يقف على حقيقة الدّور البارز الذي أفاءت به على علوم الطّب وغيرها من العلوم، بل كانت في موقع الحامي والنصير في –زمن القرون الوسطى- يوم كانت البشرية كلّها ترزح تحت ظلمات الجهل والحِرمان، فأوت العلم ونصرته. (3)

كما يجزم الإبراهيمي بأنّها تساعد فضلا على فهم حقائق الدين واستجلاء أسراره بأنّها تجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معًا.(4)

ومن هنا جاء حرص الإبراهيمي على حثّ الأدباء الناشئين للبحث عن أسرارها والإحاطة بفنونها وعلومها، والسّعي من أجل إفادة أبناء الأمّة بها، حيث نجده يقول: «أمامكم اللغة وعلومها وآدابها فابحثوا ونقّبوا واحدوا ركابها، وطربوا، واسعوا لبيان فضلها سعيكم لتعليمها

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشر الإبراهيمي، ج1/ 35

(2) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 393

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 261

(4) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 221

واشربوا قلوب أولاد هذه الأمّة: إنه ما غرّد بلبل بغير حنجرته».(1)

ومن ثمّ فهو يدعو في كلّ مناسبة إلى العناية بها، والاهتمام بالتّراث الأدبي الخصب ويتوجّه إلى أبناء الأمّة بالنّصح قائلاً: «ونصيحتنا إلى هؤلاء، وإلى ناشئتنا الكاتبة أن ينظروا لأنفسهم وأن يعتمدوا عليها، وأن يدمنوا القراءة لآثار فحول الكتّاب من قدماء ومحدثين، وأن يحملوا أقلامهم على احتذائها بالتدريج، وأن يتكثّروا بحفظ اللغة الأدبية، ويتبصّروا في مواقع استعمالها في التراكيب، وأن يكونوا عصاميين في الأدب والكتابة».(2)

رابعا: مبدأ اعتبار المقاصد:

إنّ أحكام الشريعة الإسلامية بعامة قائمة على مقصد جلب الخير للنّاس، ودفع الأذى عنهم، أي تحقيق مصالحهم في العاجل والآجل، وإلاّ لمّا صحّ القول بأنّ الشريعة تتناسب وتلائم كلّ الأمكنة والأزمنة والأحوال والبيئات.

«فالرابطة بين الحكم وبين مقصده رابطة تلازم على مستوى التجديد، فما من حكم إلاّ له مقصد إليه يُفضي، ومن أجله وُضِع، والكشف على هذا المقصد يكون بالاجتهاد في الفهم».(3)

فلا يمكن للفقيه المجدّد في نظر الإبراهيمي، أن يغفل في حركته التجديدية مبدأ اعتبار المقاصد ومعالجة مشكلات الواقع في ضوئها، فمقالاته تكشف لنا بوضوح عن عمق اهتمامه وإدراكه لمقاصد التشريع، وفقهه العميق لأسرار الأحكام، ولذلك فهو يؤكّد على ما للتشريع الإسلامي من دور في مراعاة مصالح النّاس والمحافظة عليها، فأينما وُجدت المصلحة فثمّة شرع الله، لذلك فهو يُعلن بأنّ على أساس هذه «المقاصد بُنيت الأحكام الفرعية، والذي يغفل عن هذه المقاصد لا يسلم من الخطأ في النظر إلى الجزئيات ولا يضمن الإصابة في ترجيح دليل على دليل عند التعارض. وباعتبار هذه المقاصد العامة في التشريع الإسلامي كانت الشريعة الإسلامية نظامًا اجتماعيًا كاملاً كافلاً لمصالح الجمهور ضابطًا لها، صالحًا لكلّ زمان ولكلّ مكان، ولكلّ جنس».(4)

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 150

(2) – الإبراهيمي، آثار محمد البشر الإبراهيمي، ط/1، ش.و للنشر والتوزيع، الجزائر، [1402هـ-1981م]، ج3/ 184

(3) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ج1/ 95

(4) – الإبراهيمي، مرجع سابق، ج4/ 365

لقد فقه الإبراهيمي وأدرك أنّ مقاصد التشريع الإسلامي لا يمكن أنْ تتحقّق إلاّ بقدرة الفقه على التجدّد وعلى ملاحقته للمستجدّات، والاستجابة للتحدّيات التي يفرضها الواقع مع المحافظة على مصالح الإسلام والمسلمين.

فالفقه الحقيقي في نظر الإبراهيمي هو الفقه الكفيل بدوام أحكام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال التي أتت بعد عصر التشريع، والتي تأتي إلى أن تنقضي الدنيا.

الفقه الذي يعتمد في مرجعيته على الوحي بمصدريه، وتجارب الرّعيل من السّلف الصّالح وكتب العلماء المستقلين المستدلّين «لأنه بهذه الأدلة المتنوّعة تجعلنا نقطع بأنّ للشّارع مقاصد وأهداف تتحقق بواسطة إتّباع أحكامه، وقد توصل العلماء السابقون بعد البحث في النصوص الجزئية والكلية والعموميات والمطلقات والمقيّدات، في جميع أبواب الفقه، فوجدوها كلّها دائرة على حفظ مقاصد الشارع».(1)

فكمال الفقه واصطباغ النّفوس بآثاره لا يتمّ في نظر الإبراهيمي إلاّ إذا كانت المرجعية فيه لكتاب الله وسنّة رسول وهدي السّلف، واجتهادات العلماء المستقلين التي تقرن المسائل بأدلّتها وتراعي مقصد الشّارع وحكمته منها.(2)

ولهذا كان العلم بمقاصد الشّريعة في غاية الأهمّية بالنسبة لكل فقيه وعالم مجدّد، يتطلّع إلى تحقيق المقاصد الكلّية بعيدًا عن الجري وراء الأحكام الجزئية.

خامسا: معرفة الواقع وفهمه:

إنّ معرفة الواقع والإطّلاع على أحوال النّاس، أصل يحتاج إليه المجدّد المجتهد وإلاّ أفسد أكثر ممّا أصلح، «لأنّه لا يتقن الاجتهاد من لم يفهم أسرار حركة الحياة».(3)

لذا عدّ الإبراهيمي مبدأ اعتبار الواقع ومعرفة أحوال وظروف النّاس شرطٌ لازمٌ لمن أراد أن يفهم الأمّة وأن يخدمها.

فمعرفة المصالح والمفاسد تحتاج إلى مجتهد يفهم عصره، ويفهم تركيبة النّاس الذين يعيشون معه، بحيث يكون خبيرًا بأهل زمانه، وفي ذلك يُؤكد الإبراهيمي على أنّ «من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرُسها كما يدرُس الحقائق العلمية، فإذا استقام له ذلك استقام

(1) – محمد أحمد الرّاشد، أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدّعوة الإسلامية، ج1/ 269

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 329

(3) – محمد أحمد الرّاشد، مرجع سابق، ج1/ 95

له العمل، وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له، فإنْ تصدّى لأيّ عمل يمسّ الأمّة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظّه الفشل».(1)

والإبراهيمي واحد من الوجوه العلمية الذين عايشوا الأمة سنين عديدة، وخبروها مدّة طويلة، وقرأوها حقّ القراءة، أهّلته لأن يقف على أسرارها وخباياها، وبذلك استطاع أن يشخّص حقيقة المرض الذي تتخبط فيه مقدّمًا الحلول التي تعدّ بحق نتاج وعصارة تجربة طويلة في الإصلاح والتجديد، ولذلك فهو يعلن بأنّه من الرّجال الذين «هيأهم الأقدار لخدمة هذه الأمة في نواح دقيقة شريفة.... فأزعم أنني جرّبت ودرست، وأنني قرأت هذه الأمة وفهمتها، كما أقرأ الكتاب وأفهمه، وما هذا ببعيد ولا كثير على من خدم أمّة ولابسها عشرات السنين معلّماً مدرّساً واعظاً خطيباً، محاضراً، ينتزع مواضيع محاضراته من وجوه الجمهور قبل أعمالهم، وقد خرجت من هذه الدّراسة الطويلة بنتائج جليلة يجب أن تُدوّن وأن تكون دستورا للعاملين».(2)

لقد خبر الإبراهيمي الأمّة سنين طويلة، ووقف على أنّ المعاملة في الإسلام ترتكز على تحقيق مصالح النّاس ورعايتها. وهذا ممّا يجب أن يتّسع له نشاط المجدّد الفقيه ليقوم بالمعالجة الواقعية لجميع القضايا المستجدّة ولا يكون رهين أفق محدود، بل عليه أن ينزل إلى واقع النّاس وينخرط فيه ويتحسّس آلامهم وآمالهم، ليتسنّى له معالجة انشغالاتهم ويُبدي فيها موقف الإسلام. فالمعاملة في الإسلام مبنية على مصالح النّاس.

وبهذا نرى أنّه لا معنى إطلاقًا لإنكار بعض العلماء دور الواقع في عملية التجديد وتوجّسهم خيفة منه، وعلى هذا الاعتبار، فإنّ «فهم الواقع الإنساني يغدو عاملاً بالغ الأهمية في التّدين ولا يقلّ أهمية عن فهم الدّين نفسه، فهما الشرطان المتلازمان في مرحلة الفهم، اللّذان يعتبران الخطوة الأولى في سبيل تحقيق الدّين في الواقع، أي في سبيل تحقق التّدين».(3) وعليه فإنّه لم يعد يسع مسلماً في هذا الوقت من أنْ يتخوّف من استعماله، فبدونه لا يمكن للفكر الإسلامي أن يبني معاصرته ويمارسها كفعل وتأثير وحضور، وانتقال من حالة الرّكود والجمود إلى الحركة والانتعاش، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، ومن الانقطاع إلى التواصل ومن الانشغال بالقضايا الفرعية إلى الاهتمام بأمّهات القضايا.

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 224

(2) – المصدر نفسه، ص: 224

(3) – عبد المجيد النّجار في فقه التدين فهمًا وتنزيلاً، ج1/ 122

ومن هذه الأهمية التي يكتسيها الواقع ومعرفة أحوال النّاس في فهم الدّين تجلّت في نظر الإبراهيمي، أهمية تفاعل النّصوص الشرعية مع الواقع في مسائل وقضايا كثيرة، نذكر منها على سبيل العرض فقط لا الحصر -باعتبار الصّلة القائمة بينهما- نظرته إلى واقع حال المفتي الذي ينظر في قضايا الحلال والحرام دون البحث والتقصّي حول ظروفها وأسبابها، ولذلك نجده يعيب على من «يفتي في الطلاق ولا يبحث عن أسباب الطلاق الفاشية، ويُفتي في الأيمان ولا ينهى النّاس على الحَلِف، ولا عن الحنث فيه بعد انعقاده، ويُحرّم الخمر والميسر ولا يبيّن للنّاس مضارهما ولا يزجرهم عن تعاطيهما -وبالجملة فهو رجل انقطعت الصّلة بينه وبين أهل زمنه، فإنْ قدرت له ملابسة الناس جمع جماعة قليلة يُقرئُهم درساً خاصاً لا علاقة له بحالهم»(1)

سادسا: أهمية التراث في فهم الدين:

إنّ الاعتزاز بتراث الماضين من الأجداد والأسلاف أمرٌ طبيعي، وإنّه من العبث أنْ نحاول التنكّر كلية لهذا التّراث والاستغناء عنه، لأنّ في ذلك استبعاد من العملية التجديدية فهم تجارب جدّ ثرية تنامت طيلة عهود من الزّمن، وصقلتها عقول وفهوم أجيال إلى عهد النّاس هذا.(2)

ولكن من الحقّ معرفة أنّ الجمود من سمات، وصفات الموتى، وأنّ الحركة هي الخاصية الأولى للحياة، وأنّ القرآن الكريم نهى في كثير من آياته على التقليد وإتّباع المقلّدين.

فالغرابة تكمنُ في الرّكون إلى التقليد في عصر المستجدّات والوقائع، في حين أنّنا نقرأ من كلام أئمة العلم دعوات إلى نبذ التقليد باعتباره طريقًا يُفضي إلى الجمود، وقتل ملكة التفكير، وشلّ حركة التجديد والاجتهاد.

ولقد عاب الإبراهيمي على المتعصّبين، دعاة الجمود والتقليد توجّهاتهم التي ترتّب عنها عدم التفريق بين الشريعة والفقه، ومحاولاتهم المستمرّة لإضفاء الشرعية على آراء ومفاهيم بشرية واعتبارها في رتبة النصّ المعصوم.

فالشريعة يجب أن تنحصر في المقام الأوّل في مصدري الدين من نصوص القرآن والحديث باعتبارهما من الوحي الإلهي المُلزم، وما عدا ذلك من اجتهادات الأوّلين فينبغي أن نعتبره من المعارف البشرية ومن التُراث الذي نفيد منه كما نفيد من غيره، ولكنه من الرّصيد المعرفي الذي

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 77

(2) – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلاً، ج1/ 70

لا يمكن الاستغناء عنه، ولذلك نجده يقول: «وكيف يرضون هذه العصبية الرّعناء، ويُقرّون عليها مقلّديهم، ومن آثارها فيهم، جعل كلام غير المعصوم أصلا، وكلام الله ورسوله فرعًا يُذكر للتقوية والتأييد إن وافق، فإن خالف أرغم بالتأويل حتى يُوافق، وهذا شرّ ما بلغته العصبية بأهلها».(1)

وليست هذه دعوة من الإبراهيمي للتّنكّر للتراث والانسلاخ منه، أو التقليل من قدر ومكانة الفقهاء السّابقين، بل هي دعوة إلى الالتفاف حول كتاب الله وسنّة رسوله -عليه الصلاة والسلام-.

فالإبراهيمي تجاوزت مفهوميته حصر التراث في اجتهادات الفقهاء ومعارفهم إلى الفصل بين ما هو وحي، وبين ما هو اجتهاد يُنظر إليه على أنّه عُصارة تجارب إنسانية قد يُؤدي الخلط بينهما إلى الخلط بين الشريعة والفقه، ومن ثمّة إمكانية الوقوع في التقليد واتّخاذه منهجًا ثابتًا في البحث في آراء القدماء عن إجابات لا تتماشى مع انشغالات وأسئلة القرن العشرين وهو ما لا يتماشى مع عظمة التراث وحيويته، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «أنّني نظرت في جميع ما لدينا من تراث الأوائل ممّا نُسمّيه علمًا، وأمعنتُ في تتبّع أطوار العلوم الإسلامية من النقطة التي وصل إليها مداها في الاتّساع إلى المنشأ الأصلي، فوجدت أنّ جميع علومنا الإسلامية في جميع أدوارها يعوزها الاختبار والنقد، يعوزها الاستقلال في الرأي، تعوزها الشجاعة إلى أن جاءت عصور الانحطاط فكان ذلك الأعواز بذرة فاسدة للتقليد في جميع علومنا».(2)

وقد وقف الإبراهيمي على حقيقة وحال الأمّة الإسلامية، وكشف أنّ سبب قصورها وإخفاقها يعود بالأساس إلى ظاهرة التقليد غير متبصّر. فظاهرة العقم الفكري والاحتباس عن الإنتاج الفكري وموت ملكة الابتكار في الأمّة في نظره مردّه في الأساس إلى علّة التقليد، الذي أصبح قدر الأمّة الإسلامية وآفتها.(3)

فالتطبيقات البشرية في نظر الإبراهيمي هي محاولات لا تعدو إلاّ أنْ تكون اجتهادات وتطبيقات قد تكون ناقصة، وعليه فهي ليست حجة للاهتداء بها أو السّير على نهجها، ولذلك فإنّ الجمود عليها، هو جمود على نسبة محتملة من الخطأ، وإنّ التحجّر عليها لا يؤدي إلاّ إلى التخلّف، لذلك

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 96

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 24

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 24

فهو يؤكد على إلزامية التفريق بين الدين والتراث، وهذا التأكيد ليس سلبية أو نقيصة يُوصم بها التراث، بل هو منطق الأمر وسداد الرّأي. فالتراث ليس قادرًا كلّه على مواجهة مشكلات العصر، كما أنّه ليس كلّه بعاجز عن التعامل معها بخلاف الدين الذي هو وحي إلهي مُلزم.

والإبراهيمي حينما يُنكر على أصحاب الخلط بينهما، إنّما يُنكر عليهم الفاسد من الأعمال والباطل من العقائد مهما كان مصدُرها، وفي هذا يقول: «وليس صدور العمل الفاسد من سابق بالذي يُحدث له حُرمة أو يُصيّره حجّة على اللاّحقين، بل الحجّة لكتاب الله ولسنّة رسوله، فلا حقّ في الإسلام إلاّ ما قام دليله منهما، واتّضح سبيله من عمل الصّحابة والتّابعين بهما أو إجماع العلماء بشرطه على ما يستند عليهما. وبهذا الميزان فأعمال الناس إمّا حقّ فيُقبل أو باطل فيُردّ».(1)

سابعا: حركة التواصل في التاريخ الحضاري:

إنّ الحضارة الإسلامية، حضارة قد وظّفت في الماضي، وفي دائرة الهُدى القرآني كثيرًا من الأفكار التي ورثتها البشرية، وحاولت وضعها في إطار نسيجها الحضاري لتصبح بعد ذلك الحضارة العالمية الجامعة، والتي صبّت فيها سائر الرّوافد التاريخية والدينية الحضارية، لتصل إلى ما وصلت إليه من عظمة وامتداد، فهي التي استطاعت أن تُوظّف كلّ الرّوافد الموروثة الحضارية والفلسفية والدينية «فجمعت بين الديانات السماوية بتراثها الإبراهيمي، والفلسفة اليونانية بتراثها الأرسطو-أفلاطوني، إضافة إلى موروثات أخرى».(2)

واستطاعت بما تملك من قدرة ذاتية أن تَنفُذ بذكاء إلى تلك الأصول والقواعد، وما كان من المُمكن أن تسقط في دائرة التُراث الآخر، بل قامت بنقده وتحليله وتنقيته، واسترجاعه لتضعه في سياقها، وفي إطار نموذجها وأهدافها ليكون بعد ذلك نقياً خالصاً قادرًا على أن يرفد تلك الحضارة بما رفَدها به.(3)

ولقد أدرك الإبراهيمي أنّ جميع مساهمات الأوّلين، وكل الحلول والاقتراحات التي جاءت بها عقولهم، لا ترقى إلى تطلّعات وانشغالات عصر النّاس هذا، وأنّها لا يمكن أن تكون صالحة لكلّ عصر في تفاصيلها، ولا يمكن أن تكون نموذجًا مُستنسخًا ونمطًا واحدًا يتواءم مع جميع الأزمنة.

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 106

(2) – طه جابر العلواني، أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي، ص: 133

(3) – المصدر نفسه، ص: 133

وإنّما الصحيح أن يقوم الفكر الجديد في هذه العصور بعملية تواصل عميق مع الذي تقدّمه، ويقوم بعملية مُواءمة وموازنة دقيقة تُعبّر عن المستجدّات الجديدة بحلول وأفكار جديدة وهذا ما يتماشى مع روح الإسلام وصلاحيته لكلّ زمان ومكان.

فهذه الموازنة تعبّر بحق عن أصول الإسلام في ضبط حركة التجديد. ومن هذا المنطلق يكون الفكر الإسلامي متواصلاً ومتطورًا، وما عدا ذلك من إعادة استنساخ ملامح وخصائص مراحل العصور السابقة من غير تنقيتها ومدارستها، وبدون إعادة النظر فيها، يعني الوقوف على الجمود والسّكون، وحركة الإسلام تعني أن يكون المسلم متحركا غير قابع في مكانه، بل يتطلّع إلى الأفضل.(1)

وهذا ما أثبته الفكر الإسلامي وتجربته التاريخية الحافلة بتجارب كلّ العصور، وتجارب العديد من العقول لعلماء ومفكّرين ومجدّدين، وهي أكبر شهادة تاريخية على قُدرة الفكر الإسلامي على التواصل والتجدّد بما يتماشى ومرونة مرجعياته، وطبيعة معاييره الكلّية وقواعده العامة وخطوطه العريضة «فالتجارب التاريخية الإنسانية، أثبتت أنّ الكائن السويّ، لا بد له أن ينفتح على الآخرين، ويتفاعل معهم عبر جسور الاتصال لتحقيق التأثير والتأثر والأخذ والعطاء. ولا تستطيع أيّة أمّة أن تنغلق على نفسَها وأن تتقوقع داخل ذاتها، وتدّعي القدرة على الاستمرار، لأنّ هذا الانغلاق الحضاري سيقودها إلى الموت المحتّم، فكان المفروض عليها أنْ تمدَّ جسور الحوار والتبادل مع غيرها من الأمم حتى يتم التلاقح والإخصاب، وهذا قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه لأنه سنّة كونية ثابتة».(2)

وفي دعوة الإبراهيمي القائمة على العودة إلى الوحي، وعلى الاحتكاك والاتّصال المباشر بقضايا المجتمع، لم تكن أبدًا دعوة إلى الإنكفاف على ما هو حضارة أو كسب بشري متنوّر، بل هي دعوة إلى الالتزام بأصول الإسلام وأحكامه، مع القبول بمبدأ الحوار مع الغير، فالحكمة ضالّة المسلم أنّى وجدها فهو أحقّ النّاس بها.

فالانخراط في المجتمعات والاقتباس من أفكارها، بما يخدم الأمّة الإسلامية من معارف وعلوم وحسن الإفادة منها أمرٌ أوجبه الإسلام.

ويتجلّى هذا الاهتمام في نظر الإبراهيمي، نتيجة، معايشته للواقع ورؤيته للأحداث ممّا جعله

(1) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 58

(2) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 125

يلحظ أهمية هذا التواصل الحضاري، وتأكّده من أنّ الحضارة كسبٌ بشري ليس لأحد أن يدّعي الاستئثار بإيجابياتها أو الاستفادة من خبراتها لوحده، بل الفائدة منها للجميع، وقد أثبت الإبراهيمي على سبيل المثال أنّ «هذه المدنية التي تردّد لفظها الألسن، ويصطلح المؤرخون على نسبتها إلى أمم مختلفة ويميّزون بينها بطوابع خاصة، ويشتدّ المتعصّبون في احتكارها لأمّة دون أمّة كأنّها خُلقت معها أو كأنّها ذاتية لها، هي في الحقيقة تراث إنساني تسلّمه أمّة إلى أمّة وتأخذه أمّة عن أمّة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل، وما يؤثر فيها من عوامل وخير الأمم وأوفاها للمدنية هي الأمّة التي تقوى الجهات الصّالحة في المدنية وتكمل النقائص الظّاهرة فيها، وتسعى في نشرها وإشراك النّاس كلّهم في خيراتها ومنافعها».(1)

وقد فنّد الإبراهيمي مزاعم الغربيين الذين قاموا بعملية استلاب –بغير وجه حقّ– لحضارة من تقدّمهم بعدما أدخلوا عليها ترتيبات وتغييرات بما يتلاءم مع أوضاعهم وخصائصهم، وزعموا أنّها من نتاج أفكارهم وعقولهم، وانتحلوها لأنفسهم، ولكن الدّراسات أثبتت قبح صَنيعهم وكشفت وفضحت هؤلاء المحتكرين المعتدين الذين يتشدّقون بالمدنية والتطوّر الحضاري.(2)

ولذلك فهو يدعو إلى ضرورة التواصل الحضاري، وفحص لمذاهب المسلمين السالفين والمحدثين والوقوف على أخبارهم، ومعرفة دقيقة لحضارتهم، وإطّلاع على آفاق الفلسفات والتأملات العقلية، من أجل بلورة فكر اجتهادي إبداعي، يقود ولا ينقاد، في ظلّ التمسك بإرشادات الوحي، فبيّن ذلك قائلاً: «فكان هذا الإرشاد القرآني المتكرّر حفزاً إلى التنقيب عن آثار المدنيات القديمة، ودراستها والإطّلاع على الصالح النافع منها والأخذ به، وكان من آثار هذا التنبيه القرآني أن تفتّحت أذهان المسلمين –ولا أعنيكم– إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها، وكان من فضل القرآن على العالم أنّه أبقى بهذا الإرشاد على علوم كادت تندرس وعلى آثار مدنيات كادت تنطمس».(3)

فكان للقرآن الكريم أثره القوي –كما بيّن الإبراهيمي– في دراسة المدنية والحضارة برُمّتها والإفادة منها بما لا يتعارض مع إرشادات الدين وتوجيهاته.

وانطلاقًا من أهمية تلاقح الحضارات بين الأُمم، جاءت دعوة الإبراهيمي باتخاذ جانب الحيطة والحذر أثناء التعاطي مع ثقافات الغير بدون تنقية وروية.

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 258

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 258

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 260

فالدّراسات النقدية في نظر الإبراهيمي هي الكفيلة بإسقاط وإبعاد كل ما هو غثّ، وهي الكفيلة بإيجاد الوعي القاضي بحتمية التواصل الحضاري الواعي، وإذا قامت حركة نقدية تتناول ذلك التراث الإنساني الوافد بالفحص والنّقد والتحليل، وتَمَّ تجاوز فكرة التلقي الأصمّ لذلك التُراث تمّت الاستفادة المضمونة من كلّ ذلك، وقد عبّر الإبراهيمي عن مخاوفه المشروعة، وبيّن أنّ لسان حال الجمعية والناطقة باسمها –جريدة البصائر– وقفت «من الحضارة الغربية موقف المحترس الحذر، تدعو إلى ما فيها من علم وقوة، وتنهى عمّ فيها من قشور وتوافه ورذائل».(1)

وفي ظل هذه العلوم والمعارفة الإسلامية توحّدت آراء مفكري الزّمان، واتّفقت كلمتهم على أنّ الفكر الإسلامي فكرٌ متجدِّدٌ لا يقف عند زمن معين. وإنّما هو يستجيب بأصوله وقواعده ومقاصده لمتغيّرات الحياة، ويعمل على إيجاد الحلول الواقعية لها.

إذن فلا جمود على ما قاله السّابقون، ولا تعصّب ولا حجّة إلاّ لكتاب الله وسنّة رسوله –صلى الله عليه وسلم– ولقد دعا الإبراهيمي «بإلحاح إلى الاستفادة من معارف العصر وعلومه ومن الثّقافات الإنسانية المتعدّدة، ومواجهة الحياة مواجهة علمية عقلية صحيحة.... والتعامل مع الفكر العالمي من موقع الحوار البنّاء والتحليل والنقد والتفهّم».(2)

وبناء على ما سبق يمكننا التأكيد على أنّه من غير التجديد والاجتهاد لا يُمكن أن يبني الفكر الإسلامي مُعاصرته ويُمارسها كفعل وحضور وتأثير وتطوير.

كما أنّ تجميع نصوص متشابهة عن فقهاء السّلف لا يكفي لبروز اجتهاد جديد يُعالج أحوالنا الرّاهنة، بل لابد من توفر خلفية ثقافية ومعرفية للمجدِّد المجتهد تتمثّل في التأسيس الشّرعي والتحصيل العلمي يُطلعه على قصص التاريخ، وخواطر الأدباء، وبيان اللغويين، وآفاق الفلاسفة، وتأمّلات العُقلاء. وهذا الفكر الإبداعي يستند على آيات القرآن، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وقوله، وفحص لكتب العلماء المستقلين المستدلّين التي تقرن المسائل بأدلّتها وتُبين حكمة الشارع منها، بحيث يتولّد عنده وازع يمنعه من المبالغة والشذوذ والإفتاء الباتر الحاد.

فالتجديد الحقيقي هو الذي يعمل على إبراز وإظهار البدائل وتقديم الحلول في رفق جميل، لا يتكلّف التسهيل ولا يستطرد في الرخص والاستثناءات، مع حرص على مقاصد الشّرع وإنفاذها، والصراحة في طلبها وجلبها في منحى تصاعدي نحو العزّة التي تليق بالمؤمنين.

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 349

(2) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 132

المبحث الثالث:

أهداف التجديد وغاياته عند الابراهيمي

إنّ نجاح كلّ حركة تغييرية منوطٌ بإحكام الصُنع في تصوّرها الشّمولي، وعدم اقتصارها على النّظرة الجزئية.

والإبراهيمي من الذين تنبّهوا لمخاطر الواقع الجزائري ومأساته، فأحكموا الصّنع في استيعاب الواقع المزمع تغييره، فقد ظهر بوضوح أنّ نظرته كانت مراعية لهذا المفهوم الشمولي الذي بناه على تشخيص الواقع الجزائري المأسوي. مُبرزاً مفاسده وذلك تمهيداً لتجديده وتغييره.

لقد استوعب الإبراهيمي الواقع وفهمه فهماً استوفى جميع عناصره وأسبابه وعِلله، ثمّ عمد إلى بيان مظاهر الفساد والزيغ في ذلك الواقع، وقدّم بديلاً له، ورسم بمعية رفيقه في الدّعوة معالم حركتهما مُدعّمة بعناصر الحق وعوامل النّجاح.

فالآثار التي تركها لنا الإبراهيمي تجعلنا نطمئن أنّه في دراسته لواقع المجتمع الجزائري وفي قراءته له انطلق في تصوّره وتقويمه له من مُعاينة ميدانيه، ومن فهمه الشّخصي لحقيقته في مختلف الجوانب. فقد وضع يده على أهم المعالم التي كانت محلّ معالجة ودرس فلمّا «وضحت صورة الحق الذي يراد تنزيله، ووضحت مسالك وطرق ذلك التنزيل، حصل في النّفوس الاقتناع بما تُدعى إليه، والاطمئنان إلى إمكانية تحقيقه، وكان ذلك دافعاً إلى تبنّي الإصلاح والنهوض».(1)

ولكي نُدرك عظمة الدّور الذي قام به الإبراهيمي خدمة للجزائر، علينا أن نعرّج على حالة الجزائر وهي تقاسي طيلة عهود الاستعمار شرّ ضروبه، وهو الذي استحوذ فيها على الغالي والنّفيس، وبسط نفوذه فخنق النّفس وحَبس الأنفاس، وصادر إرادة الأمّة فلم يُعد لها كيان ولا سلطة تُسيّر أمورها وتُدير أحوالها.

وفي ظلّ غياب سلطة شرعية وفقدان إمكانيات لتجنيد النّاس، انبرى كثير من العلماء والوجهاء لحمل مسؤوليـــة هذا العبء لأجل التصدّي لهذا العدوان. وكثير من بلاد المسلمين تمّ تحريرها

(1) – عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تو مرت، الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري، سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير، ط/2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن –فرجينيا– الولايات المتحدة الأمريكية، [1415هـ–1995م]، ص: 78

بثورات خاضتها الجماهير بقيادات شعبية على رأسها العلماء والمشائخ ومن لا علاقة لهم بصورة حكم ولا حكومة، وهل يحتاج هذا الأمر إلى إنسان عنده كلّ علوم الآلة (آلة الاجتهاد) ليقوم بهذا الواجب؟ والجواب أن لا، فهذا اجتهاد في تحقيق المناط يقوم به من ابتلي بمثل هذا الموقف. وإيمانًا من الإبراهيمي بضرورة تحرير البلاد والعباد من ربقة الاستعمار الذي جاء إلى «هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة يحمل الموت وأسباب الموت».(1) هبّ بما اتّصفت به أفكاره من شمول في معالجة الواقع الجزائري، نجده قوّم الواقع تقويمًا شاملاً، تناول فيه جوانبه العقدية والثّقافية والسّياسية والاجتماعية.

وبناء على ما تبيّن له من مظاهر الخلل والانحراف، قدّم بمعية إخوانه العلماء بديلاً يتوفّر على عوامل النجاح، وبما يتّصف به من علاج هادف، وأوضح بأنّ الهدف الرئيسي من وراء تحرّكه مناهضة الاستعمار وتحرير الوطن، وإيجاد الأمّة الجزائرية.

وبإحالة النظر في أفكار الإبراهيمي المبثوثة في آثاره، يُمكنُنا التعرّض اجتزاء لبعض الأهداف التي كرّس حياته من أجل تحقيقها خلال تجربته الإصلاحية المتّسمة بالتجديد، وأبرزها:

أولا: تحرير الوطن وإيجاد الأمّة: إنّ الظروف التي عاشها الواقع الجزائري، والتي لامست المجتمع وأصابته في مقتل، أثّرت تأثيراً بالغاً في نفسية الإبراهيمي، لأنّه كان يشاهد بعينه ما يعانيه الشّعب الجزائري من بؤس وجهل وحرمان، وكان يؤلمه ذلك كما كان يؤلمه سكوت العلماء وجمودهم وتفريطهم في أداء واجبهم الوطني والديني.

ففكّر في إيجاد صيغة يقاوم من خلالها سياسة الاستعمار، ويكشف مناوراته، ويُفشل مخططاته، وفي الوقت نفسه يُنبّه الرأي العام المحلي إلى خطورة الاستعمار، ويهيّئ الشّعب وينفخ فيه الروح الإيمانية التي تدفعه إلى الثّورة على الظلم، لذلك كانت الفكرة التي جعلها منطلق حركته التجديدية هي أنّ مقاومة الاستعمار التي هي غاية كلّ نشاط وطني سياسي أو ديني أو تربوي يجب أن تتمّ على مراحل، تأتي في مقدّمتها تعبئة الإنسان لتوفير الأرضية الملائمة لمواجهة الاستعمار، فهذا هو الضّمان لالتفاف الجماهير حول الثّورة ونجاحها. لأنّ مواجهة الاستعمار عسكريًا مواجهة غير مضمونة النتائج ما لم يكن هناك إعداد إيماني وسياسي وثقافي ونفسي.

وهذا هو الدّور الذي قامت به وناضلت من أجله جمعية العلماء المسلمين لعقود من الزّمن.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 21

إنّ الهدف الأساسي الذي رسمه الإبراهيمي ووضعه نصب عينيه، هو إيجاد الأمّة السليبة الحقوق وخدمتها والدّفاع عن مقوّمات سيادتها جنسًا ودينًا ولغةً وتاريخًا وأرضًا.

فلبُّ السياسة في نظر الإبراهيمي وجوهرها بمعناها العام وعند جميع العقلاء تتجلّى في عبارة واحدة: «إيجاد الأمّة، ولا توجد الأمّة إلاّ بتثبيت مقوّماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوّتها المعنوية، والمغالاة بقيمتها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كلّه حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستميت في سبيلها، وترى أنّ وجود تلك المقوّمات شرط لوجودها.... ومتى تلاقحت ولدت وطنًا»(1) فتحقيق هذا الهدف يتطلّب برنامجاً شاملاً في حركة الإبراهيمي التجديدية في أبعادها الدينية والتربوية والاجتماعية والسياسية بمفهومها الشامل.

فالهدف الذي حدّده الإبراهيمي هدف يتطلّب العمل النّضالي، الفكري، والسياسي، والثقافي المشحوذ بالهمّة العالية والإيمان القوي، حتى تتوفّر الظروف النفسية والسّياسية التي تُسهم في تعبئة الجماهير التي سيدفعها وعيها إلى تحرير البلاد، وتخليصها من الاستعمار الذي فضحته وكشفت ستره جمعية العلماء المسلمين، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «لقد كشفت السرّ عن حقيقة الاستعمار للمغرورين فيه، وجرّأت المكافحين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان على الأخذ بتلابيبه حتى لا يستريح ولا يهدأ له بال، وعلى زعزعة أركانه إن لم يقدروا على إتيانها من القواعد»(2) ومن هنا يبدأ صراع الإبراهيمي –ممثّلاً لجمعية العلماء– مع حكومة الاحتلال في الجزائر.

فالسّياسة في رأيه جزء لا يتجزّأ من الدّين، ومن آرائه في هذا المجال أن لا يبتّ في مسائل الأمّة إلاّ الأمّة وحدها، وأنّه لا يحدّد مصيرها ولا يبني مستقبلها أحد إلاّ هي نفسها(3) من غير وصاية من أيّ جهة كانت.

كما أنّه لم يفوّت فرصة ولا مناسبة إلاّ وعرّف بالقضية الجزائرية، وفي كل المحافل الرّسمية والوديّة يُنعي الاستعمار ويُبشّر بدنو أجله واندحاره، وعندما اندلعت ثورة نوفمبر كان من أوائل العلماء والزّعماء الذين احتضنوها وباركوها، وهذا حرصًا منه على إيجاد الأمّة وتحرير الوطن، فكان لدعوته الأثر الكبير في نفوس المجاهدين، لأنّه أخرجهم من دائرة الشّك والتردّد التي كانت تلازمهم من قبل، إلى اليقين نحو تحرير البلاد والعباد وإيجاد الأمّة الغائبة.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 44

(2) – المصدر نفسه، ج4/ 276

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 163

ثانيا: تجديد الدين وإحياؤه: لقد أدرك الإبراهيمي أنّ لحركته التجديدية أهدافاً وغايات أساسية تستهدف تحقيقها، والوصول بالفرد إلى مستواها، وهذه الأهداف والغايات هي القاعدة الأساسية في بناء الفرد والمجتمع، والتطلّع إلى فجر الحرية والمستقبل الزّاهر.

ولعلّ الصيغة العملية للتجديد، ولتغيير ما خرج عن أصل وضعه الشّرعي من المعاملات والممارسات تكمن في إحياء معاني الأحكام ومقاصدها، ونشرها بين مختلف طبقات الأمّة، ثمّ توثيق الصّلة بين الأمّة وعلماء الشريعة.

وقد تمثّلت كلّ هذه الأهداف المرجوة من عملية التجديد عند الإبراهيمي، من خلال تلك النداءات المدويّة والصيحات المتكرّرة والتوجيهات الدائرة والنصائح الرّشيدة، فجدّد في النّاس الفهم الصّحيح في الدّين، وجعل من العبث إيمان الفرد وتديّنه بدون أثر أو شعور، وغلّظ في مخالفته للتقليد الجامد، وردّ عناية النّاس وتوجّهاتهم إلى مصادر الكتاب والسنّة الصافية، واجتهد لبعث روح الاجتهاد، وانتقد ضلال كلّ أهل الزوايا والطرق في وقته، وبيّن ضعفهم وفتورهم ودعاهم إلى التجديد وإحياء الدّين، وشجّعهم على تدارك ما وقع لهم من خلل في الفهم أو التطبيق، أو قصور في فهم أبعاد النّصوص وآفاق معانيها ومقاصدها.

كما بيّن لهم بأنّه ليس مجرّد الخروج عن صور التطبيقات التاريخية للأحكام أو الخروج عن الاختيارات المذهبية لبعض العلماء على أنّه نقيصة في حقّهم، بل هي الضّرورة العملية وحقيقة التجديد الذي يدعو إليه ويُلحّ على تشجيعه ومباركته.

لقد وضّح الإبراهيمي كلّ هذه الأهداف والغايات التجديدية، في أسمى العبارات، وأوضَح الطّرق وأبيَن المعاني، من خلال توضيح أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقال موجّهاً كلمته للاستعمار على وجه الخصوص، وإلى الأمّة عموماً «يا حضرة الاستعمار إنّ جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه. وتسمّي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه –عدواناً بصريح اللّفظ....»(1)

وانطلاقًا من هذه الأهداف المسطّرة والغايات الواضحة، اهتمّ الإبراهيمي بالعقيدة الإسلامية تصحيحاً وتنقيةً وتمكيناً، والوقوف في وجه المناوئين لها، والكائدين من أهل الطرق والزوايا

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 42

والمبتدعة الذين كانوا سببًا في انحدار الأمّة الجزائرية إلى الحضيض بسبب إعراضهم عن هداية كتاب دينها، فكانوا بذلك من أكبر عوامل هدم مقوّمات هذه الأمّة، ومن أكبر أسباب الإعاقة لما يجب أن تكون عليه من تقدّم ونهضة.

وما كانت الأمّة لتهبط –في نظر الإبراهيمي– إلى هذا الدّرك لو لم يكن هذا الذي جنته عليها بعض الطرق وأهل «البدع والضلالات التي مهّدت للانحلال وفساد الأخلاق بين المسلمين، ومكّنت للضّعف والخور في نفوسهم، وللوهن والفشل في عزائمهم وللزيغ والاعوجاج في فطرتهم، وللرّثاثة والنكث في روابطهم، ثمّ صيّرتهم لذلك حمى مستباحًا، ونهبًا مقسّمًا».(1)

فالإبراهيمي الذي عمل وكرّس حياته للإصلاح، لاحظ آثارًا سلبية عديدة ناجمة عن الطرقية ممّا حمله على اعتبارها داء عضالاً يجب التخلّص منه، لتحرير عقيدة المسلم من الخرافات والأباطيل فنجده يفضح أفكارهم ويكشفهم للأمّة في قوله: «إنّنا علمنا حقّ العلم بعد التروي والتثبّت ودراسة أحوال الأمّة ومناشىء أمراضها –إنّ هذه الطّرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرّق المسلمين.... وعلمنا أنّها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا.... ونعلم أنّنا حين نقاومها نقاوم كلّ شرّ، وأننا حين نقضي عليها إن شاء الله– نقضي على كلّ باطل ومنكر وضلال....».(2)

ويتابع الإبراهيمي حملته على أهل الطرق الضّالة، موضّحًا مخاطرها وبدعها، ومدى تأثيرها على حياة المسلمين وأوضاعهم، حيث تعلّق الكثير منهم بطقوس طريقتهم وبشطحات شيوخهم، ولم يعودوا على علاقة بالقرآن، لأن ارتباطهم بطريقتهم تحول بينهم وبينه، ولم تبق لهم علاقة بدين الله وبكتابه، ولم يبق لهم من الإسلام إلاّ اسمه، ومن القرآن إلاّ رسمه، فكانت جناية أهل الطرق على الإسلام، وعلى أمّة الإسلام من أعظم المصائب التي حلّت بالأمّة، فيقول: مؤكّدًا «إنّ أعظم مصيبة أصابت المسلمين –وهي جفاؤهم للقرآن وحرمانهم من هديه وآدابه– منشؤها من الطرق. فهي التي غشّت المسلمين لأول ما طاف بهم طائفها. وغشيتهم بهذه الروح الخبيثة روح التزهيد في القرآن. وكيف لا يزهد المسلمون في القرآن، وكلّ ما فيه من فوائد وخيرات وبركات قد انتزعتها منه الطرق وجرّدتـــه منها، ووضعته في أورادها المبتدعة

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 345

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 125

ورسومها المخترعة، ونحلته شيوخها ومقدميها وصعاليكها».(1)

وانطلاقًا من هذا الوضع الـــمُؤلم لواقع المجتمع الجزائري، هبّ الإبراهيمي ليجدّد في النّاس الفهم الصحيح للدين، وردَّ اهتمام النّاس وعنايتهم لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأخذ على نفسه عهدًا من الله أن لا يقرّ له قرار ولا يهنأ له بال، حتى تُنشئ جمعية العلماء المسلمين «مجتمعا إسلاميًا يشارف السّلف في عقائده، وعاداته، وأخلاقه، وصلته بمحمـــد –صلى الله عليه وسلم– وقربه من الله»(2) وتكون دعائمه وأُسُسه قائمة على تنقية عقائده، وتأصيل عباداته وأحكامه الشّرعية، وترشيد فضائله وتقويم آدابه على النفوس.

إذًا فالتجديد عند الإبراهيمي بهذا المعنى هو محاولة العودة بالدين إلى مصادره الأولى، المتمثّلة في كتاب الله وسنّة رسوله، والاهتداء بهدي السلف، وهو «إحياء الإسلام بمعناه الكامل في النفوس ومعناه الكامل هو عقائده النقية، وعباداته المأثورة، وفضائله المصلحة للبشر، وآدابه المقوّمة للنفس، وأحكامه الحافظة للحقوق».(3)

ثالثًا: إحياء اللغة العربية وتثبيت عروبة الجزائر: إذا كان تعليم الإبراهيمي مركّزاً على العلوم الدينية، فإنّ ذلك يستوجب بالضرورة التعمّق في اللغة العربية، لفهم النّصوص الإسلامية والغوص في معانيها، وهو الأمر الذي كان من وراء امتلاك الإبراهيمي لناصية اللغة العربية ومعرفة أسرارها والإحاطة بفنونها.

وقد تعلّق الإبراهيمي باللغة العربية إلى درجة اعتبارها «ترجماناً صادقاً لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شاهدها العرب بجزيرتهم»(4) بل يرى فيها من المزايا والمحاسن، ما ينعدم في غيرها من لغات النّاس كلّهم، فهي اللغة التي تُعبِّر بصدق عن الوجدان، الذي هو أساس جميع الحضارات والعلوم كلّها.

كما يرى بأنّ اللغة العربية اتّسعت فائدتها ومجال اختصاصها، فشملت جميع العلوم المشاعة بين البشر بجميع فروعه وتخصّصاته، ولم تقتصر على خدمة مدنية خاصة بأمّة.(5)

كما يعتبرها عنصرًا هامًا في تحقيق السّيـــادة الوطنية والقومية، وأنّهـــا جزء من كيانها السياسي

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 102

(2) – المصدر نفسه، ج4/ 123

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 123

(4) – المصدر نفسه، ج1/ 258

(5) – المصدر نفسه، ج1/ 262

والديني للأمّة، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، و لم يفترق لهما قصد.(1)

كما كان ينظر إليها على أنّها مقوّم من مقوّمات هذه الأمّة، وأنّها هي الحافظة والرّاعية لها والمصحّحة لعقائدها والحاضنة لأحكامها، وأنّها الصّلة والعلاقة بينها وبين الله سبحانه وتعالى.(2) فارتباط اللغة بالدّين ارتباطًا وثيقًا يتجلّى بصورة أخصّ فيما أحدثه القرآن الكريم من تأثير بليغ في الأدب العربي أسلوبًا ومضمونًا، ومن ناحية أخرى قامت العربية بدعم الدين الإسلامي ونشره باعتبارها وعاء للقرآن الكريم.

وقد اعتبر الإبراهيمي أنّ معرفة حقائق الدين وفهمه مرهون بمعرفة اللغة العربية، وعليه فهو يقول: «ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية وقد وقع بعضه ولكنّه من القلّة بحيث لا يظهر أثره في الحركة العامة للأمّة».(3)

إذاً الحفاظ على العربية وتعميم استعمالها، وتعليمها مسألة في غاية الأهمية لأنّ نجاح الاستعمار في القضاء عليها هو قضاء على الرّوابط القومية والتاريخية والحضارية بين الجزائريين أنفسهم ومع الأمة العربية والإسلامية على حدّ سواء، ويعني في نظر الاستعمار انفصالها –أي الأمة– عن لغة القرآن وعن الدين الذي يمكن أن يكون عاملاً أساسياً في إثارة الشعب ضدّها.

لذلك كان إحياء العربية والأخلاق هي أهداف النّضال، وعنصر المقاومة الذي يخلّص البلاد من الاستعمار، فبحضورهم مُجتمعين تكمن القُدرة ويتحقق الابتعاث نحو التحرّر والنهوض.

لقد أدرك الإبراهيمي نوايا فرنسا الاستعمارية وحرصها على تدمير والقضاء على لغة هذا الوطن، لأنّه إن نجحت في تحقيق ذلك تمكّنت من القضاء على عروبته ولسانه وهي أصل ومقوّم من مقوّمات هذه الأمّة، فآل على نفسه الدفاع عن عروبة هذا الوطن، وتسخير كلّ جهده ووقته للحيلولة دون بلوغ فرنسا الاستعمارية لهدفها، وقد عدّ العمل في ميدان اللغة العربية وفنونها وآدابها ديدنه فقال: «موضوع العروبة أو العربية في الجزائر هو الموضوع الذي قسمه الله لي، وجعله ميدان أعمالي وأحاديثي ومجال قلمي عشرات السنين».(4)

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 313

(2) – المصدر نفسه، ص: 310

(3) – المصدر نفسه، ص: 263

(4) – الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة في الجزائر، مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 415

فكان من نتائج جهاد الإبراهيمي الطويل والمتواصل في سبيل المحافظة على لغته هي حصول قناعة عند الرأي العام الوطني تتمثّل في «إلحاح الأمّة في المطالبة بمظهر سياسي وطني للغتها، وهي أن تكون رسمية في المدارس و الدواوين والأقلام والأحكام وأن يُعترف لها بمكانتها في وطنها، وأن تُمحى عنها تلك الوصمة التي لم تسب بأشنع منها، وهي أنّها أجنبية في دارها».(1)

رابعا: العمل على استرداد مؤسسات الأمّة واستقلالها: يعتبر الدين الإسلامي الهدف الثاني بعد الوضع السياسي الذي ركّز عليه الاستعمار معتبرا بأنّه لا يمكن بسط نفوذه على كامل البلاد والسّيطرة السياسية، إلاّ بإجراء تحويل ديني، إذا لم يكن إلى اعتناق المسيحية فليكن إلى الانحلال و التمييع.

من أجل ذلك فعلت فرنسا الاستعمارية في الجزائر ما لم تفعله في أي بلد آخر ابتُلي باحتلالها له، بل لقد فعلت بالأمّة ما لم تفعله جميع الدّول المسيحية الاستعمارية في جميع الدول الإسلامية التي وقعت في قبضة تلك الدول، وبالفعل فما أن بدأ الاحتلال الفرنسي بالهيمنة حتّى اتّبع سياسةً واضحةً للقضاء على الشخصية الدينية للجزائر، تجلّت بصورة بارزة في القضاء على دور العبادة ومصادرة الأوقاف الإسلامية، والعمل على السيّطرة، والتمكّن من القضاء الشرعي وتسهيل التبشير وتشجيع الخرافات والشعوذة وغيرها.

وشعورًا من الإبراهيمي بواجبه إزاء مُقدّسات الأمّة، وإحساسًا منه بروح المسؤولية حمل على كاهله مطالبة المُستعمر بضرورة تسليم مُؤسّسات الأمّة الدينية، ورفع اليد عنها على النحو التالي:-

1-استرداد المساجد: كما سبقت إليه الإشارة فيما يتعلّق بمخطّط فرنسا التدميري الرّامي إلى القضاء على الدين الإسلامي، وذلك من خلال تعطيل وظيفة المسجد وهذا في أحسن الحالات. أمّا منهجها فهو هدم المساجد، وتحويل بعضها إلى كنائس أو مستودعات عسكرية، كما هو الشأن في تحويلها لمسجد "كتشاوة" الذي أصبح بتاريخ -18 ديسمبر 1832م- كاتدرائية وذلك بعد عدوانها عليه وقتل حوالي "أربعة آلاف" من المعتصمين به للحيلولة دون تحويله.(2)

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 311

(2) – أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 49

ولقي العشرات من المساجد المتواجدة عبر الوطن نفس المصير «فقد حوّلت بعض المساجد الكبرى كنائس، وعمّرتها برجال الكنيسة المسيحيين.... وناهيك بمسجد كتشاوة العظيم الذي صيّرته كاتدرائية عظمى في العاصمة».(1)

لقد أدركت فرنسا الاستعمارية أهمية ودور المسجد في المحافظة على مقوّمات الأمّة الجزائرية وذلك لما له من مكانة خاصة في نفوس المؤمنين، باعتباره يمثّل المرجعية الأساسية للأمّة، فالمسجد كما وصفه الإبراهيمي «هو مرجع المسلم ومتقلّبه، فهو الذي يغذّي الإسلام في نفسه، بما يتردّد عليه خمس مرّات في اليوم والليلة، وبما يسمعه فيه من قرآن وخطب ودروس، وهو الذي يكوّنه ويوجّهه، بما يصبغه به من ألوان ثابتة، وبما ينقض عليه من روحانية قوية، وبما يغشى في جوانبه من فضائل أصيلة....».(2)

لذلك عمل الإبراهيمي في إطار استرداد مساجد الأمّة إليها، والمطالبة في إصرار لرفع القيود والأغلال التي فرضتها إدارة الاحتلال عنها، لتؤدي وظيفتها الطبيعية التي من أجلها رُفعت، ليُذكر فيها اسم الله وحده، والأمّة هي صاحبة الحقّ والمخوّلة شرعًا في تدبّر أمرها وإليها يُرجع أمر تسييرها والتّصرف فيها.(3)

2- المطالبة برفع اليد عن الأوقاف: لقد أدركت فرنسا دور الأوقاف وأهميته في تمويل ودعم مشاريع الأمّة الجزائرية وتوجيهها الوجهة اللاّئقة بها، فعمدت إلى إصدار قوانين جائرة في حقّ ممتلكات الأمّة وخيراتها للاستيلاء عليها ومصادرتها، وبذلك تُمسك برقاب جميع الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم من عائدات الأوقاف. وفي خطوة إجرامية أقدمت فرنسا الاستعمارية على «ابتلاع أوقاف المسلمين والاستيلاء على مساجدهم».(4)

لقد أدرك الإبراهيمي أهمية ما سُلب من الأمّة، فأصرّ على تحرير الأوقاف واسترجاعها إلى حضيرة الإسلام وذلك لإيمانه الرّاسخ بأنّ الأمّة الإسلامية ترى بأنّ «المساجد والأوقاف هما مسألة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، كالشّخص وظلّه، وإنّ الأمّة لا ترضى أن تستلم مساجدها فقيرة عريانة».(5)

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 170
(2) – المصدر نفسه، ص: 159
(3) – المصدر نفسه، ص: 198
(4) – المصدر نفسه، ص: 27
(5) – المصدر نفسه، ص: 29

في الوقت الذي كانت فيه عائدات الأوقاف من الكثرة ما يساوي ميزانية دولة متوسطة.(1)

إذًا بقاء الأوقاف في يد الاستعمار الفرنسي يعني بقاء موارد المال ومصادره بين يديها، تُغدق به على معمّريها، وتستهوي به نفوس وعقول ضعاف الإرادة والإيمان الذين تتّخذ من آرائهم ومواقفهم سندًا لها على جرائمها ومطامعها.

ومن ناحية أخرى تهدف فرنسا من وراء ابتزاز أموال الأمّة ومصادرة أوقافها إلى تجريدها من السّلاح المادي الذي به تقوى على الحياة وتستمر.

وقد كشف الإبراهيمي نوايا فرنسا الخبيثة في أكثر من مناسبة وبيّن «أنّ الاستعمار الفرنسي استعمار صليبي، بنى أمره من أول يوم على ابتلاع الأوقاف الإسلامية، ليجرِّد الإسلام من السّلاح المادي، فيتسلّط على معابده ورجاله، ويقودهم بزمام الحاجة إلى حيث يريد، ولولا فهمنا لهذه الحقائق لما تشـــدّدنا كلّ هذا التشدّد في قضية الأوقاف».(2)

3-استقلال القضاء الإسلامي: كان القضاء الإسلامي في الجزائر يحظى بمكانة خاصة ومتميزة في أوساط المجتمع الجزائري، فأهميّته تتجلّى في مرجعيته، فما من نزاع ينشب أو صراع يحتدّ ويتفاقم إلاّ وتعود الكلمة في الأخير إليه، مستجيبين لقوله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعتُم فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ** ﴾ [النساء: 58]. وهذا ما جعل القضاة يتمتّعون بدرجة عالية من الاحترام(3) والإجلال.

ولمّا كان الدين الإسلامي مقوّمًا من مقوّمات الشخصية الوطنية، حاولت فرنسا القضاء عليه تمهيدا للقضاء على الأمّة، وذلك باتخاذها لجملة من الإجراءات الجائرة التي بموجبها أُلحقت المؤسّسات الإسلامية بها، وتحت إشرافها المباشر.(4)

ولأجل وضع حدٍّ لهذه التبعية للإدارة الفرنسية، قرّر الإبراهيمي مطالبة حكومة الاحتلال بوجوب استقلال القضاء الشّرعي في الجزائر عن القضاء الفرنسي، ورفع اليد عنها، فاتّخذ من دروسه ومحاضراته ومقالاته وبياناته وسيلة لتمرير مطالبه وإيصال دعواته لكلّ من له أذن صاغية، ومنها قوله على لسان جمعية العلماء المسلمين «وتطالبك باستقلال قضائه، وتسمّي

(1) – الإبراهيمي، "أنا" مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 24

(2) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 279

(3) – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط/2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، [1984م]، ص: 335

(4) – رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 314

عُدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه. عدوانًا بصريح اللفظ».(1)

كما يعتقد الإبراهيمي بأنّ كمال الدين لا يتحقّق إلاّ إذا تمّت المحافظة على الحقوق الثلاثة الأساسية: من تعليم، وحرية المساجد، واسترجاع أوقافها، وباستقلال القضاء الشّرعي عن القضاء الفرنسي.

وهذه الحقوق الثلاثة في نظره هي بعض من حقوق الفرد الجزائري، التي لا يمكن السّكوت عنها لأنّها أمور تتعلّق بالحقوق الشّرعية المغتصبة.(2) لذلك نجد الإبراهيمي يعمل دون ملل، وكلّه إرادة وعزم على تحقيق الفصل، فصل الدين الإسلامي بجميع مُؤسّساته عن إدارة الاحتلال، وهذا ما نلمسه في مذكّرة الاحتجاج التي تقدّم بها لحكومة الاحتلال، وهي مذكّرة تحمل في ثناياها الإرادة والعزيمة واليقين في نصر الله، وفي ذلك يقول: «ولتعلم –آخر ما تعلم– أنّ زمنًا كنت تُسلّط فيه المسلم على المسلم ليقتله في سبيلك –قد انقضى وأنّه لا يعود.... ولكن ما قولك –أيُّها الاستعمار– في تدخّلك في ديننا، وابتلاعك لأوقافنا، واحتكارك للتصرّف في وظائف ديننا، وتحكّمك في شعائرنا، وتسلُّطك على قضائنا، وامتهانك للغتنا؟ ما قولك في كلّ ذلك –أهو من الدين أم من السياسة؟ وكيف تبيح لنفسك التّدخل فيما لا يعنيك من شؤون ديننا....».(3)

خامسا: التصدّي للحملات التبشيرية والإلحاد والإدماج: لا يختلف اثنان حول حقيقة الاستعمار الذي ابتُليَ به الشّعب الجزائري. فهو يهدف إلى مسْخ الهوية الوطنية بجميع أبعادها وترسيخ جذوره وتعميق سيطرته على الشعب الجزائري، كما كان يحمل في ثناياه روحا صليبية غايتها الأساسية اجتثاث الأمّة من جذورها، والقضاء على مقوّماتها وهدمها من الأساس.

فقد اتّجه الاستعمار بمخطّطاته إلى العمل على تحطيم العقائد وتدمير المبادئ، وتمييع القيم الفاضلة، وهدم الأخلاق والآداب الإسلامية، لإبعاد الجزائريين عن دينهم والقضاء عليه في نفوسهم لفسح الطريق أمام تنصيرهم وتمسيحهم.

فالفرنسيون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر، وهم يعملون بلا هوادة للقضاء على الشخصية الوطنية، حضارة ولغة ودينًا ليلبسوها ما يوافق تطلّعاتهم ليتحقـــق لهم الإدماج وتصبح الجزائر الجزء الجنوبي من فرنسا.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 42

(2) – المصدر نفسه، ص: 273

(3) – المصدر نفسه، ص: 43

ولّما كان الإسلام هو المقوّم الأساسي للحفاظ على أصالة هذا الشعب ودينه وعروبته، عمل الاستعمار على محاربته غير مكتفيًا بابتلاع الثروات واحتلال الأوطان بل بذل كلّ ما بوسعه من أجل استبدال دين الإسلام بالمسيحية، تمهيداً لمسخ هويته وتحويله إلى شعب يدين لفرنسا في كلّ شيء، وهذا ما كشف عنه الإبراهيمي وبيّن مخطّطه، في قوله: «فهي تؤسّس مراكز التبشير وتعمّرها بالدعاة والأطباء والمعلمين، وتُجهّزها بكلّ وسائل الإغراء والإغواء، وتغتنم المجاعات والأوبئة فرصاً لاصطياد الجوّع واليتامى والمرضى، لتفتنهم عن دينهم بلقمة أو ثوب أو جرعة دواء، وما مهّد لها تلك الأسباب إلاّ الاستعمار، فهو الذي أجاع وأعرى، وهو الذي أفقر وأمرض، وهو الذي مكّن للجهل والجمود، كلّ ذلك عن عمد وقصد، وكلّ ذلك ليُذلّ ويقل ويُهيّء للمبشّرين وسائل التنصير».(1)

لّما أحسّ الإبراهيمي بخطورة هذا المشروع التبشيري التنصيري، ولمّا تأكّدت جمعية العلماء بأنّ «تيار التبشير المؤيّد بأسباب القوّة لا يقاوم بالأقوال وأنّه لا يقاوم إلاّ بتقوية المعاني الدينية في النفوس، منها القيام بحقّ الله في البائس الفقير والرّحمة باليتيم، والبّر بالمساكين».(2) حدّد الإبراهيمي في إطار جمعية العلماء برنامج عمل للتصدّي لهذه الحملات المنظّمة.

في ظلّ هذه الظروف الصّعبة والرياح العاتية التي تعصف بالبلاد ودين العباد صمدت جمعية العلماء برئاسة الإبراهيمي ومن قبله -بن باديس- فتصدّت لكلّ المحن، وأساليب المسخ التي يعتمدها الاستعمار، ولم يثنها عن مواصلة تحقيق أهدافها أي وعيد وتهديد، بل مضت في ثبات وعزم في مواصلة تنفيذ مشاريعها وبرامجها، تارة بالتوعية وشرح مخطّطات الاستعمار وحيله وفضح أساليبه وتعرية مشاريعه المبطّنة، وتارة أخرى بإشرافها المباشر على تشييد وفتح المدارس العربية الإسلامية على مرأى ومسمع من الاستعمار، وهو ما يمثّل تحدّياً لسلطات الاحتـــلال وهي خطوة تزيد في إغاظة الاستعمار وأعوانه، وللحيلولة دون استكمال مشاريعه التوسّعية ومخطّطاته التدميرية.

كما كان لجمعية العلماء الآثار الملموسة في التّصدي للإلحاد، الذي وفد على الجزائر بمعية الاستعمار، والذي عُدَّ ضيف ثقيل على حدّ قول الإبراهيمي، لأنّه ضيف غير مرغوب فيه، وهو الذي حلّ ببلادنا عن طريق التعليم اللاّديني أو من طريق التقليد الأعمى.(3)

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 64

(2) – المصدر نفسه، ج4/ 237

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 131

وقد تصدّى الإبراهيمي للإلحاد بكلّ عزم، وتجلّى ذلك في تجديد الدّين وإحيائه في نفوس الأمّة بما استهدفته دروسه المسجدية ومحاضراته الجمعوية في النوادي والأسواق العّامة، وبما استحدثته دروسه من إرشادات وتوجيهات لأولياء الأمور على أهمية تحمّل مسؤولياتهم إزاء أبنائهم «لأنّ كثيراً من الآباء يُطلقون لأبنائهم الحبل على الغارب، ولا يحوطونهم بالرّعاية اللاّزمة لحماية دينهم وأخلاقهم وقوميتهم، بل يكلونهم إلى عادات فاسدة ومؤثرات ضعيفة، لا تقوى على مقاومة ما يجدّ على مشاعرهم ويغزو عقولهم».(1)

وإحساساً منه بالواجب إزاء فئة من أبناء الأمّة الذين كانوا هدفاً للأفكار والتيارات الهدّامة نجد الإبراهيمي ينحو باللاّئمة على العلماء، ويحمّلهم مسؤولية ما حلّ بشباب الأمّة، لأنّهم لم يلقوا منهم رعاية ولا اهتماماً، وانشغلوا عنهم لفائدة مصالحهم وشؤونهم الخاصة، فكانت نتيجة التفريط استعداد شريحة كبيرة من أبناء الأمّة للضّياع والارتماء في الإلحاد، لولا أنّ الله قيّض لهم من أخذ بأيديهم وعصمهم من الانجرار إليه والوقوع في أحضانه، وذلك بالتقرّب منهم ورعايتهم وتحسّس همومهم وانشغالاتهم «فمازجوا هذه الطائفة وخلطوها بأنفسهم، وعرفوا كيف يجذبونها إلى المحاضرات والدروس الدينية فكان لهذه الطريقة الرّشيدة أثرها الصالح في تقويم زيغ الزائغين منها وإرجاعهم إلى حظيرة الدين بكلّ سهولة».(2)

وهذا في نظر الإبراهيمي أقلّ الواجب، أمّا كامل المسؤولية فتقع على دور الآباء لقيامهم بدور التربية الدينية الصحيحة، حتى يربأوا بأولادهم من الوقوع في الآفات المتمثّلة في الجهل وتبعاته والإلحاد وأخطاره.

أمّا عن موقف الإبراهيمي من الإدماج فهو موقف واضح وصريح منذ البدء، فقد أعلنه من غير خوف ولا تردّد في معرض جوابه عن سؤال هل الجزائر فرنسية؟ فأجاب قائلاً: «لا يا قوم لا إنّ الله خلقها عربية مسلمة، وستبقى عربية مسلمة إلى ما شاء الله».(3) وفي موقف آخر يعلن: «بأنّ الجزائر ليست فرنسية، ولن تكون فرنسية، كلمات قالها أوّلنا، ويقولها أخيرنا، ومات عليها سلفنا، وسيلقى الله عليها خلفنا».(4)

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 131

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 132

(3) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 388

(4) – المصدر نفسه، ص: 389

هذه الحقيقة الواضحة، هي التي جلاّها من قبل رائد النهضة الإمام -بن باديس- في مطلع قصيدته المشهورة التي أصبحت نشيداً وطنياً يُردّده كلّ لسان جزائري:

شعبُ الجزائـــرِ مُسلـــمٌ وإلى العُـــروبَـــة يَنتَســـب
من قَال حادَ عن أصلـــه أو قَالَ مَاتَ فقدَ كَـــذَب
أو رامَ إدمـــاجـــاً لـــه رامَ المحـــال مـــن الطّلبْ

سادساً: التجديد في السلوك الفردي والجماعي: يمكن القول بأنّ الإبراهيمي انتهى إلى حقيقة بعد دراسة أحوال المجتمع الجزائري، وما آل إليه الوضع الأخلاقي فيه، مكّنته من الوقوف على عناصر الفساد في المجتمع، ومعرفة أسباب ذلك الانحراف الذي أصاب الأمّة ونخر كيانها، واستقرّ واستحكم في نفوس الأفراد وفي ضميـــر المجتمع، وانتهى إلى أنّ علّة الأمّة تكمن في أخلاقها، لذلك عمل على صياغة حياتها بتفصيلاتها صياغة إسلامية شرعية، والإفادة من المعاني الوجدانية، وإحياء الأخلاق الرّبانية، فقال مبيّنًا: «إنّ علّتكم التي أعيت الأطباء، واستعصت على حكمة الحكماء، هي من ضعف أخلاقكم ووهن عزائمكم. فداووا الأخلاق بالقرآن تصلح وتستقيم. وأسوا العزائم بالقرآن تقو وتشتدّ».(1)

فالأمّة التي حسنت أخلاق أفرادها، واستقام اعوجاجهم وسادتهم القيم الفاضلة، وخيّمت عليهم الفضيلة، وانتفت عنهم الرّذيلة أمّة حيّة بحق، إذْ بالأخلاق يرتفع الإنسان عن مرتبة الحيوان. ولذا نجد الإبراهيمي يحرص على توجيه شباب الأمّة إلى التماس الأخلاق في الدين، فيقول: «أي شباب الإسلام: إنّ الأوطان تجمع الأبدان وإنّ اللغات تجمع الألسنة. وإنّما الذي يجمع الأرواح ويؤلّفها ويصل بين نكرات القلوب فيعرّفها هو الدين».(2)

فهذه التربية هَدَف منها الإبراهيمي إلى تكوين الفرد تكويناً ذاتياً، يفضي به إلى صفاء روحه ونقاء سريرته، لأنّ بصلاح الفرد ينصلح المجتمع.

وللإبراهيمي رؤية يرتكز عليها صلاح المجتمع ونهضته، فألزم لوازم النهضة والتجديد تتمثّل في أربع ركائز وهي: «الدين والأخلاق والعلم والمال».(3)

وفي معرض حديثه عن اللاّزم الثاني المتعلّق بالأخلاق، نجده يُؤكّد على أهميته وحاجة الأمّة إليه

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 93
(2) – المصدر نفسه، ج1/ 93
(3) – المصدر نفسه، ج1/ 09

في مثل هذا الزّمان الذي استفحلت فيه الرّذيلة وكثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق، وفي رأيه أنّ الإمساك بتلابيب الأخلاق هو أيسر الحلول لمعالجة هذه الأمراض، وفي ذلك يقول: «ومن فكري الخاص، أنّ هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنّا تسيير الجهود الفردية في التربية المترلية، لأنّ لنا أساسا نبني عليه ولا يعسر جدّ العسر إحياؤه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة والتي نجد معظمها في القرآن»(1) والإبراهيمي لم يقف عند حدود الفرد بل تجاوزه إلى تربية المجتمع، ذلك أنّه وضع نصب عينيه إنشاء مجتمع جديد انطلاقـــاً من إقلاعهم عن الرّذائل والتزامهم بالفضائـــل وفي ذلك يقول: «لا نبالغ إذا قلنا إنّ من بواكر النجاح الأولى.... إرجاع الغاوين من المسلمين إلى حظيرة الدين.... وبالجملة فقد وقفت الجمعية من جميع الرذائل المتفشية في الأمّة الجزائرية، من خمر وفجور، ومسارعة في الإيمان الفاجرة، وترك الصلاة، وشهادة الزّور —موقف الخصم الجبّـــار وحملت عليها ومازالت تحمل- حملات صادقة شكرها لها المنصفون وإن قلّل من شأنها المتعسّفون».(2)

لقد أدرك الإبراهيمي بأنّ التربية الصحيحة تعنى بالدرجة الأولى بتعديل السّلوك الإنساني وتوجيهه التوجيه الأخلاقي الفاضل، ووقف على حقيقة ثابتة مفادها أنّ هذه الأجيال الصّاعدة لم يكن تأخرّها وضعفها وانحرافها من نقص في العلم والمعرفة، وإنّما مردّه إلى ضعف في الأخلاق والقيم والفضائل والسّلوكات، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق.(3)

لذلك فهو يرى أنّه لا مزايدة على الأخلاق، فهي الحلّ لما هو عليه حال الأمّة. فجانب الأخلاق مقدّم على حاجة الأمّة للعلم، لأنّ سقوط الأمّة واندحارها، مردّه في نظر الإبراهيمي إلى نقص في الأخلاق.(4)

سابعا: التقريب بين الاتجاهات الإسلامية وإيجاد رأي عام وطني: كانت حركة جمعية العلماء المسلمين برئاسة الإبراهيمي تعمل على تجسيد برنامجها الديني والثقافي على أرض الواقع في آن واحد.

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 10

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 135

(3) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 291

(4) – المصدر نفسه، ص: 296

فمن النّاحية الدينية، عملت على رجوع الإسلام في الجزائر إلى نقاوته الأصلية، ولو أدّى ذلك بالمسلمين إلى ترك المراجع التقليدية للمذهب المالكي، كما عملت من الناحية الثقافية على لمّ شتات الجزائريين بمختلف توجّهاتهم وتباين ثقافاتهم دون ميز في الجنس أو الأصل، قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين.(1)

وقد اهتدت الجماعة إلى تحقيق هذا الهدف بما اعتمدته في منهجها التّربوي، حيث حقّقت دروسهم المنتظمة، وأساليبهم في الوعظ والإرشاد واختيارهم لمواضيع المحاضرات والنّدوات وكتاباتهم في الصحف والجرائد، إلى جانب التربية العلمية والرّوحية، نتائج على مستوى الفرد والجماعة ايجابية ومحمودة أفضت إلى إمكانية التعايش مع الغير أيًّا كان مشربه وكانت مرجعيته المذهبية، وإلى جانب هذا فإنّ المنهج التربوي الذي إلتزمه الإبراهيمي سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، تضمّن العمل على التقريب بين أفراد المجتمع وهيئاته على اختلاف ميولاتهم ونزعاتهم، وفي هذا قال الإبراهيمي: «بذلك التحرير العقلي الذي أساسه توحيد الله، تمكّنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة، والمشارب المتباينة والنّزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت في الأمّة قوة التمييز بين الصالح من الرّجال والصحيح من المبادئ، وبين الطالح والزائف منهما، وبذلك التحرير أراحت الأمّة من أصنام كانت تتعبّدها باسم الدين أو باسم السّياسة، وبذلك التحرّر زرعت البذرة الأولى لما يُسمّى الرأي العام في الجزائر، وتكوّن الرأي العام بمعناه الصحيح هو بلوغ الرشد بالنسبة إلى الجماعات».(2)

وتكوين الرأي العام يعني قيام وجهة نظر جماعة أو اتّجاه مشترك حول مسألة تعني الجماعة التي تتّخذ هذا الموقف عقب مناقشة أوجه النّظر في الأمر، وتلعب عوامل كثيرة ومتنوّعة ومتشابكة دوراً هامًا في تكوين الرّأي العام، هذه العوامل تتفاعل مع بعضها البعض بمعنى أنّ كلّ منها يؤثّر في الآخر ويتأثّر به.

وأهمّ هذه العوامل البيئة التي ينشأ فيـــها الفرد، فالمجتمع الذي يتكوّن فيه الرّأي العام يتكون من مجموعة من الأفراد لكلّ منهم رأي، هذه الآراء هي في النهاية التي تكوّن ما نُسمّيه بالرأي العام.(3)

(1) – شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، الدار التونسية للنشر، تونس، ط/3، [1976م]، ص: 135

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 34

(3) – عبد الوهاب كحيل، الرأي العام والسياسات الإعلامية، مكتبة المدينة، القاهرة، ط/2، [1987م]، ص: 91

وهو يمثّل تيارًا يسري عبر الجماهير، يعكس إقبالها ونفورها، ويعكس رضاها وسخطها، ذلك أنّه يعبّر عن اجتماع كلمة الجماهير.

وقد طالبت جمعية العلماء على لسان رئيسها الإبراهيمي وأعلنت في أكثر من مرّة بأنّها «تعمل لتوحيد كلمة المسلمين في الدين والدنيا. وتعمل لتمكين أخوّة الإسلام العامة بين المسلمين كلّهم».(1)

إنّ حرْص الإبراهيمي، على تكوين رأي عام وطني، يدلّ على أهمية هذا الشّرط ودوره في حركته التغييرية، وتوّفر هذا الشرط يعني بالضرورة توفّر عامل قوي وفاعل يتضمن آليات النهوض والتجديد.

لقد أثبت الإبراهيمي أنّه يولي الجانب التّربوي في حركته التجديدية أهمية بالغة ذلك أنّه وضع نصب عينيه تكوين رأي عام وطني، يضمّ في صفوفه جميع الأطياف والحساسيات بمختلف توجّهاتهم ونزعاتهم.

وفي سبيل تمتين العلاقة بين أفراد هذا المجتمع، عمد إلى سلوك مبدأ التربية الصّالحة القائمة على مبادئ الإسلام وقيم العروبة وأمجادها.

وحرصًا منه على ضرورة التواصل مع جميع التيارات، فإنّه آل إلى نفسه منذ الخطوة الأولى في مشواره الدعوي الاتّصال بالجماعات السّياسية العاملة في الوطن قصد ضمّهم إلى إطار جمعية العلماء المسلمين، الذي يجمع ولا يفرّق، وقد اعتبر أنّ من مفاخر الجمعية جمع شمل الأمّة بعدما كانت مفرّقة ممزّقة تتجاذبها جهات وتيارات مختلفة، فقال في هذا الأمر «إنّ جمعيتكم تفخر بأنّها نجحت في جمع طوائف عظيمة من الأمّة الجزائرية على الحق بعد أن كانت كلّها متفرّقة على الباطل، واستطاعت أن تُعلّم معنى الاجتماع على الحق والخير، وكيفية الاجتماع على الحق والخير، وتُحبّب إلى أنفسهم كلمة الاجتماع وحضور المجتمعات بعد أن كانت لا تجتمع إلاّ على شرّ أو مأثم».(2)

لقد استطاع الإبراهيمي أن يُكوّن رأيًا عامًا فاعلاً ومحصّنًا، وبرزت نتائج آثار تشكيل هذا الرأي في وجود عنصر الثّقة بينه وبينهم، حيث أصبح الإبراهيمي محط آمال عقلاء الأمّة الذين كثيرًا ما كانوا يستحثّونه طالبين منه المُضي قُدُمًا لتجسيد أملهم المنشود، وهدفهم المتمثّل في جمع كلمـــة المسلمين على قلب رجل واحد، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «ترد علينا رسائـــل

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 42

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 219

كثيرة من عقلاء الأمّة المخلصين لها السالمين من عصبية الحزبية، وكلّها حضّ على السعي في الإتّحاد بين الأحزاب وجمع الكلمة المتفرّقة».(1)

وقد تضمّنت كلّ هذه الرّسائل مطالب مُحدَّدة وواضحة، تهيبُ بالإبراهيمي في ظلّ الخلاف الناشب بين أبناء الأمّة الواحدة التدخّل شخصيًا لوضع حدّ لمضارّه، وبيان أخطاره على الفرد والجماعة، والتنوية بضرورة الإتّحاد، وكان أمل الأمّة ورجاؤها معقودًا على قيام الإبراهيمي بهذا الدّور، وغاية الغايات عندهم هي جمع الكفاءات في حزب واحد.(2)

وقد استجاب الإبراهيمي لرغبة الجماهير ومطالبهم، فحقّقت حركته التجديدية هدفها المرسوم، عبر احتكاك مباشر ومستمر مع جميع فئات المجتمع والعلماء والفقهاء والسّاسة والوجهاء، وأعلن في ثقة وعزم بأنّه خُلق لهذا الغرض، وأنفق عمره كلّه في ذلك، وساهم في حلّ عقدٍ كثيرة ومشاكل عديدة عقدها الاستعمار، فجمع الكراغلة والحضر* على ما جمع عليه الإسلام ربيع ومضر.

كما عمل بمساعدة إخوانه على جمع الأحزاب في هيئة واحدة هي أحباب البيان، كما كان يصرّح في أكثر من مناسبة بأنّ جمعية العلماء فوق الأحزاب.(3)

هكذا كانت تجربة الإبراهيمي التجديدية على جانب من الوضوح في أهدافها، وكانت أيضا على جانب من الوضوح في منهجها المؤدّي إلى بلوغ وتحقيق تلك الأهداف، انتهت به إلى تقويم الواقع الجزائري، والوقوف على الخلل الذي أصاب الأمّة وأبعدها عن دينها عقيدةً وسلوكًا نتيجة لبعدها عن كتاب الله وسنّة نبيّه عليه الصّلاة والسّلام، فأدّى ذلك الجهل والبعد إلى ممارسات سلوكية مناقضة للشّريعة في التصرّف الفردي والجماعي للأمّة، فكانت الخيبة وكان الخسران. ومن ثمّ سلك مسلك التجديد على مستوى المفاهيم العقدية والفكرية والأخلاقية بحيث اتّسمت معالجته للواقع بالشّمول، وبناء على ما تبيّن له من مظاهر الخلل والانحراف وضحت له صورة الحق الذي أراد تنزيله، فقدّم بديلاً يتوفّر على عوامل النّجـــاح وبما اتّصف به من علاج هادف تمهيدًا لتحرير العباد والبلاد من ربقة الاستعمار.

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 337

(2) – المصدر نفسه، ص: 337

(3) – المصدر نفسه، ص: 338

* قبيلتان يتكوّن منهما سكان مدينة "تلمسان" المدينة التاريخية القريبة من الحدود المغربية للجزائر. **والكراغلة** هم بقايا العنصر التركي الذي كان يحكم الجزائر، **والحضر** هم من عدا الكراغلة من عرب وبربر، وقد كانت بين القبيلتين عداوة مستحكمة منذ الحكم التركي، وزادها الاستعمار الفرنسي ثباتا واستمرارًا، ولّما استقرّ العلاّمة الإبراهيمي بتلمسان ممثّلاً لجمعية العلماء المسلمين وناشرا لمبادئها في العمالة الوهرانية كانت أوّل مشكلة اعتنى بحلّها هذه المشكلة بين هاتين الفرقتين، وقد وفّقه الله لذلك، فتآخى الفريقان على رغم الاستعمار.

المبحث الرابع:

وسائل وأساليب التجديد عند الابراهيمي

إذا كان التجديد هو ضرورة التأهيل والتطوير والانتقال من الجمود إلى الحركة ومن الانغلاق إلى الانفتاح ومن الانقطاع إلى التواصل، فبإمكان الفكر الإسلامي من خلال ثوابت الدين وأحكامه أن يُظهر قدرة متميّزة على التجديد، عندما يَحسنُ الاستفادة بطرائقه ونُظمه ووسائله وقواعده الاجتهادية والمنهاجية الأصولية بصورة فعّالة ومتجدّدة.

وتكتسي عملية اختيار الوسائل والأساليب أهمية بالغة في دفع حركة التجديد، لأنّها تهدف إلى تنزيل منهج جديد للحياة منزلة منهج سائد في الواقع ويتم «ذلك برسم صورة واضحة لذلك البديل تَبرز فيها عناصر الحقّ بشواهدها، وأدلّتها، وبيان السّبل التي تُيسّر تنزيله، والمسالك التي يصير بها واقعا يحلّ محلّ الفساد فإذا ما وضحت.... مسالك وطرق ذلك التنزيل حَصل في النفوس الاقتناع بما تُدعى إليه، والاطمئنان إلى إمكانية تحقيقه»(1)

فحركة التجديد ينبغي أن تكون حركة انبعاث، حركة لتصحيح المعرفة، وليست حركة لقولبة الواقع، فقد أثبتت قولبة الواقع، أنّها تولّد دائما ردود فعل مضادّة بعكس الاتجاه، لذلك فإنّ تحقيق التلاؤم بين الواقع والقيم، هو مناط النجاح في إدارة وتسيير أي مؤسّسة في أي مجال كانت صغرت أو كبرت –من العائلة إلى المسجد إلى المدرسة أو إلى أي فضاء قد يشكّل إطارًا يتحرّك فيه المجدّد، من أجل تحقيق أهدافه خدمة للأمّة والوطن.

وهذا الأمر ليس باليسير في ظروف عالمنا المعاصر، ولكن ليس بالأمر المستحيل، فتجديد الرؤية وتطوير الوسيلة وابتكار الحلول والاجتهاد أمور يضمنها جميعًا النّظام المعرفي الإسلامي، ويؤكد الحاجة إليها فيما يخص الوقائع التقديرية والقضايا المستحدثة، والسّنـــد في ذلك قوله تعـــالى: ﴿ **اتّقوا الله وابتَغُوا إلَيه الوسيلة** ﴾. [المائدة: 35]

ومن خلال تتبّعي لأعمال الإبراهيمي تمكّنتُ من تحديد الأُطر التي تحرّكت فيها حركته المتّسمة بالثّراء والتّنوع والتجديد.

(1) – عبد المجيد النجار، تجربة التغيير في حركة المهدي بن تومرت، ص: 53

وسأحاول فيما يلي الوقوف على أهم الوسائل والأساليب التي سلكها الإبراهيمي في إطار منهجه التجديدي.

أولا: مؤسّسة المسجد:

إنّ اهتمام الإسلام بالمسجد عظيم، وعنايته به كبيرة، ففي ظلّ المسجد تَربّى الجيل القرآني الذي سطعت أنواره في الأفاق، وفي ظل المسجد كان النبي -صلّى الله عليه وسلم- إمامًا للمصلّين وسيّدًا للمتّقين، يؤم بالقرآن عباد الله الصالحين، ويتعهّدهم بعد ذلك بأدب الإسلام في كل وقت وحين.

إنّ للمسجد أهمية كبيرة في الإسلام وعند المسلمين، فهو مركز توجيه فكري وروحي للأمّة الإسلامية، ومكان اجتماع في كل أمر يهمّ جماعة المسلمين.

ونظرًا لهذه الأهمّية والمكانة التي أولاها الإسلام للمسجد، كان أوّل عمل اهتمّ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمّا قدم المدينة هو بناء المسجد وتأسيسه، وكان هو الذي يؤم المسلمين في الصلاة ويخطب فيهم الجمعة والعيدين وغيرهما من المناسبات الإسلامية. ومازال المسجد يحتفظ بالصّدارة حتى تخلّى عن تولي الإمامة والخطابة فيه الحكّام والأمراء، وأسندوا ذلك إلى من يستطيع القول ولا يستطيع الفعل، بل قد لا يستطيع حتى القول الصّحيح الصّريح فقلّت أهميته في قيادة الأمّة، وضعف تأثيره في أبناء المسجد.

فالمسجد كمؤسّسة تلتقي فيها جميع الشرائح الاجتماعية، ويسعى المجتمع من خلاله إلى استثمار فرص التلاقي بين المسلمين في أوقات أداء العبادات وتوجيههم الوجهة المطلوبة التي تتلاءم مع روح الشريعة ومع متطلبات نظام الحياة المجتمعية، والعمل من خلال هذا التوجيه على رصّ صفوفهم في إطار وحدة العقيدة، وسمو الشعور الديني، ليبقوا على صلة دائمة بخالقهم، وبقيم دينهم، وليمارسوا في نطاق الشعور بهذه الصّلة مراجعة مواقفهم وتصحيح مفاهيمهم وإصلاح أحوالهم، وتجديد ثقتهم بهويتهم الإسلامية حرصاً على ترقية سلوكهم الاجتماعي، وجعله منسجما مع ما يرتضيه الشّرع وتزكّيه الإنسانية.

ومن هنا كان إيمان الإبراهيمي بأهمية الدّور الرّيادي الذي يؤدّيه المسجد باعتباره المكان الأنسب الذي يُعنى فيه بالتربية، والتوجيه، والإعداد، فهو منبع الهداية والعلم منذ وجوده، وقد بيّنت لنا نظرة الإبراهيمي لرسالة المسجد، بأنّ له دورًا تربويًا رائدًا ورسالة حضارية، لذا يجب

أن تُصبّ رسالته في الاتّجاه الذي يُحدث أثرًا فكريًا وتربويًا ينشده المجتمع ويتطلّع إليه. لأنّ غاية نشاطه تربية النّاس، وتوجيههم إلى ما يخدم دينهم ودنياهم، ويرقى بهم ويزكّيهم ويبقيهم على توافق وانسجام مع ذواتهم ومع مجتمعهم ومع قيمهم الخالدة التي قامت عليها الحضارة الإسلامية فقال: «إنّ كل ما يؤدّيه المسجد في حكمته الإسلامية. فهو إقامة لدولة القرآن، وتشييد لمدرسة القرآن، ورفع لمنارة القرآن، وكلّ مختلف إلى المسجد مقيم لحقّه وحقّ الله فيها، فهو "خرّيج" مدرسة القرآن، و"خرّيجو" هذه المدرسة هم الذين قوّموا عوج الكون، وعدّلوا ميل الزمان، وكانوا في هذه الدنيا نوراً ورحمة».(1)

ولا يُؤدّي المسجد وظيفته، ويقوم برسالته التي من أجلها تُشاد بيوت الله وتُرفع إلاّ إذا أشاده أهل القرآن ملتزمين نهجه مُنفّذين أوامره، يذودُون عن حماه العوادي، الذين ليس لهم من همّ إلاّ إفساد الدين وإبطال لعباداته وتعطيل لدوره، فما جعل القرآن المساجد لله إلاّ لتكون مصدرًا لهدايته.(2)

ونظرًا لما للإمامة من فضل ومكانة عظيمة في الإسلام باعتبارها إحدى مقوّمات مؤسّسة المسجد وركائزه، فإنّ الإبراهيمي وانطلاقًا من إحساسه بجسامة وعِظم المسؤولية التي تقع على عاتق الإمام فإنّه يرى بأنّه لا يقوم بهذه المهمّة، ولا يضطلع بهذا الدّور إلاّ مَن تتوفّر فيه صفات الإمام الحقّ، فالإمامة في نظره مرتبة عالية وفضيلة ظاهرة لا يستحقّها إلاّ من أهلٌ له، لذلك فهو يقول: «إنّ الإسلام لا يرضى للإمام الذي نصّبه شفيعا للمصلّين، أن ينقلب فيصبح "متشفّعا" لنيل الإمامة بمن لا يدين بالإسلام، بل بمن يهين الإسلام. على أنّ الشرائط التي يذكرها الفقهاء في الإمام كلّها حجّة على هؤلاء الأئمة بألفاظها ومعانيها وحقائقها ومراميها».(3)

فالتبليغ وظيفة من وظائف الأئمة والعلماء بعد الأنبياء، فالإمام معلّمٌ ومربٍ ومرشدٌ ومصلحٌ وغاية التبليغ هي أن يتحقّق التجديد والتغيير المنشود، والتحوّل المرتقب، ويرتقي الوعي الفردي والجماعي لدى الأمّة.

فالمنتظر من الإمام في نظر الإبراهيمي والمطلوب منه أن يكون في مستوى هذه المكانة العظيمة والمنزلة العالية، لأنّ الإمام الأوّل للمسلمين هو الرّسول القدوة والحاكم العادل، والمعلّم المربّـــي

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 204

(2)- المصدر نفسه، ص: 204

(3)- المصدر نفسه، ص: 202

«لأنّ إمامة الصلاة استخلاف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنّ مكانتها من الدين هي مكانة الصلاة نفسها، فإذا هانت في نظركم إلى هذه الدّرجة فقد أهنتم الدين، ومن أهان الدين فهو غير حقيق بالانتساب إليه....».(1)

ولكي تمارس مؤسّسة المسجد مهامها ووظائفها على أكمل وجه يجب أن تعتمد على منهجية فعّالة في مجال التبليغ، ولاسيما في تناول قضايا اجتماعية وسياسية وتربوية في علاقاتها بالدين والحياة والتي تحتاج إلى تحيينها وتحليل مضامينها وتوضيح إشكالاتها.

إنّ هذه المنهجية تفرض نفسها عند مخاطبة الجماهير، ولعلّ أهم أساس تبنى عليه هذه المنهجية التي تسهم في تحقيق رسالة -مؤسّسة المسجد- في نظر الإبراهيمي هو فنّ التبليغ: وهو الذي يشكّل الأداة المُثلى والوسيلة المؤثرة والقادرة على تحقيق التأثير والتجديد المنشود، وهو فنّ من فنون الخطاب، وأداة من أدوات الإيصال التي لا يستغني عنها، وأسلوب من أساليب التأثير وإعادة صياغة الواقع بما يتلاءم مع الحاجات المتجدّدة والتطلّعات المشروعة.

فالتبليغ في أساسه من أهم وظائف العلماء والمرشدين والخطباء والمهمّة التي تحمّلوها تستوجب منهم الاضطلاع بأعبـــاء الإصلاح والعلاج والتوجيه، والطريق إلى ذلك يكمن فيما يقدّموه من رؤى وحلول لمشكلات المجتمع.

وقد أشار الإبراهيمي إلى هذه الأدوات والوسائل في معرض حديثه عن إنجازات جمعية العلماء ومفاخرها حيث يقول: «وأنتجت لنا هذه الدراسة شعراء نفاخر بهم وكتّابا وخطباء، وأصبح الشّعر والكتابة والخطابة أدوات تقدّم، ووسائل حياة لهذه الأمّة»(2)

وطرق الإرشاد والتبليغ كثيرة ولكن نحتزئ بمشهورها، ونقول أنّ أشهر طُرقه -الخطابة والدرس والكتابة، والأسوة الصّالحة والخِطابة هي ركن الإصلاح الركين.(3)

1-الخطابـــة: فهي أشـــدّ هذه الطرق أثراً في النفوس إذا كانت صادرة من قلوب مخلصة، طاهرة طيّبة، وكان الواعظ مراعيًا مقتضيات الحال. ولذلك حرص الإبراهيمي في أكثر ما من مرّة من توجيه الخطباء إلى أن يكونوا صادقين مع أنفسهم أثناء دعوتهم لغيرهم، وأن يخاطبوا النّاس بما يفهمون، لا بما يعلو على الأذهـــان ولا يفهمه إلاّ العلماء، ومخاطبة العقل والوجدان

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 157

(2)- المصدر نفسه، ج1/ 73

(3)- المصدر نفسه، ج1/ 85

والرّوح بالأسلوب الذي ينفُذ إلى عمق الإنسان، والسعي إلى تأكيد هذا الخطاب بالمعاني القرآنية وبالسّنة النبوية لأنّها الضّمان لإحداث هزّة نفسية لدى السّامع، يُعيدان له صوابه إن كان ضالاّ، واتّزانه إن كان حائراً، ويُزيلان عنه الغشاوة إن كان لا يرى ما يجب أن يراه.

فالخطاب في نظر الإبراهيمي فنّ من فنون الوعظ والإرشاد ووسيلة من وسائل التأثير في السّامع والتأثير الإيجابي هو الذي يستهدفه الخطيب وإلاّ فقدت الخطبة والموعظة قيمتها، وكذلك بالنسبة للدّرس الوعظي، لذلك فهو ينصح الوعّاظ قائلا: «فعلى المشايخ الواعظين أن يتّعظوا في أنفسهم قبل أن يعظوا غيرهم، فإنّ الوعظ إذا لم ينفع صاحبه لم ينفع النّاس، ومن لم يكن متأثّراً بقوله، لم يكن مؤثراً به في الناس».(1)

كما أنّ التأثير في السّامعين في نظر الإبراهيمي ليس ميسّرًا للجميع ما لم يلتزم الواعظ بقواعد التبليغ، وأن يضمن لكلامه التأثير المطلوب، وأن يتوخّى تأكيد الحقائق العلمية وتبسيطها للسّامعين، وفي هذا ينصح الإبراهيمي قائلاً: «عليهم أن يقوموا بما انتدبناهم فيه خير قيام، وأن يؤدّوا حقّ الله عليهم في النّصح والتذكير، وأن يعتمدوا في تذكيرهم على صرائح الآيات القرآنية وما صحّ من حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأن يضربوا الأمثال بسيرته وسيرة أصحابه رضي الله عنهم، وأن يجلو حدود القدوة في ذلك كلّه، وأن يقرّبوا المعاني من أذهان العامة فإنّ ذلك وسيلة إلى تحبيب العلم إلى نفوسهم زيادة على تشريكهم في الخير وتقريبهم من الهداية. وعليهم أن يجاوزوا ما لا يعلمون من دقائق الوعظ الخفية إلى ما يعلمون من حقائقه الواضحة فإنّ كلامهم في الدين....».(2)

كما حرص الإبراهيمي على إثبات البعد الاجتماعي وضرورة تناول القضايا الاجتماعية ومدى تأثير ذلك على واقع الناس المعيش، وهو يرى أنّ الخطيب الذي يتناول موضوعات بعيدة عن اهتمامات النّاس ولا علاقة لهم بها لا يستطيع أن ينفُذَ إلى أعماق المُستمعين، ومن ثمّ لا تأثير لكلامه ودروسه أدنى الأثر، لأنّ التبليغ عملية تربوية واجتماعية تستهدف تربية المجتمع، وتُحدث التغيير المنشود في تفكيرهم وسلوكهم وأخلاقهم، وفي هذا يقول: «وعليهم أن يُوجّهوا عنايتهم إلى علاج الأمراض المتأصّلة في الأمّة، ومحاربة المنكرات الفاشية فيها.... كانتهاك الحرمـــات والاستخفاف بالحرمات، والجبن والخوف من غير الله. وعليهم أن يجتنبوا

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 315

(2)- المصدر نفسه، ص: 316

الحديث في مثارات الفتن، وفي البدع التي فرغت جمعية العلماء منها، فقد ضعف شأنها وفي إعادة الحديث عليها تقوية لها وإحياء فهذه عهود أتقدّم بها إلى نفسي وإلى إخواني وأبنائي المشائخ الوعّاظ»(1)

وفي إطار النّصح والإرشاد، لم يفوّت الإبراهيمي الفرصة في توجيه ملاحظاته للسّامعين لحسن الإصغاء وحسن الفهم، وبتحريك الوعي لديهم بما يرفع مستواهم التربوي والفكري، ويوجّههم الوجهة الحسنة لجعلهم أعضاء نافعين في مجتمعهم واعين بمالهم وما عليهم، فقال: «وعلى السّامعين أن يكون هَمُّهم من حضور مجالس الوعظ نصيحةً تزكّي النّفس، أو فائدةً علمية تكملّها، لا قطع الوقت "وتقصير الليل". وأن يقبلوا على هذه المجالس بآذان مصغية، وقلوب واعية، ونيات خالصة، ومقاصد صالحة، فبذلك ينفعهم الله بما يسمعون».(2)

ولعلّ في توجه الإبراهيمي نحو الإصلاح الديني له من الأسباب ما يبرّره، خصوصًا في ظل الانحراف الذي عمّ أغلب مناحي الحياة كلّها، العقائدية والأخلاقية والفكرية، والذي كانت له تداعيات وآثار سلبية على العلم وعلى الإقبال عليه.(3) ولذلك تركّزت اهتماماته في استغلال كلّ الفرص لتكليف إطارات الجمعية وإرسالهم في خرجات دعوية لتصحيح المفاهيم المغلوطة وتوضيح الحقائق الدينية والأخلاقية التي ينبغي أن يفهمها النّاس ويُطبقوها في حياتهم، حتى لا يتصوروا أنّ الدين مجرّد صلاة وصيام وتردّد على المساجد في بعض المناسبات فقط.

كما عدّ الإبراهيمي أنّ نجاح الأمم مرهونٌ بمدى تفعيل عنصري التمثيل والخطابة في واقع النّاس وحياتهم اليومية، لأنّهما في نظره حجر الزّاوية في بناء أي إصلاح وقيام أيّ نهضة، فقال: «التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان، وأخوان شقيقان. وأنّ منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لا رفع منزلة وأنّ مكانتهما من بين مقوّمات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقوّمات الجسدية. وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلاّ وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأوّلي.... فإنّما الخطيب والممثّل شيء واحد».(4)

فوسائل التبليغ والإيصال عند الإبراهيمي، فإنّها وإن كانت تختلف في الاسم، فإنّها تتّفق في المسمّى، ويجمع بينهم اشتراكهم في تحقيق القصد وبلوغ الهدف، فالممثّل خطيب إذا أحسن تصوير

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 316

(2)- المصدر نفسه، ص: 317

(3)- المصدر نفسه، ج1/ 69

(4)- المصدر نفسه، ج1/ 32

المغزى، وعمل على تبيان الحقائق للمشاهدين بعرضه الجيّد وأُفقه الواسع وخياله السّاحر الجذّاب والخطيب ممثّل إذا أحسن العرض وأوصل الفكرة واستجلى العبر، وملك على النّاس عقولهم وقلوبهم كالفنّان النّاجح.(1)

هكذا ينبغي أن تكون توجيهات الخطاب في مضمونه وأهدافه، دعوة إلى الاستقامة في السّلوك الظّاهري والباطني مع كلّ النّاس حتّى مع المخالفين في العقيدة. وإلى إعمال العقل في معالجة الأمور الدينية والدنيوية والاستفادة من التطوّر العلمي والحضاري الذي يغمر الحياة من حولنا.

2- التعليم المسجدي: فنسبة التعليم والخطاب إلى المسجد الذي هو منبع ومصدر العلم والهداية منذ وجوده تعني أنّ للمسجد دورا تربويًا ورسالة حضارية، ومحور نشاطه العلمي والديني والأخلاقي. لذا يجب أن يُصبّ التعليم المسجدي في هذا الاتجاه ليحدث الأثر الفكري والتربوي الذي يرجوه المجتمع ويتطلّع إليه الرّأي العام، لأنّ غاية نشاطه تربية النّاس وتوجيههم إلى ما يخدم دينهم ودنياهم ويزكّي نفوسهم ويرقّي حياتهم.

هذه القيم التي يجب أن تكون محور الخطاب المسجدي والتي لا ينبغي أن تنحصر في التذكير بأحكام العبادات، وتُعنى بما يجوز وما لا يجوز من الأحكام، لأنّ ما تنتظره الأمّة من رسالة المسجد ومن الخطاب الذي يمارسه العاملون في هذا الميدان هو أشمل من ذلك وأعمق، وإلى أهميته ولزوميته يشير الإبراهيمي إليه في قوله: «وهذا التعليم ضروري للأمّة الإسلامية في حياتها الدينية لأنّها مفتقرة دائما إلى من يفتيها في النّوازل اليومية، ويبيّن لها أحكام الحلال والحرام، وما بقي الإسلام محفوظا إلاّ بهذا النوع من التعليم الذي من أصوله تفسير القرآن والحديث النبوي».(2)

ثانيا: مؤسّسة التربية والتعليم:

إنّ مؤسسة التربية والتعليم آلية من الآليات التي ركّز عليها الإبراهيمي لإعداد جيل الأمّة المنشود، ولأنّ مهمّة عالم الدين دينية تربوية تعليمية وسياسية، تحرّك الإبراهيمي وواصل نشاطه ضمن هذا المفهوم غير مُبالٍ بتهديد فرنسا ولا بوعيدها وقد صرّح منذ الوهلة الأولى بما يلي: «أمّا نحن فقد كنّا علماء دين، ودعاة علم وتربية، وزرّاع خير ورحمة، ولكنّ الحكومة تعدّ هذا كلّه سياسة وتعتبرنا لأجله سياسيين فليكن ذلك، ولنكن علماء وسياسيين، ولنكن كلّ

(1)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 32

(2)- المصدر نفسه، ج3/ 23

شيء ينفع أمّتنا ويحمي ديننا ولغتنا».(1)

وبما أنّ الإصلاح العلمي هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثيرة التي أولتها جمعية العلماء برئاسة الإبراهيمي فضل اهتمام واعتناء، وإدراكًا منه بخطورة الجهل وتداعياته على واقع النّاس، والذي يتهدّد كيان الأمة، وبدأ فعلاً ينخرُ كيانها، فإنّ الإبراهيمي سعى بكلّ ما يملك من مؤهلات علمية وتربوية واستعدادات فكرية وخبرة واسعة في حقل العلم والمعرفة، من وضع برنامج خاص للصّغار. ونظّم دروس الوعظ والإرشاد للكبار، وأعدّ محاضرات في مختلف العلوم، وعمل على إصلاح أساليب التعليم والتربية، كلّ ذلك لأجل إصلاح الفرد، وتجديد الذّات عنده وتوسيع مداركه، لأنّ الحركة الإصلاحية لن تنجح في مساعيها، ما لم تُبنَ مدرسة عربية، لأنّها هي «السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة وإلى توثيق عرى الأخوّة بين أفراده، وإلى توحيد أفكـــاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة، وتسديد نظرته إليها وتشديد عزيمته في طلبها».(2)

فالمدرسة العربية كمؤسّسة تربوية تعليمية تُعتبر في نظر الإبراهيمي الوسط أو الرّحم الملائم لتوليد أجيال متشبّعة بمبادئ الإسلام والعرب، ففيها يُصقل الفكر والعقل واللسان، وعليها يتوقّف خير البلاد والعباد، وبفضلها تستقيم الأوضاع وتعرف الأمّة النّور الذي به تسعد وتفوز.(3)

لقد أدرك الإبراهيمي أنّ للتربية والتعليم أهدافًا وغايات أساسية، تشكّل النواة لبناء الفرد والمجتمع، وقد عبّر عن ذلك في غير ما موضع فقال: «الغاية من هذه المدرسة هي تربية هذا الجيل وتعليمه. وغاية الغايات من التربية هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة.... فإذا تمّ ذلك وانتهى إلى مداه طمعنا أن تخرج لنا المدرسة جيلاً متلائم الأذواق، متّحد المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة كما هي نظرة واحدة ويسعى في طلبها بإرادة متّحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوّة واحدة، في اتجاه واحد».(4)

فالغاية من التعليم في نظر الإبراهيمي، تتركّز في تفقيه الجيل الناشئ في دينه ولغته وفي تعريفه بنفسه وبمعرفة تاريخه.

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 275

(2)- المصدر نفسه، ص: 302

(3)- المصدر نفسه، ص: 302

(4)- المصدر نفسه، ص: 303

كما تنبّه الإبراهيمي إلى أهمية ربط مؤسّسة التربية والتعليم بمؤسّسات المجتمع الأخرى في إطار تواصل تربوي ومعرفي هادف. فالمدرسة في نظره لن تؤدّي وظيفتها بمعزل عن باقي المؤسّسات فللمحيط أثره ودوره في الفرد والمجتمع، لذلك فالرّعاية الصّالحة في البيت والمدرسة لهما تأثيرهما المباشر في تكوين شخصية الطفل إيجابًا أو سلبًا، فهذه الصلة بين البيت والمدرسة هي بمثابة الرّوح للجسد.

فالأسرة في نظر الإبراهيمي هي الحُضن الأول في التربية، إذْ يولد فيها الطفل وينشأ ويتعلّم وفي أجوائها ومحيطها ينمو ويشبّ.

ويبرز بشكل واضح اهتمام الإبراهيمي بهذه العلاقة وهذا التواصل بين المدرسة والبيت، وفي مدى تفاعل الحُضنين بعضهما ببعض في صورة العلاقة التكاملية بينهما حيث يقول: «إنّ البيت عند الأمم الحية هي أخت المدرسة كلتاهما مُكمّلة للأخرى، فالتلميذ بينهما يتقلّب بين عاملين من عوامل التثقيف والتهذيب».(1)

أمّا إذا غاب الدّور التكاملي بين المؤسّستين وانعدم فإنّ النتيجة الحتمية هي تكريسٌ للفُرقة وتبديدٌ للجُهد، وما تبنيه هذه تهدمُه تلك، وما تُرسي قواعده هذه تُحطّمه تلك، وهكذا بناء وهدم.(2)

وبما أنّ المدرسة هي طريق الحياة وطريق الخلاص والنجاة وطريق السعادة، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بها نجد الإبراهيمي في طليعة المهتمين بهذه المؤسّسة التربوية الفاعلة، بما تُقدّمه من إسهامات فكرية وتربوية ومادية، وبما توفر لديه من إمكانات وتوجيهات وإرشادات لإحساسه بالدّور الذي تقوم به المدرسة، وفي مقدّمتها وقاية أبناء الأمّة من الانحلال الديني والانهيار الأخلاقي.(3)

وإذا كان هذا حال الناشئة، فإنّ المسؤولية تتعاظم في حقّ المدرّسين والمربّين لأنّ الأمر يتطلّب منهم أن يكونوا القُدوة الحسنة والمثال الصالح. فالمُربّي هو الشخص المثالي الذي يتأثّر به التلميذ ويقتدي به ويأخذ عنه كلّ كبيرة وصغيرة، ولذلك فهو المسؤول عمّا يُلقّنه من علوم ومعارف وسلوك لأبناء الأمّة، لأنّهم في رَأي الإبراهيمي أمانة يجب القيام بها على أحسن حال، وأكمل وجه مُحذّرًا في الوقت نفسه من مغبّة التفريط في حقّهم والتهـــاون معهم حيث يقول: «إنّهم

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 163

(2)- المصدر نفسه، ج3/ 163

(3)- المصدر نفسه، ج3/ 337

أمانة الله عندكم، وودائع الأُمّة بين أيديكم، سلّمتهم إليكم أطفالاً، لتردوهم إليها رجالاً، وقدّمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الرّوح، وألفاظًا لتعمُروها بالمعاني، وأوعية لتملأوها بالفضيلة والمعرفة. إنّكم رعاة وإنّكم مسؤولون عن رعيتكم. وإنّكم بُناة، وأنّ الباني مسؤول عمّا يقع في البناء من زيغ أو انحراف».(1)

فهو يهيبُ بالمدرّسين ليقوموا بدورهم التربوي، وأن يضطلعوا بمسؤولياتهم الجسيمة، وأن يكونوا في مستوى هذه المهمّة النبيلة علمًا وخُلقًا وأدبًا، وأن يكونوا في مستوى آمال وتطلّعات الأمّة، وأن يكونوا قدوة لتلاميذهم، لأنّ النّاشئة يتطلّعون إلى الاقتداء والتأسي بمعلّميهم، ويترعون إليهم في كلّ شيء، والتلميذ مفطور على التعلّق وحبّ معلّمه، لذلك نجد الإبراهيمي يحرص في تأكيده على أنّ رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عن معلّمه من أخلاق صالحة بالقدوة(2) وعليه ينبغي أن يُدرك المعلّم أهمية هذا التأثّر والتأثير، وإلاّ ضاع الجهد وتبدّدت الآمال.

لقد أدرك أهمية هذا الدّور وأيقن أنّ التربية والتّعليم كانت وستظلّ الوسيلة النّاجحة في تكوين جيل النّصر المنشود، ولتحقيق هذه الغاية، ما ترك فرصة إلاّ ونبّه على أهمّيتها وفاعليتها وقام بعملية التعبئة، وكلّه عزم على إنجاح هذا الأمل وتحقيق هذه الغاية، فقال في هذا الصّدد «وكأنّما تلاقت كلماتنا الواعظة وآذان الأمة الواعية، في غمرة من غمرات التأثّر والانفعال، والامتعاض للحال، والتشاؤم من المآل، فكان أثر تلك الهبّة التي وضعت حجر الأساس لهذه النهضة، وأنتجت عدّة مدارس في نواحي القطر المتفرّقة، ثمّ تضاعفت الهبّة من آثار الحرب المتناقضة في النفوس، فاشتدّ الإقبال على إنشاء المدارس».(3)

كانت هذه الوثبة نحو تشييد المدارس ثمرة جهود طويلة وعمل متواصل، قام به العلماء متكاتفين برئاسة الإبراهيمي الذي أسهم بفكره وجهده من خلال محاضرته ودروسه وتوجيهاته المتواصلة التي لقيت في نفوس أبناء الأمّة تجاوبًا كبيرًا، فحرّك فيهم مكامن الخير والبذل، فكان التنافس قصد إنشاء المدارس بأموالهم وسواعد رجالهم من غير منّة من أحد.

1- تفعيل حركة بناء المدارس: شهدت عملية بناء المدارس حركية نشطة وإقبالا عريضًا في ربوع الجزائر، حيث بلغ عدد المدارس التي شيّدها الأمّة بِحُرّ مالها حتى سنـــة 23/أوت/1948م

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 161

(2)- المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 291

(3)- المصدر نفسه، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 337

مائة وثلاثين مدرسة عربية ابتدائية مجهّزة بكل الأسباب المادية العصرية اللاّزمة للمدارس.

وشرعت الأمّة في سنة 1948م في تشييد سبعة وثلاثين مدرسة أخرى تضمُّ ستة عشر قسما.(1) وهذه المدارس مُزودة بكفاءات علمية قوامها مائتان وخمسون مُعلِّماَ من بينهم عشرات من النوابغ في التعليم والإدارة، ويتمدرس بها زُهاء -ثلاثين ألف- تلميذ يتلقّون مبادئ الدّين الصّحيح عقيدة وأعمالاً، ومبادئ العربية الفصيحة نُطقاً وكتابة وإنشاء، ويتربّون على الرّوح الوطنية والهداية الإسلامية والآداب العربية.(2)

وإيماناً من الإبراهيمي بأهمية الدّور الذي تلعبه المُؤسّسة التربوية، فإنّه لم يدخّر جهداً في تفعيل وتنشيط حركة بناء المدارس، بالرّغم من الإجراءات التعسّفية والصعوبات المادية، والعراقيل الإدارية التي كانت وراء تعطيل العديد من المدارس على مستوى جميع مناحي القطر، ومع هذا فإنّه وبإسقاط المُعطّل منها إداريـــاً تكون المدارس الابتدائية المشيّدة حتى سنة 15/أكتوبر/1951 -مائة وخمساً وعشرين- مدرسة تشتمل على أكثر من ثلاثمائة فصلاً يتعلّم فيها زهاء -أربعين ألف- تلميذ أو يجاوزون(3) ويُؤطرهم عدد من المعلّمين قوامه -مائتان وخمسة وسبعون- معلّماً بضعة منهم طالتة يد الاستعمار، وزُجّ بهم في السجن، ومُنع آخرون من التدريس، وكان عدد الموقوفين عن العمل -سبعاً وعشرين- معلّماً.(4)

- وفي جانفي من سنة 1953م نشطت حركة تأسيس المدارس وفُعِّلت إرادة أبناء الأمّة صوب التنافس والإقبال على البناء والتشييد وبذل المال، حتى بلغت -مائة وبضعة وأربعين- مدرسة وبلغ مجموع تلامذتها الابتدائيين من نفس السنة نحو -خمسين ألف- تلميذ من بنين وبنات، يؤطرهم خريجو مدارس جمعية العلمـــاء الذين يبلغ قوامهـــم -أربعمائة- مُعلِّم من مجمـــوع -الخمسين ألف- متخرج.(5)

أمّا في سنة 1955م، وبعد عام من اندلاع ثورة التحرير -أوّل نوفمبر 1954م- كانت الإحصائيات تشيـــر إلى أنّ عدد المدارس الحـــرّة التي أنشأتها جمعيـــة العلماء المسلمين ما يناهز

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 113

(2)- المصدر نفسه، ج3/ 113

(3)- المصدر نفسه، ج3/ 339

(4)- المصدر نفسه، ج3/ 340

(5)- المصدر نفسه، ج4/ 245

-الأربعمائة- مدرسة. وبلغ عدد التلاميذ المُتمدرسين فيها قرابة -خمسة وسبعين ألفاً- من البنين والبنات.(1)

فهذا الاهتمام بتشييد المدارس، وهذا الإعداد الذي قامت به جمعية العلماء في الجزائر يعكس حاجة الأمّة إلى التربية والتعليم ودورها في صياغة الشخصية الأصلية، الشخصية المتكاملة التي لا تشكو من نقص في أي جانب من جوانبها، فكان من جملة الوسائل لتحقيق ذلك التربية والتعليم. ولذلك لا يرى الإبراهيمي أي سبيل للنهوض بدون علم ولا أمل في أمّة تتخبّط في وسط جاهل، فالحياة في نظره بالعلم، والمدرسة منبع العلم، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة.

2- معهد الإمام عبد الحميد بن باديس: لقد أدرك الإبراهيمي جسامة المسؤولية المُلقاة على عاتقه وهو يرى جحافلا من التلاميذ تتخرّج بعد استيفاء المرحلة الأولية من التمدرس. لقد كان أمل هؤلاء التلاميذ لمزاولة دراستهم معقوداً على مشائخ وعلماء الجمعية لما يتوفر لديهم من إرادة ورغبة وعزم.

فزاد ذلك في قناعة الإبراهيمي وفي حزمه بالرّغم من الصعوبات المالية على التفكير بروح العقل والمسؤولية، كيف السبيل لتجسيد أمل أبناء الأمّة وتحقيق طموحهم وهو يشاهد العديد منهم بين نارين، نار الاكتفاء بما تحقّق لهم من تحصيل علمي على أيدي أبرز روّاد الجمعية وعلمائها وبين الارتحال إلى خارج الوطن لمن تيسّر له الحال لمواصلة التعليم.

هذه الوضعية أرّقت الإبراهيمي كثيرا في ظلّ ضائقة مالية حادّة، ولكن مع إرادة التحدّي وكثرة الطلب والإلحاح انفرجت الأزمة وتجاوبت الأمّة فتحقّق دعمها بالمال فكان لأبناء الأمّة من التلاميذ ما أرادوا، وفي بيان ذلك يقول: «ولمّا بلغ عدد المتخرّجين من مدارسنا بالشهادة الابتدائية عشرات الآلاف، وجدتُ نفسي أمام معضلة يتعسّر حلّها، ذلك أن حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيد، وأرهقوني من أمري عسرا، وألـــحّوا عليّ أن أتقدم بهم خطوة إلى الأمام.... فكان واجبا عليّ أن أخطو بهم إلى التعليم الثانوي، فأهبت بالأمة أن تعينـــني بقوة أبلغ بها غرض أبنائها، فاستجابت فكان ذلك مشجّعا على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة نسبناه إلى إمام النهضة ابن باديس».(2)

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 279

(2)- الإبراهيمي، "أنا" مجلة الثقافة، عدد: 87، ص: 29

وقد اعتبر الإبراهيمي إنشاء هذا المعهد بعض الواجب على الأمّة، ولا تبرأ ذمّتها إزاء أبنائها ما لم تستمر في إنشاء معهد ثان في تلمسان، وآخر في العاصمة الجزائرية، وقد وُضِعَ برنامج لتحقيق المشروع وتجسيده لكن حالت دونه عقبة المال.(1)

وقد هيّأ الإبراهيمي المعهد الباديسي وأطّره بأساتذة أكفاء يشرفون على تكوين الطّلبة وتأطيرهم مزوّدين سلفا بمؤهلات علمية وشرعية، فكان التعليم فيه بالمعنى الكامل للكلمة، بحيث أصبح يضاهي باقي المؤسّسات العلمية العالمية من حيث برامجه وكتبه وأدواته، فكان هذا المعهد تتويجًا لمدارس الجمعية وتاجًا لها وغرّة في أعمالها.

أمّا عدد الطلبة الذين التحقوا بصفوف المعهد في السّنة الأولى يزيد عن ألف طالب تمّ اختيارهم من المدارس الابتدائية المنتشرة عبر ربوع الوطن(2)، وحرص الإبراهيمي على أن يتولّى الإشراف على تسيير شؤون المعهد ثلاث هيئات:

أ- الهيئة العلمية: تتألّف من المشائخ المدرّسين، ووظيفتها وضع البرنامج وتنفيذه واختيار الكتب وامتحان التلاميذ، وتوزيعهم على السّنوات حسب الأهلية والاستحقاق.

ب- الهيئة المالية: فتقوم بجمع المال وضبطه وصرفه في مصالح المعهد.

ج- هيئة المراقبة: تقوم بتسجيل أسماء التلاميذ، ومراقبتهم خارج المعهد مراقبة دقيقة وملاحظة سلوكهم من استقامة واعوجاج، والتدخّل في وقت الخلاف لفضّ النّزاع.

ويرأس الهيئات الثلاثة مدير عام يعمل تحت وصاية المجلس الإداري الأعلى الذي ترجع إليه كلمة الحسم بين جميع الهيئات أو بين أفرد الهيئة الواحدة.(3)

وتعمل كل هيئة وفق برنامج محدّد بما يتلاءم مع طبيعتها واختصاصها لتنظيم شؤون وإدارة المعهد على أحسن حال.

أمّا عن مدّة الدّراسة بالمعهد فهي موزّعة على أربع سنوات يتحصّل الطالب المتفوّق فيها على شهادة تضاهي مثيلاتها في جامع الزيتونة، تمكّنه من مزاولة الدّراسة في جامع الزيتونة إن توفّرت عنده الرّغبة.

ويتطلّع المعهد على الانفتاح على باقي العلوم التجريبية، كعلم الرياضيات، وعلم الطبيعيات

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 25

(2)- الإبراهيمي، "أنا" مجلة الثقافة، عدد: 87، ص: 30

(3)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 27

والجغرافيا والتاريخ وحفظ الصّحة وأصول الأشياء يتولّى تدريسها أساتذة أكفاء من أصحاب الاختصاص، كما وضعت إدارة المعهد نظامًا مضبوطًا يخضع له جميع التلاميذ المرشّحين لانتقاء من تتوفّر فيهم مواصفات وشروط الالتحاق بالمعهد(1) الذي عدّه الإبراهيمي إحدى قلاع العلم والتربية، ويسجّل التاريخ ويكتب عن ميلاده بأنّه ميلاد نهضة وفجر انقلاب وبدء تجديد.(2)

3- دار الطلبة: لضمان التعليم ونجاحه، ولكي يؤتي ثماره ويحقّق الغاية المرجوّة منه، كان لزامًا على جمعية العلماء، أن تعالج أزمة الإيواء وتجد حلاً للطّلبة الوافدين على المعهد بأن توفّر لهم إقامة طيّبة في ظروف لائقة. وبالرغم من الإمكانات المادية المحدودة «أقدمت على شراء دار واسعة ذات ثلاث طبقات تسع لإسكان خمسمائة تلميذ، واقعة في مكان يجمع بين الجمال والصّحة، ويأخذ حظّه من الشمس والهواء من ثلاث جهات».(3)

فالإبراهيمي إذ يشير إلى أهمية الدّار لما تتوفّر عليه من أسباب الرّاحة والاستقرار للطلبة، فإنّه لم يُغفل الجانب المهمّ الذي تُقدّمه الدّار، والذي يحسّ فيه الطالب بالرّاحة والاستقرار فضلاً على الدّور التربوي والاجتماعي وموقعها المؤثّر في نفوسهم، كما اعتبر الإبراهيمي أنّ إشادة هذه الدّار، هو بناء لأجيال كاملة، وإقامة للدين وترسيم لنهضة، كما أدرك بما توفّر لديه من نبوغ وحكمة العلاقة التي تربط هذه الدّار بالمؤسّسات التربوية الأخرى "المعهد والمدارس"، فهي الكفيلة برعاية أبناء الأمة وتحصينهم من الآفات الاجتماعية والفساد الخلقي، ولذلك فهو يناشد أبناء الأمّة طالبًا منهم أن يفخروا بهذا الإنجاز، وأن يعتزّوا بهذا المكسب في قوله «افخروا أيها الإخوان الشاهدون ما شئتم بهذه الديار:فقد بنيتم بأيديكم وبمالكم ولوطنكم، ودينكم ولغتكم، ولأبنائكم.... افخروا فقد حُزتم الفخار من أطرافه إنّكم لم تبنوا دارا، وإنّما بنيتم أجيالا، وأقمتم دينًا، وكتبتم تاريخا وتبّتم نهضة، ولا منّة عليكم إلاّ الله».(4)

والإبراهيمي وهو يُركّز على أهمية هذا الإنجاز، فإنّه يبرز مكانة الدّار وأهميّتها وموقعها في النهضة، وبرأيه النهضات هي بناء وتعمير، وأنّ أيّة أمة عرفت ما عليها من واجب، جدير بأن

---

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 29

(2)- المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 277

(3)- المصدر نفسه، ج3/ 358، ج4/ 248

(4)- المصدر نفسه، ج4/ 101

تعيش وتستحق الحياة. وهو بهذا الانجاز يعلّق آمالاً كبيرة على التلاميذ ليحذوا حذو العلماء وليجعلوا حمد الله على هذه النعمة، ولتكون حافزهم نحو التحصيل العلمي والتأسيس الشرعي خدمة لدين الأمّة، ورفعة لعقائدها وأحكامها وفضائلها ولغتها، ونصرة للعهد الذي قطعته الجمعية على نفسها.(1)

4- **إنشاء مكتبة للمعهد ومشروع مطبعة كاملة:** لقد كان اهتمام الإبراهيمي متوجهًا أساسًا إلى تقويم نفوس الطلبة وتهذيب سلوكهم، وتنوير عقولهم، التي تتخبّط في ظلامٍ دامسٍ وذلك بتذكيرهم بالمسؤولية الملقاة عليهم، ولا يتوقف عند إيضاح وبيان مالهم وما عليهم، بل ما فتئ يُقدّم لهم المبادئ التربوية، ويرشدهم إلى الوسائل التعليمية، التي يحصل بها العلم وتُرسّخ بها المعرفة، ومن ذلك حرصه على أن يستزيد الطلبة من تحصيل العلم بالبحث والمطالعة وأخذه من أفواه العلماء وبطون الكتب، ولأهمية هذا الأمر، فهو يرشدهم في قوله: «إنّكم لا تضطلعون بهذه الواجبات إلاّ إذا انقطعتم لطلب العلم وتبتّلتم إليه تبتيلا، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله، وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال، وبطون الكتب، واستثرتم كنوزه بالبحث والمطالعة وكثرة المناظرة والمراجعة ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النّهار».(2)

وحرصًا منه على تجسيد هذه التوجيهات في الميدان، بادر إلى تزويد المعهد بمكتبة ثرية يجد فيها الطلبة والأساتذة المراجع العلمية التي تلبّي حاجتهم، وتُهيّئ للباحثين مراجعًا للبحث بالرّغم من كلّ الصعوبات المادية التي تقف أمام تحقيق كلّ هدف وغاية.

وفي هذا الصّدد تجلّت مساعي الإبراهيمي الحثيثة في تقديمه للمذكّرة الإيضاحية لوزارة المعارف المصرية، ولمشيخة الأزهر الشريف، وللأمانة العلمية لجامعة الدول العربية، في جانفي من سنة [1953م] ومفادها «إنجاز مكتبة جديدة حافلة في المعهد تهيئ للباحثين مراجع البحث وتعوّض ما أتلفته يد الاستعمار من كتبنا ومكتباتنا، وقد زوّدها سموّ -الأمير سعود- وليّ عهد المملكة العربية السعودية.... بألف مجلد».(3)

كما طلب من أحد تلامذته المقرّبين-بدمشق- الإشراف على تزويد المكتبة وإثرائها بكتب مطبوعة عندهم، فقام هذا الأخير بالمهمّة الموكلة إليه، فزوّد المكتبة بكتب مدرسية وأخرى

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 103

(2)- المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 216

(3)- المصدر نفسه، ج4/ 250

أنّها لا تضمّ من بينها مجلات علمية وثقافية، فما كان من الإبراهيمي إلاّ أن أثنى عليه باللاّئمة مُعاتبًا، ومُنبّهًا على أهمية وجود المجلات لأنّ في المجلّة تعبيرًا عن الحركة الأدبية والنّشاط الفكري أكثر من الكتب المترجمة أو المطبوعة لغرض ثقافي معيّن، فما كان من تلميذه إلاّ أن استدرك الأمر وقام بجمع أعداد من مجلّة الثّقافة، والمعلّم العربي، ومجلّة المجمع العلمي العربي.(1)

والإبراهيمي وهو يركّز على أهمية المطالعة، وتحصيل الثقافة اللازمة، فإنّه يوجّه الطّلبة إلى عدم الاكتفاء بالمقرّرات من الكتب، بل يدعو إلى الاعتماد على غيرها من الكتب السّهلة البسيطة في جميع التخصّصات والمعارف العامة(2) بل ويعتبر من العار على الطلبة المتخرّجين من قلاع العلم -كالزيتونة- من لا يستوعب منهم كتاب الأغاني قراءة، ومن لا يستوعب الصحيحين والسنن قراءة وفهمًا، ولذلك فهو يقول: «ولعمري ما سلاح الأديب إلا الأغاني وأمثاله، ولا سلاح الفقيه إلا تلك الكتب وأشباهها»(3) كما تضمّنت توجيهاته التربوية مطالبة الطّلبة بعدم الاعتماد على حفظ المتون وحدها، بل يطالبهم بحفظ كلّ ما يقوّي مادتهم اللغوية، ويُنمّي ثروتهم الفكرية، ويُغذّي ملكتهم البيانية، كما يؤكّد على أهمية تعهّد القرآن العظيم بالحفظ والتّلاوة، وكثرة الاستدلال والاستشهاد به في كل أمورهم اللّغوية والدينية والأخلاقية والاستظهار به أثناء السجالات الكلامية والجدل، وعلى الاعتبار به في النّظر لملكوت السماوات والأرض.(4)

إنّ اهتمام الإبراهيمي كان منصبّا على الارتقاء بالطّلبة إلى مصافّ العلماء، ولذلك تركّزت توجيهاته على الدعوة إلى المطالعة، بل واعتبر أنّ من النقائص عزوف الطلبة، فتحصيل العلم بالتعلّم وكثرة المطالعة، وفي بيان هذا يقول: «الحق أقول أنّ شبابنا المتعلّم كسول عن المطالعة، والمطالعة نصف العلم أو ثلثاه، فأوصيكم يا شباب الخير بإدمان المطالعة والاكباب عليها ولتَكُنْ مطالعتكم بالنّظام حرصًا على الوقت أن يضيع في غير طائل، وإذا كنتم تريدون الكمال فهذه إحدى سبل الكمال».(5)

وأمام هذا الشعور بالدّور الذي يؤديه الكتاب في أيّ وثبة حضارية باعتباره عدّة المصلحين

(1)- جميل صليبا، عن الشيخ الإبراهيمي، مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 56

(2)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 218

(3)- المصدر نفسه، ص: 218

(4)- المصدر نفسه، ص: 217

(5)- المصدر نفسه، ج1/ 82

ووسيلة من وسائل التجديد، فإنّنا لا نجد للإبراهيمي مؤلّفات كثيرة تعكس تجربة نضاله الطويل في حقل العلم والمعرفة، وهو الذي عُرِف عنه أنّه ملك نواصي اللّغة والبيان على حدّ قول جميع الذين عاصروه ومنهم الإمام "محمد الغزالي" الذي قال عنه: «الحقّ أنّ الرجل، رُزق بيانًا ساحرًا وتأنّقًا في العبارة، يذكّرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها».(1) ولكن العذر يُرجعه الإبراهيمي لعدم وجود الوقت للتفرّغ للكتابة، وحسبه في ذلك أنّه ألّف للأمّة رجالاً ومن ثمّ فهو يقول: «لم يتّسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكني أتسلّى بأنّني ألّفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته فأصبح مسلمًا عربيًا، وصحّحت له موازين إدراكه فأصبح إنسانًا أبيًا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرّب ورضى الشعب».(2) ومع هذا فإنّ للإبراهيمي في مجال الكتابة والتأليف ما ضمّن عنوانيه في مقاله المشهور "أنا" الذي تقدّم به بمناسبة تعيينه عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.(3)

كما تولّى إلى جانب إيمانه بأهمية الكتاب ودوره في الإصلاح والتجديد، التفكير في مسعى تحقيق وسيلة للطباعة*، لما لها من أهمية بالغة وفعالية في تحقيق أهداف التجديد، حيث يعلّق نجاح أية نهضة علمية أو أدبية أو فنّية على وجود آلة الطباعة، وفي ذلك يقول: «المطبعة أداة علم، والعلم عمار، ولولا المطبعة ما ارتقى علم ولا فنّ ولا صناعة ولا تجارة ولا عمران، ولولا المطبعة، ما تمّ للنّهضات العقلية والفكرية والفنّية تمام، ولولا المطبعة لما أحيا الخلف مآثر السّلف فوصلوا بها حلقات التاريخ العلمي».(4)

بل اعتبرها ضرورة من ضرورات الحياة، وهو من ذلك يهيب بالأمّة الجزائرية التحرّك للقيام بواجب إنشاء مطبعة كاملة تتلاءم مع منزلة الجريدة في الجهاد، ومنزلة الأمّة في التعاون.(5)

كما كان من أمنياته إنشاء كلية بالمعنى الحقيقي للفظ الكلية(6)، وكان -رحمة الله عليه- يُعلّق

(1)- محمد الغزالي، مع البشير في القاهرة، مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 96

(2)- الإبراهيمي، "أنا" مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 32

(3)- المرجع نفسه، ص: 32

* ذكر د.محسن عبد الحميد في كتابه تجديد الفكر الإسلامي في ص: 97 ما مفاده أنّ جمعية العلماء قامت بإنشاء مطبعة عربية في قسنطينة لطبع الصحف والكتب والمنشورات العربية الإسلامية. وأنا لم أجد سندا لهذا الكلام.

(4)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 131

(5)- المصدر نفسه، ج4/ 133

(5)- المصدر نفسه، ج3/ 57

على ذلك آمالا عريضة، لذلك فقد تحمّل -بعد وفاة- رفيق دربه —عبد الحميد بن باديس- مسؤولية تجسيد هذا الحلم، وكان يتوقّع لهذا الإنجاز إنْ تحقّق نجاحًا عظيمًا، لأنّه سيصبح محطّ آمال طلبة العلم المتخرّجين من المعاهد، الرّاغبين في مزاولة دراستهم العليا، عوضًا من السّفر خارج الوطن لِطلب العلم، لذلك فكّرت «جمعية العلماء منذ سنوات في تكوين جامعة عربية إسلامية بمدينة الجزائر تُبنى الدّراسات العالية فيها على الرّوح الإسلامية الشرقية الصافية، وعلى غايات العلوم الحديثة النافعة، فتكون تكميلاً للجامعين، عونًا لهما في إحياء الثّقافة الإسلامية وحفزا لهما على الإصلاح، وهي تأمل أن لا يبلغ التعليم الثانوي في مدارسها حدّه، حتى تكون الجامعة قد فتحت أبوابها، ولكن المال دائما هو العقبة الكـــأداء»(1).

والإبراهيمي حينما فكّر في إعداد جامعة عربية، كان تصوّره لها تصوّر الخبير العارف بمقتضيات الأحوال ومستلزمات العصر، لذلك ركّز هدفه منذ البداية على إعداد أشخاص كاملي المواهب وفق ما تستلزمه المرحلة ويستدعيه العصر.

ولا يمكن أن يتحقق ذلك عن طريق وسائل التربية المعروفة بل يستلزم الأمر جامعة على أحدث الأساليب، يُجمع فيها بين الأصالة والعصرنة، وأن تشرف على أبحاث عظيمة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التي تتعارض مع الإسلام، ومنها يُمكن أن يتخرَّج رجال يواجهون هذه الأفكار، وتتمّ تربيتهم في ظلّ هذه التصورات والرُؤى.

جامعة في نظر الإبراهيمي تخرّج «علماء اختصاصيين في فهم الدين على حقيقته، وفي فقه أسرار الشريعة مأخوذة من كتاب الله والصحيح من سنّة نبيه. وفي طريق الدعوة والإرشاد التي بني عليها الإسلام. وفي الخطابة التي هي سلاح تلك الدعوة. وفي الأخلاق والآداب الإسلامية التي هي لباب الدين. وفي فقه أسرار اللسان العربي وآدابه. مع المشاركة في علوم الحياة التي هي سلاح العصر، بحيث يخرج المتخرّج منها كامل الأدوات».(2)

وإيمانًا منه بأنَّ بداية التجديد والنهضة مرهون بسلامة المنطلق وصلابة الأرضية، فإنّ أساس البناء عنده ينبغي أن يُوضع على صخرة وإلاّ انهار البناء، ولا يمكن مجارات الأمم ومحاكاتها «في ميدان الحياة حتى تكون كلياتنـــا ككلياتهم في أسمائها ومُسمّياتها»(3) وأن يكون المثقف ابن عصره مطّلع على ما يدور من حوله من مجريات الأمور ومستلزمات العصر، لأنّ من أكبـــر إعاقات

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 248

(2)- المصدر نفسه، ج3/ 57

(3)- المصدر نفسه، ج3/ 59

المثقّفين الإسلاميين جهلهم بأحوال العصر ولوازمه.(1)

وانطلاقا من ذلك نجد الإبراهيمي يوصي الطلبة والمثقّفين بضرورة التعمّق والتخصّص، لأنّ بهما تتنوّع المعارف وتتفرّع التخصّصات وتتّسع المجالات والميادين العلمية والمعرفية التي تعتبر خلفية ورصيدًا معرفيًا للمُجدّد.

وهو إذْ يركّز على ضرورة احترام التخصّص، فإنّه يُحبّذ أنْ يكون هناك توازنٌ في عدد التخصّصات، حتى لا يكون هناك اهتمام بتخصّص وتفريط في باقي التخصّصات، لأنّ المدنية اليوم تتطلّب ترشيدًا في التوزيع العقلاني لهذه التخصّصات في المدن، فمن حسن التدبير أن تضمّ بلدة عددًا من التخصّصات العلمية، موزّعين على عدد من الأطباء، والأدباء والمرشدين الدّينيين وباقي الاختصاصات على بلدة تضمّ عددًا هائلاً من الأطباء فقط، لأنّ في تفاعل وتواصل التخصّصات في المدينة التي يعمل فيها الجميع أفضل بكثير من المدينة الثانية التي لا تضمّ إلاّ الأطباء، لأنّها تكون منقوصة ومحرومة من فوائد باقي التخصّصات، وهذا ما استحسنه الإبراهيمي نفسه.(2)

ثالثا: مؤسّسة الصحافة:

إنّ الدّارس لميادين العمل ووسائله عند جمعية العلماء يجدها متنوّعة بتنوّع الغايات والأهداف التي رسمتها ووضعت خطّتها، وكلُّ ذلك يندرج في إطار التجديد وبناء الفرد الجزائري وتشييد لصرح الأمّة المسلوب وانتشالها من سياسات المسخ والتغريب والإدماج.

ولإحباط كلّ مشاريع الاستعمار، لم تدّخر الجمعية أيّ جهد بل عمدت إلى الوسائل التغييرية من أجل إحياء الذّات وإنّماء الفكر وتنويره، وقد اعتمدت في ذلك على وسائل عمل، منها تأسيس الحركة الصّحفية وتفعيلها.

«ففي طور الاستعداد والتمهيد كان لسان حال الفكرة الإصلاحية وهو جريدة "المنتقد"»(3) فلمّا ضاق بها الاستعمار ذرعًا، أصدر قانونًا جائرًا لغرض تعطيلها، وبعد ذلك خلفتها مجلّة "الشهاب" الشهرية التي عمّرت مدّة طويلة، وكانت لسان حال جمعية العلماء المسلمين، إلى أن تعطّلت اختياريًا من قبل الجمعية تزامنًا مع قيام الحرب العالمية الثانية، و لم تعد بعد ذلك للصدور.(4)

(1)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 353

(2)- المصدر نفسه، ج1/ 356

(3)- المصدر نفسه، ج4/ 233

(4)- المصدر نفسه، ج4/ 234

وتعزّزت المؤسّسة الصحفية بعد ذلك بمولود أسبوعي، هي جريدة "السنّة"(1) التي طالتها يد الاستعمار وحبست عليها أنفاسها، لأنّ حكومته لم تألف سماع ما يوقظ الضمير النائم، وبإرادة لا تعرف الكلّ وعزيمة لا تملّ، أصدرت الجمعية في الأسبوع نفسه جريدة "الصراط"(2) التي تُعدّ أمضى لسانًا وأقوى بيانًا من أخواتها، فعاجلتها حكومة الاحتلال بقرار وزاري من باريس يقضي بأنّ كلّ جريدة تصدرها جمعية العلماء، فهي معطّلة من قبل أن تولد، ولكن هذه الإجراءات التعسّفية لم تثن من إرادة جمعية العلماء عن مواصلة بعث حركة الصحافة تِباعًا، فأخرجت بعد مدّة جريدة "البصائر".(3) التي أوقفتها الجمعية، لتُعاود بعث نشاطها من جديد لتنحو منحى أخواتها الشهيدات خدمة للإصلاح وتثقيفًا للأمّة وتبليغًا للرّأي العام الخارجي بحقيقة ممارسات الاستعمار المتوحّش، وتدهور حياة شعب ومعاناته البائسة، شعبٌ ينشد الحياة الكريمة والاستقلال. وقد شهد لها الموافق والمخالف بأنّ مواقفها «لم تقفُها جريدة عربية على الإطلاق»(4) وأنّها في سبيل رسالتها، قاومت ببسالة و لم تعرف خلالها مهادنة، ولا تراجعًا و لم يفتّ في عضدها كيد الكائدين ولا مكر الماكرين.

وإحساساً من الإبراهيمي بالدّور العظيم الذي تقوم به الصّحافة كوسيلة للتجديد والتغيير والتي كان يرى فيها مدداً من النّصرة وفيضاً من القوة، وكانت أعدادها تحمل إليه حقائق الدين الإسلامي، ونفحات البيان العربي، وكان يرى من مقالاتها صواعق مرسلة على المبتدعة والظالمين(5) قام بتأسيس:

- ***جريدة البصائر الثانية***: حيث تولّى إدارتها ورئاسة تحريرها، وكتابة مواضيعها والإشراف المباشر على أعدادها، وهي «إحدى الألسنة الأربعة الصّامتة لجمعية العلماء، تلك الألسنة التي كانت تفيض بالحكمة الإلهية المستمدّة من كلام الله وكلام رسوله، والتي كانت ترمي بالشّرر على المبطلين والمعطّلين، وكانت كلّما أغمد الظلم لساناً منها، سلّ الحق لساناً لا ينثلم ولا ينبو».(6)

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 234

(2)- المصدر نفسه، ج4/ 234

(3)- المصدر نفسه، ج4/ 234

(4)- المصدر نفسه، ج4/ 235

(5)- المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 16

(6)- المصدر نفسه، ص: 16

ولعلّ من الأهمية الإشارة إلى أنّ جريدة البصائر لم تعن بخدمة الدين، والدعوة إلى التمسّك بتعاليمه في الجزائر فحسب، بل امتدّ مجال اهتمامها ونشاطها ليشمل العالم العربي والإسلامي وغيرهما، وأن تحرص على نشر التعاليم إلى أبعد نقطة يمكن أن يصل إليه صوتها فدخلت «النّوادي العربية في الأمريكيتين فكانت سفيراً موفق السفارة بين الجزائر وبين أبناء العروبة في تلك البلاد التي حيزت إليها الدنيا بحذافيرها، وزويت لها الأرض من أطرافها».(1)

ولم يخالج الإبراهيمي أدنى شك في قوة تأثير مواضيع "البصائر" حتى على غير العرب، ولو كانوا يقرأون العربية لأحدثت فيهم انقلاباً مآله الرّجوع إلى أحكام الإسلام(2) كما امتدّ نشاطها لتصل مواضيعها دول أوروبا، وتغلغلت إلى أقاصيها الشمالية، فأحدثت تجديداً في أفكارهم وقد بلغت مواضيعها درجة أصبحت محطّ اهتمام وعّاظها وخطبائها.(3)

كما كانت لها وقفات مشرّفة في كثير من القضايا الإسلامية السّياسية منها والاجتماعية والثقافية وغيرها.

كما كان لها اهتمام خاص بالشّباب المسلم الذي كاد أن يترلق نحو فساد الأخلاق وراح رويدًا يمرح في المعاصي ويتمرّغ في الآثام، وبحرص الأب المشفق على مصير أبنائه كتب –الإبراهيمي– مقالات ضافية يدعو فيها الشباب للعودة «إلى تعاليم دينه، وبيان لغته ومعرفة تاريخه، والمحافظة على ميراثه الجنسي وخصائصه وأخلاقه وأن يفهم الحياة ويواجهها بحقائقها، وأن يجمع شمله على الشبيبة وحب الوطن ونفعه....».(4)

رابعا: انتداب العلماء وإيفادهم في خرجات تعليمية:

إنّ مسيرة الإصلاح والتجديد تقتضي أن يُفتح باب التفاعل بين المجدّد وبين أفراد المجتمع ليتحقّق التغيير. لأنّه بهذا التفاعل والتواصل يتمّ التعرّف على ما يحمله من أفكار واهتمام، فإذا ما حصل هذا التواصل والاحتكاك، ولَمس الجميع منه صدقًا وإخلاصًا، منحوه ثقتهم وأصبح محبّبًا فسلّموه قيادة شؤونهم.

ومن ناحية أخرى يسهل عليه الوقوف عن كثب على طبيعة مشاكلهم التي يتخبّطون فيها

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 346

(2)- المصدر نفسه، ج3/ 346

(3)- المصدر نفسه، ج3/ 346

(4)- المصدر نفسه، ج3/ 348

فيتحسّس همومهم، ويستطيع تحديد الثّغرات ومكامن الضعف فيهم، ليحدّد لهم العلاج اللاّزم لمعاناتهم «فالامتزاج بالأمة والاختلاط بطبقاتها والتحبّب إليها ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية والدخول في مجتمعاتها ومعابدها ومشاركتها في عبادتها وفي الصالح من عوائدها فبذلك تحصل الثقة منها وتنقاد لكل ما نريده وبذلك يسهل على المثقف أداء واجبه على أكمل وجه».(1)

فمن أجل تحقيق هذه المعاني وتجسيدها وإحساسًا من الجمعية -برِئاسة الإبراهيمي- بروح المسؤولية إزاء شريحة عريضة من أبناء المجتمع في الجزائر العميقة التي لم يصلها فكر ورسالة الجمعية تنبّهت إلى وسيلة ناجحة لتغيير المحيط، فندبت صفوة من العلماء والطّلبة وكلّفتهم للقيام بجولات دورية دائمة، يغشون كلّ مجتمعات القطر الجزائري في كامل جهاته المترامية الأطراف وذلك «لإيصال النّفع والخير إلى الأمّة ورفع الأمية والجهل عنها، وحثّها على العمل وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة، وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيم التعاون بين أفرادها، وتمتين الصّلة والثّقة بين العامّة والخاصّة منها، وتعليمهم معاني الخير والرّحمة والإحسان لجميع الخلق».(2)

وبالرّجوع إلى المذكّرة الإيضاحية* يتبيّن لنا بوضوح الطريقة والكيفية التي سلكتها جمعية العلماء واستطاعت إيصال مشروعها التربوي لعامة الناس في كلّ النواحي من القطر الجزائري وفي ذلك يقول الإبراهيمي: «بدأت الجمعية أعمالها في التعليم العام بالمحاضرات العامة في المساجد والنوادي، والقاعات العمومية، والميادين الجامعة والأسواق، فكلّفت طائفة من رجالها الكفاة في العلم والبيان بالطّواف في مدن القطر وقراه وسهوله وجباله، يزرعون الحماس بواسطة هذه المحاضرات، ويبيّنون الحقائق، ويثبّتون العزائم، ويحرّكون الهمم، ويضربون الأمثال ويربطون للأمّة حاضرها بماضيها، ويذكّرونها بما نسيته من أمجاد سلفها، ويهيئونها لنهضة شاملة في العلم والسياسة والاقتصاد».(3)

وقد استغرق هذا الأسلوب في الدعوة للتجديد الشامل، والنهوض بالهمم -سبع سنوات- كاملة(4)، فكان لهذا الجهد ثمراته الملموسة في واقع الناس، بحيث كان لوقع تلك المحاضرات

(1)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 356

(2)- المصدر نفسه، ج1/ 357

(3)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 242

(4)- المصدر نفسه، ج4/ 357

* المذكّرة التي قدّمتها الجمعية لوزارة المعارف المصرية ولمشيخة الأزهر الشريف، وللأمانة العامة لجامعة الدول العربية في يناير [1953م]

والدروس-القائمة على الجمع بين التربية والتعليم- أثرًا سائغًا في نفوس أبناء الأمّة فتحقّقت الغاية المرجوة من هذا النّشاط، وهو تحقيق التعاون والتجاوب بين الجمعية وبين الأمّة «على تعليم النشء وتكوين جيل صالح للحياة مُتّحد النّـــزعات، متجاوب الخواطر والمقاصد، يُحرّر الوطن من الاستعمارين الرّوحي والمادي»(1).

خامسا: تأسيس النوادي العلمية:

إنّ مجال العلم والثقافة يعتبر من أصعب المسالك وأوعرها في مجتمع استحكمت فيه الأمية، وأصابت فيه العقل والفكر في مقتل.

وإدراكًا من الإبراهيمي لخطورة الأمية والتخلّف والجهل، استطاع أنْ يوسّع دائرة المعارف والوعي، وذلك بتأسيس نوادي علمية تُنظّم فيها محاضرات ودروس في مختلف الشؤون الثقافية والفكرية والتربوية والسياسية والأمسيات الشعرية.

وإيمانًا منه بحتمية التواصل بين جميع شرائح المجتمع الذين قد يتعذّر على بعضهم الاتصال المباشر بأعضاء الجمعية وعلمائها، حرص على إنشاء نوادي علمية ومعرفية كفضاء للاتصال، ولأّن الجمعية لا تقف في طريقها الصعاب «أنشأت مشروع "النوادي" لتكون وسطًا طبيعيًا بين المساجد والمدارس، وتلتقي فيها بالشّبان الذين هم وسط طبيعي بين الشيوخ والأطفال».(2)

وفي مثل هذا الوسط تحدث المناظرات وتتبادل الآراء، وتتلاقح الأفكار، وعند بعضهم من التخصّص ما ليس عند الآخرين فيطرحون المسألة، ويتناظرون ساعة(3) وقد يستعين الفرد بآراء من سبقوه خبرة وتجربة فيغرف من آرائهم السّديدة، ولعلّ هذا هو السّر الذي كان يقف وراء التفاف الشيخ الغزالي بالإبراهيمي والاستمداد من معارفه.(4)

وبعزيمة لا تعرف اليأس أنشأت الجمعية بإشراف الإبراهيمي «في مدة قصيرة عشرات النوادي في المدن والقرى ودعت إليها الشبان فاستجابوا وأقبلوا عليها، لأنّها أقرب إلى أمزجتهم، ولأنّ فيها شيئًا من التسليـــة والمرح، ولأنّ فيها قليلاً من جو القهوة.... وفي ظل هذه الجواذب التقت الجمعية بالشبان وقامت بحق الله فيهم، فنظّمت لهم فيها محاضرات تهذّب بها أخلاقهـــم

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 242

(2)- المصدر نفسه، ج1/ 243

(3) – محمد أحمد الراشد، أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي، ج1/ 29

(4) – محمد الغزالي، مع البشير في القاهرة، مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 96

وتعرّفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمة، وتجمع قوّتهم».(1)

والإبراهيمي وهو يشرف على تأسيس النوادي العلمية، فإنّه كان يعلّق عليها آمالاً كبيرة، بما لها من أثر فعّال في حركته التجديدية، وآثارها في أبناء الأمّة يعدل آثار المدرسة في الأطفال ويفوق آثار المساجد في الشيوخ والكهول، فمن النوادي تخرّجت طلائع الأمّة في المساجد وفي ميادين العمل يؤدّون دورهم وواجبهم على أحسن حال.(2)

إذن لم يكن خافيًا على الإبراهيمي تنشيط وتفعيل دور النوادي المنتشرة عبر التراب الوطني لما لها من دور فعّال في شحذ الهمم وإيقاظ الضمائر الميّتة، ولكن لعنة الاستعمار ظلّت تُلاحق الخيرَ وأهله في كلّ مكان، وكلّما بزغ نور، تداعت له عناكب الليل لتطمسه، فالاستعمار «ضاق ذرعًا بهذه الثورة الفكرية، التي أحدثتها في الشيوخ والكهول دروس الوعظ والإرشاد في المساجد، وأشعلتها في الشبّان محاضرات النوادي، ولم يطق على هذه الحالة، فأصدر الحاكم العام أمرًا بمنع رجال جمعية العلماء من إلقاء الدروس في المساجد.... وبعد مدة أصدر أمرًا آخر بحرمان النوادي من بعض الامتيازات....».(3) وكلّ ذلك من أجل تجفيف منابع القوة في حركة الإبراهيمي التجديدية، لأنّ منها يستمد القوة والعون ومنها يتحقّق التغيير ويعمّ الخير.

سادسا: تأسيس الجمعيات وتفعيل دورها:

لقد أدرك الإبراهيمي أنه إذا أراد النجاح لأفكاره المتجدّدة أن تتحقّق على أرض الواقع وتُحدث إصلاحًا شاملاً يمسّ قطاعات المجتمع المختلفة، ينبغي ألاّ يكتفي بالحركة داخل مؤسّسة التربية والتعليم، أو ضمن إطار مؤسّسة المسجد، أو عبر مؤسّسة الصحافة وإنّما لابد من البحث عن صيغ وأطر أخرى تُترجم أفكاره الإصلاحية التجديدية، فعمد إلى تأسيس الجمعيات والمنظّمات مُقتنعًا بأنّها وسيلة من الوسائل الفعّالة لتحقيق الأهداف وترجمة الأفكار.

فمن خلال الجمعيات، أو في إطارها يتمّ نقل المبادرات الفردية إلى إطار الجهد الجماعي المنظّم ينعكس خيره وصلاحه على المجموعة، وعلى هذا كان لزامًا على من يريد الخير لنفسه ولمجتمعه أن يتحرّى الإطار المناسب الذي يقوم عليه نظام المجتمع «لأنّها تجمع جهود العاملين له، وتوحّد صفوفهم، وتنسّق أعمالهم، وفيها تتلاقح الأفكار ويتمّ تبادل الآراء وتوزّع الأعمال وتحدّد

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 243

(2)- المصدر نفسه، ج4/ 243

(3)- المصدر نفسه، ج4/ 243

الأهداف، وعن طريقها يتم تقييم الجهود المبذولة وضبط مسيرة الحركة».(1)

وبهذه النظرة الحضارية لدور الهيئة والمنظّمة في المجتمع، برزت أفكار الإبراهيمي الدّاعية إلى إنشاء الجمعيات، ولإيمانه بدورها قال: «وجمعيات بلغت المئات، مقسّمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبثّ في الأمّة النظام، والإدارة، وآداب الاجتماع، وديمقراطية الانتخاب. وتعلّمها كيف تُناقش، وكيف تصوغ الرأي، وكيف تدافع عنه، وكيف تنقضه بالحجّة، وكيف تزن الأفكار، وكيف تحاسب العاملين وتدرّبها على التدرّج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى. لأنّ الأمّة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة، لا تحسن بالطّبع إدارة مجلس، فضلاً عن حكومة، ولا كالجمعيات مدارس تدريب، ونماذج تجريب».(2)

وينطلق الإبراهيمي في دعوته إلى العمل والتنسيق مع الجمعيات والمنظّمات من موقع الإيمان بدورها وفعاليتها والاستفادة من طبيعتها القانونية للقيام بأيّ نشاط محظور إداريًا، لأنّ الاستعمار عمل كلّ ما في وسعه من أجل تضييق الخناق على نشاط رجال الجمعية، فلجأت إلى هذه «الجمعيات القانونية وإن كانت قليلة عندنا وإلى المجموعات التي تجتمع في حرفة أو عمل كسائقي السيارات في بلدة أو صانعي الأحذية في سوق أو حومة، فتتقدّم إليهم بالنّصيحة والإرشاد أولاً ثمّ العمل ثانيًا. لأنّ مثل هذه المجموعات أقرب إلى النظام والضّبط....».(3)

وفي الأخير يمكننا الإشارة إلى أنّ فكرة إنشاء الجمعيات وتأسيسها يعكس مدى قدرة أصحابها والقائمين على شؤونها بالتنظيم، واتّسامهم بالذّكاء والفطنة، مع علمهم بالدّور الذي يلعبه المجتمع المدني والتنظيمات الجماهيرية، وأنّه لا يقلّ أهمية ودورًا عن باقي المؤسّسات الحزبية.

سابعا: السياحة طريق للمعرفة والتجديد:

لقد أنفق الإبراهيمي سنين عديدة في حوار مستديم مع الواقع الجزائري، عبر التزامه بمنهج في حركة دائبة لا تعرف الوقوف ولا الوهن.

فقد شمل ذلك الحوار جميع مجالات الواقع ومظاهره، وكان يلتقي بالعامة والخاصة من النّاس في الأرياف والقرى والمدن، ينهى عن مظاهر الفساد، ويُلقي دروس العلم في المساجد، والنوادي وفي كلّ مكان جامع، يُنوّر العقول ويرفع الجهل بأحكام الدين.

إنّ هذا الوقوف الطويـــل على الواقع الجزائري خاصّة، وواقع الأمّة الإسلامية عامّة مكّنـــه من

(1) – محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص: 299

(2)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 114

(3)- المصدر نفسه، ج1/ 145

إدراك عناصر الفساد والوقوف عليها ومعرفة أسبابها، لينتهي بعد ذلك إلى تقويم شامل يُمهّد به إلى بسط المنهج الذي حدّده لتحقيق التغيير والتجديد المنشودين.

لقد أدرك الإبراهيمي أنّ التوغل في هذا الطريق والمضي قُدمًا في التطلّع لإحداث التجديد ليس بالأمر الميسور، وهذا في نظره لن يُدرك بمجرد الإحاطة ببعض العلوم والمعارف والاكتفاء بملازمة قاعات العلم والمكتبات، ويظلّ المجدّد قابعًا داخلها بلا حراك، لأنّ في نظره «فقيه الدعوة ليس فقيه فروع، حتى يظل أسيراً بين جدران المكتبات، مُنحني الظهر فوق أجزاء الموسوعات، ولكنّه رجل سياسة وتربية يضبطهما بالفقه، فهو بحاجة إلى معرفة التاريخ والواقع الذي يحيط به وتكون السياحة طريقه الأتم الممهد إلى هذه المعرفة، إذ يجد في سماعه من نبلاء الرّجال ما لا يقرؤه في الكتب».(1)

وإدراكًا منه لأهمية السياحة كوسيلة لتجديد المفاهيم، ولاستكشاف ما يحيط به، جاءت رحلة الإبراهيمي الأولى إلى الأقطار الإسلامية، والتي تركّزت أساسًا حول دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، والتعرّف على صُنّاع القرار فيها من أهل العلم والحكم، والامتزاج بمجتمعاتهم لتتبيّن له عن كثب حقائق وواقع الأمّة الإسلامية، ليسهل عليه تشخيص أمراض العالم الإسلامي ويتسنّى له طريقة علاجها وذلك بالاحتكاك المباشر بقادتها وعلمائها، ومحاولة تقريب الرؤى ووجهات النّظر، وجمع رأيهم على كلمة سواء.(2)

لقد آمن الإبراهيمي بأنّ من يجمد مكانه بلا حراك في محيطه يظلّ محدود الأفق، قاصر النظر، ولا ينظر إلى الدنيا ومتغيّراتها إلاّ بمنظار عقله المحدود وفكره المسدود، وعليه فهو يؤمن بأنّ «في سياحة المتفقه توسيع للأفق قلّما يحصل مثله بسبب آخر، فإنّ له بكل مرّة ينصت فيها إلى أفاضل الناس يشرحون له واقع وتاريخ بلادهم، نظر جديد وزيادة علم، لا يجده مسطورًا على ورق، ويجد من اختلاف الظروف وأسبابها ومكوّناتها ما يحمله على اعتقاد النسبية في معالجة الأمور، ويريه وجوهًا من المصالح لم يكن يحفل بها من قبل، فتنضبط حماسته، وتَقْرُب تظرّفاته وتميل إلى التخصيص تعميماته، ليغدو على سمت من المنطقية ترتقي بعقلانيته الأولى درجة أرفع....».(3)

لقد أسهمت رحلة الإبراهيمي المشرقية برصيد علمي، ونضج فكري، وإيمان عميق بتحمّل مهمة التجديد، حتى إذا تفاعل ذلك مع الواقع الجزائري السّياسي والاجتماعي، ولّد مواصفات

(1) – محمد أحمد الراشد، أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي، ج1/ 96

(2) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 262

(3) – محمد أحمد الراشد، مرجع سابق، ج1/ 97

وخصالاً قيادية أنضجتها تجربته السياحية التي ساهمت في تعميق العلم وتوسيع التجربة وتنمية الذوق لا سياحة الاصطياف والتسوّق ومجالسة الأدباء والعلماء والصالحين فحسب، بل أغلى ما كان يتمنّاه الإبراهيمي من هذه الرّحلات والأسفار هو ما جاء على لسانه في قوله: «أكبر مناي في هذه الرحلة أن ألقى من يتيسر لي لقاؤه من إخواني وزملائي، وأن نتبادل الرّأي بأمانة الإسلام، وإخلاص المسلم، في علاج هذه العلل التي خصّت المسلمين وأصبحوا فيها مضرب المثل في هذا العصر».(1)

يُلاحظ من خلال ما سبق أنّ الإبراهيمي كان له احتكاك مباشر بالعلماء والأدباء وأصحاب الخبرات والتجارب، كما كان له ارتباط وثيق بعموم النّاس في البلاد التي كان يحلّ بها، يتحسّس أخبارهم ويتابع حركاتهم، وينصت لأحاديثهم، وهذا بحد ذاته يشكّل عنصرًا مهمًا تكتمل به عملية التجديد.

إنّ هذا الوصل بين العلم والعمل يمثّل درجة من الوعي قصر دونها كثير من العلماء و لم يبلغها إلاّ الأقلّون.

ويمكن أن نقول أنّ حركة الإبراهيمي التجديدية اتّسمت بالثراء والتنوّع، أصّلها صاحبُها على أساس علمي، برزت فيه قوة المادة العلمية وقوة الاستدلال، ولّما كانت النزعة الفقهية الغالبة على أهل الجزائر هي نزعة التقليد في فروع مذهب -الإمام مالك- رحمه الله، وأنّ الصّلة بين هذا الفكر وبين أصول الوحي قد قطعت أو تكاد، وتحقيقًا لمفهوم التجديد عند الإبراهيمي نلاحظ أنّه لم يكتف بالدعوة إلى التغيير المنهجي القائم على فكرة الرّجوع الأساسي إلى مصدري الوحي المتمثّلة في نصوص القرآن والحديث دراسة وفهمًا واقتباسًا للأحكام الشرعية واستلهامًا لجميع أنواع السلوك، وحتى تكون هذه الأصول هي المحرّك المباشر الذي يحرّك الفكر والسلوك في المجتمع، عمد إلى تجلية المفهوم على نمط جديد لا يخلو من التعليل والتحليل والاجتهاد متذرّعًا بنزعة نقدية جلية.

وقد بذل الإبراهيمي جهدًا كبيرًا في الانتصار لهذا المنهج وإنفاذه بين النّاس، وسلك في سبيل ذلك أساليب متعدّدة ومتنوّعة -بالرّغم من كلّ الصّعوبات والعراقيل التي كان يمارسها الاستعمار ضدّ العلماء للحدّ من نشاطهم- بدءًا بمؤسّسة المسجد، ومؤسّسة التربية والتعليم

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 264

والصحافة وتأسيس النوادي العلمية، ومؤسّسات المجتمع المدني، وانتهاء باختيار طريق السياحة لأجل أن ترتبط الأمّة بمصدري الوحي ارتباطًا مباشرًا، وتتعامل في حياتها الاجتماعية بأخلاق الإسلام، وإلى جانب هذا فإنّ المنهج الذي سلكه يتّصف بالشّمول والتّكامل، وكان على جانب من الوضوح في منهجه المؤدّي إلى تحقيق الأهداف التي انتهت به إلى تحرير البلاد والعباد، وإصلاح دين الأمّة عقيدةً وسلوكًا، حيث غطّى الجوانب المهمّة في الحياة الدينية والاجتماعية والسّياسية، وتكاملت فيه هذه الجوانب كلّها مع الأساس المنهجي القائم على الاستدلال الذي يقود إلى بيان الطريقة والكيفية التي تستنبط بها الأحكام والحِكم المنطوية تحتها لصياغة حلول واقعية لنوازل الحياة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع:

مضامين التجديد عند البشير الإبراهيمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

التجديد في المجال العقدي

كان الوضع الديني في الجزائر مرتعًا للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصّحيحة.

فقد غشيته غاشية سوداء، وأُلبست الوحدانية ألوانًا من الخرافات ومظاهر الصّوفية، وخلت المساجد من روّادها، وكثُر الأدعياء الجهلاء، وصار النّاس يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسّبحات، ويوهمون النّاس بالباطل والشبهات، ويرغّبونهم في التردّد على قبور الأوليـــاء ويزيّنون لبعضهم التماس الشّفاعة منهم، وغابت عن النّاس فضائل القرآن، وصارت مظاهر الانحراف فاشية في كلّ مكان، بحيث ألف النّاس شرب الخمر، كما ألفوا الرّذائل وهتك الحرمات، على غير خشية ولا استحياء «وهكذا كان شأن الجزائر، فإنّها كانت حتى عام [1925م] –على الرغم من إسلامها– تدين بالوثنية التي قامت نصبها في الزوايا: هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات، ولاقتناء الحروز ذات الخوارق والمعجزات غير أنّه ما إن سطع نور الفكرة الإصلاحية حتى تحطم ذلك المعبد».(1)

فبينما كان الفرد الجزائري مستغرقا في نومه على النّحو الذي صوّره مالك بن نبي.. إذا بصوت الإصلاح الذي كان الإبراهيمي أحد جنوده البارزين، يُدوّي موقظا النائمين داعياً المسلمين إلى اليقظة والاستفاقة من هذه الوضعية المزرية. فلم تلبث دعوته أن اتّقدت واشتعلت واندلعت ألسنتها في كلّ ناحية من ربوع البلاد، وانبرى العلماء المصلحون يحضُّون المسلمين على إصلاح النفوس، والعودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الإسلامية في مصدريها: الكتاب والسنّة.

كما قامت هذه الدّعوة في الوقت نفسه على التخلّص ممّا خلّفته ثقافة الاستعمار، من تخلّف وطرح الأفكار القائمة على الخرافات، لأنّه لا يستقيم الإيمان بالله، والدّعوة إلى غيره، كما أنّه لا يليق أن يقرأ المسلم القرآن وهو يؤمن بالخرافات، ويصلي لله ويتقرّب لعبيده، إلى غير ذلك من الشوائب التي كانت سبباً في تدنّي الحالة الدينية في المجتمع الجزائري المسلم.

(1) – مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 30

وانطلاقاً من نواحي هذا الخلل، ركّز الإبراهيمي اهتماماته الإصلاحية على النواحي التالية:-

أولا: تصحيح العقيدة الإسلامية في فكر المسلمين:

ويتمّ ذلك في نظر الإبراهيمي بتطهير العقيدة من مظاهر الشرك التي علقت بها، وإعادة المسلمين إلى عقيدة التوحيد كم وردت في الكتاب والسنّة.

ولتحقيق هذا الهدف نزل الإبراهيمي إلى الميدان، ووضع هدي القرآن ونور السنّة على طريق المسلمين وأرشدهم إلى التوحيد الصّحيح، وسعى في تقريب حقائق الدين من أذهان الأمّة على السّنة الأولى من نشره.

وكان منهج الإبراهيمي في الاستدلال على العقيدة يعتمد، على طريقة القرآن الكريم، حيث نلمس ذلك في قوله: «وكانت هذه الحركة ترمى عن قوس الحقيقة في الرّجوع بالدين إلى بساطته الأولى وأنّه دين الفطرة وأنّه لا يرجع في أحكامه إلاّ إلى النّص القطعي من كتاب محكم أو سنّة عملية متواترة، وأن كلّ ما ألصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين وإنْ تراءت في صورة ما يقتضيه الدين».(1)

فمنهج الإبراهيمي في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته هو منهج القرآن الكريم في الاستدلال، لا منهج علماء الكلام المتأثرين بالأساليب الفلسفية، فهو في عرضه لحقائق الدين يلتزم التبسيط كما ورد في الكتاب والسنّة، فهو في هذا يحذّر من سلوك منهج المتكلمين الذين زرعوا التفرّق في الدين، ويرشد إلى التوحيد الصّحيح والإيمان بصفات الله تعالى دون تأويل ولا تشبيه حسب عقيدة السّلف، ولهذا فهو يذهب إلى أنّ «توحيد الله مقرّر في القرآن بأجلى بيان وأكمل برهان، وصفاته لا يطمع طامع أن يأتي في إثباتها بأكمل ممّا أتى به القرآن، وطريقة القرآن في التنزيه أقوم طريقة، وقد جرى عليها الصحابة، فكانوا أكمل النّاس توحيدا مع أنّهم لا يعرفون الجوهر ولا العرض.... وعلى هذا فما معنى إضاعة الوقت وإعنات النفس في معرفة هذا العلم المسمّى بعلم الكلام».(2)

فأول خطوة يضعها الإبراهيمي في مجال التجديد العقدي هو تنقية العقيدة الإسلامية من آثار علم الكلام، ومن جميع ما علق بها.

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 9

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 98

لقد هال الإبراهيمي وضع بعض العلماء وتأثّرهم بعلم الكلام والمنطق، الذين يعتقدون أنّ لا سبيل للعلم إلاّ ما يكون المنطق طريقه، كأنّ العلم الإسلامي مدين للمنطق اليوناني في فهمه، في حين أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لم ينهج نهجهم و لم يحاول تأويل الصفات في القرآن تأويلاً يتّفق مع القواعد الفلسفية التي قرّرها علماء الكلام من بعده، ولأنّ النّبي –صلى الله عليه وسلم– كان علمه هو القرآن، والأدلّة التي كان يستدلّ بها هي أدلة القرآن، و لم يتجاوز ذلك، وكذلك الصحابة والتّابعون من بعدهم والفقهاء المجتهدون.

ويُعدّ الإبراهيمي واحدًا من الذين ثاروا على المذاهب الكلامية، وأثار حولها عجاجة، فقال: «وأمّا المذاهب الكلامية فلم يكن أثرها بالقليل في تفرّق المسلمين وتمزّق شملهم».(1) فهو يغير على علم الكلام، لأنّه يعتقد أنّ الأساليب المنطقية التي نهجها الفلاسفة(2) والمتكلّمون هي التي جعلت العلماء ينتقصون بها أدلّة القرآن، بل لازم قولهم تفريق شمل المسلمين وتمزيق صفّهم وفي هذا يقول: «وأول ما نشأ في المجتمع الإسلامي من جراثيم في التفرّق في الدين، الكلام بالقدر والخوض في الصفات.... كما أنّها أول مسألة امتزجت فيها الأنظار الدينية بالأنظار الدنيوية (أو السياسية) كما يقولون. وفي هذا المعترك جرثومة التعصّب الخبيثة».(3)

وعلى هذا اتّفقت كلمة مجدّدي الإسلام ومفكّريه بهذا العصر، على أنّ الفهم الصحيح لمسائل العقيدة الإسلامية لابد أنّ يستند على القرآن الكريم والسنّة النبوية، وعدم التعمّق الكلامي في الغيبيات التي تبعد العقول المسلمة عن الواقع المعيش، وتقحمها في الانحرافات والاختلافات والضلالات.

هكذا كان الإبراهيمي من دعاة الرّجوع إلى العقيدة الصافية القائمة في الاستدلال على وحدانية الله، وبيان صفاته وإثباتها على منهج القرآن، ولذلك فهو يدعو إلى استبعاد علم الكلام من الثقافة الإسلامية، كما يدعو إلى عدم إفراغ الجهد في تعلّمه، لأنّ في ذلك إضاعة للوقت وإعنات للنّفس.(4) فهو يدعو إلى علم العقيدة الذي يكون للتوحيد فيه وظائف جديدة، ويكون علمًا محرّرًا للإنسان، وعلما صافيًا خالصًا، صافيًا من الشوائب والأكدار، وإنّ علمًا تكون له مثل هذه

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 96

(2) – ومن الفلاسفة المتكلمين الذين يعنيهم الإبراهيمي "فخر الدين الرازي" صاحب تفسير القرآن المعروف الذين تأثر بعلم الكلام ونزع إلى المذهب العقلي والرأي في الاستدلال على العقيدة، ارجع إلى معرفة تفاصيل ذلك إلى الإبراهيمي، ج1/ 98

(3) – الإبراهيمي، مصدر سابق، ج1/ 94

(4) – المصدر نفسه، ج1/ 98

الخصائص لقادر على أن يدفع أصحابه إلى الأمام، وأن يجعل حركتهم مطلقة نشطة وحياتهم أبعث على الأمل والرّجاء، ولا أدلّ على ذلك من قوله: «وطريقة القرآن في التنزيه أقوم طريقة، وقد جرى عليها الصّحابة فكانوا أكمل النّاس توحيدًا مع أنّهم لا يعرفون الجوهر والعرض.... ولا الكمّ ولا الكيف بمعانيها الفلسفية الدقيقة».(1)

فمن التجديد في مجال العقيدة، ربط آثارها الواقعية بها، فلا يكفي أنْ يؤمن المرء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، بل لابد من العمل على إحياء الآثار القلبية النابعة من صدق الإيمان، وأنّ معالجة الانحرافات الظاهرة على كافة المستويات لا تستقيم إلاّ إذا صاحبها معالجة للانحرافات الباطنية، وبهذا تكون العقيدة قد آتت أكلها وأثمرت نتائجها على حدّ قول مالك بن نبي: «فليست المشكلة أن نعلّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنّما المهمّ أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوّتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي».(2)

فالعقيدة السّليمة في نظر الإبراهيمي هي قاعدة الإصلاح في المجتمع، ولذلك فإنّه يمكننا القول أنّ حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنّما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم، وهذا ما أكّده الإبراهيمي نفسه في قوله: «نراهم يتعلّقون بالجوانب الغيبية منه، وهي التي استأثر الله بعلمها، فيخوضون في الرّوح، والملائكة، والجنّ، وما بعد الموت ويتوسّعون في الحديث عن الجنّة والنّار، حتّى ليكادون يضعون لهما خرائط مجسّمة، وسبيل المؤمن القرآني العاقل في هذه الغيبيات أن يؤمن بها كما وردت، وأن يكل علم حقيقتها إلى الله ليتفرّغ لعالم الشّهادة الذي هو عالم التّكليف».(3)

ولذلك اقتنع بأنّ علم الكلام القديم المبني على مقدّمات عقلية معقّدة، يسير في طريق غير مأمون العواقب، فحاول من خلال حركته وأفكاره، أن يدعو لعلم العقيدة المبني على القرآن الكريم يلتمس المسلمون فيه مواقع الهداية، التي اهتدى به السّلف من أصحاب الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام.

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 98

(2) – مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شهين، دار الفكر –دمشق –سوريا، [1981م]، ص: 48

(3) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 209

ثانيا: موقفه من التصوّف ومقاومته لحركات الابتداع في الدّين:

ترتبط مقاومة الصّوفية والمبتدعة بإصلاح العقيدة ارتباطا وثيقا في نظر الإبراهيمي. فما نكب الأمّة في عقيدتها التي هي مبعث عزّها وسعادتها وتميّزها وفخرها على الملَل والنّحل الأخرى إلاّ هؤلاء المتصوّفة والمبتدعة الذين كانت لهم مواقف مشينة من دعوة الإبراهيمي. فلا غرابة أن تأخذ مقاومة هؤلاء قدرًا كبيرًا من جهوده وإخوانه في جمعية العلماء المسلمين، وأن تصبح المعركة بينهم حامية لأنّهم أمام عدوّ عمل على استلاب إرادة الأمّة بطرقه الخاصّة، ولذلك فهو يرى أنّ من اهتمامات جمعية العلماء الأساسية مقاومة الصّوفية وأهل البدع وهي «أوّل يد بيضاء لها في هذا الباب تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا، وتحرير النّفوس من تأليه الأهواء والرّجال وإنّ تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان، وأصلاً له، ومحال أن يتحرّر بدن يحمل عقلاً عبدًا».(1)

هكذا عمل الإبراهيمي على إنقاذ المسلمين من الضّلال والزّيغ، كما أنقذهم من الذّل والاستعمار وقد كافأه الجامدون والمبتدعة والمتصوّفة مكافأة الحاقدين فاضطهدوه، ووشوا به إلى إدارة الاحتلال، ونسجوا حوله الافتراءات حتّى نُفي، وما نقم منه هؤلاء إلاّ أنّه دعاهم لما يحييهم: دعاهم إلى الرّجوع إلى كتاب الله، ونبذ الخلافات المذهبية، والطّرق الصّوفية، والفرق الضّالة، ولكن ضمائرهم تلوّثت، فليس فيها للحق والإخلاص مكان، لكن رجال الإصلاح كما عنوا بالعقيدة الإسلامية تصحيحًا وتمكينًا، عنوا كذلك بالمنافحة عنها بالوقوف في وجه الكائدين لها، الذين كانوا بحق عوامل هدم وتقويض لمقوّمات الأمّة التي ما كانت لتتردّى إلى هذه الهوّة السّحيقة لو لم يكن هذا الذي جنته عليها أهل الصّوفية والطّرق.

ولقد انبرى الإبراهيمي للدّفاع عن مقوّمات الأمّة، وأعلنها حربًا على الصّوفية والمبتدعة، وأبت عليه سنّة الرّسول –عليه الصلاة والسلام– التي أضنى قريحته في تعلُّمها وتحمّل الأخطار في الدّعوة إليها أن يسكت على زيغ هؤلاء المتنطّعة في الدّين فقال: «إنّ هذه السّنة المطهّرة تأبى علينا أن نحن مع هؤلاء الأدعياء، أو نلين لغمزاتهم أو نتسامح معهم أو نُقرّهم على باطلهم أو نُخلي لهم الميدان ليُفسدوا من هذه الأمّة ما أصلح الدين».(2)

فأصل العلل والأمراض في نظر الإبراهيمي نابع من آثار هذه الطرق، «وعلّة العلل في الإفساد ونبع الشّرور، وأنّ كلّ ما هو متفش في الأمّة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة وجهل

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 34

(2) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 42

بكلّ شيء، وغفله عن الحياة وإلحاد في النّاشئة، فمنشؤه من الطّرق ومرجعه إليها».(1)

لذلك راغ عليها ضربًا ودفعًا بكلّ وسيلة متاحة وممكنة، وقد عبأ طاقة جمعية العلماء وسخّر إمكاناتها لتنفيذ العزم وفق مشروع إصلاحي شامل، ليكشف حقيقة هؤلاء المبتدعة الذين يستعين بهم الاستعمار لتشويه حقيقة الدين الإسلامي، لذلك نجده يقول: «عاهدنا الله أن نطهّر ديننه، من الداخل ومن الخارج، وأن ننصره على أنفسنا حتى يكون له عليها سلطان، قبل أن ننـــصره على الأجنبيّ حتى لا يكون له عليه سلطان.... لذلك حملنا حملتنا المشهورة على البدع والضّلالات حتّى قوّضنا أركانها، وأتينا بنيانها من القواعد، فتلك بيوتها خاوية بما أقرّ أهلها من منكر، وما هجروا من معروف».(2)

وهكذا استطاع الإبراهيمي بتظافر جهود جميع علماء الجمعية من تحقيق الانتصار على الباطل ومعاونيه، وأن يخرجوا جميعًا من هذه المواجهة منتصرين.

ثالثا: محاربة التوسّل والاستغاثة:

لقد أتى على المسلمين حين من الدّهر انحرفوا فيه عن التوحيد، واتّخذوه لفظًا فقط يُتمتمون به في تسابيحهم وصلواتهم، فعشّشت الخرافات في نفوسهم وانحطّت بهم في مهاوي الضّلال والاستسلام لغير الله.

في مثل هذا الجو الذي يعجّ بالمتردّدين على الأضرحة وقبور الأولياء بزغ فجر جديد وجاء الإبراهيمي فوجد المسلمين يتساقطون على قبور الأولياء يستغيثون بهم ويدعونهم في الشّدائد وينذرون لهم. لا همّ لهم إلاّ شدُّ الرّحال إليهم وتقديم الشّموع والبخور والقرابين لهم والتمرّغ بترابهم، كما استفحلت بعض المظاهر الخطيرة، وهي اعتقاد رجال الطرق الصوفية بأنّهم قادرون على المنع والحرمان، وذلك بقصد استغلال العامّة وابتزاز أموالهم، وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذي يحتلّ وطنهم، ممّا أدّى إلى انحطاطهم وتهافت الأعداء عليهم، فهال الإبراهيمي أمرهم وسارع بمعية العلماء إلى إنقاذهم، متحمّلاً جميع الأذى منهم، فقام داعيًا المسلمين إلى تطهير عقائدهم من الشّرك، وذلك في قوله: «يا قومنا أجيبوا داعي الله، ولا تجيبوا داعي الشيطان، يا قومنا إنّ أصول هذه المنكرات مفسدة للعقيدة، وإنّ فروعها مفسدة للعقل والمال، وأنّكم مسؤولون عند الله عن جميع ذلك، يا قومنا إنّكم تنفقون هذه الأموال في حرام

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 125

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 164

وإنّ الذّبائح التي تذبحونها حرام لا يحلّ أكلها، لأنّها ممّا أهل به لغير الله فمن أفتاكم بغير هذا فهو مفتي الشيطان، لا مفتي القرآن».(1)

انطلاقا من التوحيد الحق، أنكر الشيخ الإبراهيمي البدع المتنوّعة، التي صاغت عقلية مسلمي زمانه صياغة خرافية أسلمتهم إلى الانحرافات التي أفسدت عليهم عقيدتهم الإسلامية الصّافية فتصدّى لها وصرّح بمخالفتها للكتاب والسّنة فقال: «هذه "الزرد" التي تُقام.... هي أعراس الشيطان وولائمه، وحفلاته ومواسمه، وكلّ ما يقع فيها من البداية إلى النهاية كلّه رجس من عمل الشيطان، وكلّ داع إليها، أو معين عليها، أو مكثر لسوادها فهو من أعوان الشيطان ألم ترَ إلى ما يرتكب فيها من فواحش ومحرّمات؟ وما يُهتك فيها من أعراض وحرمات؟ كلّ ذلك ممّا يأمر به الشيطان».(2) وعليه فإنّ الذين يدعون الأنبياء والصّالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله، إذن فلا يجوز أن يستغيث المرء بأحد من المشائخ الغائبين ولا الميّتين مثل أن يقول: يا سيدي فلاناً أغثني وانصرني، وادفع همّي، ونحو ذلك، بل كلّ هذا من الشّرك الذي حرّمه الله ورسوله، وإلى حقيقة هذا الأمر أشار الإبراهيمي مبيّناً طبيعة ما يجري في مثل هذه المقامات من تلبيس إبليس، والاستغاثة بغير الله تعالى: «تداعى أولياء الشيطان في كلّ بقعة من هذه العمالة، إلى زردة يقيمونها على وثن معروف من أوثانهم، يسوّله لهم الشيطان وليًا صالحًا، بل يصوّره إلهًا متصرّفًا في الكون متصرّفًا في النفع والضرّ والرزق والأجل بين عباد الله».(3)

فقد اعتقد الشيخ الإبراهيمي تبعًا لما هو ثابت في دين الله بالضرورة أنّه لابد للمسلمين من أن يعودوا إلى الكتاب والسنّة ويتحاكموا إليهما، ولذلك فإنّه دعا إلى تطهير العقائد والسلوك الفردي والجماعي من كلّ ما يخالفهما، ونبذ كلّ قول أو فعل منافيًا ومغايرًا لهما.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 358

(2) – المصدر نفسه، ص: 355

(3) – المصدر نفسه، ص: 355

رابعا: تحذير الناس من حركات وضع الأحاديث:

دأب مفكّرو ومجدّدو جمعية العلماء على تفنيد الأحاديث الموضوعة، والآثار الشائعة المنكرة التي شوّهت جمال الإسلام. لقد كان النّاس لا يرجعون في شيء من أمر العقيدة لا إلى كتاب ولا سنّة، بل كانوا يأخذون عقائدهم من كتب المتكلّمين المتنازعين، وهي كتب حافلة بالجدليات والمتناقضات، ومسائل الخلاف، ومن أهل الطرق والمتصوّفة الذين يتقوّلون على الرّسول –صلى الله عليه وسلم– بوضع الأحاديث ونسبتها إليه، فضعف بذلك سلطان العقيدة وزالت قدسيتها من النفوس، وأصبحت مجالاً للأخذ والرّد، واجترأ الناس على الكلام في الله وصفاته بما لم يأذن به، فخبا نور الإيمان، وضعف الوازع الديني في نفوس المسلمين، واستغلّ أصحاب الصوفية والطرقية هذه الحالة، فراحوا يدسّون الأحاديث الموضوعة ويزعمون أنّ في سلوك طرقهم الهدى والشفاء.

هال الإبراهيمي هذا الوضع الذي كان عليه المسلمون، وما وصلوا إليه من سوء، فوقف نفسه كلّها على معالجة هذه الحالة لأنّه اعتبرها من «الدّسائس الدخيلة التي صاحبت تاريخ الإسلام من حركات الوضع للأحاديث، إلى هجوم الآراء والمعتقدات المنافية للقرآن، إلى ما ادّخر لزماننا من إلقاء المبشرّين والمستشرقين للشّبهات في نصوص القرآن عن عمد، ليصدّوا المسلمين عن هديه، وإنْ أخطر هذه الفتنة الأخيرة لأعظم ممّا يتصوّره علماؤنا».(1)

فكان الإبراهيمي يرمي من وراء دعوته النّاس للرّجوع إلى الكتاب والسنّة "الصّحيحة الثابتة" إلى تطهير العقيدة الإسلامية ممّا دخلها من الزّيْغ والانحراف، وخاصة ما كان منها من أثر الأحاديث الموضوعة والضعيفة.

ولذلك اتّهم علماء الجمعية –كما بيّن الإبراهيمي– أصحاب الطرق بأنّهم خرجوا في دعوتهم عن الدين الإسلامي، وخاصة لمّا ادّعوا على لسان مُؤسّس أحد الطرق الصوفية –أحمد التيجاني (المولود: 1150هـ) بأنّ النبي –صلّى الله عليه وسلم– أمره بتلاوة دعاء "صلاة الفاتح".(2)

فكشف الإبراهيمي زيف هؤلاء الغُلاة وفضح أساليبهم في الخداع، وطريقتهم في التلبيس على عقيدة الأمّة باختلاق آحاديث موضوعة تُزيّن لهم سوء أفعالهم وأفكارهم.

---

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 207

(2) – ادّعى مؤسس الطريقة التيجانية بأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أمره بأن من تلا دعاء صلاة الفاتح يعدل في الأجر والثواب أجر ستة آلاف ختمة من القرآن الكريم، كما أنّه يعدل أجره ثواب آلاف المرات ثواب الحجّ، ومئات الآلاف ثواب الصلاة، ولمعرفة المزيد من التفاصيل ارجع إلى الإبراهيمي، ج1/ 103

خامساً: الدعوة إلى تجديد الفقه والثورة على الجمود الفكري:

إنّ الجهود التي بذلت في الجزائر لعودة المسلمين إلى الإسلام الصّحيح طيلة الفترة التي سبقت ميلاد جمعية العلماء المسلمين أشبه بجهود فردية، و لم تصل إلى مستوى التيّار العام المؤثّر بل إنّ العكس هو الصّحيح.

فالتيّار العام المؤثّر تقريبًا والشّائع هو تيار الطرقية والخرفات والبدع، والاستغاثة والتوسّل والشّفاعة لغير الله، والتعصّب المغالي فيه لمذهب الإمام مالك، لدرجة أنّ الجزائر وغيرها من بلدان المغرب العربي كلّها تكاد تخلوا من المذاهب الأخرى، ومن المجتهدين المجدّدين المتّصلين اتصالاً مباشرًا بفقه القرآن والسنّة.

ونتيجة للهيمنة التي يتمتّع بها أهل الطّرق والتصوّف وغيرهم من المبتدعة، كان أكثر المصلحين الذين ظهروا خلال تلك الفترة المنصرمة يميلون إلى لون من الإصلاح والتجديد، لا يذهب بهم إلى درجة الصّراع والمواجهة مع الصوفية، فكان بعضهم يعمد إلى الحركة والتجديد الجزئي، حتى لمع نجم العلماء، وسيطر فكرهم الإصلاحي القوي على الجزائر ممثّلاً في جمعية العلماء المسلمين وفيمن سبقها من الرّواد.

هال رجال الجمعية والإبراهيمي واحد منهم الوضع العام للجزائر، وآلمهم وهم يشاهدون الأمّة الجزائرية تتخطّفها الأعداء من كلّ جانب، فمن داخلها الفرق الدينية على اختلاف أسمائها تنخر فيها نخر السّوس وتبعدها عن إسلامها الصّحيح عن طريق الآراء والتعصّب للمذاهب والتصوّف الأرعن، ومن خارجها الاستعمار بهدم مقوّماتها وطمس معالمها ومسخ عقيدتها.

هكذا كانت الأمّة في عهد الإبراهيمي، فالخطر يتهدّدها من الداخل ومن الخارج، فكان من الواجب إزاء هذا الوضع أن يسارع إلى جمع شملها وتوحيد صفّها ومعالجة مشكلاتها.

وكان لزاماً على المسلمين أن يفكّروا بجدّ في دعوة الإبراهيمي التي أوضحت لهم معالم الإسلام الصّحيح، وكيف حارب البدع والتصوّف غير المشروع، وكيف سعى في العمل على توحيد المسلمين على منهج الرّسول الكريم، وأصحابه من بعده، عن طريق حضّ المسلمين على الرّجوع إلى الكتاب والسنّة، وهجر المذهبية التعسّفية التي كانت من أهم عوامل تمزيق المسلمين إلى شيع وفرق، يكيد بعضهم بعضاً. فهفت بذلك سلطان العقيدة وزال تأثيرها في النفوس، كنتيجة لهذه العصبية المقيتة.

وقد عدّ الإبراهيمي أنّ سبب تفرّق المسلمين هو هذه العصبية العمياء التي أصبحت سمة غالبة في المجتمع ولذلك نجده يقول: «وإنّما الذي نعدّه في أسباب تفرّق المسلمين هو هذه العصبية العمياء التي حدثت بعدهم للمذاهب، والتي نعتقد أنّهم لو بعثوا من جديد إلى هذا العالم لأنكروها على أتباعهم ومقلّديهم وتبرّأوا إلى الله منهم ومنها، لأنّها ليست من الدين الذي اؤتمنوا عليه، ولا من العلم الذي وسّعوا دائرته».(1)

فالإبراهيمي من خلال هذا التوجه يرمي إلى القضاء على ظاهرة التعصّب التي تمكّنت من النفوس والعقول حتى حملتهم على معاداة بعضهم بعضًا.

ففي سياق الدعوة إلى إعمال الفكر وعدم التحجير على العقل، نجد الإبراهيمي يعتب على الذين يلغون عقولهم ويجمدون على مقولة "ليس في الإمكان أبدع ممّا كان"، وبذلك يكونون قد وقعوا في شراك التعصّب والجمود، فقال مبيّناً «كان خمود، وكان ركود، وضرب التقليد بجرّانه فقضى على ذكاء الأذكياء وفهم الفهماء إلى أن أذن الله للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد ويستقلّ في الفهم.... فكانت إرهاصات التجديد».(2)

كما لم يخف الإبراهيمي استهجانه ومقته للتعصّب الأعمى الذي يحجب عن معرفة الحقّ بل ويعمل على تفريق وحدة المسلمين وتمزيق شملهم، بل ويذهب إلى جعل كلام غير المعصوم أصلاً، وكلام الله ورسوله يُستأنس بهما عند وقت الحاجة، وهذا في تقدير الإبراهيمي شرّ ما بلغته العصبية بأهلها.(3)

ولّما كان المصلحون لا يحتاجون إلى جهد كبير من أجل دحض مزاعم هؤلاء المتعصّبين، لذلك وجدنا الإبراهيمي سرعان ما أعاد للعقل دوره الطبيعي الذي لوّثته أفكار الطرقيين، وطالب أسراء المألوف وأحلاف الجمود(4) من غير تردّد أن يسلّموا العلم بالكتاب والسنّة وهدي السّلف إلى من مارسها بالبصيرة النافذة، وتناولها بالذّهن الوقّاد والقريحة الحيّة، وأنفق في تعلّمها حياته كلّها.

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 96

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 345

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 96

(4) – المصدر نفسه، ج1/ 74

ومن في مقدوره تحمّل مسؤولية العلم، وحمل لواء التجديد بأفضل من رجال جمعية العلماء المسلمين الذين بتوفيق من الله كانوا سبب هداية النّاس إلى الخير، وكانوا دعمًا للجمعية التي أفلحت «في تبيين السنّة النبوية المحمّدية معنى ومفهومًا، وحمل الأمّة على الرّجوع إليها علماً وعملاً والتمسّك بالصّحيح الثابت منها فعلاً وتركاً، والاهتداء بهدي السّلف.... وشرح عملي لدين الله يؤيده ولا يعانده....»(1).

وانطلاقا من هذه الرؤية سأعرض إلى فكر فقيه مجتهد من فقهاء وعلماء المسلمين –الذي حسَب ظنّي– لم ينل حقّه من الذّكر وخاصة من خلال هذه الزاوية، لذلك أتاحت لي هذه الدّراسة أن أكشف بعض الجوانب الخفية في فكره.

فموضوع التجديد في الفكر أو التجديد في الفقه الذي لا يتم تجديد الفكر إلاّ به، لا يمكن أنْ تُفهم إلاّ إذا فُهمت قضية تجديد الفقه لأنّ الفقه هو روح هذه الأمّة وهو منظّم حياتها.

فالمجتهد في نظر الإبراهيمي هو الذي بمقدوره أنْ ينفذ إلى لبّ الفقه، وأحكام الدين، ويستخرج منهما الحِكم المنطوية تحت أحكامه، فالحقيقة المطلوبة في نظره هي تدبّر القرآن الكريم، وتفهّم السّنة النبوية بعمق، ودراسة التراث الفقهي الكبير، وذلك لتقديم الحلول المناسبة لواقع النّاس اليوم الذي أصبح مغايرًا تمامًا لواقعهم بالأمس، وهذا ما أشار إليه في قوله: «إنّ في الفقه فقهًا لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لباب الدين، وروح القرآن، وعصارة سنّة محمد –صلّى الله عليه وسلم– وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومتاركه.... وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عزّ الدنيا والآخرة وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمّة فتحيا به، ونصحّح به عقائدها ونقوّم به فهومها، فتصحّ عبادتها وأعمالها، فإنّ العبادات هي أثر العقائد....»(2).

هذه نظرة الإبراهيمي للفقه الصحيح، ذكرتها لبيان مرونة الاستنباط من النّص، وكذلك مدى سعة حركة الفكر وإعمال العقل في الإسلام، ولذلك على العلماء الذين استجمعوا شروط وآليات الاجتهاد أن يعملوا بهذا الاتجاه لبيان شمولية هذا الدين وواقعيته، فالصحابة الكرام ومن جاء بعدهم من الفقهاء والعلماء المجتهدين، الذين أخذوا بالرأي، وبنوا الحكم عليه ما كان منهم

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 217

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 203

أحد يقطع بأن ما وصل إليه هو حكم الله، وإنّما كان يقول هذا رأيي فإن كان صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنّي،وهذا المعنى هو نفسه الذي أشار إليه "القرضاوي" لّما قال بأنّه لا يمكن اعتبار «الخلاف المذهبي شرّ أو خطر، كلاّ، فهو دليل على مرونة شريعتنا، وخصوبة مصادرنا وثراء فقهنا، وتسامح أئمتنا، فقد تعايشت هذه الأقوال والآراء جنبا إلى جنب، في عصور الاجتهاد، برغم اختلاف منازعها وتعدّد مشاربها، و لم يكن بينها إلاّ التعاون والاحترام المتبادل»(1) وهذا ما يُعبّر عنه باحترام الرأي الآخر، فالاختلاف في الرأي نتيجة حتمية للاجتهاد، وهو دليل على حيوية الفكر الإسلامي، كما أنّه دليل على إعمال الفقهاء عقولهم وشدّة حرصهم على الوصول إلى الحقّ والصواب، وعلى هذا فلا يصحّ أن تضيق النفس لاختلاف الفقهاء، بل نعدّ ذلك ثروة فقهية تشريعية تركها السّلف للخلف.

على أنّ هذا الكلام لا يعني أبدًا أنّها دعوة للاختلاف، بل تبيين على أنّ الخلاف أمر طبيعي في كلّ اجتهاد، وأنّه بجوهره وجه من وجوه التشريع، وتنزيل الأحكام الملائمة على الوقائع. فإذا فهمنا هذه الحقيقة نجونا من داء التعصّب لأقوال بعض المجتهدين دون بعض بلا دليل ولا حجّة. فالشريعة أوسع من أن يحيط بها مذهب مجتهد معيّن، فالاجتهاد لابد وأن يثمر الاختلاف في الرأي ولا حرج في ذلك. فتعدّد الآراء يوصل إلى الحقّ، ويفتح أبواب اليُسر والتسهيل على النّاس.

فإذا كان الاجتهاد أمراً مقرّراً في الإسلام، وهو الذي يمثّل قضية احترام العقل، فالأمر الذي لم يقرّره الإسلام و لم يقبله العلماء، إنّما هو التقليد ولذلك تشكّلت قناعة الإبراهيمي من أنّ كثرة المذاهب الفقهية لا تمثّل ظاهرة مرضية، بل هي حالة صحّية، و لم يكن أصحابها عبر التاريخ من دعاة تفريق المسلمين، أو أنّهم طلبوا من أحد مهما كان بضرورة إتّباعهم أو تقليدهم، بل إنّهم «نصحوا وبيّنوا وبذلوا الجهد في الإبلاغ وحكّموا الدليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل».(2)

وإذا كان من المسلّمات وقوع الخلاف في الرأي بين سائر الأئمة والمجتهدين من أصحاب المذاهب في العديد من المسائل الفقهية وطرق الاستدلال، فممّا لا جدال فيه أنّ أتباع هذه المذاهب الفقهية لم يسيروا فيها جامدين بل كانوا يعملون على إحيائها وتجديدها في كلّ عصر

(1) – يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ص: 116

(2) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 95

من العصور بما جدّ من أفكار وأمور، ويُفتون فيما يقع من الحوادث بما يتّفق مع الحال، وأحياناً كانوا يخالفون مذهب إمامهم. وقد ذكر الإمام "أبو زهرة" –أنّ "عمر بن عبد العزيز" كان «يسرّه اختلاف الصحابة في الفروع، ويقول: ما أحبّ أنّ أصحاب رسول الله –ص– لا يختلفون لأنّه لو كان قولاً واحدًا لكان النّاس في ضيق، وأنّهم أيمة يُقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنّة».(1)

ويعلّق أبو زهرة على هذا المعنى بقوله: «إذا كان الافتراق حول العقائد في جملته شرًّا، فإنّه يجب أن نقرّر أنّ الاختلاف الفقهي في غير ما جاء به نص من الكتاب والسنّة لم يكن شرًّا، بل كان دراسة عميقة لمعاني الكتاب والسّنة وما يُستنبط منهما من أقيسة، ولم يكن افتراقًا بل كان خلافًا في النّظر وكان يستعين كلّ فقيه بأحسن ما وصل إليه الفقيه الآخر، يوافقه أو يخالفه».(2)

لقد أثبتت الدّراسة أنّ الإبراهيمي كان مطّلعًا على الفقه، ومُلِمًّا بقواعد أصول الفقه، وعارفًا بآليات الاجتهاد، ثائرًا على التعصّب المذهبي، ومستوعبًا لمقاصد الشّريعة وحِكمها، ونتوقّف هنا لإثبات أنّه لا يمكن أن يمارس التّجديد إلاّ من يحقّ له أن يمارس الاجتهاد، بمعنى أن يكون قادرًا على النّظر في الأدلّة، عارفًا بالواقع فاهمًا للغة العرب التي نزل بها الكتاب ونطقت بها السّنة وهذا هو الحدّ الأدنى، بالإضافة إلى الشّروط الأخرى، والتي أشرت إليها في مبحث "شروط وأسس التجديد".

وهذا ما جعل الإبراهيمي يشيد بدور الفقهاء المجتهدين وبقدرتهم على امتلاك آليات النّظر والرأي والاستدلال، في قوله: «بذلوا الجهد في الإبلاغ وحكّموا الدليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل وأتوا بالغرائب في باب الاستنباط والتّعليل والتفريع والتأصيل، ولهم في باب استخراج علل الأحكام، وبناء الفروع على الأصول، وجمع الأشباه بالأشباه والاحتياط ومراعاة المصالح ما فاقوا به المتشرّعين من جميع الأمم».(3)

واستنادًا إلى هذه الخلفية المعرفية في مجالي الفقه وأصوله، انصبّت توجيهات الإبراهيمي لأبناء الأمّة على أن يتعلّموا منذ صغرهم طرق الاستدلال، وقواعد الاستنباط، والاطّلاع على الأشباه

(1) – محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد، ، دار الفكر العربي، [1946م]، ج1/ 11

(2) – المصدر نفسه، ص: 11

(3) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 96

والنّظائر والإلمام بمعرفة العلل والأسباب، لينشئوا تنشئة تتّسم بالقدرة على الاستدلال والاستنباط وتنبت نفوسهم على ملكة التّعليل.(1)

ونخلص إلى القول بأنّ الإبراهيمي كان من دعاة تجديد الفقه وأصوله، باعتبار الفقه فهم بشري وتفسير ظرفي ورؤية محدودة بالزّمان والمكان، وليس بوحي مقدّس، بل هو وضع بشري قابل للتغيير، بخلاف الشّريعة التي هي نصوص مقدّسة من القرآن الكريم والسّنة الصّحيحة.

فمن هنا فهو يرى بضرورة التّجديد والاجتهاد في مجالي الفقه وأصوله، وأنّه لا مفرّ منه حيث تكون دلالات النّصوص الشّرعية ظنّية، وستجدّ أوضاع وقضايا لم يصدر بشأنها نصّ قاطع الدّلالة، فليس من الصّواب عدم طرقها وتناولها، بل ينبغي إيجاد حلول مناسبة تتناغم مع واقع الحال. لأنّه لابدّ من اعتماد فقه تجديدي يُلائم المرحلة ويُيسّر الأمور ولا يُعسّرها، ويُساير روح العصر ولا يتنكّر له، ولكنّه يستأنس بكلّ ما هو أصيل ومناسب من التّراث الفقهي، ويعتمد عليه ويستفيد منه.

فالإبراهيمي وهو يدعو إلى الاجتهاد، إنّما يدعو لاجتهاد هذه بعض معالمه: دراية بالنّصوص وفهم لمقاصد الدين، واستقلال عن التعصّب المذهبي، واستدلال على الآراء والأحكام، وفي هذا يشير إلى المنهج السّليم الذي يجب أن يكون عليه الفقيه وذلك في قوله: «ولو أنّ فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن، ومن السّنة القولية والفعلية، ومن عمل السّلف، أو من كتب العلماء المستقلّين المستدلّين التي تقرن المسائل بأدلّتها، وتبيّن حكمة الشّارع منها لكان فقههم أكمل وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامّة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى».(2)

وليس هذا الفهم الذي حدّده الإبراهيمي وتمنّى على الفقيه أن يكون عليه ببدعة من الفهم الصحيح للفقه، أو بابتداع لمنهج لم يسبق إليه أحد، أو بدعوة منه لتجاوز التراث الفقهي الزاخر بكنوز المعرفة الفقهية لآلاف العقول من الفقهاء والمجدّدين، أو دعوة لتجاهلها، بل ما هو إلاّ دعوة لدفع العقول الفقهية المعاصرة، باتّجاه مواصلة التطوّر الفقهي والتشريعي، تأسيًّا بالرّواد الأوائل الذين لم يكتفوا بالمعالجة الفقهية لحاضرهم بل قدّروها بما قد يتوقع حدوثه في مستقبل الأيام.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 300

(2) – المصدر نفسه، ص: 329

وقد أسّس الإبراهيمي موقفه الرّافض للتعصّب المذهبي ودعوته للاجتهاد على أنّ المرجع والحجّة هي لكتاب الله ولسنّة رسوله –عليه الصلاة والسلام– فلاحقّ في الإسلام إلاّ ما قام دليله منهما واتّضح سبيله من عمل الصحابة والتابعين لهما، أو إجماع العلماء بشرطه على ما يستند عليهما.(1)

إذن لمّا تكاملت في نفس الإبراهيمي هذه الثقافة الفقهية، عزم على القيام بثورة منهجية في تجديد الفكر الشّرعي، أساسها الدليل في كلّ مسألة، ولأنّه يؤمن بأنّ موجبات الدّعوة إلى تأصيل الفقه تقوم على المقاصد، والرّجوع المباشر إلى نّصوص الكتاب والسنة الصحيحة –دراسة وفهمًا، بذل جهدًا كبيرًا في الانتصار لهذا المنهج وإنفاذه بين طلبة العلم، حتّى أصبحت نفوسهم نزّاعة إلى طلب الدليل في أمور دينهم(2)، من الكتاب والسّنة وأصبحوا يقدّرون قيمة الدّليل الشرعي وأهميته في استنباط الأحكام، حتّى صار هذا النّهج يمثّل التوجّه العلمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا ما شهد به الإبراهيمي نفسه حينما قال: «الغرّة اللاّمعة في جبين هذه النّهضة العلمية هي اقتران العلم بدليله فأصبح علماؤنا يعلّمون بالدّليل ويدعون إلى الدليل ويطالبون بالدّليل ويحكّمون الدليل ولو في أنفسهم».(3)

ولعلّ الصّيغة العلمية للتجديد المتوخّاة من قبل الإبراهيمي، والهادفة إلى تغيير ما خرج عن أصل وضعه الشرعي من المعاملات والممارسات، تكمن في إحياء معاني الأحكام ومقاصدها.

فالتفاعل المستمر بين معاني الأحكام، والمقاصد الشّرعية، وبين واقع الأمّة، هو الكفيل بدوام أحكام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال السّابقة واللاّحقة.(4)

ومن الإشارات المؤيّدة لهذا القول، ما ذكره الإبراهيمي نفسه، من أنّ أحكام الله معلّلة بالمصالح والحكم، فالمصلحة في نظره باتت أمرًا تدعو إليه الضّرورة والحاجة العامة.

فالشريعة كلُّها مبناها على المصالح، التي هي غاية التشريع، وتحقيقها هو أساس العلّة التي يرتبط بها كلّ حكم شرعي وهذا ما عناه الإبراهيمي في قوله: «وللتشريع الإسلامي لكلّ قضية عامة تدعو حاجة النّاس إليها وتدخل صميم حياتهم مقاصد بعيدة المدى، شديدة المواقع، واضحة الآثار في المجتمع الإسلامي، وعلى هذه المقاصد بنيت الأحكـــام الفرعية والذي يغفل عن هذه المقاصد لا

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 106

(2) – المصدر نفسه، ص: 75

(3) – المصدر نفسه، ص: 74

(4) – محمد أحمد الرّاشد، أصول الإفتاء والاجتهاد والتطبيقي، ج1/ 270

يسلم من الخطأ في النّظر إلى الجزئيات، ولا يضمن الإصابة في ترجيح دليل على دليل عند التعارض»(1).

فمن خلال تتبّعنا لآثار الشيخ الإبراهيمي في معالجته للعديد من المسائل الاجتهادية، والتي لا يتّسع المجال لذكرها، بدءًا بموضوع قضايا الأسرة من زواج وصداق وطلاق، وغيرها من المواضيع المهمّة، يتبيّن لنا كيف وظّف الإبراهيمي نظرته المقاصدية العميقة في معالجته قضايا اجتماعية ذات بُعد شرعي، لأنّه يعتقد أنّ على الفقيه، أن يتّسع نشاطه للقيام بالمعالجة الواقعية لجميع القضايا المطروحة بنظرة جديدة، لا تحتكم إلى الفقه التقليدي، بل بنظرة الفقهاء المستقلّين المستدلّين الذين يترعون إلى الاحتكام إلى الدّليل في استنباط واستخراج الأحكام الشّرعية وإلى معرفة مقاصد الشريعة في جميع المواضيع. فالعبرة في فقه الإبراهيمي قائمة على المقاصد والحِكم والمعاني لا على الألفاظ والمباني. وإذا كان ولا بدّ من تصنيف منهج الإبراهيمي، وفي أيّ خانة يمكن أن يكون، لقلت إنّه مجتهد غير مقلّد ولكنّه من المجتهدين في المذهب، يعتمد على أصول مذهب الإمام مالك ليستخرج الأحكام الشّرعية العملية من أدلّتها التفصيلية. وهذا ما يمكن استخلاصه من معالجته للعديد من القضايا الشّرعية والمسائل الاجتهادية المبثوثة في تراثه، ومن أراد أن يقف على المزيد، فيمكنه الرّجوع إلى طريقة تناوله للمسائل التّالية:

- نظرته للزّواج وموقفه من مغالاة المهور.(2)
- نظرته للطلاق والوقوف على أسبابه.(3)
- نظرته من تعيين الأيمّة من قبل إدارة الاحتلال.(4)
- نظرته لفلسفة الصوم في الإسلام، وموقفه من لجنة الأهلّة.(5)
- نظرته لفقه الحجّ.(6)
- تطلّعاته لتحقيق دراسات موضوعية من التعاملات المصرفية.(7)
- معالجته لقضية الرّق في الإسلام.(8)

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 365

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 325-326-361-362-363

(3) – المصدر نفسه، ص: 331

(4) – المصدر نفسه، ص: 154

(5) – الإبراهيمي، ج3/ 100، وعيون البصائر، ص: 572-577

(6) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 55-60

(7) – الإبراهيمي، ج1/ 14

(8) – الإبراهيمي، ج4/ 370-374

ونخلص في خاتمة هذا المبحث إلى القول: أنّ الصّيغة العملية للتجديد، ولتغيير ما خرج عن أصل وضعه الشّرعي من المعاملات والممارسات عند الإبراهيمي تكمن في:-

- إحياء معاني الأحكام ومقاصدها، ونشرها بين مختلف طبقات الأمّة ثمّ توثيق الصّلة بين الأمّة وعلمائها.
- اعتماد طريقة القرآن الكريم في الاستدلال على العقيدة، لأنّ أدلّة العقائد مبسوطة كلّها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلّة الأحكام أصولها مذكورة كلّها فيه وبيانها وتفاصيلها في سنّة النّبي –صلّى الله عليه وسلم– لذلك أكّد على أهل العلم القيام بتعليم العامّة العقائد الدينية، ومعرفة أدلّتها من القرآن العظيم، لأنّ العامّي لن يجدها سهلة بسيطة إلاّ في كتاب الله، وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، أمّا الإعراض عن أدلّة القرآن، والذّهاب مع أدلّة المتكلّمين القائمة على التعقيد والتأويل، فإنّه من الهجر لكتاب الله، ومن هنا تجلّى اهتمامه على تجديد الدين وإحيائه، وتنقية العقيدة من آثار علم الكلام، وأهل الطّرق والمبتدعة والصّوفية.
- الدعوة إلى اعتماد فقه تجديدي، يلائم العصر، ويُيسّر الأمور ولا يعسّرها، ويُساير روح العصر ولا يتنكّر له، وهذه بعض معالمه:
  - دراية بالنّصوص.
  - فهم لمقاصد الدين.
  - استقلال عن التعصّب المذهبي.
  - استدلال على الآراء والأحكام.

كما بيّن بأنّ الشريعة الإسلامية تتّسع لتجديد الفكر، ولتغليب المقاصد على الالتزام الشكلي الصّارم بحرفية النّصوص، وأوضح بأنّها تشجّع البحث والاجتهاد للأفضل والأحسن قياسًا على المقاصد الكلّية واعتبارًا بهدي الإسلام، وهذه المعاني يُجسّدها الأيمّة المجتهدون والفقهاء المخلصون، المنافحون عن النصوص تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

المبحث الثاني:

التجديد في المجال التربوي والثقافي

مع أنّ المجتمع الجزائري المسلم في فترة الاستعمار كلّه لم يعدم المخلصين والعلماء المجدّدين، ومع أنّه كان هناك نشاط إسلامي يعمل بجدّ واستمرار، إلاّ أنّ هذا النشاط اتّسم –بشكل عام بالنّزعة المذهبية والانقسام– لذلك ظلّت جهود العلماء العاملين تُهدر في أغلبها دون الوصول إلى نتائج تُذكر.

ولقد كانت المشكلة الرئيسية التي تفرّعت عنها سلبيات هذه النّزعة المذهبية والتّعصّب لها، أنّ كلّ جماعة منها تعتبر نفسها صاحبة الحق الوحيد في الوجود على مسرح الحياة.

وأفرز هذا المفهوم المذهبي آثارًا خطيرة في كثير من ميادين الثّقافة والتربية والتعليم، ففرض عليهم التوقّف عن التفاعل الفكري مع نظائرهم من الاتجاهات الأخرى، وألزمهم الاقتصار على مطالعة كتب المذهب وتصانيفه.

والذين يخرجون على تقاليد المذهب في الانغلاق والتعصّب، وينفتحون على الآخرين يصبحون هدفًا للاتّهام بالنّفاق وعدم الالتزام، والخروج على تعاليم المذهب مهما كانت مترلتهم العلمية ورتبهم المذهبية، ومثال على هذه الحالة، ما وصف به الإبراهيمي هذه الحالة في قوله: «ومن مكرها الكبّار أن تعمد إلى العلماء وهم ألسنة الإسلام المنافحة عنه فترميها بالشّلل والخرس، وتصرّفها في غير ما خُلقت له. فقد ابتلت هذه الطّرق علماء الأمّة في القديم بوساوسها وأوهامها حتّى سكتوا لها عن باطلها.... حتّى زادوا على السّكوت والإقرار والإتّباع والانتساب والوقوف بالأعتاب، حتى أصبحنا نرى العالم المؤلّف يعرّف نفسه للنّاس في صدر تأليفه بمثل قوله: فلان المالكي مذهبًا الأشعري عقيدة، التيجاني طريقة»(1).

لقد شاعت ظاهرة الإرهاب الفكري والتعصّب المذهبي، ومزّقت الأمّة إلى جماعات متناحرة متنافرة، وتحدّدت أطر الإنتاج الفكري في حدود المذهب. فصار المستوى الثقافي عقيمًا لا تكاد تلمس أو ترى إنتاجًا فكريًا أو معرفيًا إلاّ ما ندر، وصارت المؤلّفات إلاّ ما كان يخدم المذهب

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 101

أو إطراء وإشادة بتضحياتهم وجهادهم، وظهرت كتب المذاهب الفقهية وظهرت الحواشي والمختصرات المذهبية.

وفي كلّ هذه الأعمال الفكرية لم تنل المشكلات المعاصرة، والحاجات القائمة التي تتعلّق بالأمّة سوى إشارات هامشية. وأخطر هذه الآثار الفكرية، هو انقطاع أتباع المذهب عن الاتصال المباشر بالقرآن والسّنة، والتوجّه بعقولهم وأسماعهم وأبصارهم إلى مؤلّفات رجال المذهب، على اعتبار أنّها الفهم الصّحيح المطلق للقرآن والسّنة، فكانت أعظم مصيبة أصابت المسلمين حرمانهم من هدي القرآن وتعاليمه الصّحيحة(1)، ولقد أدّى حدوث هذه الظّاهرة إلى تعطّل الفكر الإسلامي عن الإبداع والاجتهاد.

كما انعكست آثار التعصّب المذهبي على التعليم ومؤسّساته بشكل خطير جدًّا، فقد تسرّب شيوخ المذاهب، والطّرق إلى المدارس، وأمكنة التعليم، وانتشروا فيها وأثّروا تأثيرًا بالغًا في مناهجها وأهدافها واتّجاهاتها، ونوع الحياة السّائدة فيها.

ولقد تمثّلت هذه الآثار فيما يلي:-

1- فساد أهداف التعليم وغاياته، بحيث أصبحت هذه الأهداف تدور حول تأهيل الطّلبة الدّارسين وصرفهم عن العلم والمعرفة إلى خدمة شيوخهم والتفرّغ إليهم، وقد وضعنا الإبراهيمي في صورة ما كان عليه حال التعلّم والتعليم، في وقته، حيث يقول: «وقد أدركنا من بقايا هذا السّكوت المخزي أنّ شيخ طريق الجاهل الأمّي يجلس في مجالس الوعظ والتّذكير، فيذكّر مريديه بغير ما أنزل الله، ويجلس بجنبه عالمًا مأجورًا على السّكوت، ليتّخذ من سكوته حجّة وعونًا على إضلال العامّة».(2)

2- ونتيجة للأهداف المذكورة ضاق مفهوم المنهاج الدّراسي، فاقتصر على مباحث الفقه الخاصّة بالعبادات والمعاملات التي تحدّدت بالأطر المذهبية، فاختفت علوم المقاصد ومباحث الدّين والدنيا على حدّ سواء، وشاعت أساليب الجدل، واختفت أساليب التّطبيق والتّركيز على السّلوك والمهارات العقلية والعلمية، وفي العموم اقتصرت العلوم فيها على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير الذي ظلّ يتحجّر قرنًا بعد قرن.(3)

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 102

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 126

(3) – محمد قطب، واقعنا المعاصر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية –الجزائر، ط2، [1989م]، ص: 174

3- تسرّب النّزعة المذهبية إلى صفوف الطّلبة وإفساد روابطهم وعلاقاتهم، وتدريبهم على الخصومات والصّراعات التي كانت قائمة في المجتمع، ونتيجة لذلك تحوّلت مجالس الدّرس وساحات العلم إلى ميادين لمناصرة آراء المذاهب والطّرق وتفنيد آراء المخالفين ومهاجمتهم بالتّصريح والتّلميح، وانقسم طلبة العلم إلى مجموعات مختلفة، كلّ مجموعة تلتفّ حول شيخ من مدرّسي الطّريقة أو المذهب، وتعظّمه وتتلقّى ما يقوله دون فهم وتنفذّ أوامره دون تفكير، ونتيجة لذلك أصبحت مجالس العلم حِمى مستباحة ومقسّمة إلى مناطق نفوذ محاطة بأسوار منيعة من الترغيب والترهيب(1)

انطلاقًا من هذه المعطيات انصبّت مساهمات الإبراهيمي على إبراز المجهود الفكري، والتربوي عنده، فلقد عرض لكثير من عناصر التربية والتعليم وأولاهما بالرّعاية والاهتمام، فقد تحدث عن المنظومة التربوية بكاملها، وبيّن مواصفات المعلّم الناجح، وأبان نظرته المقاصدية للتعليم وبماذا ينصلح، وبيّن الدّور الذي يجب أن يضطلع به الطلبة، وتحدّث عن المتعلّم موضّحًا أنجع السبل والطرق التي يمكن الاستفادة منها.

فلم يعد التعليم في منظور الإبراهيمي، ذلك التعليم البدائي الذي لا يتعدّى في أبعاده تنشيط الذّاكرة بالحفظ والاكتفاء بالعلوم النظرية دون الوقوف على أهدافه ومقاصده، وبيان مبادئ التربية وخصائصها وأسُسها.

فقد ذكر أحد أعلام الجمعية بأنّ الإبراهيمي قد وضع لهم «برنامجًا حافلاً للتعليم العربي بجميع أنواعه، وضمّنه أصولاً عظيمة من علم التربية.... وسلّمه لنا لنطبعه وننتفع به، وطالعناه فلم نجده كالبرامج المعتادة، وإنّما هو "معلّم مكتوب". فهو يأخذ بيد المعلّم، ويسير به خطوة خطوة إلى الغاية لا يضل عنها ولا يجوز، وكأنّما هو "مُلقِّن" من وراء المعلّم يملي عليه الكلام ويرشده إلى كيفية العمل لذلك آثر جماعة من قدماء المعلّمين تسميته "مرشد المعلمين"».(2)

لقد ذهب الإبراهيمي إلى إبراز أهمية الدّور الذي لعبه في مجال التربية والتعليم، في تهيئة النفوس المستعصية لتقبّل منهج العلم الصحيح والتربية، فقال مبيّنًا «ليعلم أبناؤنا معلّموا هذا الجيل أنّنا -ولا منّة عليهم- مهّدنا لهم كثيرًا من العقاب، وذلّلنا لهم كثيرًا من الصّعاب وحلّلنا كثيرًا من العقد الاجتماعية، التي عقدها البعد عن هداية الدين والجهل بحقائقه، ووطأنا لهم أكناف

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 64

(2) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 155، مقدمة الشيخ محمد الغسيري –أحد أبرز وجوه الجمعية–

النفوس المستعصية عن العلم، المستعصمة بالجهل، فأقبلت على العلم، بعد أن كانت عنه معرضة».(1) لقد أدرك الإبراهيمي حاجة الأمّة الجزائرية إلى التربية والتعليم، فوضع لها برنامجًا شاملاً لجميع المستويات، ضمّنه مبادئ التربية الأساسية، وأشار فيه إلى خصائص العملية التربوية ومقوّماتها، وكان الأمل يحدوه إلى توحيد التعليم والتربية، حتى ينشأ جيل الأمّة مطبوعًا بطابع واحد(2) يحمل أفكارًا واحدة، وينهل من معين واحد، ليُرشّح لتولّي مهام جسام تنتظره في مستقبل الأيام.

أولا: أهداف التربية والتعليم عند الإبراهيمي:

كان من الأهداف الأساسية لجمعية العلماء المسلمين برئاسة الإبراهيمي، هي إعداد جيل راشد عن طريق توحيد مناهج الدراسة، وكان رجاء الإبراهيمي منعقداً في أن يؤدّي "المرشد" الذي وضعه بنفسه، وبيّن وظيفته، المتمثّلة في توحيد أفكار هذا الجيل، وفي تصحيح اتجاهه إلى العلم والحياة.(3) ويكون ذلك على أساس العقيدة الصحيحة والأخلاق الإسلامية الفاضلة.

لذلك رسم الإبراهيمي معالم حركته في مجال الإصلاح العلمي بوضوح، فقال: «إنّ المهمة التي تقوم جمعية العلماء المسلمين بأدائها –وهي السير بهذه الأمّة إلى الحياة من طريق العلم والدين– وهي أقوم الطرق وأمثلها وأوفقها لمزاج الأمّة».(4)

وانطلاقاً من رصد معالم حركته في مجال التربية والتعليم، نورد أهم الأهداف التّربوية التعليمية التي كشف فيها عن ثقافة تربوية عميقة كما يلي:–

1– إصلاح العلماء صلاح للأمّة: لقد اتّضح أنّ مناهج الإصلاح التي اعتمدها المصلحون تقوم على أساس التربية والتعليم، فهم مقتنعون بأنّ التقدّم والتطوّر لا يتحقق إلاّ بأسلوب التربية والتعليم الذي به يتحقق إصلاح العلماء، ففي صلاحهم صلاح للأمّة، وذلك لما لهم من التأثير المباشر والقوي في كلّ المجالات.

– فالإبراهيمي يؤمن إيماناً عميقاً بأهمية العلم ودوره الرئيسي في نهضة الأمم والشعوب، ولذلك فهو يعلّق آمالاً كبيرة على العلماء والمثقفين الذين تناط بهم مسؤولية تربية وتوجيه الأمّة، فهو الذي يقول: «المثقفون في الأمم الحيّة، هم خيارها وسادتها وقادتها وحرّاس عزّها ومجدها. تقوم

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 157، مقدمة الشيخ محمد الغسيري –أحد أبرز وجوه الجمعية–

(2) – المصدر نفسه، ج3/ 158

(3) – المصدر نفسه، ج3/ 159

(4) – المصدر نفسه، ج1/ 67

الأمّة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير. ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير. ومازالت عامّة الأمم –من أوّل التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها، تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف. تحتاج إليهم في الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة. ويغذّوها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال. وتحتاج إليهم في أيام الخوف، ليحلّوا المشكلات المعقّدة ويخرجوها من المضائق محفوظة الشّرف والمصلحة».(1)

– ولأهمية الدور الكبير الذي يلعبه العلماء في إصلاح الفرد والمجتمع، نجده يؤكد عليهم في النّصح، حيث يهيب بهم ويدعوهم إلى إصلاح أنفسهم قبل دعوتهم لغيرهم.

وإنّ أوّل واجب يضعه على عاتق المثقفين، هو أن يقوموا أولاً بإصلاح أنفسهم قبل كلّ شيء، لأنّه لا يمكن أن يؤدي دور المصلح من يفتقد إليه، وفاقد الشيء لا يُعطيه، ثم يأتي دور وواجب استكمال ما نقص من المؤهّلات العلمية والتثقيفية. أمّا ثاني واجب يراه، هو العزم على إصلاح المجتمع.(2)

2– إعداد الفرد الجزائري للحياة: بالرّجوع إلى المنهاج الذي سطّره الإبراهيمي وحدّد ملامحه لجميع الصفوف، فإنّنا نجده يحرص على إعداد الفرد الجزائري إعداداً كاملاً يشمل جميع مناحي الحياة، فهو يرى أنّ تربية الفرد وإعداده يُعتبر من أهم أهداف العملية التربوية.

من أجل ذلك تبنّى خطة شاملة، تهدف إلى إعداد الفرد إعداداً قويماً. وفي هذه الخطة تكاملت جميع المؤسّسات والهيئات بما يحقق مصلحة الفرد، فجاء التركيز بالدرجة الأولى على الأجيال الناشئة، فعمد برفقة إخوانه إلى الإشراف على بناء المدارس، ودور القرآن الكريم، والدّراسات الشّرعية وغيرها، وانتدب لها مشاهير العلماء من ذوي الكفاءات العالية الذين تخرّجوا من مواطن العلم والعلماء، ليضطلعوا بالمهمّة النبيلة التي يعلّق عليها –الإبراهيمي– وإخوانه كلّ الآمال وليتربّى على أيديهم جيل صالح للحياة، لها وبها ومعها، نافعاً محبّاً محبوباً.(3)

كما اعتبر الإبراهيمي نظام التعليم القائم، نظاماً فاسد الأهداف والغايات، لأنّه في نظره لا يعمل على خدمة أهداف رسالة الإسلام، بل يُحقّق أهدافاً، لا ترقى إلى مستوى تطلعات الأمّة، ولذلك نجده يوجّه نقده في غير تردّد إلى واقع وحال التعليم، إذ يقول لهم مخاطباً «أنتم في

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 352

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 355

(3) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 156

وضعكم العلمي- أبناء مدارس*، وجودها في زمان وروحها في زمان، فهي في يقظتها في حلم، وهي مع جدّة الزمان في قِدم، وهي لا تعطي من الحياة إلاّ صورها الميّتة، وهياكلها العظمية، وألوانها الحائلة.... فلم تزكّ النفوس التي جاء القرآن لتزكيتها، و لم تهيئها لسعادة الدنيا، ولا لسعادة الآخرة، و لم ترفع العقل من درجة الحجر إلى درجة الاستقلال في التعقّل، و لم تُصحّح موازينه في إدراك الحياة وفقه أسرارها».(1)

3- أهمية التربية السلوكية في العملية التربوية: إنّ أساس فلسفة التعليم عند الإبراهيمي تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان، وذلك بتظافر العلم والعمل، بحيث ينتج عن هذا التظافرْ تغييراً في السلوك، وما لم يتغير السلوك لم تحصل هذه السعادة.

ومن هنا اتّجهت فلسفة الإبراهيمي إلى تحقيق كمال حياة الفرد والمجتمع معًا عن طريق بناء الشّخصية الفردية والجماعية للجزائريين بناء متكاملاً في جوانبها الرّوحية والمادية.

وأولّ خطوة في هذا الاتّجاه هو العمل على تحقيق المبدأ القائم على الرّبط بين الهدف والسّلوك، وتكوين الاتجاه السّلوكي الأخلاقي قبل كلّ شيء، ولهذا كان يشدّد في الحرص على أن ينال التلميذ حظّه من الأخلاق قبل التعلّم، حيث نجده يقول: «احرصوا كلّ الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكم في تربية هذا الجيل الصّغير وهاديكم في تكوينه وهي. أنّ هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص العلم، وإنّما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق».(2)

لقد أدرك الإبراهيمي أهمية هذا العنصر ومدى أهمية السّلوك التربوي في حياة شباب الأمّة والأجيال النّاشئة في الارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للشهوات والأهواء إلى مقام العبودية لله، حيث يتحرّر الفرد من الخضوع للشهوات والخوف، وينصرف طبقًا لمراد الله سبحانه وتعالى.

لذلك نجده يوصي أكثر فأكثر إلى ضرورة التحلّي بالأخلاق، لأنّ الكمال الإنساني لا يمكن أن يتحقّق إلاّ عن طريق الأخلاق الفاضلة، فقال: مخاطبًا الطلبة قائلاً: «لا يضيركم ضعف حظّكم من العلم إذا وفر حظّكم من الأخلاق الفاضلة، فإنّ أمّتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل، إنّ حاجتها إلى الفضائل أشدّ وأوكد من حاجتها إلى العلم، لأنّها ما سقطت هذه السّقطة الشنيعة من

* يشير إلى الحالة السيّئة التي كان عليها التعليم الديني والعربي في عهده.

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 294

(2)- المصدر نفسه، ص: 290

نقص في العلم، ولكن من نقص في الأخلاق».(1)

4- البعد الغائي من التربية والتعليم: كانت التربية في نظر الشيخ الإبراهيمي، هي الطريقة المثلى لغرس التعاليم الإسلامية في عقول الناشئة وفي قلوبهم. فهذه الغاية هي القاعدة الأساسية في بناء الفرد الجزائري، وعليه نجد الإبراهيمي عمل على إيضاح هذا الهدف، وهذه الغاية التربوية في أسمى معانيها وأبعد مراميها.

ومن حسن حظّ الجزائر، أن الله تعالى وهبها رجلاً مربّيًا من الطراز الأوّل، ومنحه من المواهب والملكات، ما قاد به كتيبة التّربية على بصيرة ووعي بالهدف المنشود والمنهج المقصود.(2)

وإذا أردنا أن نعرف أثر التربية والتعليم الذي قامت به جمعية العلماء، فلنقرأ ما كتبه رئيسها الإبراهيمي، الذي بيّن هذه الغاية في قوله: بأنّ «جمعية العلماء هي التي حقّقت للجزائري نسبه العربي الصّريح، بريئًا من شوائب الإقراف والهجنة، وأحيت في نفسه شعور الاعتزاز بنفسه، وفي لسانه شعور الكرامة للغته، وفي ضميره شعور الارتباط بين ثلاث مقوّمات: الجنس واللغة والوطن، يمدُّها الشرق بسناه، ويغذّيها الإسلام بروحانيته».(3)

لقد سلك الإبراهيمي المسلك العلمي الحكيم، وهو مسلك التربية والتعليم، فكان من طريقته في التربية أن يرمي إلى تصحيح الفكرة، وصقل المعرفة، وترقية الرّوح، وتقوية الخلق، وتسديد الاتجاه في الحياة.

فالغاية التي كان يقصدها من تعليم النشء الجديد، هي تعريفه بنفسه وبقضيته ومعرفة تاريخه، والعمل على أن يكون على قدر من التأسيس الشّرعي، والإلمام بلغه دينه، ولقد لقي الإبراهيمي في سبيل تحقيق هذه الغاية كلّ المتاعب، وتجشم الصّعاب لبلوغها.

وكان رحمه الله يؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلاميذه وقد صاغ كلّ تلك الأهداف والغايات التربوية في مقالاته المبثوثة في آثاره(4)، ونذكر منها اجتزاءًا قوله: «وغاية الغايات من التربية –هي توحيدُ النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبطُ

(1)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 296

(2)– يوسف القرضاوي، مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، موقع القرضاوي مع أئمة التجديد ورؤاهم في الفكر والإصلاح www.qaradawi.net

(3)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 36

(4)– يمكن الرّجوع إلى مقالات الإبراهيمي المبثوثة في آثاره –عيون البصائر– للوقوف على المزيد من قواعد التربية وغاياتها في فكر الإبراهيمي ابتداءًا من صفحة 215 إلى ص: 313

نوازعه المضطربة، وتصحيحُ نظراته إلى الحياة.... ينظر إلى الحياة –كما هي– نظرة واحدة ويسعى في طلبها بإرادة متّحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة».(1)

كما كان يتخوّف من أن يتعرّض هذا الجيل من أبناء الأمّة للتّشويش وأن تهتزّ ثقافته العلمية والفكرية والتربوية، بعدما بذل في سبيل إيجاده وتحقيقه كلّ الجهد والتّعب، فكان غرسه غرسًا نافعًا ثابتًا، ويتوفر على مقوّمات جيل الأمّة المنشود.(2)

ثانيا: منهاج التربية والتعليم عند الإبراهيمي:

كما سبق الإشارة إليه من أنّ نظام التعليم القائم في زمن الإبراهيمي نظام فاسد الأهداف والغايات، وذلك لأنّه لا يركّز على خدمة أهداف الرّسالة الإسلامية، بقدر ما يركّز على تخريج جيل، ليس له من الهمّ إلاّ الحرص على الوظيفة، فلا علاقة لهم بالدين ولا صلة لهم بالأمّة، فكانوا يمتهنون المهن الدنيئة لأجل إرضاء حكومة الاحتلال ورجالها، لا إرضاء لله ودينه، وكانت كلّ صلواتهم وخلواتهم، لأجل مقابل مادي لا للواجب الديني، وكانوا يتقرّبون للحكومة الفرنسية بكلّ الوسائل والطّرق، بما فيها ركعات من صلاة، وتلاوة للقرآن، إرضاء "للبائلك" لا للتعبّد بالتلاوة.(3)

فنظام التعليم العربي في صورته التي كان عليها يمكن القول عنه أنّه نظام غير قادر على مواكبة صيرورة الحياة لتخلّيه عن تربية أبنائه، فصارت مهمة التربية تسند إلى هيئات غير مؤهّلة، ولا تتوفّر على أدنى مقوّمات التربية والتعليم.

فهو لم يكتف بمهاجمة نظام التعليم القائم، وإنّما وضع منهاجًا غايته تخريج مربّين وعلماء يخدمون أهداف الدين، ويحملون رسالة الإسلام، وحدّد برنامجًا حافلاً للتعليم العربي الحرّ، ضمّنه أصولاً عظيمة من علوم التربية، فأخرج للأمّة جيلاً يفهم الحياة ويقدّرها حق قدرها، ويتذرّع إليها بالأخلاق المتينة، وهذا هو أمل جمعية العلماء بقيادة الإبراهيمي، المتمثّل في تحقيق جيل الأمّة المنشود،الذي يشارف السّلف في عقائده، وعباداته، وأخلاقه، وصلته بمحمد –صلى الله عليه وسلم– وقربه من الله.(4)

وقد امتاز المنهج الذي اعتمده الإبراهيمي عن المناهج المعاصرة بما يلي:–

(1)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 303

(2)– المصدر نفسه، ص: 49

(3)– المصدر نفسه، ص: 117

(4)– الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 377

1- اعتماد مسلك التربية قبل التعليم: لأنّه يعلم أنّ العلم المجرّد من التربية الصالحة لا ينفع وقد يكون بلاء على صاحبه، ووبالاً على النّاس، كما هو مشهود في آثار العلوم الغربية في أصحابها وتداعيات ذلك على المقلّدين من أبناء هذه الأمّة.(1)

2- تجاوز الجزئيات التي أفرزها النزعة المذهبية: فلم يقتصر المنهاج على تدريس علوم الشريعة التي حدّدها المذهب، وإنّما تكاملت فيه العلوم الدّينية والدنيوية على حدّ سواء.

فالعلوم حسب مفهوم الإبراهيمي كلُّها إسلامية، وتنقسم إلى قسمين، شرعية وغير شرعية. فالشرعية ما استفيد من الوحي، وغير الشرعية ما أرشد إليها العقل كالطّب والحساب.

فالإبراهيمي إذْ يركّز على ضرورة الجمع بين العلمين، علم الدين، وعلم الحياة، فإنّه يؤكد على ضرورة التخصّص والتمكين في كلّ العلوم، وخاصة الدينية منها، مع الاهتمام الواسع بعلوم الحياة التي هي سلاح العصر(2) دون تغليب اهتمام على اهتمام، لأنّه يرى بأنّ من يقتصر في تكوينه على العلوم الدنيوية دون الشّرعية، يضيع عمره فيما لا ينفعه في الآخرة، ومن يقتصر على علوم الدين وحدها لا يفهم في الدين إلاّ ظاهره وقشوره، وقد ينشأ إذا أغفل جانبًا منهما أو أولى اهتمامًا متزايدًا لأحدهما على حساب الآخر، ما لا يحصى من المضار والمفاسد.(3)

وقد جسّد هذه الأفكار، والجمع بين الثقافتين فيما أعدّه من برنامج، والذي سطّره كمنهاج للمعهد الذي حمل اسم رائد النهضة "عبد الحميد بن باديس" الذي عنى بالرياضيات والطبيعيات، فكانت بحقّ تجربة موفّقة بلغت الغاية من النجاح.(4)

3- السّعي إلى توحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم: لا تكتمل صورة البرنامج والمنهج الذي أعدّه الإبراهيمي في صورته النهائية، ولا تتحقّق الغاية والأهداف والنتائج المرجوّة منه، إلاّ بتوحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم، ولا يتمّ توحيد المنهاج والبرنامج إلاّ بتوحيد الإدارة، ولا يتمّ توحيد الإدارة إلاّ بتوحيد الإشراف العام.

هذه هي المعاني التي دعت الإبراهيمي إلى جمع المدارس العربية تحت إدارة واحدة وإشراف واحد، وإلى حشر المعلّمين تحت لواء واحد، لأنّه أدرك بأنّ توحيد الغايات لا تأتي إلاّ إذا توحّدت الوسائل(5) فيتحقق المراد.

---

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 377

(2)- المصدر نفسه، ج3/ 57

(3)- المصدر نفسه، ج1/ 354

(4)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 282

(5)- المصدر نفسه، ص: 304

فهذا التكامل في الميادين التربوية برجالها، ومؤسّساتها، وبرامجها، أدّى إلى توحيد التعليم والتربية وإلى إنشاء جيل النّصر المنشود، الجيل الذي تعقد عليه الأمّة آمالها في الإفاقة من غفلتها.(1)

ثالثا: دوائر التربية الأخلاقية ودورها عند الإبراهيمي:

للتربية الأخلاقية ثلاث دوائر عند الإبراهيمي هي: المترل-المدرسة-المجتمع.

لقد تزامن مع نشاط جمعية العلماء الإصلاحي قيام حركة تشييد وبناء المدارس والمؤسّسات التربوية الخاصّة، التي استلهمت روح المنهاج التربوي الذي بلوره الشيخ الإبراهيمي، والتي أسبغت على مناهجها وأساليبها وتنظيماتها طابعًا إسلاميًا، تكاملت فيه ميادين العقيدة والتزكية والفقه. وتظافرت فيه جميع جهود العاملين لمعالجة الأمراض، الفكرية والنفسية، التي ضربت المجتمع الجزائري آنذاك.

انتشرت هذه المدارس انتشارًا واسعًا شملت أغلب مدن وقرى البلاد، وكان الإبراهيمي واحدًا من الرّواد الذين يُنسب لهم شرف التأسيس والتشييد، وقد صرّح بذلك في قوله من غير تردّد «ما دمنا من بناة هذه المدرسة، ومن أوّل الدّاعين إليها، والقائدين لحركتها والواضعين لبرامجها والمشرفين على كلّ دقيقة وجليلة فيها، والمعرّضين للبلاء في سبيلها- ففينا من الجرأة ما يدفعنا إلى الجواب عن هذا السؤال. الغاية من المدرسة هي تربية هذا الجيل وتعليمه».(2)

إلاّ أنّ التربية ليست مدرسة فحسب بل هي ثمرة تفاعل إيجابي بين هذه الدوائر الثلاث.

ولقد تنبّه الإبراهيمي إلى أهمية المحيط وأثرُه في العملية التربوية. إذْ أنّ توفير الرّعاية الصالحة في المترل والصّحة والمدرسة عامل فاعل في مكوّنات شخصية المتربّي، وهذه المهمّة يجب أن يتعاون فيها البيت والمدرسة.(3)

إنّ مسؤولية تربية الأطفال غاية في الخطورة، وتتجلّى هذه الخطورة أكثر لّما يغفل أولياء الأمور عن أداء واجبهم والقيام بدورهم، فطفل اليوم هو مسؤول الغد، ومن هنا تتعاظم مسؤولية دوائر التربية التي يتقلّب فيها الطفل، بدءًا بالأسرة ومرورًا بالمدرسة وانتهاءًا بالشارع.

ولذلك انصبّ اهتمام الإبراهيمي على هذه الدّوائر بصورة ملفتة لما لها من دور أساسي في تربية النشء، ولعلّ أهمّ هذه الدوائر عنده هي:-

(1)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 158

(2)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 303

(3)- الإبراهيمي، مصدر سابق، ج3/ 158

1- دائرة الأسرة: تعتبر الأسرة أهمّ مؤسّسة تربوية تعنى بتربية النشء، فهي النواة الأولى لتخريج الإنسان الصّالح، وقد أولاها الإبراهيمي اهتمامًا بالغًا في نظرته المتميّزة للعملية التربوية باعتبارها النواة الأولى في المجتمع، ولأنّها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة المجتمع.(1)

فالعلاقة القائمة بين الأسرة والمدرسة، وتأثير كلّ واحد منهما في الآخر، كشف عنه الإبراهيمي في قوله: «إنّ البيت عند الأمم الحيّة هي أخت المدرسة. كلتاهما مكمّلة للأخرى فالتلميذ بينهما يتقلّب بين عاملين من عوامل التثقيف والتهذيب».(2) إلاّ أنّ الإبراهيمي لاحظ أنّ دور التربية في الأمّة معطّل ومهملٌ من كلّ رعاية وعناية وتوجيه، بل لاحظ أنّ دورها اقتصر فقط على الاهتمام بالمظاهر العامة في أحسن الحالات، بل وقف على حالة التضارب في الوظيفة، فما تقوم به الأسرة تهدمه المدرسة، وما تنجح فيه هذه تفسده الأخرى، وكأنّهما ضرّتان، ولذلك نجده يقول: «أمّا البيت عندكم فهي ضرّة المدرسة، وما تبنيه هذه تهدمه تلك، وما تزرعه هذه تقلعه تلك. لأنّ قعائد البيوت جاهلات، وقعائد البيوت هي قواعده، وويل لبيوتنا من هذه القواعد ما دُمنا جاهلات».(3)

فإذا لم يشب الطّفل على قواعد التربية الصّحيحة السائدة في مجتمعه، فإنّه يفشل في حياته وينحرف نحو اتجاهات شاذّة لا يقرّها المجتمع، والمسؤولية المباشرة تقع على دور الوالدين ولذلك نجد الإبراهيمي، يحذّر من مغبّة هذا الإهمال، مبيّنًا تداعيات ذلك على سلوك الأطفال إنْ هُم تُركوا لغرائزهم الفطرية، إضافة إلى حرمانهم من التربية الصّالحة.(4)

2- دائرة المدرسة وأهميتها في صناعة جيل الغد: إلى جانب الأسرة، تعدّ المدرسة المؤسّسة الأكثر أهمية بعد المترل، لما تلعبه من دور فعّال في تشكيل أخلاق الطفل، وتوجيه سلوكه العام فهي أوّل فضاء يتّصل به بعد أسرته. وهي أعظم دعامة بعد دعامة الأسرة في تربية الأطفال وتوجيههم، ولما لها من مساهمة في بناء شخصية المتعلّم وتكوينه ثقافياً ومعرفياً وفق احتياجات المجتمع.

وإلى أهمية هذا الدّور الذي تلعبه المدرسة في العملية التربوية للفرد، يشير الإبراهيمي إلى ذلك قائلاً: «حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، ما في هذا شك، إلاّ في قلوب ران عليها الجهل، وغان عليها

(1)- السيد محمد بدوي، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.تا.النشر، ص: 135

(2)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 163

(3)- المصدر نفسه، ج3/ 163

(4)- المصدر نفسه، ج3/ 164

الفساد.... الحياة بالعلم.والمدرسة منبع العلم، ومشرع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة».(1)

ونظرًا لأهمية هذا الدّور الكبير الذي تقوم به المدرسة، فإنّ الإبراهيمي لا يرى طريقاً لإرواء العقل والرّوح والتماس الخير والنفع إلاّ طريق المدرسة دون سواه، مهما تشامخت الأبنية وتعالت بغاياتها وتفاخرت بمعانيها، فإنّ لبَّ النفع والخير في المدرسة وحدها.(2)

فلا سبيل للحفاظ على خلق الطفل ودينه، إلاّ بالمدرسة التي تعتبر حجر الزاوية في بناء شخصيته. والمدرسة لا تقوى على القيام بهذا الدّور التربوي بمعزل عن دور المعلّم المرّبي الحاذق الذي يمثّل بحق الحصن الذي يحفظ أبناء هذه الأمّة من الانحلال الديني والانهيار الخلقي، ويغرس في نفوسهم الفضيلة والأخلاق. والمدرسة إجمالاً تُصلح ما أفسده المنزل والشارع.(3)

ولذلك تركّزت اهتمامات الإبراهيمي حول إعداد التلميذ إعداداً خاصاً، ضمّنها كثيراً من النصائح المهمة، والإرشادات الهادفة، التي تعنى بإصلاح بواطن التلاميذ بالأخلاق والقيم.

فهذا الجيل هو وديعة الأمّة بين أيدي المعلّمين، لذلك فهو يوجه نداءه لهم، يحثّهم فيها على تحمّل مسؤولياتهم التربوية، حيث يقول: «إنّهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمّة بين أيديكم، سلّمتهم إليكم أطفالاً، لتردّوهم إليها رجالاً، وقدّمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الرّوح، وألفاظاً لتغمروها بالمعاني وأوعية لتملأوها بالفضيلة والمعرفة».(4)

3- المجتمع كوسط تربوي: يُعدّ المجتمع الحلقة الثالثة للتربية الأخلاقية، ولذلك حرص الإسلام على تكوين المجتمع الصالح، كما هدف إلى تكوين الفرد الصالح والأسرة الصالحة. فمن طريق التربية يستطيع المجتمع أن يرسم الغاية النبيلة التي يريد تحقيقها لأداء رسالته الحضارية كاملة.

«فالتربية عملية اجتماعية، تربط الفرد بالمجتمع، وتجعله يشعر بأنّه متضامن معه، وأنّه مترابط مع تراث اجتماعي عام، له ماضيه وحاضره ومستقبله».(5)

فالأطفال يتأثرون في هذا المجتمع بكلّ شيء، ويتشرّبون أنواع السلوك الذي يصدر منهم فيما بينهم ومع غيرهم أيضاً.

---

(1)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 283

(2)- المصدر نفسه، ص: 283

(3)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 337

(4)- المصدر نفسه، ج3/ 161

(5)- السيد محمد بدوي، المجتمع والمشكلات الاجتماعية، ص: 136

ولقد وقف الإبراهيمي على حقيقة الترابط بين حلقات ودوائر التربية الثلاثة، وتنبّه إلى تـــأثيرات بعضها على بعض. وأدرك أنّ بهذا التفاعل بين الدوائر التربوية الثلاث يحدث التكامل المطلـــوب فالطفل بينهم يتقلّب بين عاملين من عوامل التثقيف والتهذيب.(1)

فبهذا التفاعل بين المعلّم المرّبي والمحيط الخارجي، يفسح المجال أمامه لكي يتعرّف عن قرب علـــى المشكلات التي تتطلب العلاج، ويستطيع تشخيص الأمراض، ليتسنّى له تحديد الدواء اللاّزم، فإنّ من وجوه التجديد «الامتزاج بالأمّة والاختلاط بطبقاتها، والتحبّب إليها، ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية، والدخول في مجتمعاتها ومعابدها، ومشاركتها في عبادتها وفي الصالح من عوائـــدها، فبذلك تحصل الثقة منها وتنقاد لكلّ ما نريده، وبذلك يسهل على المثقف أداء واجبه على أكمل وجه، وثقة الأمّة بالمثقفين هي رأس المال في هذا الباب».(2)

رابعا: البعد الثقافي والإعلامي عند الإبراهيمي:

ممّا لا شك فيه أنّ الوضع الثقافي والإعلامي في الجزائر، في ظلّ الاستعمار وإحكام قبضته وضعٌ مأساوي، فحالة التعليم سيئة جدًّا. فقد هُجّرت ربوع العلم، وخرِّبت دور الكتب وصارت الدّيار مرتعاً للجهل والجهلاء، وانحطّ المستوى العلمي من الناحية العربية انحطاطاً كـــبيراً. وقـــد حاول الاستعمار إضافة إلى الاستعمار العسكري أن يسيطر ثقافيا وفكريا. وقد اتّضحت معـــالم هذا الغزو في القضاء على:-

- مراكز الثقافة العربية التي تتمثّل في المدارس والجوامع وغيرها من دور العلم والثقافة.
- التراث الثقافي العربي الإسلامي مثل المخطوطات والوثائق والكتب.
- الصحافة الوطنية التي تعمل على تثقيف الشّعب، وتوعيته وتُعرّفه حقوقه وماله وما عليه.(3)

لا شك أنّ هذا النَهب المتعمّد للتراث الثّقافي، يدخل في نطاق محاربة الثّقافة العربية والعمل على طمس معالمها، لأنّها المقوِّم الأساسي للشخصية الجزائرية، فهذا «الاستعمار القائم على الجنـــدي والمعلّم والطبيب والرّاهب هيكل حيواني يمشي على أربع.... وإنّ الاستعمار قد قضى بواســـطة هؤلاء الأربعـــة على عشرة ملايين من البشر، فرمى مواهبهم بالتعطيل، وعقولهـــم بالخـــمود وأذهانهم بالرّكود، وأفكارهم بالعقم....».(4)

(1)- الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 163

(2)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 356

(3)- رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 96

(4)- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 85

ومن هنا كانت مُعظم الجرائد والمجلاّت العربية، ما إن يلوح شعاعها في الأفق، حتى يهرع الاستعمار إلى خنقها وكتم أنفاسها، بوسائله، وإجراءاته الإدارية التعسّفية، ويعمد إلى غلقها ومصادرة أعدادها.(1)

وأيّاً ما كانت الإجراءات المتشدّدة والتعسفية فإنّها لم تفتّ في عضد الجمعية، ولم تنقص من عزيمتها وإصرارها على أن يكون لها لسانا يعبّر عن أفكارها، ويعلن عن مواقفها، ويبيّن أهدافها، فعمدت إلى إنشاء وسائل تغييرية من إحياء الرُّوح وإنماء الفكر وتنويره.

وقد اعتمدت في سبيل تحقيق ذلك إلى استحداث حركية إعلامية، تتمثّل في إيجاد مجموعة من الجرائد، منها المنتقد، والسنّة، والصراط، ثمّ بعد ذلك البصائر الأولى والثانية. وقد ضاقت بها حكومة الاستعمار ذرعاً فعطّلتها الواحدة تلوى الأخرى.

وعادت البصائر –مرّة ثانية– بعد طول احتجاب لتعلّم الجزائريين حقائق دينهم وتُخرجهم من ظلمات التخلّف إلى نور التقدّم والتطوّر.

فقد قامت البصائر في طبعتها الثانية بدورها التربوي، من تعليم وتهذيب وحماية التراث الثّقافي للأمّة، ونقله من جيل إلى جيل. وأصبحت بفضل الإبراهيمي، مدرسة فريدة في البيان العربي والفكر السّديد، والرّأي الجديد، والأسلوب الفريد، ممّا جعلها تحتلّ الصّدارة في اهتمامات العلماء والمفكّرين والأدباء العرب.(2)

وبرزت طريقة الإبراهيمي ونهجه في الكتابة والتعبير بالصّراحة والتّحدي، وبالإضافة إلى شدّة لهجة البصائر باعتبارها تجسّد لهجة الإبراهيمي وصراحته، فقد توّسعت آفاق اهتماماتها إذْ شملت إلى جانب الأوضاع الداخلية من: تعليم وتطهير للدّين من الخرافات والبدع، واهتمام متزايد بالسّياسة المحلية لمجالات عربية أوسع، فطالبت بتحرير أجزاء المغرب العربي، وضرورة توحيدها والاهتمام بقضية فلسطين، والدعوة إلى الوحدة العربية، كما وقفت من قضية الشباب المسلم تدعوه إلى تعاليم دينه، وبيان لغته، ومعرفة تاريخه، وتريد منه أن يكون في مصافّ المتفوّقين الرّاشدين.(3)

---

(1)– لمعرفة التفاصيل المتعلّقة بالإجراءات المتّخذة ضد الجرائد الصادرة من قبل الجمعية يمكن الرّجوع إلى مبحث (وسائل وأساليب التجديد عند الإبراهيمي – مؤسّسة الصّحافة)

(2)– محمد الهادي الحسني، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الموافقات، ع: 4، [1995]، ص: 579

(3)– الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 348

ولمعرفة المزيد من اهتمامات الإبراهيمي، يمكن الرّجوع إلى آثار الشيخ، ج3/ (346-349)

ـ ويعتبر الإبراهيمي من بناة الصحافة العربية الحديثة في الجزائر ورائدها في هذا المجال فقد أرسى دعائمها على أُسس متينة من الإيمان بالمبدأ والتمسّك بالمقوّمات الوطنية، ويمثل هذا الاهتمام والشّمول في تناوله للقضايا الهامة، تناول بالدراسة: - وضع الثقافة وحالة المثقف وما يجب أن يكون عليه:

فالمثقفون في نظر الإبراهيمي، هم خيار هذه الأمّة «وسادتها وقادتها، وحرّاس عزّها ومجدها، تقوم الأمّة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير».(1)

ونظرا لما يحتلّه المثقّف من مكانة متميّزة في عملية الإصلاح والتجديد، فإنّه مطالب بإصلاح نفسه وإصلاح مجتمعه، كما بيّن ذلك الإبراهيمي في قوله: «فإنّ أوّل واجب على المثقفين إصلاح أنفسهم قبل كلّ شيء، كلّ واحد في حدّ ذاته، إذ لا يصلح غيره من لم يصلح نفسه».(2)

أمّا الخطوة الثانية التي يراها الإبراهيمي هي العمل على استكمال نقائصهم العلمية، ومؤهلاتهم التثقيفية، لينطلقوا في إصلاح غيرهم من أفراد المجتمع، وهذا هو الواجب الثاني.(3)

- ولقد حظي المثقّف باهتمام خاص من قبل الإبراهيمي، وذلك لما له من دور فعّال في العملية التربوية في الفرد والمجتمع. لذلك تركّزت دعوته بصورة واضحة على إعطاء محتوى محسوس للثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، وجعل الشباب الجزائري، يؤمن بأصالته الحضارية مؤكّداً على أنّ الاكتفاء بالثقافة الفرنسية وحدها يفصلهم عن ماضيهم ويجرّدهم من مقوّماتهم، وأنّ شخصيتهم لن تُبنى أبداً في مدارس الحكومة، لاسيما وأنّه وجد شباباً جزائرياً مُمزَّقاً بين ثقافتين وبين تعليمين أحدهما يدعو إلى التحجّر والجمود، والآخر يعمل على الانحلال والذوبان وهو التعليم الفرنسي.

- ويستكمل الإبراهيمي نظرته التربوية إلى الدعوة من جهة أخرى إلى الامتزاج بالأمّة وبجميع فئاتها، والتّركيز على الطبقة المحرومة من التكوين والتعليم، لإيصال الخير والنفع إليها ورفع الأميّة والجهل عنها، وتصحيح فهمها للحياة، وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف.(4)

---

(1)- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 352

(2)- المصدر نفسه، ج1/ 355

(3)- المصدر نفسه، ج1/ 355

(4)- المصدر نفسه، ج1/ 357

ونخلص إلى القول بأنّ الشيخ الإبراهيمي، تسلّم زمام القيادة بعد العلاّمة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في التحامل على المنهج التقليدي في ميدان التربية والتعليم. فقد جنح إلى الإيمان بـأنّ الإصلاح لا يكون إلاّ عن طريق التربية والتعليم الديني. بعد إصلاح موادّهما وتطوير مناهجهما في الوطن العربي والإسلامي، فعمل بقية حياته على تجسيد هذا المبدأ في الواقع، فانكبّ علـى إصلاح طرق التعليم الديني ومناهجه، ونادى إلى تطوير التعليم الإسلامي التقليدي، والسموّ به عن مظاهر الابتداع، والتعصّب المذهبي، الذي مزّق الأمّة وحوّلها إلى جماعات متناحرة أسهمت في تحديد أطر الإنتاج الفكري في حدود المذهب، بحيث لا تكاد ترى إنتاجًا فكريًا أو معرفيًا إلاّ ما ندر، وفي حدود ما يُصبّ في خدمة المذهب، وأخطر هذه الآثار الفكرية عـزوف أتبـاع المذهب عن هدي القرآن والسنّة، والتوجّه بعقولهم وأبصارهم إلى مؤلّفات رجال المذهب، على اعتبار أنّها الفهم الصّحيح للقرآن والسنّة.

كما انعكست آثار هذا التعصّب المذهبي على التعليم ومؤسّساته بشكل خطير أدّى إلى فـساد أهداف التعليم وغاياته، بحيث ضاق مفهوم المنهاج الدراسي الذي أصبح قاصرًا على مباحـث الفقه –فقه المباني لا فقه المعاني والمقاصد– لذلك شنّ حملة حادّة علـى الطـرق التقليديـة في التدريس التي أورثت التعصّب المذموم للمذهب، والذي كان من آثاره تسرّب النزعة المذهبيـة إلى صفوف طلبة العلم وإفساد روابطهم، فانصبّت مساهمة الإبراهيمي في إبراز المجهود الفكري والتربوي، وتطوير هذا الفكر وإثرائه بآراء ونظريات تربوية هادفة.

ومن اقتراحاته الإصلاحية في مجال التربية والتعليم، إحياء دور العلماء وترشيد وظيفتهم، للقيام بها متجاوزين مهمّتهم التقليدية في حفظ علوم الدين وتدوينها، وعدم الاكتفاء بإملائها علـى طلبة العلم إملاء لا فائدة تُرجى منه في الغالب، كما انصبّ اهتمامه على تربية الفرد وإعـداده إعدادًا لائقًا للحياة، فتبنّى خطّة شاملة تكاملت فيها جميع المؤسّسات والهيئـات، بمـا يحقّـق مصلحة الفرد مركّزًا بالدّرجة الأولى على الأجيال الناشئـة.

فالمعارف اللاّزمـة للطفل لتحصيل التربية النافعة والمثاليـة –حسب رأيه– هي التي يتلقّاهـا الطفل منذ الصّغر، ويجب أن تكون هذه المعارف منمّية في حبّه لدينه ولغته ووطنه قبـل كـلّ شيء، لذلك فهو يعلّق أهمية كبرى على هذه التربية، كما أوصى باجتناب الغلظـة وخـشونة المعاملة، لأنّ ذلك ينمّي في الطفل عند كبره رذائل سلوكية.

أمّا مجمل المعارف والعلوم التي يجب أن تكون مادة تربية الأطفال ونسيجها الأصلي، هي التي ترمي إلى تصحيح أفكاره، وصقل معارفه وترقية روحه، وتقوية أخلاقه، وتسديد اتجاهه في الحياة، كما دعا إلى تجاوز كلّ الآثار السلبية التي يفرزها التعصّب، وعمل على توحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم.

وصفوة القول في خاتمة الحديث عن تفكيره الإصلاحي التربوي عامّة أنّ الشيخ الإبراهيمي تبنّى مفهومي التربية والتعليم في بعديهما الديني الأخلاقي أساسًا، ولكنّه لم يكن راضيًا عنهما في الصيغة التقليدية في المدارس، لذلك نادى بتطوير منهج التعليم التقليدي تطويرًا يضمن له الحياة والاستمرار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث:

التجديد في المجال الاجتماعي

لم تكن حالة الجزائر الاجتماعية تقلّ فظاعة أو سوءاً عن حالته الدينية والثقافية المتردية من جهل وفقر وحرمان، نتيجة لحرمان الجزائريين من الامتيازات الاجتماعية، التي يتمتع بها الأوروبيون في الجزائر واستحواذهم على مصادر الثّروة الأساسية في البلاد من أرض وتجارة ومال، ممّا نتج عنه انتشار الفقر بشكل واسع بين الجزائريين.(1)

لذا لم تُغفل حركة جمعية العلماء من اهتماماتها الجانب الاجتماعي، لأنّ الإسلام في جوهره دين واجتماع، ولا تستقيم حياة المسلم في الجانب الديني ما لم تستقم حياته الاجتماعية، لذلك عبّر الإبراهيمي منذ البداية عن طبيعة نشاط الجمعية في قوله: «والحقيقة أنّ هذه الجمعية تعمل من أوّل يوم من تكوينها للإصلاح الديني، والإصلاح الاجتماعي، وكلّ ذلك يسع الإسلام وكلّ ذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها. فالإسلام دين اجتماع. وإذا كانت دائرة الأول محدودة، فإنّ دائرة الثاني واسعة الأطراف، وأنّ الإصلاح لا يتمّ إلاّ بالإصلاح الاجتماعي».(2)

ولعلّ الإصلاح الاجتماعي في حالة كحالة الشعب الجزائري من أوّل الأهداف التي تشغل بال المصلحين وجهودهم وأوقاتهم، وإلاّ من يعنى بمصير وحال الملايين من العرايا والجياع والمرضى والجهّال والأميّين، الذين هم نسيج الشّعب الجزائري برمّته.

لقد وقف الإبراهيمي حقيقةً على حجم المأساة التي عاشها المجتمع الجزائري في ظلّ الاحتلال الذي يحول بين الشعب وبين إصلاح حاله، فراح يبحث عن الأسباب التي تقف وراء جمود المجتمع الجزائري وعدم تقدّمه خطوة للأمام، مُشخّصاً الأمراض والعلل الاجتماعية التي خلّفها الاستعمار، وخاصة منها تفكيكه لشبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الجزائري.

لقد اتّجه الإبراهيمي إلى نقد الفساد في المجتمع ودعا إلى الإصلاح والتجديد، ووصف في الوقت نفسه الدواء اللاّزم لهذه العلل وقد نجح «ونجحت الجمعية إلى حدّ بعيد في إفهام الأمّة هذه

(1)– رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص: 103

(2)– الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 215

المعاني الاجتماعية وتوجيهها إلى مجاراة السابقين، وتهيئتها لأن تكون أمّة عزيزة الجناب مرعية الحقوق، ثابتة الكيان محفوظة الكرامة، صالحة للحياة مساوية للأحياء».(1)

لقد أدركت الجمعية بقيادة الإبراهيمي تمام الإدراك، أنّ التحرّر من ربقة الاستعمار يبدأ بتحرير النفوس من هوى الشيطان، فعملت على محاربة الفساد الذي كان يحاول الاستعمار إفشاءه من أجل أن يتحقق له تخدير المجتمع.

لقد ضيّق الفرنسيون وأكثروا الشّروط التي يسمحون بموجبها بفتح مدرسة أو كتّاباً، وفي المقابل سهّلوا إجراءات فتح صالونات الفساد وحانات القمار واللّهو والخمر.

ولّما رأى الإبراهيمي أنّ الكثير من العامّة تأتي المناكير جهلاً بالدّين، قدّر أنّه لابد من القيام بدور تربوي يهدف إلى تبصير النّاس بحقائق دينهم.

وتمثّلت الخطوة الأولى على تبصير النّاس بفساد الأخلاق، وحملهم على تركها «وبالجملة فقد وقفت الجمعية من جميع الرذائل المتفشّية في الأمّة الجزائرية –من خمر وفجور، ومسارعة في الإيمان الفاجرة، وترك صلاة، وشهادة زور– موقف الخصم الجبّار، وحملت عليها –ومازالت تحمل– حملات صادقة شكرها لها المنصفون وإن قلّل من شأنها المتعسّفون».(2)

ولعلّ هذا التمزّق الاجتماعي، الذي ترك آثاره الواضحة في شبكة العلاقات الاجتماعية، هو الذي حدا بالإبراهيمي إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية، والتي برزت في معالجته الواضحة لقضايا الأخلاق، والمجتمع، وقضايا المرأة الجزائرية، ونظرته للناشئة الجزائرية، وبعض الآفات الاجتماعية.

وبناء على هذه الأفكار المتّسمة بالقوّة والجدّية، والشّمول في معالجة المشاكل الاجتماعية، فإنّني أقتصر على ذكر بعض الجوانب محاولاً التعرّف عليها والإفادة منها.

أولا: قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة:

من مواطن السّداد في حركة الإبراهيمي التجديدية، ما اتّصفت به من شمول في معالجة الواقع.

فقد قوّم الواقع الجزائري تقويماً شاملاً، تناول فيه جميع جوانبه. وبناء على ما تبيّن له من مظاهر الخلل، قدّم حلولاً لكلّ ما صادف مسيرته التجديدية، سواء على مستوى الفهم أو على مستوى

(1)– الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 215

(2)– المصدر نفسه، ج1/ 135

السلوك، وقد بيّن ذلك في قوله: «لا نبالغ إذا قلنا إنّ من بواكير النجاح الأولى التي جنتها جمعية العلماء –إرجاع الغاوين من المسلمين إلى حظيرة الدّين. ولا يحصى عدد الذين تأثّروا بمواعظها، فأصبحوا يحافظون على الصلوات بشروطها الحسّية والمعنوية، ولا عدد الذين هجروا أمّ الخبائث "الخمر"، بل لقد كانت نتائج الإعراض عن الخمر ملموسة بارزة، ضجّ تجار الخمر وتنادى بائعوها بالويل والثّبور وتعالت أصواتهم بالتذمّر، كما تعالت أصوات مشائخ الزوايا وسدنة القبور».(1)

فالإبراهيمي يهدف من وراء هذا إلى تكوين الفرد في مجتمعه تكويناً ذاتياً، يفضي به إلى صفاء روحه ونقاء سريرته، تعصمه من الفوضى الأخلاقية، لذلك بيّن الأهمية الكبرى التي يوليها الإسلام للسّلوك الفردي والجماعي، بحيث كان لها عظيم الأثر في تحديد قيمة الفضيلة بين الفرد والمجتمع.

ولذلك فإنّ المظاهر السّلوكية في المجتمع، احتلّت الجزء الأكبر في انشغال الإبراهيمي، الذي آمن بأنّ الطريق إلى الفضيلة هو بالتمسك بالدّين. فباتت حركته التجديدية من اهتماماتها الأساسية تحقيق الأخلاق الفاضلة، ومقاومة الآفات والرّذيلة.

ومن نماذج مقالاته التي اهتمّ فيها برسم صور الفساد الخُلقي في المجتمع، مقالته التي صبّ فيها جامّ غضبه على أولئك الذين يُؤسّسون للرّذيلة ويقفون بالمرصاد في وجه الفضيلة، والتي خاطبهم فيها بقوله: «كذبتم وفجرتم –أيُّها الرّهط– إنّ جمعية العلماء حاربت الرّذيلة جهاراً وحاربت دعاة التحلّل الأخلاقي كفاحاً، ووقفت من التبشير وغيره مواقف مشهودة، وإنّها تعلّم البنت المسلمة العلم والعفاف، وتربّيها على الكرم والشّرف، علماً بأنّ العلم الديني هو رائد العفاف، وأنّ الجهل هو سبب انحدارها إلى ما ترونه وتتعامون عنه».(2)

ومن نماذج مقالاته التي يدعو فيها إلى الفضيلة، ويقارن بينها وبين الرّذيلة في ميزان المصلحة والمنفعة، مقالاته التي يُبيّن فيها وسائل النجاح في المجتمع، وبيان ثمن الفضيلة وقيمتها، إذ يعتبر الفضيلة غاية يجب تحقيقها والامتثال بها. فهو لم يكتف بنقد ورسم صورة الفساد بل حدّد خطوات العمل، وذلك حينما خاطب ممثّلي جمعية العلماء في قوله: «وفي زمنكم عارض من انحلال الأخلاق، بعض أسبابه في الواجدين الاسترسال في الشهوات.... أنتم حرّاس هذا

(1)– الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 135

(2)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 428

الجيل الجديد، والمؤتمنون عليه، والقوّامون على بنائه، وأنتم بناة عقوله ونفوسه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية، واشربوه عرفان قيمتها، فإنّ من لم يعرف قيمة الثمين أضاعه، وقد غُبِنت هذه القيم في عصركم فكان ما ترون من فوضى واختلاط».(1)

فبهذه التربية نحو الفضيلة وبتوجيهه نحو النهضة الصادقة التي تبدأ من الأخلاق وتنتهي إلى الأخلاق(2)، هدف الإبراهيمي إلى تأهيل الفرد بمقوّمات أخلاقية، يكون فيها بمثابة النواة لإعداده إعدادًا صالحًا للوصول به إلى تربية المجتمع.

ثانيا: المفاهيم الأساسية لقضايا الأسرة ومشكلاتها في نظر الإبراهيمي:

لعلّ أهمّ موضوع لفت انتباه الإبراهيمي أثناء معالجته قضايا الأمّة الإسلامية النوعية في العصر الحديث، هو موضوع الأسرة، بوصفها الخلية الجوهرية في تشكيلاتها عنده.

ولقد عنى الإسلام بالأسرة أكبر عناية، ووضع لها من النّظم والقوانين، ما يكفل بقاءها قوية سليمة كريمة.

فالزواج نظام اجتماعي أساسي عند المسلمين، وعلية تُبنى الأسرة وغيرها من الجماعات التي لها قرابة. فالزّواج هو الوسيلة الاجتماعية التي تكسب الأسرة طابعها الشّرعي والإنساني بصفة عامة.

هكذا فهم الإبراهيمي المجدّد الاجتماعي، وظيفة المرأة داخل الأسرة، وهكذا كان دورها الاجتماعي في نظره عبر التاريخ. ومن هذا الفهم وانطلاقًا من هذا المنظور، برزت نظرة الإبراهيمي في معالجته لقضايا ومشاكل الأسرة، حيث قدّم رؤيته لحل مشاكل اجتماعية عانت منها الأمّة الجزائرية، وجاراها المتّحدة معها في الدين والجنس، المقاربة لها في العادات والمصطلحات.(3)

فقد عالج مشكلة الزّواج بالنسبة للشّباب، وتداعيات ظاهرة ارتفاع المهور، وما ينتج عنها من عزوف الشباب عن الزّواج أو التجاؤهم إلى الزّواج من الأجنبيات. وقدّم دراسة وافية عكست ما ينبغي أن يتّسع له نشاط الفقيه المجدّد، الذي يجب أن يقوم بالمعالجة الواقعية للأوضاع الاجتماعية، وقد شملت معالجته مايلي: –

(1)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 298

(2)– الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 179

(3)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 323

1- الشباب والزّواج في نظر الإبراهيمي:

من الواضح أنّ إحلال مبادئ غير الإسلام ومناهجها في التفكير والحياة محلّ نظام الأسرة المتكاملة والمتماسكة فكريًا كان عامل إضعاف لنا.

لقد تأثّر شبابنا وتشكّلت أفكارهم بنوع سخيف من القيم المنحرفة والبعيدة عن نظام الأسرة التي يجب أن يتربّوا عليها. ومن هنا وجد الإبراهيمي نفسه أمام معالجة قضية شائكة توارثها أجيال عن أجيال، وألقت بظلالها حتى على مجتمعات اليوم بشكل خطير، «نعم إنّ مجتمعنا قد فقد توازنه القديم، وهو لا يزال يتذبذب، ولا يعرف له قرار حتّى اليوم.... فهناك نظرة ذلك الشاب الذي يتغذّى بثقافة ضيّقة قانعة بضيقها، فهو يرى أنّ سعادة البشر قد ابتدأت مع القرن التاسع عشر، بانتشار ما يسمّى الأفكار التحرّرية».(1)

لقد عمل الإبراهيمي على استكشاف خلفية هذه القضية الاجتماعية الحسّاسة، مؤكّدًا على أهمية رباط الزّواج التقليدي، القائم على أساس الدّور الإيجابي الذي يقوم به الأبوان.

كما تجنّد لمقاومة كلّ التيارات المنادية للخروج عن نظام الأسرة الاجتماعي، أو تطويره في اتّجاه تحرّري، كما كان بالمرصاد لكل الشّبان مزدوجي الثقافة، من الذين جنحوا إلى التحرّر في علاقاتهم الجنسية، أو التزويج بالأوروبيات من النساء نفورًا من الزّواج الإسلامي التقليدي القائم على مبادئ الإسلام.

فمن مظاهر اهتمامه بالعلاقة الزّوجية في نطاق الأسرة، ما جاء في وصفه لحال الشباب إذْ يقول: «وأمّا أولئك الشبّان الذين أركسوا في الدّرك الأسفل من الحيوانية، فانطلقوا مع الشهوات واستمرأوا التحلّل من قيود الدين والعقل، ورأوا أنّ الزّواج قيد لحرّيتهم البهيمية، فتحالفوا مع الشيطان على بتّ حباله، فأولئك قوم مجرمون».(2)

فالزّواج عند الإبراهيمي علاقة شرعية متينة بين رجل وامرأة، جمعتهما خصائص الانجذاب النّوعي والتآلف، وإرادة بناء خلية اجتماعية مشتركة تكون وسطًا طبيعيًا لتربية الأبناء تربية صحيحة. ولا يمكن أنْ تكون العلاقة الجنسية بين الرّجل والمرأة إلاّ في نطاق الزّواج الشرعي الذي ارتضاه الدين الإسلامي. وعلى هذا الأساس فإنّ كُلّ صلة في نظر الإبراهيمي خارج صلة

(1) – مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 162

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 324

الزّواج الشرعي بين الرّجل والمرأة من الزنا المحرّم قطعيًا في الإسلام. والإبراهيمي شديد الصّرامة في الحكم عليهم باعتبار مضارّه الاجتماعية والخلقية، وهو لا يتردّد في بحث نتائج هذه العلاقة غير الشرعية، وبيان مضارّها على الأسرة وكامل الهيئة الاجتماعية، من هتك الأعراض وسوء استقرار البيوت في قوله: «راعى الإسلام –وهو دين الفطرة– كلّ ذلك فندب إلى الزّواج وحضّ عليه وسمّاه إحصانًا، وشرّع له من الأحكام ما هو أقرب إلى التيسير والفطرة والتّسامح كلّ ذلك ليحفظ على الشّاب والشّابة دينهما وعرضهما، يضبط عليهما عواطفهما فلا تمتدّ العين إلى محرّم، ولا تهفوا النفس إلى محظور، ولا يجاوزان بالفطرة حدود الله».(1)

إنّ هذه المعالجة التي أولاها الإبراهيمي لقضايا الشباب والزّواج، كشفت لنا سرّ إحجام الشباب المثقّف عن الزّواج أو تردّده كثيرًا قبل الإقدام عليه في وقته.

كما بيّنت لنا هذه المعالجة حال من يمثّل الأغلبية في وقته إزاء الزّواج، ويمكننا إيجاز هذا كلّه فيما يلي: –

أ– صنف يُمثّل الأغلبية في وقته من المجتمع الجزائري، وهؤلاء ليست أمامهم مشكلة ولا أزمة زواج، والحال أنّ أولياء أمور هؤلاء الشباب، يزوّجون أولادهم في سنّ مبكّر، وحتى قبل سنّ البلوغ في بعض الحالات، وهو اتّجاه معيب، لأنّ خير الأمور الوسط.(2)

ب– وصنف ثاني وهم الأغراب المتأوّلون، وهؤلاء قسمان، بحسب خلفياتهم الثقافية:

– قسمٌ منهم، وهم المثقّفون الذين وقعوا تحت تأثير الحضارة الغربية التي اتّجهت نحو إعادة توجيه الوظائف الأساسية التي تضطلع بها الأسرة. وهؤلاء يحتاطون تارة بعدم الاستعداد لتكاليف الزّواج، فيبالغون في الاحتياط له كُلّما طُرح أمامهم ضرورة التعجيل بالزّواج وأهميته. ومن هؤلاء أيضاً من يقدّم مُبرّرات مختلفة، والتي منها أنّ مقامهم الثقافي لا يسمح لهم بالزّواج من الجاهلات، فيفضّلون الزّواج من أجنبيات، ويُسخّرون في سبيل تحقيق مُبتغاهم كلّ ما لديهم من مال لأجل الظّفر بالأجنبية المثقّفة، حتى ولو أدّى ذلك إلى خراب البيوت وانعدام القيم. وخلاصة أمر هؤلاء أنّهم لا يأنفون من الرّذيلة إذا كانت المرأة متعلّمة، ويأنفون من الفضيلة إذا كانت المرأة أميّة أو غير متعلّمة.(2)

---

(1)– الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 325

(2)– المصدر نفسه، ص: 324

والمخرج من هذه المعضلة في نظر الإبراهيمي، هو في تعليم البنت المسلمة تعليماً إسلامياً قوياً – –بتعاليم الدّين– وقائماً على الأخلاق الكريمة، حتى تقام الحجّة على هؤلاء الأعزاب المتذرّعين المتأوّلين لحملهم على العدول عن توجّهاتهم غير المبرّرة شرعاً.(1)

– وقسمٌ منهم، من غير المثقّفين، وهؤلاء من عوامّ النّاس البُسطاء الذين يكتفون بلقمة عيش يجلبونها اعتماداً على سواعدهم، فليس لهم ما يغطّي نفقات الزّواج، أو يؤمّن لهم حتى نفقات العيش، فيتذرّعون لتأخير الزّواج بغلاء تكاليفه ونفقاته.

وللخروج من هذه العقبات في نظر الإبراهيمي، هو توجيه الأمّة نحو العودة إلى تعاليم الإسلام ومراعاة التيسير لتخفيف الأعباء والتكاليف عن الشباب، حتى يتسنّى لهم الإقبال على الزّواج من غير جهد ولا مشقّة، والخير كلّ الخير في التيسير.(2)

ولعلّ اهتمام الإبراهيمي بقضايا "المرأة الجزائرية" هي محاولة جادّة منه لقطع الطريق أمام كُلّ محاولاتهم اليائسة، ففيها نجد اهتمامًا بتربية المرأة والعناية بتعليمها تعليمًا إسلاميًا صحيحًا لأنّها بداية –كما ذكر وبيّن– الحلّ لكثير من المشاكل الاجتماعية في إطار الأسرة: –

2– تعليم البنت تعليمًا إسلاميًا:

الإبراهيمي إذْ يعلّق كلّ هذه الأهمية على تربية المرأة والعناية بتعليمها، فإنّما يفعل ذلك لأنّه يعتبرها المسؤولة الأولى عن تربية النشء، وشعورًا منه بهذا الواجب، راح يُطمئن الآباء الذين يتوجّسون خيفة من خروج بناتهم للتعلّم، ويذكّرهم بأنّ تعليم بناتهم في مدارس الجمعية ليس فيه ما يُنافي التعاليم الدينية، ويؤكّد على ذلك في قوله: «النّساء أصبحن يشهدن دروسًا خاصّة بهن في الوعظ والإرشاد، ويفهمن ما للمرأة وما عليها، وشاهد الرجال بتبدّل الحال وظهور النتائج في المحافظة على العرض والمال، وفي إحسان تدبير المنزل وتربية الولد».(3)

ويجيء كلام الإبراهيمي حاملاً القول الفصل في قضية تعليم المرأة لتتبوأ مقعدًا لائقًا بها كأنثى غير أنّ كثيرًا من العوائق التي تقف في وجه تعلّم المرأة تظلّ ملازمة لكلّ محاولات تعليمها، وهي في حقيقة أمرها دوافع لا تخلو على حدّ تعبير "مالك بن نبي" من مغزى الأنانية والتمسّك بالأنثى حيث يقول: «غير أنّ أولئك المتمسّكين بإبعاد المرأة عن المجتمع، والمؤمنين بضرورة

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 324

(2) – المصدر نفسه، ص: 324

(3) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 239

إبقائها في سجنها التقليدي.... بيدَ أنّ هذه الغرابة لا تلبث أن تزول، حينما نعلم أنّ ليس لتفكيرهم من مسوِّغ منطقي، إلاّ ما يتعلّلون به من الحفاظ على الأخلاق الذي يختفي وراءه مغزى التمسّك بالأنثى».(1)

3- محاربة العوائد البالية في نظام الأسرة:

إنّ التشبّث بالعوائد والتقاليد المتّبعة في الزّواج، كانت من المشاكل التي سهّلت أو عجّلت بالتّفكك الأسري، وانفصام الرّوابط الزّوجية.

ولعلّ معالجة الإبراهيمي للموضوع برؤية تربوية اجتماعية، تعكس مدى اهتمامه، وحرصه على استقرار وضع الأسرة بعيدًا عن العادات البالية التي اعتاد النّاس عليها حتى أصبحت عند بعضهم دينًا، ويُرشدنا إلى الحلّ للتّخلص من هذه الآفة في قوله: «لو وقفنا عند حدود الله، ويسّرنا ما عسّرته العوائد من أمور الزّواج، لما وقعنا في هذه المُشكلة ولكنّنا عسّرنا اليسير، وحكمنا العوائد، والعجائز القواعد في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزّواج الذي جعله الله سكنًا وألفة ورحمة –سبيلاً للقلق والبلاء والشقاء، وأصبح اللقاء الذي جعله الله عمارة بيت وبناء أسرة- خرابًا لبيتين بما فرضته العوائد من مغالاة في المهور، وتفنّن في النفقات والمغارم».(2)

ويعتبر الإبراهيمي هذا السلوك –من أولي الأمر- تصرّفًا، يعمل على تقويض أركان الأسرة المسلمة. فهو يحمّل مسؤولية فشل العلاقات الزّوجية، لأولياء الأمور الذين لا يهتدون بهدي الدّين، ولذلك فهو يقول: «لا نعجب إذا رأينا كلّ زواج يبتدئ بهذا الاعتبار، ينتهي بالطلاق والعداوة والخصام بعد أشهر وأيّام».(3)

وحرصًا منه على تلافي هذه النتائج الوخيمة التي تخلّفها العادات البالية، راح يوجّه النّصح للآباء بدعوتهم إلى الرّجوع والعودة إلى هدي الإسلام(4) في تبسيط تكاليف المهور، التي كانت السّمة البارزة المتّبعة في الزّواج وما يتعلّق به.(5)

---

(1) – مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 124

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 325

(3) – المصدر نفسه، ص: 325

(4) – هدي النبي –صلى الله عليه وسلم– في الزّواج أنّ يكتفي بأقل متموّل، حيث أنّه زوّج مسلمة على أن يعلّمها زوجها سوراً من القرآن، "جاءت امرأة للنبي –صلى الله عليه وسلم – فقالت يا رسول الله إنّي قد وهبت نفسي لك فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل، فقال: يا رسول الله زوّجنيها إن لم تكن لك بها حاجة فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – هل عندك شيء تصدقها إيّاه؟ فقال: ما عندي إلاّ إزاري هذا، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم – إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً: فقال ما أجد شيئاً؟ فقال: التمس ولو خاتماً من حديد، فالتمس يجد شيئاً فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم – هل معك من القرآن شيء؟ قال : نعم: سورة كذا وسورة كذا، لسور يسميها، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم – قد زوّجتكما بما عندك من القرآن" [رواه البخاري ومسلم]

(5) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 326

ويوجّه دعوته في الأخير لشباب الأمّة لخدمة وطنهم، عن طريق الزّواج، لإعداد أسرة وإنجاب أطفال، وذلك في قوله: «أيُّها الشبّان! إنّكم لا تخدمون وطنكم وأمّتكم بأشرف من أن تتزوّجوا، فيصبح لكم عرض تدافعون عنه، وزوجات تحامون عنهن، وأولاد يوسّعون الآمال.... إنّ الزّوجة والأولاد حبال تربط الوطني بوطنه وتزيد في إيمانه».(1)

4- محاربته لوباء الفجور:

من عوامل الفساد التي طرأت على المجتمع الجزائري، انتشار ظاهرة الفجور المقنّن من جهة، وسكوت وتقاعس المسؤولين والعلماء عن محاربته(2) من جهة أخرى.

حتى بات هذا الوباء الخطير يُهدّد المجتمع الجزائري بِشرّ مستطير وانحلال أسري مريع.

لقد وقف الإبراهيمي على هذه الحالة الاجتماعية الأسيفة، التي كان يحياها المجتمع الجزائري والتي ألقت بتداعياتها على واقع الشباب، الذي وجد فيها وسطاً ملائماً لإشباع رغباته الجنسية ودافعًا للتحرّر في علاقاته الجنسية، ونفوراً من الزّواج الشرعي وتحمّل مختلف تبعاته. وانبرى يدافع عن تكوين نظام الأسرة، ويُقاوم كلّ التيارات المنادية بالخروج عن حدود الفضيلة مُؤكّداً على أنّ أيّ صلة خارج صلة الزّواج الشّرعي بين الرّجل والمرأة من الزّنا المحرّم قطعياً في الإسلام.

والإبراهيمي شديد الصّرامة في الحكم عليه باعتبار مضاره الاجتماعية والأخلاقية، وهو لا يتردّد في معالجة البغاء وآثاره على الأسرة، وكامل الهيئة الاجتماعية، من هتك الأعراض وتبذير الأموال وسوء استقرار البيوت، وقتل روح العفّة والشّرف في أوساط الشباب، الذين استمرأوا الرّذيلة وعزفوا عن الفضيلة.

وقد أوضح الإبراهيمي مضّار الزّنا وكشف النّقاب عنه، وبيّن الأخطار التي تنجم عن تفشّي وباء الفجور على الفرد والأسرة والمجتمع، فقال في ردّه على دعاة الفجور: «إنّ جمعية العلماء –لما بلته من أمثالكم من فساد الأخلاق– تُبالغ في الاحتياط، وتسرف في التشدّد، وتعاقب على الظّنّة والتوهّم، قمعاً لغرائز الشرّ، وسدًّا لذرائع الفجور».(3)

ثالثا: الطلاق وتداعياته على سلوك الفرد والمجتمع في نظر الإبراهيمي:

الطلاق هو حلّ الرّابطة الزّوجية من جانب الزّوج، بلفظ مخصوص وشروط معيّنة.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 327

(2) – محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج1/ 216

(3) – الإبراهيمي، مصدر سابق، ص: 428

وقد عرّف الإبراهيمي الطّلاق بأنّه «حلُّ عقدة، وبتُّ حبال، وتمزيق شمل، وزيال* خليط* وانفضاض سامر* فيه كلّ ما في هذه المركّبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب، وجرت في آدابهم العاطفية مجرى الأمثال –من التياع وحرارة، وحسرة ومرارة، ويزيد عليها جميعاً بمعنى آخر، وهو ما يصحبه من الحقد والبغض والتألّم والتظلّم».(1)

فقد حرصت الشريعة الإسلامية على الرّابطة الزّوجية وعدم التفريط فيها، بل إنّه في حال الشّقاق وصدور الطلاق يجعل الإسلام الباب مفتوحاً على مصراعيه، لعودة الحياة الزّوجية إلى طبيعتها عن طريق مراجعة النفس، والعودة إلى التفكير الهادئ المطمئن وهي معه في بيته «ولهذه الملابسات التي هي من مقتضيات الفطر السليمة والطّباع الرّقيقة، شرّعه الإسلام مقيّداً بقيود فطرية حكيمة، وقيود شرعية قويمة، اعتمد في تنفيذها بعد فهم المراد منها على إيمان المؤمن وشرّع له من المُخفّفات ما يهوّن وقعه، كالتمتّع ومدّ الأجل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث، حتى تمكن الفئة إلى العشرة.... حتى يصير الطلاق عملية بلا ألم».(2)

وأمّا إن بقيت في بيته ما يقرب من ثلاثة أشهر دون أن يحرّك ساكناً، ودون أن يفكّر في إعادتها إلى عصمته، فهذا دليل على أنّ قراره نهائي، وأنّه لا يريد أن يبقيها زوجة له، وفي مثل هذه الحالة الله أرحم من أن يكلّف عباده تحمّل هذا النوع من العذاب النفسي(3)، ولذلك جاء تشريعه للطلاق تخفيفاً للزّوجين من المعاناة التي تلاحقهما إن استمرّت هذه العلاقة.

والإبراهيمي وهو يتناول موضوع الطّلاق، كظاهرة اجتماعية بالدّراسة، فإنّه لاحظ أنّ نسبة الطّلاق في المجتمع، شهدت ارتفاعًا مذهلاً وبصورة لم تكن مألوفة، وهو يرجع حدوث ذلك إلى جملة من الأسباب، والتي يأتي على رأسها:-

1- جمود الفقهاء: فانحسار دائرة الأحكام عندهم في الفقه الجامد، غير القائم على مراعاة الحكم المنطوية تحت أحكامه، في حين أنّ عظمة هذا الدّين تتجلّى أكثر فأكثر في قابليته

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 328

*- جاء في المعجم الوسيط "إبراهيم مدكور"، دار الدّعوة، سنة [1989م]

* زَيلَ: -زَيَلاً: تباعد ما بين فخذيه وانفرج فهو أزْيَل، وهي زَيْلاء (زَايَلَهُ) مُزَايَلَة، وزِيَالاً: فارقه.

* الخليط: ما اختلط من صنفين أو أصناف، ويطلق على الشريك، والصاحب والزوج.

* السّامر: المتسامرون: مجلس السّمر.

(2) – الإبراهيمي، مصدر سابق، ص: 328

(3) – المصدر نفسه، ص: 329

لاستيعابه مشكلات العصر، وواقعيته وقدرته على الإجابة الصّحيحة عن كلّ ذلك، فإنّ: «هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة – هما اللّذان سهّلا على المسلمين تعدّي حدود الله في الطلاق، وأفضيا بهم إلى الفوضى الفاشية في البيوت وإلى ارتفاع الثّقة بين الأزواج والزّوجات».(1)

ولا عاصم في نظر الإبراهيمي من خراب البيوت، وتشريد الأطفال، وتقطيع الأرحام، إلاّ بأخذ فقه الطلاق من الفقه القائم على بيان الحِكم، والتماس العلل وعدم إغفال المقاصد، فهو يؤكّد أنّ «من أخذ فقه الطّلاق من هذا المنبع العذب يعلم أيّ حِكم مبثوثة تحت كلّ كلمة وكلّ جملة، ومن تفقّه هذا الفقه ونشره في النّاس، يبعد جدًّا أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزّوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الآن».(2)

2– استخفاف الرّجال بالحياة الزّوجية: الطّلاق كظاهرة اجتماعية تحدث في الأوساط الشعبية لاستخفاف الرّجال بالحياة الزّوجية، إذْ ينظرون إلى المرأة على أنّها مجرّد مُتعة أو على أنّها مخلوق ليس عليه إلاّ أن يخضع، وليس له أيّ حقوق. فعدم فهمهم لحكمة مشروعية الطّلاق التي نصّ عليها القرآن في قوله: ﴿ **الطَّلاَق مَرَّتَان فَإمسَاك بِمَعرُوف أَو تَسرِيح بِإحسَان** ﴾. [البقرة: 229]

واعتقادهم أنّه حقّ مطلق للرّجل، جعلهم يستخدمونه لأتفه الأسباب بحيث «يخرج الرّجل إلى السّوق أو يجلس في المقهى، ويختلف مع آخر في شأن جليل أو حقير، فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطّلاق حانثًا، فتكون النّتيجة خراب بيت وتمزيق أسرة وتشريد بنين. ويتناقش آخر مع صهره في زيارة أو استزارة، فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطّلاق وتكون النتيجة تقطيع أرحام وتكوين فتنة ويتنازع اثنان الحديث في السياسة.... فتجري ألفاظ الطّلاق متناثرة متعدّدة، كأنّها لازمة الحديث».(3) وكنتيجة لهذه الممارسات في سلوكات الأزواج اليومية تطلّق الزّوجة بهذه الإيمان من غير أن تعلم أو أن يكون لها يدٌ في ذلك.

ويترتّب طبعًا على وقوع الطّلاق نتائج وخيمة، منها الإضرار بالأطفال، وحرمانهم من النشأة الطبيعية في رعاية الوالدين، إلى غير ذلك من معاناتهم النفسية والاجتماعية وغيرها. والأمّة لا تنعم بهؤلاء الأطفال لا كبارًا ولا صغارًا إلاّ إذا شبّوا في أحضان والديهم.(4)

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 330

(2) – المصدر نفسه، ص: 330

(3) – المصدر نفسه، ص: 330

(4) – المصدر نفسه، ص: 331

كما ألمح الإبراهيمي إلى إمكانية مصادرة هذا الحق من الأزواج فاقدي الشّعور بالمسؤولية الذين لا يأبهون لخطورة ما يتفوّهون به وتداعياته على مستقبل العلاقات الزّوجية، وعلى مصير الأسرة، وذلك بإحالتهم على القضاء الإسلامي العادل إن وُجد، وإلاّ أن يتبوّأ الزّوج المطلّق غضب الله وخزيه.(1)

رابعا: الإبراهيمي وموقفه من تحرير المرأة:

كان وضعُ المرأة الجزائرية في أوائل هذا القرن متخلّفًا للغاية حتّى قيل عنها أنّها تمتاز بالجهل العظيم.(2)

فجميع أبواب التعليم موصدة في وجهها، وكذلك الشّأن بالنسبة لكلّ ما من شأنه أن ينوّر فكرها، ويرفع عنها حجاب الجهل، فكان يخيّم على وضعها الاجتماعي الجوُّ المظلم، فلا رأي لها في أي قضية تتعلّق بها مباشرة كالزّواج أو الطّلاق أو غيرها.

وهذا ما دفع أعداء الأمّة لإثارة هذه القضية في كلّ مناسبة، والدّعوة إلى إطلاق حرّية المرأة وفق ما تمليه عليهم نزواتهم ورغباتهم.

فكان للحركة الإصلاحية الدّور البارز في التصدّي لهذه الدعوات المنادية لتحرير المرأة، الذين لم يكن همّهم الحقيقي رفع الظلم عن المرأة، وإنّما كان رائدهم الأوّل هو تحطيم الإسلام، وإخراج المرأة متبرّجة في الطريق لإفساد المجتمع المسلم.

ولكن محاولاتهم لم تلق في معظمها إلاّ الصدّ والإعراض، لأنّ الحركة الإصلاحية الجزائرية بقيادة الشيخين، تعارض السّفور كعلامة للتحرّر، وترى بأنّ التعليم في إطار الضوابط الأخلاقية والوطنية هو المدخل لتحرير المرأة.

فالإبراهيمي يعتبر أنّ الدّين الإسلامي اعترف اعترافًا تامًا بحقوق المرأة الأساسية، وقرّر المساواة بينها وبين الرّجل، إلاّ في جانب ما يتميّز عليها طبيعيًا، ولكن المسلمين في نظره لم يُحسِنوا فهم المبادئ القرآنية(3) فهانت عندهم منزلة المرأة. كما لوّح بأنّ حقوق المرأة في الإسلام مكفولة ومحفوظة، ولا يوجد نظيرها في أيّ تشريع آخر، ما عدا في التشريع السّماوي العادل الذي لا يخضع للنزوات ولا للعواطف «وإنّما هي أحكام إلهية واجبة التنفيذ لا تدور مع الأهواء

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 331

(2) – محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ص: 227

(3) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 360

والعواطف والنّزعات وجودًا وعدمًا».(1)

وشعورًا منه بهذا التقصير في حقّ المرأة، ومن هذا الفهم الذي بَخَسَها حقها، أيقن بأنّ وضعها بحاجة إلى تصحيح ومراجعة لردّ الكرامة الإنسانية إليها، ووضعها في المكانة اللائقة بها بوصفها إنسانًا كرّمه الله تبارك وتعالى، وساواها بالرّجل في التكاليف الإلهية، وقرّر لها احترامًا وتوقيرًا خاصًّا في وضع الأمومة.

وعلى هذا الأساس قرّر الإبراهيمي التصدّي لأولئك الذين ضيّقوا عليها وسلبوها كلّ أو جميع حقوقها، فقال: «ولا ينقض علينا هذه الأصول شُذّاذ العصور، المتجاوزون في حدود الله الخارجون عن الفطرة الصحيحة كمسلمي زماننا الذين منعوا المرأة المسلمة كلّ أو جلّ حقوقها، وحسب هؤلاء أنّهم ظلموا أنفسهم قبل أنْ يظلموا المرأة، وأنّهم هدموها فهدمتهم من غير قصد في أبنائهم وأفسدوا كونها، فحرموا عونها».(2)

كما حرص الإبراهيمي على إبراز الدّور الحقيقي للمرأة التي ستضطلع به لاحقًا حينما تصبح أمًا بأعظم وأشرف مهمّة وهي تربية الناشئة، وتتجلّى «رحمة الله في هذا المخلوق الذي ركّبه الله على ضعف، ورشّحه لحمل أعظم أمانة، وهي تربية الناشئة وإعدادها للحياة».(3)

فنلاحظ من خلال ما سبق أنّ الإبراهيمي كان مناصرًا لحركة تحرير المرأة في إطار المبادئ والقيم الإسلامية، التي تُشجّع على تربية المرأة تربية إسلامية، ولذلك فهو يُصرّ على أن تنال المرأة حظّها من التعليم الديني والوطني، الذي يحرّرها من الجمود.

وقد اضطلعت جمعية العلماء المسلمين برئاسة الإبراهيمي بهذا الدور «فأذابت الجمود وكسّرتْ السدود، وأخرجت المرأة من سجن الجهل إلى فضاء العلم في دائرة التربية الإسلامية، والمترلة التي وضعت المرأة فيها، والجمعية تبني أمرها على حقيقة، وهي أنّ الأمّة كالطائرة لا تطير إلاّ بجناحين وجناحاها هما الرّجل والمرأة، والأمّة التي تخصُّ الذَّكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة».(4)

---

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 361

(2) – المصدر نفسه، ج4/ 361

(3) – المصدر نفسه، ج4/ 362

(4) – المصدر نفسه، ج4/ 239

خامسا: محاربته لظاهرة الأمية:

لقد أولى الإبراهيمي كبير عنايته لظاهرة استفحال الأمّية في المجتمع الجزائري المسلم والتي تُعتبر من أعقد وأصعب الظّواهر التي ملكت على العلماء والمجدّدين جهدهم، باعتبارها تُمثّل أحد التحدّيات الكبرى التي تقف في طريق كلّ تقدّم حضاري.

وكان الإبراهيمي واحدًا من هؤلاء المجدّدين الذين كان لهم في هذا المضمار جملة من الجهود الجبّارة والآراء الصائبة. وإنّ اهتمام الإبراهيمي بهذا الموضوع يأتي في سياق المشروع الذي حدّدت معالمه جمعية علماء المسلمين منذ البداية، والمُتمثّل في إعلان رئيسها بقوله: «إنّي أظنّ أوّل هيأة اجتماعية فكّرت في محاربة الأميّة بصورة منظّمة في هذا الوطن هو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وأنّ أوّل رجل أعرفه فكّر في مقاومة الأميّة بصورة جدّية هو رئيسها المحترم. وأذكر أنّني تحادثت معه في هذا المعنى وقلّبنا وجوه الرأي فيه منذ سنوات، وربّما كان ذلك قبل تأسيس الجمعية».(1)

وأوّل خطوة قام بها الإبراهيمي في طريق تنفيذ هذا المشروع هو تحرير العقول التي خيّم عليها الجهل والأميّة منذ عهود من الزمن. فبيّن مضار الأميّة ومساوئها وسلبياتها على العقل والتفكير كما اعتبرها نقيصة قاتلة وهالكة، وأنّها تجلب السّقوط والذلّة والمهانة، ولأجل الاحتراز من آثارها الفتّاكة سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، قرّر الإبراهيمي رفع هذا الوباء عن الأجيال الجزائرية، وغرس بدلها العلم الصحيح والإدراك السليم والأخلاق القويمة.

وتمثّلت الخطوة الأولى في بيان وشرح الطريق الذي يبصّر الأمّة بالدّور الذي يجب أن تقوم به والذي تأتي بدايته من القراءة والدّراسة. ولذلك أكّد على ضرورة أن تتعلّم الأمّة ليكون في مقدورها مجاراة الأمم الحيّة، وذلك بالعمل على التخلّص من آفة الأميّة والجهل اللذين ورثتهما عن الاستعمار. وقد أكّد الإبراهيمي: «أنّ الأمم الحيّة في وقتنا هذا ما حييت إلاّ بالعلم الاختباري التطبيقي وأساس هذا العلم –وإن علا– القراءة والكتابة. ولمّا انتهى العلماء منهم إلى أبعد غاية في العلم وتسنّموا منه أعلى ذروة، التفتوا يتبينون الطريق التي وصلوا منها إلى هذه الغايات البعيدة، فرأوا أنّ مفتاح الباب الذي منه دخلوا ومبدأ الطريق الذي منه وصلوا هو "ألفبا"».(2)

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 143

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 142

ولتحقيق هذا الهدف لا بدّ من تظافر جميع الجهود، كُلّ فردٍ من موقعه الذي يشغله، فالخطيب والشاعر، والعالم، وصاحب المال، كُلّهم مدعوون للمساهمة في القضاء على هذه الظاهرة ولذلك فهو يهيب بهم جميعاً القيام بهذا الدّور.(1)

ولم يقنع الإبراهيمي بالخطوات المبذولة في ميدان مقاومة الأميّة وخاصة ما تعلّق منها في شقّه التربوي التعليمي، لأنّها لم ترق في نظره إلى تبوأ المكانة المزمع تحقيقها للتخفيف من ظاهرة الأميّة، ولذلك فهو يرى ضرورة التفكير في بديل يخرج الأمّة ممّا تتخبط فيه. ويتجلّى ذلك في السّعي من أجل تهذيب ظاهرة الأميّة نفسها، لأنّ العمل في غير هذا الاتجاه هو عمل في غير الاتّجاه الصحيح، وقد لا يؤتي النتائج المرجّوة منه، ولأنّ الصناعة في نظر الإبراهيمي ليست هي البديل عن ظاهرة الأميّة، لذلك فهو يقترح ضرورة أن تتركّز الجهود وتتضاعف، وأن تُنظَّم الخُطط على قاعدة طبيعية، لأجل تهذيب ظاهرة الأميّة، ولا يتمّ ذلك في نظره بمحاولة تجريب التعليم بقسميه مرّة أخرى لأنّها محاولة يائسة.(2)

وفي إطار هذه المساعي المبذولة من قبله للقضاء على الأميّة، فإنّه لم يكتف بتوجيه عنايته بالناشئة فحسب، بل نبّه الأولياء إلى ضرورة اتّخاذ جانب الحيطة والحذر إزاء أبنائهم. فالأبناء برأيه أمانة بين يدي أوليائهم وهم مسئولون عنهم، ولذلك فهو يقول: «وأقل ما يجب على الجمعية في هذا السبيل الوصايا والتحذيرات المؤكدة لآباء الناشئين لئلا يتراخوا أو يفرّطوا في هذا الواجب. ثمّ عناية خاصّة مضاعفة بالتعليم الذي تقوم به الجمعية، يكون أساسه والقصد منه رفع الأميّة وحماية الناشئة منها».(3)

كما لم يغفل في برنامجه -الهادف إلى القضاء على الأميّة- فئة الكبار الذين لم يُسعفهم الحظ في الاستفادة من حقّهم في التربية والتعليم، فاقترح برنامج عمل، يتمثّل في أن يقوم كلّ عضو من أعضاء الجمعية بتعليم كلّ واحد منهم «أميًّا أو أكثر من أقاربه مبادئ الكتابة والقراءة والعمليات الأربعة في الحساب ويُحفّظه سوراً من القرآن على صحّتها».(4)

كما اقترح على مستوى الجماعات والمنظّمات جملة من التدابير، تتمثّل أساساً في إلزام أصحاب

---

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 143

(2) – المصدر نفسه، ج1/ 144

(3) – المصدر نفسه، ج1/ 144

(4) – المصدر نفسه، ج1/ 145

الحرف والصناعات وسائقي السيارات بدفع مبلغ مالي مقابل أن يتلّقوا دروساً يتعلّمون منها مبادئ القراءة والكتابة والحساب ساعتين كلَّ ليلة.(1)

وفي نظر الإبراهيمي أنّ تعميم هذه التجربة وغيرها، يمكّن من التوصّل في مدّة قريبة إلى إخراج الآلاف من أبناء الأمّة الذين حُرموا من التعلّم من سجن الأميّة، وقد أفلحت الجمعية في إنقاذ عشرات الآلاف من أبناء الجزائر من الأميّة بوسائل دبّرتها ونجحت فيها نجاحاً كبيراً.(2)

ونخلص في خاتمة المبحث إلى القول بأنّ الإصلاح الاجتماعي في حالة كحالة الشعب الجزائري من أوّل الأهداف التي يجب أن تشغل الأفكار وأن تُوجّه إليها الجهود، وأن تنفق فيها الأوقات.

بهذه الرّؤية اتّجه الإبراهيمي إلى نقد الفساد في المجتمع، ودعا إلى التجديد والإصلاح في العديد من القضايا الاجتماعية، مبرزًا ما للفضيلة من قيمة في إيجاد المجتمع الصّالح الذي ينعم فيه الفرد بالحياة الكريمة، لذلك جاء نقده للفساد الخلقي صريحًا وواضحًا، فحدّد الأسباب وذكر الأسماء ووضع النقاط على الحروف، فخلص في بعض اهتماماته إلى رسم مظاهر الفساد ونقدها، واهتمّ في بعضها بالحديث عن أسباب وعوامل هذا الفساد، وفي بعضها يدعو إلى تقويم الفساد وإصلاحه.

وأهمّ ما برز في تفكيره الاجتماعي النّظر في العوامل السلبية التي كانت عنده أصل العوارض المرضية لهذا المجتمع بمختلف خلاياه، وخاصة منها خلية الأسرة، بحث في وسائل علاجها قبل أن يهتمّ بتحليل خفاياها وشرح حدودها الأصلية، فالزّواج في تفكيره نظام اجتماعي أساسي لذلك كانت للمرأة أهمية خاصة في تفكيره، وللمحافظة على استقرار تلك الخلية الاجتماعية الحيّة استهدف تربيتها وإعدادها للقيام بوظيفة الإنجاب وتربية الأطفال بأحسن الطرق داخل نطاق الأسرة، لذلك دأب على تأكيد رباط الزوجية، كما تجنّد للوقوف ضدّ الأفكار المنادية بالخروج عن ضوابطه الشرعية أو تطويره في اتجاه التحرّر، كما وقف بالمرصاد لمن جنحوا إلى التحرّر رغبة منهم في الزّواج بالأوروبيات استنكافًا من الزّواج بالمسلمات الأمّيات أو الجاهلات، ومن جرّاء ذلك انبرى إلى ببيان أهمّية تعليم البنت المسلمة، مؤكّدًا على وجوب تعليم المرأة آداب دينها ولغتها وتاريخ وطنها وكلّ المعارف اللاّزمة للحياة المترلية، والاضطلاع بجميع مهامّها لتتبوّأ مقعدها اللائق بها كأنثى.

(1) – الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1/ 145

(2) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 395

ومن القضايا الهامّة التي أولاها الإبراهيمي اهتمامًا كبيرًا محاربته للعوائد الممقوتة المتّبعة في الزّواج والصّداق، وندّد بشدّة بالذين يتّخذون مهور بناتهم وسيلة للرّبح والكسب، مبيّنًا ما قد ينجرّ عن هذه العادة الفاسدة من خراب البيوت وعزوف الشباب عن الزّواج، ودعا أولياء الأمور للعدول عن هذا التوجّه والرّجوع إلى هدي الإسلام.

كما لم يتردّد في بحث موضوع الفجور وأنواع مضارّه على الأسرة والمجتمع من هتك الأعراض وسوء استقرار البيوت، ودعا إلى تربية المرأة وتعليمها على الطريقة الموافقة للدين والأخلاق وما حسن من العوائد.

كما انشغل في نطاق حديثه عن قضايا الأسرة، ببيان علاقة الرّجل بالمرأة وطبيعة الرّابطة الزوجية بينهما، وبيّن موقف الشريعة من ظاهرة الطلاق، وتداعياته على الأسرة والمجتمع، وذكر حقوق المرأة المطلّقة في الإسلام، وما شرعه لها من المخفّفات ما يهوّن به وقعه عليها، كما أرجع فشوّ هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية إلى جمود الفقهاء، وانحسار دائرة الأحكام عندهم في الفقه الجامد غير القائم على مراعاة الحكم المنطوية تحت أحكامه، وإلى استخفاف الرّجال به والاستهتار بأحكامه.

كما ألمح إلى حقّ المرأة التي كانت مهضومة الجانب، يعاملها الرّجل في جميع الأجيال حتّى جاء الإسلام فسوّى بينهما في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالاً، تشريفًا لها وإبرازًا لشخصيتها، وراعى ضعفها البدني فأراحها من التكاليف المادية، فحقّها مكفول في الإسلام بحيث لا يوجد له نظير في أيّ تشريع آخر، ولذلك كانت المرأة المسلمة عصيّة عن الاستجابة لدعوات التحرّر والسّفور، وقد تصدّى الإبراهيمي بقلمه للأفكار المنافية للدين، وأعلن رفضه المطلق لكلّ تجديد يحاول المساس بشرف المرأة المسلمة، لأنّه يستهدف تدمير أساس الأمّة الإسلامية وهي الأسرة.

ومن أمور التعليم التي اهتمّ بها موضوع محو الأمّية، فبيّن أسباب الأمّية وعللها وطريق العلاج وممّا يلفت النظر في حديثه عن الأمّية أنّه قسّمها إلى قسمين: أمّية القراءة والكتابة، وأمّية العقل والثّقافة وجهل الإنسان برسالته في هذه الحياة وبمصيره بعدها، ودعا إلى وجوب تظافر الجهود وعدم الاكتفاء بمحو أمّية القراءة والكتابة بين أبناء الشعب، وإنّما ينبغي أن تتخطّاها إلى محو الأمّية العقلية والفكرية بتنوير الشعب، وذلك بما اقترحه من إجراءات وتدابير وبرنامج عملي يقوم على توعية وتعليم جميع فئات الأمّة.

المبحث الرابع:

التجديد في المجال السياسي

يُمثّل البعد السياسي بُعدًا أساسيًا في فكر الإبراهيمي وفي حركته التجديدية، فقد كان يعلّق آمالاً كبيرة على النّشاط السّياسي، إذْ كان يعتبر التغيير الاجتماعي والثّقافي والديني رهينًا للتغيير السياسي «إذْ الحاكم في الدّولة الإسلامية هو القيّم على تطبيق الدين في كافة المجالات فإذا ما فسدت سياسته، فسدت سائر مظاهر الحياة في المجتمع».(1)

وفي مجتمع يعاني الفقر والتسلّط، وتزوير الهوية، ويتعرّض إلى مسخ مقوّمات شخصيته، حيث فاقت أعمال الاستعمار ووحشيتهُ في الجزائر كلّ أنواع وأصنَاف الاستعمار الأخرى.

لقد رأى الإبراهيمي أن مقاومة هذه الحالة وتنحية هذا النظام السياسي الجائر، القائم على السيف والصليب. هذا الاستعمار الذي وقف للإسلام بالمرصاد من أوّل يوم، الذي انتهك حرماته وابتزّ أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرّف في معابده بالتحويل والهدم، وتدخّل في شعائره بالتضييق والتشديد(2)، وإقامة نظام آخر مكانه، أمرٌ يستدعي العمل في اتّجاهين متوازيين متكاملين:

- هدْم للنّظام القائم وبناء لنظام جديد، يعتمد على المعنى القويم للسّياسة، المتمثّل في «إحياء المقوّمات التي ماتت أو ضَعفت أو تراخت، من دين ولغة وجنس وأخلاق وتاريخ وتقاليد وتصحيحُ قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق وإيمان، ثم الإصرارُ على المطالبة في قوّة وشدّة، ثم التصلّبُ في الإصرار في استماتة وتضحية، مع اختيار الفرص الملائمة لكل حالة، درجاتٌ بعضها فوق بعض».(3)

ولا نستطيع أن نعرف حقيقة الدّور السياسي الذي قام به الإبراهيمي إلاّ إذا عرفنا دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وما قامت به من إحياء وتجديد لما رثّ وبلى، ومنْ تجميع لما اختلف وتفرّق، ومن بناء لما تهدّم، ومن تطهير لما تدنّس وتلوّث.

وعليه يجب أن نقف في عجالة على معرفة الدّور السّياسي لجمعية العلماء المسلمين.

---

(1) – عبد المجيد النّجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، ص: 117

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 63

(3) – المصدر نفسه، ص: 39

أولا: جمعية العلماء المسلمين والسّياسة:

كانت الحركة الإصلاحية الجزائرية، منذ بدء نشاطها تحاول ألاّ تَزُجَّ نفسها في النّشاط السياسي، بمعناه الضيّق لأنّها كانت تعمل لسياسة التربية، لأنّها تعتقد أنّها هي الأصل، وهـذا على خلاف غيرها من السياسيين الذين كانوا يعملون لتربية السياسة.(1)

ولقد علم الشيخان "عبد الحميد بن باديس والإبراهيمي" أنّ المواجهة العـسكرية للاسـتعمار الفرنسي وأركان إدارته وجيوشه المتفوّقة عدّةً وعتادًا ليست مُمكنة يومئذ، بل كانت في حكم الصّعب، ومن خلال معرفتهما الجيّدة بروح العصر، وبما كانت تتّبعه إدارة الاحتلال من تغـيير خصائص الأمّة الجزائرية، لجآ إلى مخطّط ذكي يهدف إلى نشر التعليم العـربي الإسـلامي في الجزائر وتوعية أبنائها بما لهم من حقوق، وتربيتهم على التشبّع بالثّقافة الإسلامية العربية الأصيلة «التي تشعرهم بهويتهم وخصائص أمّتهم، وتضعهم على خط المواجهة التاريخية المسلّحة ضـدّ المستعمر الفرنسي الظالم».(2)

وقد أكّد الشيخ "محمد خير الدين" بأنّ جمعية العلماء المسلمين لم تكن «حزبًا سياسيًا و لم تعمل في ميدان السياسة الحزبية التي تكوّنت في بلادنا خلال فترة تأسيس الجمعية، وإنّما عملـت في ميدان السّياسة العامّة، التي تهدف إلى توعية الأمّة وتكوين المواطن الصّالح وتبصيره بحقوقـه في الحرّية والاستقلال».(3)

وبهذا يكون الرّد القاطع على أولئك الذين حاولوا عبثًا الانتقاص من قيمة ودور جمعية العلمـاء في المشاركة في ثورة التحرير ومقاومة الاستعمار.

إنّ في مواقف رجالها سواء مع المستعمرين، أو الحكّام الفرنسيين، أو الأحزاب السياسية، لخـيرُ شاهد على دورها الكفاحي. ولئن لم يرد في نظامها الأساسي عند تأسيسها أي بُند سياسـي فذلك من دوافع تهدئة الإدارة وعدم إثارة شكوكها.

ولكن أنّى للحركة الإصلاحية التي كانت تسعى إلى الإصلاح بمعناه الشّامل، أن تقـف عنـد حدود الدين والتعليم، وتُهمل السّياسة التي هي مظهر هام من مظاهر الحياة في المجتمع.(4)

فجمعية العلماء المسلمين، كانت تحتـاط في طريق عملها السياسي المباشر بالمرونـة والتكيّف

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 45

(2) – محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص: 96

(3) – الشيخ محمد خير الدين، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ص: 343

(4) – أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 236

مع الواقع، وهذه الممارسة السياسية العاليـــة هي ما حدت بالإبراهيمي، أن يجعل منها «نموذجًا للنّشاط الإسلامي الذي يجب أن يتسامى إلى البُعد الصّاعد لمعنى السياسة، وأنْ لا يتـــورّط في الهبوط إلى دركها الأسفل».(1)

ولمعرفة المزيد من الأمثلة الشاهدة على نشاط الجمعية السّياسي، يمكن الرّجوع إلى مـــذكّرات الشيخ "محمد خير الدين"(2)، وفي ذلك نجد الجواب الشافي على حملات المغرضين الذين يريدون الإساءة والانتقاص من دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ثورة التحرير.

ثانيا: التربية السياسية عند الإبراهيمي:

إنّ نظرةً متبصّرة في تراث الإبراهيمي الفكري والسياسي، تُبيّن لنا بوضوح وجلاء خطّهُ الإصلاحي ومنهجه التجديدي.

ونستطيع أن نقف على مقوّمات فكره السياسي، ودعائم تربيته السياسية، من خـــلال نظرتـــه لمفهوم السّياسة عنده، حيث يقول: «إنّ جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنّهـــا الأصـــل، وبعض ساستنا —مع الأسف- يعملون لتربية السياسة، ولا يعلمون أنّها فرع لا يقوم إلاّ علـــى أصله وأي عاقل لا يدرك أنّ الأصول مقدمة على الفروع، وأنّ الاستعمار لأفقه وأقوى زَكانة* وأصدق حدْسًا من هؤلاء حيث يُسمّي أعمال جمعية العلماء سياسة، وما هـــي بالـــسّياسة في معناها المعروف ولا قريبة منه، ولكنّه يسمّيها كذلك لأنّه يعرف نتائجها وآثارها».(3)

فالسّياسة عند الإبراهيمي تقوم على بعدين اثنين:-

- أحدهما متّجهٌ إلى العلوّ، والآخر هابطٌ إلى الدون، ومساحة ما بين الطرفين كلُّها مـــشمول بمعنى السياسة.

فالمعنى الأول، يقوم على فهم الدين فهمًا صحيحًا، يتمثّل في إحياء القيم والمبادئ التي أهملـــت وضعف سُلطانها من دين ولغة وأخلاق، وارتباط بماضي التراث وتجديد لحاضره، وتعهّد لعوامل النهضة والوحدة، ونبذ لأسباب الفرقة والنّزاع.(4)

أمّا المعنى الوضيع لمفهوم السّياسة والهابط إلى الدّون، في نظر فيراه الإبراهيمي هو «ذاك الـــذي

---

(1) – محمد سعيد رمضان البوطي، نقاط هامة استوقفتني في فكر الإمام الإبراهيمي، موقع الإمام عبد الحميد بن باديس www.binbadis.net

(2) – الشيخ محمد خير، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1/ 344- 346

* زكَانة: فراسة، المعجم الوسيط، ص: 396

(3) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 45

(4) – محمد سعيد رمضان البوطي، مصدر سابق

يصير إلى التنافس على الرئاسة والتهافت على كرسي النيابة، وما يتبع ذلك من ذيول المناقشات الفارغة، والجدل الموقظ للأضغان، والمناورات التي تتسابق إلى الامتيازات والحظوظ.

وهذا هو البُعد الذي يجب أن تتسامى فوقه جهود العاملين في حقول الدعوة إلى الله».(1) لأنّ كلّ عمل في هذا السبيل يهدم ولا يبني، ويساهم في القضاء على وجود الأمة وكيانها.

ولذلك نجد الإبراهيمي يُحذّر من مغبّة الانحدار الذي يخلّفه هذا التوجّه الهابط من السياسة، التي تقوم على المهاترات الكلامية في الخطابات، والتهافت المسعور على كراسي النيابة، والمناقشات الفارغة، والجدل الفاجر، والافتتان بالأشخاص.

وكلّ هذه المظاهر حسب رأيه صُوَرُها موجودة في المجتمع الجزائري، في حين أنّ آثارها لا تصبّ في مصلحة الجزائر، بل تصبّ في مصلحة الاستعمار، وبيان ذلك في قوله: «إن هذه السفاسف لم تبنَ على مقاصد صحيحة، فلم تأت بنتائج صحيحة و لم تنشأ عن إيمان راسخ فلم تظهر لها ثمرة ناضجة، ولمّا بُليت السّرائر تبيّن أنّ سياسينا كلّهم يتسابقون إلى غاية واحدة هي كراسي النيابات وما يتبعها من الألقاب والمرتّبات، وإذا كلّ شيء مبدَؤه السياسة فنهايته التجارة والأعمال بخواتمها».(2)

لقد تراءت للإبراهيمي حقيقة نوايا المشتغلين بالسّياسة في عصره، الذين جعلوا منها وسيلة لقضاء مآربهم ومصالحهم الخاصّة، فانشغلوا عن تربية الجيل، والسموّ به إلى مستوى الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة، وانجذبوا نحو البُعد الثاني الهابط من معنى السياسة. الذين لا همّ لهم إلاّ الوصول إلى مراكز الحكم وكراسي النيابة، وتبوّأ مناطق النفوذ في السلطة الغاصبة.

وتحوّل المشروع السّياسي التربوي عندهم إلى حلبة صراع «هذه هي السّياسة في الجزائر، بين الحاكم والمحكوم، يجعلها الأول أداة مساومة وفخّ واقتناص للمذبذبين، وسلاح ترهيب وتخويف للمخلصين، ويجعلها الثاني وسيلة جاه وذريعة تضليل للأمّة، وقد بَلوْناها وخبرناها وحاولنا إصلاحها في رجال السياسة منّا إشفاقًا على هذه الأمّة الصالحة».(3)

وانطلاقًا من رؤيته المتبصّرة لمفهوم السياسة، جعل من جمعية العلماء المسلمين نموذجًا لنشاطه السّياسي، متحدّيًا به حكومة الاستعمار ومبيّنًا فيه الدّور السّياسي التربوي الذي تضطلع

(1) – محمد سعيد رمضان البوطي، نقاط هامة استوقفتني في فكر الإمام الإبراهيمي، موقع الإمام عبد الحميد بن باديس www.binbadis.net

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 40

(3) – المصدر نفسه، ص: 40

به الجمعية، ومُعلنًا في وضوح واعتزاز القيام بالسّياسة بأوسع معانيها ومدلولاتها، ومن غير تردّد أعلن أنّه إذا عدّ الاستعمار نشاطهم هذا سياسة، فهم سياسيون في العلن لا في السّر وبالصّراحة لا بالتورية.(1)

ثالثا: دعائم التربية السّياسية عند الإبراهيمي:

كان من الجوانب الهامة التي عني بها الشيخ الإبراهيمي الجانب السياسي، ونعني بهذا الجانب المعنى الصّاعد إلى الأعلى وهو "شمول الإسلام" لكلّ جوانب الحياة. وللإمام الإبراهيمي في ذلك قولٌ مأثور عنه وهو «نحن سياسيون منذ خلقنا، لأنّنا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصّحيح بجميع مظاهره إلاّ السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصّحيح إلاّ المرشّح الإلهي لتسيير دفّتها أو لترجيح كفّتها».(2)

فالسّياسة في رأي الإبراهيمي جزء لا يتجزّأ من الدين، وهذه الرّؤية تمثّل أوّل دعامة تقوم عليها التربية السياسية عنده:-

1- الرّبط بين الدين والسياسة: كان الإسلام هو المرجعية الأولى بل الوحيدة لجمعية العلماء المسلمين، وهو أمرٌ طبيعي لا غرابة فيه ولا دهشة منه، بل الغريب أن تكون لها مرجعية أخرى غير الإسلام.

ولقد حرص الإبراهيمي على أن يُبيّن باستمرار رسوخ الإسلام في الجزائر رسوخ الجبال، وأنّه أصل أصول حياتها، وأنّه منها بمثابة الرّوح من الجسد، إذا انفصل أحدهما عن الآخر فمعناه الموت، وأنّه يعنى بجميع جوانب حياة الإنسان، فهو يشمل الحياة كلّها وهو يوجّه المسلم في حياته الفردية والاجتماعية والسياسية، وكان من نتيجة هذا الاعتناء وجود قاعدة عريضة تؤمن بهذا الشّمول وتنادي بهذا الرّبط، وتطالب بأن يكون الإسلام عقيدة وشريعة ودينًا ودولة، وتجلّى هذا في قوله: «نحن سياسيون لأنّ ديننا يعدّ السياسة جزءاً من العقيدة، ولأنّ زمننا يعتبر السّياسة هي الحياة، لأنّها آية البطولة، ولأنّ وضعها يصيّر السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء ولأنّ السياسة نوع من الجهاد ونحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعية».(3)

ولقد انبرى الإبراهيمي للردّ على الذين حاولوا إثارة إشكالية أنّ مفهوم السياسة مقابل لمفهوم

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 41

(2) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 277

(3) – المصدر نفسه، ج4/ 278

الدين، كما يقابل الأسود الأبيض، ولا يتصوّر –في نظرهم– اجتماعهما في شخص أو في جماعة، وعلى هذا الأساس قامت أصوات هنا وهناك تبارك هذا الفهم وتنادى بأنّ لا علاقة ولا صلة لها بالسياسة. فكان على الإبراهيمي واجب البيان، فخاض معركة وسجَالا لدفع هذه المفاهيم الخاطئة، والعمل على تصحيح علاقة الدين بالسّياسة، فأعلن أنّه «إذا كان الإسلام دينًا وسياسة، فجمعية العلماء دينية سياسية، قضية مُقنعة لا تحتاج إلى سؤال ولا إلى جواب، وجمعية العلماء ترى أنّ العالم الديني إذا لم يكن عالمًا بالسياسة ولا عاملاً لها فليس بعالم، وإذا تخلّى العالم الديني عن السياسة فمن ذا يصرفها ويديرها؟ لاشك أنّه يتولاّها الجاهل المتحلّل فيغرق السفينة ويشقي الأمّة.... إنّ الدين في الإسلام سياسة، وأنّ السياسة دين، فهما في اعتباره شيئان متلازمان أو هما شيء واحد».(1)

2- إيقاظ الوعي بوجوب تحرير الوطن: الدعامة الثانية من دعائم التربية السياسية عند الإبراهيمي، ترتكز على تقوية الشعور وتنمية الوعي بوجوب تحرير العباد والبلاد من كلّ سلطان واحتلال أجنبي، وطرد المستعمر الغاصب من ربوع البلاد كلّها بكلّ وسيلة مشروعة.

وكان هدف الإبراهيمي من حركته الإصلاحية إعداد الشعب الجزائري ليوم لا ريب فيه، هو يوم القضاء على الاستعمار الذي طال ليله.

ولن يحرّر الوطن الجزائري من نير الاستعمار إلاّ الشعب الجزائري، ولن يتمّ ذلك في نظره إلاّ إذا تمّ تحرير نفسية الشعب من الخنوع للمستعمر. فكان لا بد من غرس العزّة في النفس والإيمان بالقضية وزرع الأمل في القلب والشعور بالسيادة، والتوق إلى الحرية.

ولبلوغ هذه الغاية نجده يرسل عبر دروسه ومحاضراته ومقالاته نارًا على الاستعمار، وبيان وحشيته وأساليبه في القهر والإذلال ومحاولاته الفاشلة لطمس الهوية وتغيير معالم الشخصية الجزائرية، «وكان صفوة رأي الجمعية في السياسة الجزائرية تحرير الجزائر على أساس العروبة الكاملة والإسلام الصحيح، والعلم الحي، وعلى ذلك فهذه الجهود الجبّارة التي تبذلها جمعية العلماء في سبيل العربية والإسلام والتعليم كلّها استعداد للاستقلال وتقريب لأجله».(2)

فالجمعية مهّدت لمرحلة التحرير وذلك لمّا حرّرت العقل وصقلت الفكر، وأيقظت المشاعر

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 239

(2) – المصدر نفسه، ج4/ 240

وبعثت في نفوس اليائسين روح الأمل ببزوغ فجر الحرية والاستقلال.

والتحرير الذي ينشده الإبراهيمي تحرير عام، يشمل كلّ شيء ابتداء من تحرير الإنسان من الاستعمار الداخلي وانتهاء من تحريره من كلّ سلطان واستعمار خارجي، فكانت كلمة الحرية من الكلمات المحرّمة استعمالها حتى قيّض الله لهذا الشعب رجالاً أحيوها بعد موتها، وأشاعوها بين النّاس، وحبّبوها إليهم، وكان منهم الإبراهيمي الذي يُرجع أفضلية السّبق في القيام بهذا الدّور لرجال الجمعية، حيث يقول: «نحن سياسيون طبعًا وجبلّة ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب، فما سار سائر في السياسة إلاّ على هُدانا وما ارتفعت فيها صيحة إلاّ وكانت صدًى مردّدًا لصيحاتنا».(1)

وممّا قاله أيضًا في بيان أثر أعماله وأعمال إخوانه في الشعب الجزائري، ممّا لا ينكره أحدٌ قوله: «فمن آثارنا، بثّ الوعي واليقظة في الشعب، حتى أصبح يعرف ماله وما عليه.... ولو سلكنا سبيلاً غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمّة وتوجيهها في السبيل السوي لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر التي بيّضت وجه العرب والمسلمين».(2)

3- إيقاظ الوعي بوجوب إقامة دولة القرآن: الوعي والشعور بحتمية إقامة دولة القرآن باعتباره الغاية من تحرير الوطن واسترجاع السيادة، ذلك أنّ طرد المستعمر، وتحرير الوطن من نيره واستعباده ليس هدفًا في ذاته، وإنّما هو وسيلة لتحقيق هدف كبير، هو أن تحقق الأمّة ذاتها وتعيش بعقيدتها ولعقيدتها، وتدبّر أمر وطنها وفق عقائدها وقيمها.

والجزائر لا تتحرّر في نظر الإبراهيمي حق التحرّر إلاّ إذا تخلّصت من كلّ آثار الاستعمار السياسي والثقافي والتعليمي وغيرها. ومن هنا كانت إقامة دولة القرآن والسعي لتحكيم تعاليم القرآن فريضة وضرورة اجتماعية وإنسانية.

وقد أكّد الإبراهيمي في كُلّ مقالاته ومواقفه ومحاضراته، على المطالبة بحكم القرآن وإقامة دولة القرآن، محاربًا بذلك الأفكار العلمانية الدخيلة التي تنادي بفصل الدين عن الدولة.

وأثبت الإبراهيمي أنّ الحركة «التي قامت بها جمعية العلماء في الجزائر منذ ثلاثين سنة تقريبًا وعُرفت بالحركة الإصلاحية الدينية، هي في حقيقتها دعوة القرآن والسنّة الصّحيحة فهمًا

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 277

(2) – الإبراهيمي، "أنا" مجلة الثقافة، عدد 87، ص: 31

وعملاً ورجوع بالمسلمين إليهما لأنّها أصل الدين ومنبعه، ولأنّهما سبب سعادة المسلمين وسيادتهم في العصور الأولى».(1)

لقد حاول الإبراهيمي ورفاقه أن يجمعوا الشعب على الإسلام الصحيح، الإسلام الأوّل إسلام القرآن والسنّة، إسلام القوة لا الضّعف، وإسلام التجديد لا الجمود. وقد ضمّن الإبراهيمي في بيانه التاريخي* أمنيته التي عاش من أجلها، ومات وفيًا لها، وهي في قوله: «كتب الله لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر، ويومئذ كنتُ أستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير، إذْ تراءى لي أنّي سلّمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق والنهوض باللّغة، ذلك الجهاد الذي كنتُ أعيش من أجله.... ولكن المسؤولين فيما يبدو لا يدركون.... أنّ الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية».(2)

وقد ظهرت دعوة الإبراهيمي إلى إيقاظ الوعي بوجوب إقامة دولة القرآن بشكل واضح وصريح في الوفاء للعهد الذي قطعه ورفاقه على أنفسهم مع الله، حينما قال: «ومن عهود جمعية العلماء مع الله أن تنشئ مجتمعاً إسلاميا يشارف السّلف في عقائده وعاداته وأخلاقه وصلته بمحمد –صلى الله عليه وسلم– وقربه من الله».(3)

4- إيقاظ الوعي بوجوب الوحدة والاتحاد: إيقاظ الوعي والشعور بوجوب الوحدة والاتّحاد وضرورتهما. فالوحدة فريضة شرعية وضرورة اجتماعية، ولهذا حرص الإبراهيمي على الدعوة إلى الوحدة والاتّحاد حيث يقول: «على رجالنا أن يعلموا أنّه إذا كان الاتّحاد لازماً في كُلّ وقت، وحسنًا في كلّ وقت، فهو في هذا الوقت ألزم وأحسن».(4)

كان هدف الإبراهيمي من عمله الإصلاحي بعد التحرير، هو العمل على تحقيق الاتّحاد، فقد كان هو الأمل، ومن هنا كانت الدعوة إلى الوحدة بين الجزائريين أمراً لا مناص منه، لإعادة مجد الجزائر وعزّها وكرامتها.

---

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4/ 171

(2) – محمد الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص: 15

* نص البيان التاريخي الذي أصدره الشيخ في 16/أفريل/1964، ضد الانحراف العقائدي والسياسي، تجده في قلب المعركة، ص: 246، وكتاب الإمام الرائد، ص: 15

(3) – الإبراهيمي، مصدر سابق، ج4/ 123

(4) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 339

كانت وحدة الجزائريين هي شغله الشّاغل، فهو دائم الحرص في الدّعوة إلى ذلك عبر جميع مقالاته ومواقفه، فقد عمل على صهر الشّعب الجزائري: عربه وبربره، ويرى أنّ الإسلام قد عرّب الشّعب الجزائري، كما عرّب المغرب العربي كلّه، وفي غمرة الصّراع بين الحقّ والباطل حول مصير الهوية في هذا الوطن، أثبتت الجمعية بقيادة الإبراهيمي «بأنّ الدماء البربرية التي مازجت الدّم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام، وبحكم العمومة والخؤولة، الممتدتين في سلسلة من الزمن، ذرعها ثلاثة عشر قرناً مزاج فطري».(1)

فالوحدة في نظر الإبراهيمي شيء مقدّس، ولذلك فإنّه لا يسمح أن تمسّ تحت أيّة ذريعة أو مبرر، لإثارة أيّ نوع من الخلافات المفرّقة بين الشعب الواحد، فلا مجال للقول بانقسام الجزائر إلى عرب وبربر، فقد عرّب الإسلام البربر كما عرّب المصريين وغيرهم من الشعوب.(2)

وقد اجتهد الإبراهيمي أن يجنب الشّعب الجزائري أسباب الخلاف، من جرّاء الاختلاف في قضايا علم الكلام، أو مذاهب الفقه، أو اتّجاهات التصوّف.

كما حذّر من مكائد الاستعمار ودسائسه ووساوسه، ومن سياسته المعروفة، وحرص على توحيد الشّعب الجزائري في شعائره الدينية، وطالب بضرورة أن يتّحد المجتمع في صيامه وإفطاره وكتب مقالات(3) يردّ فيها على لجنة الأهلّة المعيّنة من قبل الاستعمار.

كما حرص على توحيد مواقف الشّعب الوطنية، وتجلّى ذلك في النّداء الذي وجّهه إلى اتّحاد الأحزاب والهيئآت، يدعوهم فيها إلى الالتفاف حول قائمة الوحدة الوطنية، التي تضمّ الكفاءات لتحقيق المصلحة الوطنية، وناشدهم بالاتّحاد.(4)

5- التنديد بالأحزاب والحزبية: الدعامة الخامسة من دعائم التربية السياسية عند الإبراهيمي تأكيده على معارضته للأحزاب القائمة في ذلك الوقت، وما خلّفته بسبب تفرّقها واختلافها وتنافرها. ولهذا فهو يدعو كما بيّنا سابقاً إلى ضرورة الاتّحاد ووجوب الائتلاف، كما تدلّ على ذلك آيات القرآن وأحاديث الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– وبخاصّة أن الأحزاب في الجزائر قد بلغ بها الاختلاف والتدابر والتخاصم حدًّا أمسى ينذر بخطر على الوطن، ولا يستفيد منه إلاّ المستعمر المتربص.

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 36

(2) – يوسف القرضاوي، مقوّمات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، www.quradawi.net

(3) – لمعرفة المزيد من التفاصيل يمكن الرّجوع إلى مقال: فصل رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر، عيون البصائر، ص: 104-111

(4) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 36

فظاهرة التنابز والتخاصم والتباغض عمّت في نظر الإبراهيمي كثيراً من الأوطان العربية والإسلامية، وإذا كانت مصر التي تعدّ قبلة للعالم العربي والإسلامي فإنّها لم تسلم هي نفسها من آثار هذه الآفة. وقد بلغ الحال عندهم مبلغاً ينذر بالخطر، حملت أمير الشعراء أحمد شوقي* لينشد قصيدته المعروفة:

إلام الخُلف بينكم إلاَ مَـا؟ وهذه الضجّة الكبرى علاَمَا؟!

وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما؟!

فالإبراهيمي يرى بأنّ الأحزاب في مصر –مثلاً– لم تختلف على مناهج وبرامج للإصلاح والتغيير، وإنّما الخلاف فيما بينها لأسباب شخصية، ومن هنا فهو يرى ضرورة اختفاء هذه الأحزاب من السّاحة السياسية، أو أن تتوحّد جميعاً في حزب أو تكتّل واحد يضمّ الجميع في رحابه ويعمل من أجل مصلحة الوطن.

فالإبراهيمي يعدّ سبب ضعف وهوان الأمّة مردّه إلى غفلة الأحزاب عن تربية الجماهير التربية المستمدة من مقوّمات الأمّة.(1)

كما يعتقد أنّ هذه الحزبية قد أفسدت على النّاس كلَّ مرافق حياتهم، وعطّلت مصالحهم وأتلفت أخلاقهم ومزّقت روابطهم، وكان لها في حياتهم العامّة والخاصّة أسوأ الأثر.

ثمّ بيّن خطراً آخر للتحزّب وهو أنّ التّدخل الأجنبي في شؤون الأمّة ليس له من باب إلاّ التدابر والخلاف فقال: «ثمّ جرت الأحزاب.... إلى الآن على ذلك المنهج: إهمالٌ شنيع لتربية الأمّة وتقوية مقوّماتها وتطاحنٌ أشنع على الرّئاسة والحكم، وترديد لكلمة الوطنية دون تثبيت لدعائمها، وتغنّ بمصالح الوطن وهي ضائعة، وترامٍ بالتّهم، والجريمة عَالقة بالجميع، وتقديس للأشخاص، والمبادئ مهدورة، والاستعمار من وراء الجميع يضحك ملء شدقيه، وينام مِلْءَ عينيه».(2)

كما أنّ للإبراهيمي نظرة متميّزة، فهو يعتقد أنّه إذا جاز للتعدّدية الحزبية أن تظهر وتنشأ في بعض البلدان ونتيجة لبعض الظّروف، فإنّه يرى وجودها بهذه الكثرة لا يُعدُّ ظاهرة صحّية لأنّها

* أمير الشعراء أحمد شوقي، ولد في القاهرة سنة [1868م]، في أسرة موسرة، بويعَ أميراً للشعراء سنة [1928م]، وتوفي في 14 أكتوبر سنة [1932]، مخلّفاً للأمّة تراثاً شعرياً، ومن هذه الأبيات التي تعبّر عن الحالة المأسوية، التي بلغها المجتمع السياسي المصري من الخلاف والانقسام نتيجة للصّراع السياسي.

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 46

(2) – المصدر نفسه، ص: 46

في اعتقاده تكرس الفُرقة والخلاف، وأنّها عامل يبعث على تسرّب الشّقاق والخصام فيما بينها وأنها سبب للكيد الذي يضمره كلٌّ منها للآخر، وعليه فإنّ وجودها بهذه الكثرة مدعاة لأنْ يَبسط الاستعمار نفوذه وهيمنته عليها فتكون تابعة منقادة له طوعًا أو كرهًا.

كان هذا رأي الإبراهيمي، وخلاصة نظرته في قضية الأحزاب والحزبية، فهو لا يرى التعدّدية الحزبية، بل يرى أنّ النّظام الحزبي في أساسه يتعارض مع التعاليم الإسلامية، لأنّه يقوم على التفرّق والاختلاف، والإسلام يدعو إلى التوحيد والائتلاف، وتأكّدت قناعته خاصّة لمّا عايش ظاهرة الخلاف والتفرّق، التي كانت سائدة بين الأحزاب في ذلك الوقت، التي كانت قائمة على المغانم والمصالح، ولهذا بنى موقفه بصراحة ووضوح على ضوء ما تشكّل عنده من قناعة فقال: «ونَراهم يقولون، إنّ كثرة الأحزاب في أمة عنوان يقظتها وانتباهها، وضمان وصولها إلى حقّها، ولكنّنا لم نر من تعدّد الأحزاب إلاّ نقص في القوّة، ونقضًا للوحدة، وتنفيسًا على الخصم، واشتغالاً من بعضهم ببعض، وتعَالت كلمة القرآن، فإنّه لا يكاد يذكر الأحزاب بلفظ الجمع إلاّ في مقام الخلاف والهزيمة ﴿ **فَاختَلَفَ الأَحزَاب مِن بَينِهِم** ﴾ [الزخرف: 65] ﴿ **جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِنَ الأَحزَاب** ﴾ [ص: 11]. ولا يكاد يذكر الحزب بلفظ المفرد إلاّ في مقام الخير والفلاح ﴿ **ألا إنّ حزب الله هُمُ المُفلِحُون** ﴾ [المجادلة: 22]».(1)

ويخلص الإبراهيمي، بعد هذا التأصيل إلى اعتبار أنّ جمعية العلماء المسلمين هي حزب الله في الأمّة الجزائرية وإنّها هي المنتصرة في النهاية لا محالة.(2)

كما يعجب من الدّور السلبي للأحزاب التي كانت في نظره مصدر اختلاف الأمّة وتفريق شملها وذلك من خلال مواقفها وممارساتها اليومية، حيث يقول: «إنّنا لا نتصوّر كيف يخدم السياسي أمّته بتقطيع أوصالها، وشتم رجالها، وتسفيه كلّ رأي إلاّ رأيه، ولا تتصوّر أنّ ممّا تخدم به الأمّة هذه الدّروس "العالية" في أساليب السَبِّ التي يُلقنها بعض الأحزاب لطائفة من شباب الأمّة في "معاهد" المقاهي والأزقة، إن تضرية الشّبان على الشّتم والسباب جريمة لا تغتفر».(3)

ولهذا دعا الأحزاب إلى مراجعة سياساتها، وأن لا تفسد بأفكارها ودروسها ما حققته جمعية العلماء المسلمين، وما أجهدت نفسها في البلوغ إليه، وهو تربية جيل هذه الأمّة على طهارة

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 47

(2) – المصدر نفسه، ص: 47

(3) – المصدر نفسه، ص: 48

الإسلام وهمم العرب، ومجد العروبة والإيمان بحقوق الوطن، والعمل على تحقيق استقلاله وحرّيته، وتربيته على التحلّي بمكارم الأخلاق. كما حذّر من مغبّة أنْ ينجذب أبناء هذه الأمّة إلى المهاترات الحزبية والمناقشات التي لا طائل من ورائها على حساب الحقائق القومية.(1)

وبناء على ما سبق ذكره نجد الإبراهيمي يُعلن عن رأيه في تمام الصّراحة والوضوح بأنّ «جمعية العلماء فوق الأحزاب كلّها ما ظهر منها وما بطن، وأنّ مبدأها أعلى من المبادئ كلّها ما استسرَّ منها وما علن».(2)

كان هذا هو رأي الشيخ الإبراهيمي في قضية الأحزاب والحزبية، فهو لا يرى ضرورة للتعدّدية الحزبية، وإنْ كان رجلاً سياسيا، إلاّ أنّه لا يؤمن بالنّظام الحزبي القائم على التفرّق والاختلاف في الوقت الذي يدعو فيه الإسلام إلى توحيد الصفّ وجمع الكلمة.

كما أنّه لم يكن لديه مانع من الممارسة السياسية القائمة على الأخلاق واحترام المبادئ، وليست السياسة القائمة على شعار الغاية تبرّر الوسيلة، وهذا ما بيّنه، حينما قال: «....وإذا بتلك الحمية قد بردت، لأنّ باعثها هو الانتخاب وعصبية الأحزاب، لا مصلحة الوطن وحقوق الأمّة، ومن المحزن أنّنا مازلنا نعتبر الانتخاب غاية لا وسيلة، في حين أنّه في حقيقته وفي نظر الأمم الحيّة وسيلة لا غاية».(3)

كما أنّه يفضّل العمل الإصلاحي الشّامل بكلّ أبعاده تحت قبّة جمعية العلماء المسلمين، لأنّها لا تتقيّد بمجال محدود، وأنّها تعمل في ميدان لا يختلف فيه الرّأي ولا يتشعّب معه الهوى، كما أنّها تزن الأحزاب ببرامجها الواضحة وآرائها العملية، وأنّها تواليهم وتُباعدهم على قدر قربهم وبعدهم من العروبة والإسلام.(4)

ولعلّ في كلام الإبراهيمي هذا ما يحفّز الباحثين والنقّاد إلى تناول رأيه بالدّراسة والتحليل وخصوصًا في ظلّ تعدّد الآراء المنادية بتعدّد الحزبية من عدمها في العمل السياسي.

ففي الوقت الذي نَجد فيه أصواتًا في الساحة الفكرية تنادي بضرورة التعدّدية وتقول بأنّ الخير كلّ الخير في التعدّدية، وساقت من الأدلّة ما يثبت مشروعية تعدّد الأحزاب في العمل السياسي

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 49

(2) – المصدر نفسه، ص: 50

(3) – المصدر نفسه، ص: 333

(4) – المصدر نفسه، ص: 50

بل وذهبت إلى استصدار فتاوي تعتبر أنّ تعدّد الأحزاب في السياسة أشبه بتعدّد المذاهب في الفقه، فالأحزاب إنّما هي مذاهب في السياسة والمذاهب إنّما هي أحزاب في الفقه.(1)

نجد في المقابل صوتًا مغايرًا تمامًا، بل ويذهب إلى حدّ الإعجاب برأي الإبراهيمي في المسألة ويعتبر أنّ رأيه يُعدُّ من الأفكار الصائبة الثاقبة، ويؤكّد على أنّ من الخداع اعتبار كثرة الأحزاب في ساحات المجتمعات الإسلامية مظهرًا لحرّيتها الفكرية ودليلاً على وعيها الثّقافي والسياسي.(2)

ويردّ على الذين يتّخذون المجتمع الغربي أسوة لهم في الجانب السياسي، ويتغنّون بالتعدّدية الحزبية بما قاله الإبراهيمي نفسه «إنّ من الغفلة والبُله أنْ نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية، فإنّ تلك الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها وصحّحت مقوّماتها».(3)

وخلاصة القول، إنّ الإبراهيمي وهو يدعو إلى اتّحاد الأحزاب الوطنية في إطار تكتّل يضمّ الجميع ويعمل لصالح الوطن، فإنّه لا يريد قطعًا إلغاء التعدّدية الحزبية والدّعوة إلى إنفراد الحزب الواحد بالتّوجيه والحكم، بل يطمح إلى أن تنضوي جميع الأحزاب تحت مظلّة جمعية العلماء المسلمين، لأنّ رحمها يسع الجميع، وفي ذلك تكمن قوّة الأمّة ويكون فلاحها ونجاحها، وهذه رغبته، حيث قال: «لو استبطن رجالنا السّياسيون بواطن الأمور، وتدبّروا عواقبها لعلموا أنّ المصلحة الوطنية أوّلاً، والمصلحة الحزبية ثانيًا تقتضيان وتتقاضيان من العاملين لهما أن تكون جمعية العلماء فوق الأحزاب».(4)

6- الاهتمام بقضايا الأمّة العربية والإسلامية: الدّعامة السّادسة من دعائم التربية السياسية عند الإمام الإبراهيمي هي الاهتمام بقضايا الأمّة المسلمة التي تنتظم شعوب العالم الإسلامي في رابطة واحدة تحت راية الإسلام.

فالأمّة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها كانت ميدان العمل والدّعوة والجهاد بالنسبة للشيخ الإبراهيمي.

ولهذا كان يشعر بضرورة تبنّي قضايا وهموم الأمّة، ولا نحتاج إلى التذكير بأنّ أمّة تنهشُ كيانها الفُرقة يستحيل فيها تبنّي أفرادها ومؤسّساتها هموم بعضهم بعضًا بالشّكل المطلوب، وخاصّة في

(1) – يوسف القرضاوي، من فقه الدولة في الإسلام، دار الشروق، ط/4، [2005م]، ص: 147-160

– فتاوى معاصرة "فتوى تعدّد الأحزاب في ظلّ الدولة الإسلامية"، ج2/ 652، www.qaradawi.net

(2) – سعيد رمضان البوطي، نقاط استوقفتني في فكر الإمام الإبراهيمي، موقع سابق

(3) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 47

(4) – المصدر نفسه، ص: 338

ظلّ الألغام التي غرسها الاحتلال، والتي منها «ما أججّه الاستعمار ويؤجّجه في عالمنا الإسلامي —ويجد للأسف استجابة، من بعض أبنائنا له- من نعرات طائفية وإقليمية، أسهمت في تشتيت أمّتنا، وإيقاظ نيران فتن، وحروب، في مختلف أرجائها».(1)

فالمجتمعات حينما تكون مُنكفئة على حالها، يصبح من المتعذّر فيها تبنّي هموم بعضهم بعضًا أفرادًا كانوا أم جماعات.

لقد أدرك أنّ من الأسباب التي تقف وراء تبنّي هموم الأمّة الإسلامية، هو ما لبسها من عوامل الفُرقة والخلاف، حتّى امتدّت جذورها في نفس كلّ فرد من أفراد الأمّة، وإنّ التكافل والتبنّي المتبادل من لدنّ النّاس لهموم بعضهم بعضًا أمور لا يمكن أن تتم إلاّ إذا التأم شمل النّاس، وتخلّوا عن النّزعات الفردية، واعتصموا بالوحدة، لأنّ بها تكون العصمة من كلّ أنواع الضّعف والانسحاق.

لقد أيقن الإبراهيمي وأدرك هذا المعنى، ورأى أنّ الطّريق القويم يبتدئ من تبنّي قضايا الأمّة والتي تأتي على رأسها القضية المحورية للأمّة وهي:-

قضية فلسطين: التي خصّها بمزيد من الاهتمام، فهو يعيش فيها وتعيش فيه، يذكّر بمحنتها ويدافع عن حقّها، ويُحرّض العرب والمسلمين على الذّود عن حياضها، ويدعو الجزائريين خاصّة أن ينهضوا بواجبهم نحوها، ولا يتخاذلوا عن نُصرتها بكلّ ما يستطيعون حيث قال: «يا فلسطين! إنّ في قلب كلّ مسلم جزائري من قضيّتك جروحًا دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محنتك عبرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقّك كلمة متردّدة هي فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير، قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصّغير، وفي عُنُق كلّ مسلم جزائري لكِ يا فلسطين —حقّ واجب الأداء، وذمام متأكّد الرّعاية، فإن فرّط في جنبك، أو أضاع بعض حقّك فما الذّنب ذنبه، وإنّما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقبلته».(2)

ففي هذا المقال يبرز الإبراهيمي بصورة لا تدع مجالاً للشّك موقف الجزائر الأصيل من القضية الفلسطينية، ويستمر على هذا النّهج في التعبئة من أجل التعريف بعدالة القضية الفلسطينية وجمع الأمّة كلّها، حولها في تسع مقالات مبثوثة في آثاره —عيون البصائر- كما كانت له مساهمة فعّالة من أجل القضية الفلسطينية، تتمثّل في تبرّعه بمكتبته لصالح المجاهدين الفلسطينيين وهي

(1) – أحمد عبادي، الإسلام وهموم النّاس، ص: 145

(2) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 491

أغلى ما يملك من هذه الدنيا، ولم يحتفظ لنفسه منها إلاّ بمصحف شريف، ونسخة من صحيح البخاري ومسلم للدّراسة.(1)

كما أدرك الإبراهيمي بأنّ المسلم الحقّ هو الذي يلتصق بهموم النّاس لا يغادرها ولا ينفصل عنها، ولذلك فلا عجب أن يهتمّ بفلسطين على بُعد الدّيار، ولا غرو أن يهتمّ بالمغرب العربي أو بالشّمال الأقصى وهو أقرب دارًا، فهو يألم لألمه، ويبكي لمصابه، ويشدو في أفراحه، فقد كتب مقالاً يُعرب فيه عن عميق حزنه على ما أصاب الأمّة التونسية(2) من هموم.

وكما تحدّث الإبراهيمي عن تونس، اهتمّ بقضايا المجتمع الليبي وحقوقه على الأمّة، فبيّن في مقال له ما تعرّض له المجتمع الليبي من ويلات الاستعمار واضطهاده له وما لقيه من أنواع التقتيل والتشريد.(3)

كما تابع بقلبه وأعصابه وإحساسه كلّ بلاد الإسلام، فهاهو يعيش آلام المغرب الأقصى المتمثّلة في إذلال شعب أصيل وإهانة ملك أمين، فحالُ المغرب الأقصى ليس بأحسن حال من باقي شعوب المغرب العربي فالجميع في الهمّ سواء.(4)

ولم تشغل الإبراهيمي اهتماماته بقضايا الشّمال الإفريقي، التفكير في قضايا الأمّة العربية والإسلامية الأخرى، حيث ركّز اهتمامه أيضًا بالجزيرة العربية وما يُنصب حولها من مخطّطات للاستيلاء على خيرات بواطنها بكل الطرق، ووراء كلّ رأس مال، رُؤوس حيوانية تفكر في الكيد لها، وأيادي وأرجل تسعى وتُخطّط للاحتلال والاستغلال.(5)

ويُفرد بلاد الكنانة بمقال(6) رائع، يبيّن فيه أفضال مصر على سائر الأمم والشعوب، كما تناول بلاد الهند الإسلامي(7) وتركيا(8) وسكان جاوة(9) وغيرها من بلاد الإسلام والعرب.

ولا يكتفي الشيخ بحمل هموم الإسلام في العالم الإسلامي فقط، بل امتدّت اهتماماته إلى

---

(1) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 523

(2) – المصدر نفسه، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 21

(3) – المصدر نفسه، عيون البصائر، ص: 450

(4) – المصدر نفسه، ص: 472

(5) – المصدر نفسه، ص: 531

(6) – المصدر نفسه، ص: 531

(7) – المصدر نفسه، ص: 532

(8) – المصدر نفسه، ص: 532

(9) – المصدر نفسه، ص: 532

الأقليات المسلمة التي تعيش في الغرب وفي غيره، ويعرض لحركة الإسلام فيها ولواقع المسلمين وما حلّ بهم من تمزق وتفرّق، في الوقت الذي يتداعى فيه أتباع الأديان القديمة إلى التجمع حول المبادئ الرّوحية أو الفكرية.(1)

هذه معالم ودعائم التربية السياسية عند الإبراهيمي، هي تربية جديدة تخالف التربية السياسية التي كانت تقوم عليها الأحزاب والمنظّمات السياسية، كما تخالف التربية التي كانت سائدة عند الجمعيات والطرق الصوفية في ذلك الوقت حيث كان الاتّجاه العام فيها يحرِّم الانشغال بالسياسة.

وكان من ثمرات هذه التربية ما رأيناه من نتائج وآثار عملية وفكرية وأخلاقية ونفسية تجلّت بصورة مباشرة في قيام الثورة الجزائرية المباركة، وطرد الاستعمار الذي جثم على رقاب العباد والبلاد عقودًا طويلة من الزمن.

رابعا: قيام الثورة الجزائرية المباركة:

الثورة الجزائرية هي المحطّة الأساسية التي كان يجري الإعداد لها على قدم وساق، بعد أنْ تمّت التعبئة الشاملة لطاقات الأمّة لتحقيق تلك الأهداف العظيمة، وعلى رأسها تحرير الوطن بتخليصه من كلّ سلطان أجنبي عسكري أو سياسي، وإعادة الكيان الأساسي للدّولة الجزائرية بانفجار بركان الثورة المباركة في الجزائر ليلة الأوّل من نوفمبر [1954م]. وكان هذا هو الطريق لأنّ فرنسا لا تفهم إلاّ هذه اللغة ولا يفتح آذانها إلاّ هذا الصوت.(2)

وأخلص في الأخير إلى التأكيد بأنّ الإبراهيمي عاش الثورة الجزائرية بكلّ وجدانه، وبذل في سبيل الإعداد لها جهودًا مضنية، ليضمن لها التهيئة الحسنة والمدد اللاّزم، وليوصل صوتها إلى ميدان نشاطه الواسع المتمثّل في الأمّة العربية والإسلامية، وقد ركب من أجل تحقيق ذلك المصاعب والأخطار ولا يهوّنها عليه إلاّ أنّها مزيد في قيمة الجزائر وجمعية العلماء.(3)

يمكن أن نلاحظ من خلال ما استعرضناه من مختلف مواقف الإبراهيمي السّياسية الداخلية وعلاقة الاستعمار الفرنسي بها، أنّ اهتمام الرّجل بالسّياسة كان أبعد ما يكون عن الاهتمام

(1) – الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3/ 274

(2) – الإبراهيمي، في قلب المعركة، مصدر سابق، ص: 24

(3) – الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 485

الهامشي الشّكلي إلى رجل انتسب إلى علماء الدين الذين انشغلوا عادة بمسائل العقيدة الدينية في نطاق السّجالات الكلامية والمناقشات بين شيوخ الطرق والمذاهب الصوفية، بل لا نبالغ إن أكّدنا في نهاية هذا المبحث أنّ الإبراهيمي كان مفكّرًا دينيًا اهتمّ بالسّياسة بمفهومها الواسع في مقام أوّل، ولا يستطيع دارس أن يفهم حقيقة الدّور الذي قام به الإبراهيمي إلاّ إذا عرف نشاط ودور الجمعية التي وقفت لتذود عن الإسلام في شتّى الميادين، ودافعت عنه في ميادين متعدّدة:

أ - في الميدان الخارجي بما ردّت به من شبه الطاعنين والمبشّرين والملحدين.

ب- في الميدان المتعلّق بالحكومة، وخاصة في قضية فصل الدين عن الحكومة حيث خاطب الشيخ الاستعمار الفرنسي بلغة قوية، وبيّن ماذا تريده جمعية العلماء وما تعمل له من أجل الإسلام والعروبة والوطن من غير مداهنة ولا إستكانة.

ج- وفي الميدان الداخلي بينها وبين قومها وأبناء أمّتها الذين زلّت بهم القدم، تعلم الجاهل منهم وترشد الضّال، وتعمل على تنقية العقيدة وما لحق بها من خرافات، فأحيت ما مات وجدّدت ما رثّ، وجمّعت ما تفرّق، وطهرّت ما تلوّث.

فجمعية العلماء من خلال ما سبق، تبيّن لنا أنّها لم تنخرط في العمل السياسي الحزبي، بل ناءت بنفسها عن الممارسة السياسية الضّيقة، واتّخذت من الممارسة السياسية بمفهومها الواسع الشّامل نموذجًا وديدنًا، لذلك جنح الإبراهيمي إلى التحذير من مغبّة الانحدار إلى الفهم والممارسة الضّيقة الذي يخلّفه التوجّه الهابط للسياسة، ودعا إلى:

- اعتماد تربية سياسية جديدة، تربية تخالف التي كانت تقوم عليها الأحزاب والمنظّمات السياسية، كما تخالف التوجّه الذي كان سائدًا عند الجمعيات الدينية والطرق الصّوفية في ذلك الوقت، حيث كان الاتّجاه العام فيها يجرّم الاشتغال بالسّياسة. فالسّياسة عند الإبراهيمي هي تربية إسلامية خالصة، لأنّها تستمدّ مقوّماتها من الإسلام وحده، ومعنى إسلامية التربية عنده أنّها إسلامية المصدر وإسلامية الغاية، فالتربية السياسية في فكر الإبراهيمي متوازنة ومتكاملة، وكانت تربية إيجابية واعية تقوم على الفهم الصّحيح للأمور السياسة لا على التهريج، وعلى العمل الهادف لا الكلام والمزايدة، وعلى البناء لا الهدم وعلى إتّباع الحق لا الهوى.

كما تقوم التربية السياسية عنده على جملة من الدعائم هي:

- الرّبط بين الدين والسياسة لبيان شمولية الإسلام.
- تقوية الوعي والشعور بوجوب تحرير الوطن الإسلامي من كلّ سلطان أجنبي.
- إيقاظ الوعي بوجوب بسط شريعة الإسلام على مسرح الحياة، لتحقّق الأمّة ذاتها وتعيش لعقيدتها ووطنها.
- إيقاظ الوعي والشعور بوجوب تحقيق الوحدة الإسلامية وضرورتها.
- التنديد بالسياسة الحزبية الضّيقة التي تقوم على الفرقة والاختلاف والتنافر، لأنّه يعتقد أنّ هذه الحزبية أفسدت على النّاس حياتهم، وعطّلت مصالحهم ومزّقت روابطهم، وكان لها أسوء الأثر في حياتهم خاصّة في ظلّ الاستعمار، والوضع يستلزم تظافر الجهود وتوافر القوى وتكاتف كلّ الطّاقات، كما أنّ التدخل الأجنبي في شؤون الأمّة ليس له من باب إلاّ التدابر والخلاف. كما ينبغي التنويه بأنّ الإبراهيمي لا يرى -في ذلك الوقت- ضرورة للتعدّدية الحزبية وإن كان رجلاً سياسيًا، فهو لا يؤمن بالتربية السياسية الهابطة في معناها إلى الدون في الوقت الذي يدعو فيه الإسلام إلى توحيد الصّف وجمع الكلمة.
- الاهتمام بقضايا الأمّة وتبنّى همومها والتأكيد على أنّ الأمّة الإسلامية كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بواجب النصرة والدعم.

وكان من ثمرة هذه التربية ما تحقّق من نتائج وآثار نفسية وفكرية وأخلاقية وعملية تجلّت في عالم الواقع وعالم الأفكار والمشاعر ومن ذلك على الخصوص:

- مطاردة عوامل اليأس والإحباط في الأمّة للمحن والشدائد التي نزلت بها طوال فترة الاستعمار.
- احتشاد الطاقات النفسية والعملية للأمّة وتفجيرها لتحقيق الهدف المنشود المتمثّل في تحرير الوطن وتخليصه من أعتى استعمار عرفته البشرية، قدّم فيه الشعب الغالي والنفيس لينعم بالحرية ويشهد إعادة السيادة على كامل التراب الوطني، ويساهم في بعث مجدها وجمع كلمتها لتحقيق التنمية المطلوبة والتقدّم المنشود، وإقامة العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية وخروجها من التبعية الفكرية والثقافية والاقتصادية والتشريعية لكلّ سلطان أجنبي، وغرس الأمل في قلوب أبناء الأمّة بأنّ الغد لها وأنّ النصر آتٍ لا ريب فيه.

ونخلص في خاتمة هذا الفصل إلى القول بأنّ الإبراهيمي انتهى بعد وقوف طويل على وضع الأمّة في الجزائر –عقيدة وسلوكًا اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا– إلى الوقوف على عناصر الفساد والأسباب الموصلة لذلك، وانتهى إلى أنّ أفراد المجتمع تفشّى فيهم الجهل بالدين، نتيجة لاستبعاد أصلي الدين –قرآنًا وحديثًا– من حياتهم اليومية، فأدّى ذلك الجهل إلى تصوّرات عقدية خاطئة وأنماط من السلوك منافية لتعاليم الدين، فقدّر بأنّه لا بد من القيام بدور تربوي يهدف إلى تبصير النّاس بحقائق دينهم ورفع الجهل عنهم، وتمثّلت الخطوة الأولى في هذا المنهج التربوي فيما التزمه من أهداف، تتجلّى في إصلاح العلماء وإعداد الفرد الجزائري للحياة وتأهيله ليتبوّأ مقام الريادة والفضيلة، وكذلك فيما التزمه من منهج صحيح في التربية والتعليم.

ولقد أولى الإبراهيمي الجانب التربوي والثقافي في حركته أهمية بالغة، ذلك أنّه وضع نصب عينيه إنشاء مجتمع صالح انطلاقا من الأسرة، والمدرسة، والمجتمع باعتبارها دوائر التربية الثلاث التي تتكامل فيما بينها لتأسيس نواة اجتماعية تتربّى على قيم جديدة من العقيدة والسّلوك الفردي والاجتماعي، وتقطع الصّلة بما هو في المجتمع من أنواع الانحراف والفساد.

ومع هذه التربية كانت للإبراهيمي جهود كبيرة في تطوير الصّحافة العربية وتفعيل دورها، فهو من بناة الصّحافة العربية الحديثة في الجزائر ورائدها، فقد أرسى دعائمها على أسس متينة من الإيمان بالمبدأ و التمسّك بالمقوّمات الوطنية، وقد أسهمت هذه الحركية في نشر التعليم العربي الحرّ وبعث نهضة ثقافية عربية في الجزائر، كان لها الأثر البارز في إنقاذ أمّة بكاملها من الضّياع والجهل والأمية.

وفي المجال الاجتماعي حرص الإبراهيمي على تكوين الفرد تكوينا ذاتيًا، يتحقّق معه صفاء الرّوح ونقاء النفس، مبيّنًا ما للفضيلة من قيمة في حياة الأفراد والجماعات، كما راعى طرق التعامل بين أفراد المجتمع، فقدّم رؤية لحلّ مشاكل اجتماعية عانت منها الأمّة الجزائرية، فعالج مشكلة الزّواج بالنسبة للشباب وتداعيات ظاهرة ارتفاع المهور، وما يترتّب عنها من عزوف الشباب عن الزّواج والتجاؤهم للأجنبيات، فقدّم دراسة وافية عن كلّ ذلك، وما ينبغي أن يتّسع له نشاط الفقيه المجدّد أثناء معالجته للقضايا الاجتماعية، كما لم يغفل في معالجته قضية تعليم البنت تعليما دينيا، وفي سبيل توطيد اللحمة بين أفراد المجتمع، عمد إلى محاربة العوائد البالية في نظام الأسرة، ومحاربته لوباء الفجور، محذّرا من آثاره على حياة الفرد والمجتمع، كما أولى كبير اهتمامه

لظاهرة استفحال الأمّية في المجتمع الجزائري، وكانت له في هذا المضمار جملة من الجهود الجبارة والآراء الصّائبة، كلّلت بإنقاذ عشرات الآلاف من أبناء الجزائر من ظاهرة الأمّية.

أمّا التجديد في المضمون السّياسي عند الإبراهيمي، فإنّه يمثّل بعدا أساسيًا في فكره وحركته، فالتربية السّياسية عنده هي تربية جديدة تخالف التربية التي كانت تقوم عليها الأحزاب السّياسية في وقته، كما كانت تخالف التربية التي كانت سائدة عند الجمعيات الدينية والطرق الصوفية في ذلك الوقت، فهي تربية متوازنة ومتكاملة، فهي تربية إسلامية خالصة، لأنّها تستمدّ مقوّماتها ومفاهيمها من الإسلام وحده، فالتربية السّياسية عنده تقوم على الرّبط بين الدين والسّياسة، وعلى الإيمان بوجوب تحرير الوطن، وعلى وجوب إقامة دولة القرآن، وعلى الإيمان بوجوب الوحدة بين أفراد المجتمع ونبذ الفرقة والخلاف، كما كان يحذّر من مغبّة الانجذاب نحو الفكر السّياسي الحزبي الضيّق، الذي ليس له من همّ إلاّ التهافت على كرسيّ الحكم والاستماتة في الوصول إليه، ولو بالتقرّب إلى المستعمر الذي يحتلّ البلاد ويُذلّ العباد، وكان أغلى ثمرات التربية السّياسية عنده تحرير الوطن بتخليصه من سلطان الاستعمار الذي جثم على رقبته عهودًا من الزّمن.

خاتمـــــــة:

وبعد، لقد مكّنتني دراسة موضوع التجديد عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي —منهجه ومضامينه– من الوقوف على نتائج مهمّة، سأوجزها فيما يلي:

- يمكن القول إنّ الإبراهيمي انتهى بعد معايشة طويلة، لواقع الأمّة في الجزائر عقيدةً وسلوكًا اجتماعيًا وسياسيًا، من الوقوف على أسباب المرض والتخلّف الذي حلّ بها ولقد مكّنه هذا الانخراط في المجتمع الذي مسّ مجالات الواقع من إدراك أسباب الفساد الذي تتخبّط فيه الأمّة، بالاهتداء إلى وضع خطّة لتجديد هذا الواقع، وقد جمع فيها بين العلم والعمل، فقد كان عالمًا بالدّين عقيدةً وشريعةً، متمثّلا لمطالبه، من غير أن يقنع بذلك العلم، بل سعى إلى أن يكون ذلك العلم واقعًا في الحياة، عقيدةً وسياسةً واجتماعًا وثقافةً، ورأى أنّ هذا السّعي جزء من الدّين، إذْ غاية الدّين تنظيم حياة الفرد والجماعة، وعليه فإنّ الوصل بين العلم والعمل يمثّل حلقة مهمّة في عملية التجديد.
- لقد اتّسمت عملية التجديد في تجربة الإبراهيمي، بالشّمول في معالجة الواقع، فقد قوّم الواقع تقويمًا شاملاً، تناول فيه جميع جوانبه العقدية والاجتماعية والسياسية والثقافية وبناء على ما تبيّن له من مظاهر الفساد والخلل، انتهى إلى الإدلاء بنظرات دقيقة تتّصف بالشّمول، الذي أكسب حركته توازنًا وتكاملاً، أمّنا له النّجاح، لأنّ من أسباب فشل حركات التجديد في العالم الإسلامي اليوم، الاكتفاء بمعالجة جانب وحيد من الواقع وإهمال باقي الجوانب.
- لقد كانت شخصية الإبراهيمي متكاملة الجوانب، فهو رجل متميّز المعالم، ومتعدّد المواهب تتقوّم شخصيته بخصائص الرّجل القائد، ولعلّ هذا هو سرّ التلاحم الوثيق الذي لمسناه بين جوانب شخصيته المتكاملة، فقد عاش واقعه وتفاعل مع قضايا عصره، وتمثّل صورة الفقيه المجدّد العالم الخبير بأحوال النّاس، القادر على إبراز البدائل، وتقديم الحلول والعلاج لأمراض الأمّة المزمنة.
- لقد شغلت قضيّة التجديد أهمّية كبرى في الآونة الأخيرة أوساط المفكّرين بمختلف انتماءاتهم وتصوّراتهم وتوجّهاتهم، وكان للمفكّرين المسلمين نصيب من هذا الانشغال

ولا يكاد يخلو تيار فكري من أن يكون مُسهمًا فيه بقدر من الدّراسة والتّحليل، لِما يحمله هذا المصطلح من حمولات ورؤى، من هنا بدا لي أهمية دراسة مفهوم التجديد باعتباره أحد المفاهيم الكلّية في منظومة المفاهيم الإسلامية، وهو أيضًا من المطالب الملحّة لتجاوز القطيعة المعرفية مع العصر وليكون فاعلاً في الحياة المعاصرة.

- إنّ التجديد كلمة إسلامية أصيلة، فهو ثابت بالنّص، وليس دخيلاً ولا غريبًا، فلم يعدْ يسع مسلمًا التخوّف من استعماله، فهو ليس إلغاء أو تعديلاً للقيم، وإنّما هو عودة إلى الينابيع الأولى، عودةٌ إلى المعايرة بالقيم، وإعادة تنزيلها على الواقع، واستئصال نوابت السّوء ومحاصرة البدع والخرافات والأوهام، وعودة إلى تحريك وتشغيل آليات التغيير الاجتماعي والتّعامل مع السّنن الجارية، وهزّ البرك الرّاكدة، ومعالجة الاسترخاء والرّخاوة التي ألفها النّاس، وإعادة فحصها واختبارها وتصويبها.
- أتاحت لي هذه الدّراسة أيضًا الوقوف على حقيقة مفهومية التعريف عند الإبراهيمي فالتجديد في الفكر، أو التجديد في الفقه، أو التجديد في الدّين نفسه هي كلّها تعبّر عن وجوه لعملة واحدة، وقد جاء مفهوم التجديد عنده متقولبًا في أشكال الرّدود على تحدّيات العصر، بحيث ينتهي مفهوم التجديد عنده إلى إلباسه معاني (الاجتهاد، الإحياء الإصلاح النّهضة، التغيير...) كما أنّ هذا العمل التجديدي في نظره لا يجوز أن يمارسه إلاّ مؤهّل للنّظر في الأدلّة بشروطها.
- لقد مثّل الإسلام المرجعية الأولى في حركة الإبراهيمي التجديدية، ولقد حرص على أن يبيّن باستمرار رسوخ الإسلام في الجزائر، وأنّه بمثابة الرّوح من الجسد، وأنّه إذا انفصل أحدهما عن الآخر معناه الموت، فهو عالم بعلوم الدّين، حفظ القرآن منذ صباه، وقرأ الحديث، ودرس التوحيد والفقه والأصول، وسائر علوم الإسلام ونبغ فيها، وأمسى معلّمًا لها، وداعيًا إليهـــا فلا يتصوّر أن يتّخذ مرجعًا غير الإسلام، فنجاح حركات التجديد تقوم على فكرة أساسية هي الرّجوع الأساسي والمباشر إلى أصلى الوحي قرآنًا وحديثًا دراسةً وفهمًا واقتباسًا للأحكام الشرعية.
- إنّ الصّيغة العملية للتجديد في تجربة الإبراهيمي، تكمن في إحياء معاني الأحكام ومقاصدها، ونشرها بين طبقات الأمّة، ثمّ توثيق الصّلة بين الأمّة وعلماء الشريعة، فهذا التفاعل بين معاني الأحكام والمقاصد الشرعية، وبين الواقع، يولّد تلقائيًا اقتراحات

ورؤى لحلّ مشكلات الواقع العقدية والفكرية والسياسية والاجتماعية، وبتفاعل علماء الأمّة مع الواقع وتلك المقترحات تتكامل الصياغة العملية للتجديد، وقد اتّخذ الإبراهيمي من جمعية العلماء نموذجًا لهذا النشاط الإسلامي، المتجدّد الذي يجب أن تتسامى إليه حركات التغيير والتجديد اليوم.

- إنّ قضية تجديد الفكر لا يُمكن أن تُفهم إلاّ إذا فهمت قضية تجديد الفقه، لأنّ الفقه هو روح الأمّة وهو منظّم حياتها، وهو الذي يقرّر لها ما يحلّ وما يحرّم، وفي هذا الإطار يهدف الإبراهيمي إلى إبراز أنّ الفقه الصّحيح، هو الفقه الذي يعالج مشكلات النّاس ويبحث في قضاياهم وهمومهم، حاضرًا ومستقبلاً، في ضوء الكتاب والسّنة، وهدي السّلف الصّالح، وهذا المعنى يستعصي على أصحاب الفقه الجامد، وأصحاب المدارك القاصرة، كما يحلو للإبراهيمي تسميتهم، لأنّ الفقه في نظره هو لباب الدّين، وروح القرآن، وعصارة سنّة محمد –عليه الصلاة والسلام– وتطبيقاته، ومن هنا تتجلّى أهمية معرفة شروطه، وأُسس التجديد فيه باعتبارها إحدى المعايير الأساسية في حركته.
- يجب أن نؤكّد أنّه من غير التجديد والاجتهاد والإبداع، لا يمكن للفكر الإسلامي أن يبني معاصرته، ويمارسها كفعل وتأثير وحضور، ولقد كان الإبراهيمي شديد الوطأة حارّ الهجوم، حديد اللسان على من سدّ باب الفكر، بإقليد التقليد، وتناول حقائق الدّين بالنّظر الخاطئ والفهم والبعيد، فالذي يعطّله أو يحجر عليه جان مجرم، كالذي يعطّل نعمة العقل وإنّ من سدّ باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي وأشنع جريمة ارتكبها المتعصّبون للنّزعات المذهبية على حدّ قول الإبراهيمي.
- كان يهدف الإبراهيمي من نشاطه التجديدي، إعداد الشعب الجزائري للوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي لانتزاع حريته، والتحرير الذي ينشده تحرير عام شامل، تحرير من الاستعمار الفرنسي، وتحرير من الاستعمار الرّوحاني بزعامة مشائخ الطرق الصّوفية الذين شوّهوا محاسن الإسلام وذلك باعتماد جملة من الوسائل والأساليب، أهمّها: مؤسّسة المسجد ومؤسّسة التربية والتعليم، مؤسّسة الصّحافة، انتداب العلماء وإيفادهم في خرجات تعليمية تأسيس النوادي العلمية، تأسيس الجمعيات وتفعيل دورها، السّياحة طريق للمعرفة والتجديد.

- ففي المضمون العقدي، اعتمد الإبراهيمي في منهجه التجديدي على الدّعوة إلى فهم الدّين فهمًا صحيحًا، سليمًا يقوم على إيقاظ الوعي الديني الحقيقي، وتنقية الفكر الإسلامي من الخرافات والأباطيل والبدع، التي شوّهت وجه الدّين، وأضافت إليه من الزوائد والشوائب ما كدّر صفاءه، ولوّث نقاءه، وعلى حماية الإسلام من الدّجالين الذين يلبسون لبوس العلماء، كما دعا، وعمل على تجديد الدّين وإحيائه بتصحيح العقيدة من البدع والخرافات، وإحياء الفقه الإسلامي بالثّورة على الجمود، والتقليد والتعصّب المذهبي، والدّعوة إلى اعتماد فقه تجديدي يلائم العصر، وهذه بعض معالمه: دراية بالنّصوص، فهم لمقاصد الدّين، استقلال عن التعصّب المذهبي، استدلال على الآراء والأحكام، والدّعوة إلى فتح باب الاجتهاد.
- أمّا في المضمون التربوي، فإنّ اهتمامات الإبراهيمي انصبّت حول إحياء دور العلماء وترشيد وظيفتهم للقيام بها متجاوزين مهمّتهم التقليدية، وعلى تربية الفرد وإعداده إعدادًا لائقًا للحياة، في إطار منظومة تكاملت فيها جميع مؤسّسات التربية والهيئات، بما يحقّق مصلحة الفرد، مركّزًا على الأجيال النّاشئة، كما دعا إلى تجاوز كلّ الآثار السلبية التي يفرزها التعصّب، وعمل على توحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم، كما دعا إلى تطوير منهج التعليم التقليدي تطويرًا يضمن له الحياة والاستقرار والفاعلية.
- أمّا في المضمون الثّقافي، فإنّ المثقّف قد حظي باهتمام خاصّ من الإبراهيمي، وذلك لما له من دور فعّال في العملية التربوية في إصلاح الفرد والمجتمع، لذلك تركّزت دعوته بصورة واضحة على إعطاء محتوى محسوس للثّقافة العربية الإسلامية في الجزائر، وجعل الشّباب الجزائري يؤمن بأصالته الحضارية حتّى ينأى بنفسه عن مشاريع المسخ والانحلال والذّوبان.
- أمّا منهج الإبراهيمي في مجال الكتابة والتعبير، فقد توسّعت اهتماماته عبر جريدة البصائر، لتشمل إلى جانب الدّعوة إلى التّعليم وتطهير الدّين من الخرافات والبدع ومعالجة موضوعات السّياسة المحلية، مجالات عربية واسعة، طالب بتحرير أجزاء المغرب العربي وضرورة توحيدها، والاهتمام بالقضية المحورية للأمّة الإسلامية قضية فلسطين والدّعوة إلى الوحدة العربية، كما وقف من الشّباب المسلم يدعوه فيها إلى تعاليم دينه وبيان لغته، ومعرفة تاريخه، وتأهيله لتحمّل مسؤولياته.

- أمّا آراؤه في الصّحافة فإنّ الإبراهيمي يُعدّ من بناة الصّحافة العربية الحديثة في الجزائر ورائدها في هذا المجال، فقد أرسى دعائمها على أُسس متينة من الإيمان بالمبدأ، أو التمسّك بالمقوّمات الوطنية، ويمثل هذا الاهتمام والشّمول في تناوله للقضايا الهامّة تناول بالدّراسة وضع الثّقافة وحالة المثقّف، وما ينبغي أن يكون عليه، وعمومًا فقد اتّسم منهجه بالصّراحة والتّحدّي.
- أمّا في المضمون الاجتماعي، فإنّ الإبراهيمي اتّجه إلى نقد الفساد في المجتمع، ودعا إلى التجديد في العديد من القضايا الاجتماعية، مُبرزًا قيمة الفضيلة في حياة الفرد والمجتمع كما اهتمّ بالنّظر في العوامل السلبية، التي هي أصل العوارض المرضية في المجتمع بمختلف خلاياه، وخاصّة منها الأسرة، ومشكلاتها (الشّباب والزّواج، تعليم البنت المسلمة محاربة العوائد البالية فيها، محاربته لوباء الفجور) الطّلاق وتداعياته على سلوك الفرد والمجتمع دعوات تحرير المرأة، وظاهرة الأمّية، فهو لم يشغل نفسه بالانكباب على القضايا الجزئية المبتوتة الصّلة بالواقع المعيش للأمّة، بل عالجها معالجة اجتماعية شرعية ذات أبعاد مقاصدية، و لم يكتف بذلك، بل قدّم حلولاً كفيلة بحلّ كلّ مشكلة، واجتثاث منابت السّوء فيها.
- في المضمون السّياسي، كان اهتمام الإبراهيمي بالسّياسة أبعد ما يكون عن الاهتمام الهامشي الشّكلي، فلا نبالغ إن قلنا بأنّ الإبراهيمي لم ينخرط في العمل السياسي الحزبي بل نأى بنفسه عن الممارسة السياسية الضيّقة، ودعا إلى تربية سياسية جديدة تخالف التي تقوم عليها الأحزاب والمنظّمات السّياسية. فالسّياسة عنده هي تربية إسلامية خالصة لأنّها تستمدّ مقوّماتها من الإسلام وحده، وتقوم على جملة من الدّعائم الأساسية هي: الرّبط بين الدّين والسّياسة، لبيان شمولية الإسلام، تقوية الوعي بوجوب تحرير البلاد من الاستعمار، إيقاظ الوعي بوجوب تحكيم شريعة الله، إيقاظ الوعي بوجوب الوحدة الإسلاميـــة وضرورتها التّنديد بالسّياسة الحزبية الضيّقة التي تقوم على الفرقة والاختلاف والتنافر.
- كانت الحرّية هي الأمل الأوّل الذي يسعى إليه الإبراهيمي، وكانت الوحدة هي أمله الثّاني فقد انصبّ اهتمامه على توحيد الشّعب الجزائري في شعائره الدّينية، كما حرص على توحيد مواقفه الوطنية، وقد جاهد وكافح من أجل توحيد الشّعب وإعداده ليوم لا

شكّ فيه، هو يوم التحرّر من الاستعمار الفرنسي، الذي لا يتمّ إلاّ إذا تمّ تحرير نفسية الشّعب من الخنوع والخضوع والتبعية واليأس، وهو الأمر الذي عاش ومات من أجله الإبراهيمي، وهو ما يؤكّد أهمية الدّور الذي لعبه وإخوانه العلماء في الإعداد للثّورة وإنجاحها، وهذا الأمر لا ينكره إلاّ جاحد أو حاقد.

نستطيع في الأخير أن نؤكّد بأنّ الإبراهيمي أحد أيمة الإصلاح والتجديد في العصر الحديث وقد وجدناه على إطّلاع واسع بالثّقافة الإسلامية وبعلومها، مع اهتمام خاصّ بتطوّر هذه العلوم عبر التاريخ، كما تميّز منهجه بالنّقد والمتانة في الاستدلال، ويبدو أنّ ثقافة الإبراهيمي الواسعة وإلمامهُ بعلوم الشّريعة، وإطّلاعه على آليات التجديد والتغيير الاجتماعي واهتمامه بإصلاح حال الأمّة، ورغبته إلى تغيير حالها وتبديل وضعها إلى الأحسن، أملى عليه الاهتمام بكثير من القضايا العلمية ذات الصّلة بواقع الأمّة، ومعالجته معالجة شرعية ذات أبعاد ودلالات مقاصدية، تجعل من حركته تجربة رائدة تستفيد منها حركات التجديد والإصلاح اليوم. فقضية التجديد والتغيير أكبر من تحديد محدود يستمرّ في دائرة الفقه وأصوله، وأكثر من عملية إعادة تقديم التّراث بلغة عصرية أو استدعاء مفردات الفقه القديم وتنزيلها على واقع مغاير، إذًا فأولى البدايات لإحداث التجديد في دوائر هذه الأمّة يعتمد في تصوّري على ما اعتمد عليها الإبراهيمي من بناء الصّلة بالأصول الثّابتة ذاتها، وتجديد العلاقة بها وبناء مناهج للتّعامل معها خاصّة مع القرآن العظيم، وكذلك فهم الواقع ودراسته وقراءته، وكذلك لابدّ من النّظر إلى السّنة النبوية المطهّرة ومنهج التعامل معها.

وفي الأخير لا يسعني إلاّ أن أقول أنّ هذا النّوع من الدّراسة حول تجربة الإبراهيمي في التجديد والإصلاح في هذا العصر، يمكن أن يُعتبر اجتهادًا يصبّ في المحاولات السّابقة لتأسيس علم التجديد أو التغيير الإسلامي، كما ينبغي الإشارة إلى أنّ هذا العمل يُعدّ إسهامًا منّي متواضعًا في تنشيط دراسات سابقة في آليات التجديد والتغيير في العصر الحديث، وهو عمل سيبقى في حاجة إلى مزيد من الإثراء.

وأسأل الله العليّ القدير التوفيق والسّداد والرّشاد، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

فهرس الآيـــات القرآنيـــة

الرقم التسلسلي	بدايـــة الآيـــة	الصفحة	السـورة	رقم الآية
01	ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف...	أ	آل عمران	104
02	بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق	03	الأنبيـاء	18
03	إنّا لفي خلق جديد	54	السجـدة	10
04	وقالوا أئذا كنّا عظامًا ورفاتًا إنّا لمبعوثون خلقًا جديدًا	54	الإسـراء	49
05	وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم...	54	سبـأ	06
06	بل هم في لبس من خلق جديد	54	ق	15
07	إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون	58	الحجـر	09
08	وأطيعوا الله وأطيعوا الرّسول فإن تولّيتم فإنّما على رسولنا البلاغ المبين	66	التغابـن	12
09	فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون	68	النحـل	43
10	الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه	69	الزمـر	18
11	هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا	70	البقـرة	29
12	لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط	70	الحديـد	25
13	فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرّسول	76	النسـاء	59
14	وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى	77	النجـم	04
15	يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر	82	البقـرة	185
16	ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب	82	البقـرة	179
17	إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...	85	الإسـراء	09
18	إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم	91	الرعـد	11
19	لا يكلّف الله نفسًا إلاّ وسعها	93	البقـرة	286
20	أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا	102	النسـاء	05
21	فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرّسول...	139	النسـاء	58
22	اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة	148	المائـدة	35
23	الطّلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان	221	البقـرة	229
24	فاختلف الأحزاب من بينهم	238	الزخـرف	65
25	جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب	238	ص	11
26	ألا إنّ حزب الله هم المفلحون	238	المجادلـة	22

فهرس الأحاديث

الرقم التسلسلي	الحديث	الفصل	المبحث	الصفحة
01	"إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها"	02	01	62/58/56
		03	01	106
02	"لا ضرر ولا ضرار"	02	03	82
03	"من حلف على يمين فرأى خيرًا منها فليكفّر عن يمينه وليفعل الذي هـــو خير"	02	02	71

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

-أ-

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
إبراهيم الأسكوبي	01	02	22
ابن الخطيب	01	01	19
ابن المعطي الجزائري	01	02	19
ابن هشام	01	03	39
أبو بكر حليم	01	02	34
أحمد البرزنجي الشهروزي	01	02	22
أحمد خيرات الشنقيطي	01	02	22
أحمد شوقي	01	02	22
أديب الروماني	01	02	25
	01	04	50
الأجدابي الطرابلسي	01	02	19
الإمام أبو زهرة	04	01	189
الإمام أحمد	02	03	82
الأيوبي	01	04	50
الجاحظ	01	02	23
الحافظ العراقي	01	02	19
الحوماني	01	04	50
الشاطبي	02	03	81
الشيخ أحمد الفيض أبادي الهندي	01	02	22/21
	01	03	38
الشيخ السمالوطي	01	02	22
الشيخ الطنطاوي	01	04	50

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشيخ الطيب بن مبارك	01	02	20
الشيخ العزيز الوزير التونسي	01	02	23/22/21
	01	03	38
الشيخ رشيد رضا	01	02	34/22
	03	01	111
الشيخ سليم البشري	01	02	21
الشيخ عبد الحميد بن باديس	01	01	16/06/03
	01	02	39/32/31/30/27/24
	02	01	57
	03	03	159
	04	02	209/202
	04	04	229
الشيخ عبد الغني محمود	01	02	22
الشيخ محمد المكي الإبراهيمي	01	02	19
الشيخ محمد بخيت	01	02	21
الشيخ محمد خير الدين	01	04	47
	04	04	230/229
الشيخ يوسف الدجوي	01	02	21
الطاهر بن عاشور	02	03	81
الطيب العقبي	01	01	16
القاضي القزويني	01	02	19
المبرّد	01	02	23
المناوي	02	01	54
المودودي	01	04	49
	02	01	57/55
	02	02	67
	03	01	112
اليعلاوي الزاوي	01	02	20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-ب-

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
بديع المؤيد	01	04	50
بن نبي مالك	02	04	91
	04	01	180/177
	04	03	217

-ج-

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
جمال الدين الأفغاني	01	02	34
	02	01	64
جمال الدين القاسمي	01	02	25
جمال الدين عطية	02	04	96/95
	03	02	119
جميل صليبا	01	02	25
	01	04	50
جودت الماردیني	01	02	25

-ح-

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
حافظ إبراهيم	01	02	22
حسن البنا	02	01	57
حسن الترابي	02	01	61/59/55
	02	02	71
	02	03	89
	02	04	100/98/95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ر -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
رضا القاسمي	01	02	25

- س -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
سعيد الغزي	01	02	25
سليمان الندوي	01	02	34

- ش -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
شكيب أرسلان	03	01	119

- ط -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
طه جابر العلواني	03	01	106

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ع -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
عارف حكمت	01	02	23
عبد الباقي الأفغاني	01	02	22
عبد الحليم عويس	03	02	119
عبد الرزاق البيطار	01	02	25
عبد القادر المبارك	01	02	25
عبد اللطيف فرفور	02	02	69/67
عبد المجيد النجار	02	03	82
عدنان الأتاسي	01	02	25
	01	04	50
علال الفاسي	02	03	81
عمر بهاء الدين بك الأميري	01	02	34

- ف -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
فضيل الورتلاني	01	02	34
فهمي جدعان	03	01	111

- ق -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
قاسم القاسمي	01	02	25

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-م-

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
محسن عبد الحميد	02	03	87
محمد إقبال	02	03	81
محمد الأمين الحسيني	01	02	34
محمد العمري الجزائري	01	02	23
محمد العيد آل خليفة	01	04	47
محمد الغزالي	03	04	170/164
محمد بن عبد الله زيدان الشنقيطي	01	02	22
محمد بهجت البيطار	01	02	25
محمد عبد اللطيف دراز	01	02	34
محمد عبده	01	02	34
	02	01	64
	03	01	112
محمد محمود الزبيري	01	02	34
محمد مدحت	01	03	42
مصطفى المحايري	01	02	25
	01	04	50
مصطفى صادق الرفاعي	03	02	119
منصور فهمي	01	03	39

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ن -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
نسيب السكري	01	04	50

- ي -

الأعـــــلام	الفصل	المبحث	الصفحـــة
يزيد المهلبي	02	01	53
يوسف القرضاوي	02	01	61/55
	02	02	73/72/69/68/65
	02	03	82
	02	04	104/101
	03	02	115
	04	01	188

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجع

أ- المصادر

1- القرآن الكريـــم

-م-

- محمد البشير الإبراهيمي

2- آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ش.و.ن.ت -الجزائر، ط/1، [1987م]، ج/1

3- آثار محمد البشير الإبراهيمي، ش.و.ن.ت -الجزائر، [1981م]، ط/1، ج/3

4- آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، [1985م]، ج/4

5- عيون البصائر، ش.و.ن.ت -الجزائر، [1971م]

6- في قلب المعركة، جمع وتصدير، د/ أبو القاسم سعد الله، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، برج الكيفان -الجزائر، [1997م]، ط/1

ب- المراجع

-أ-

- أبو القاسم سعد الله

7- الحركة الوطنية الجزائرية، ش.و.ن.ت -الجزائر، ط/3 ، [1983م]، ج/2

8- الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، [1992م]، ج/1

9- الحركة الوطنية الجزائرية، ج/3

- أبو الأعلى المودودي

10- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، دار الفكر، ط/3، [1968م]

- أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد

11- الكامل في اللغة والأدب، تحقيق أحمد الدالي، ط/2، مؤسسة الرسالة، بيروت، [1418هـ - 1977م]، ج2

- **أبو عبد الله الحاكم النيسابوري**

12- المستدرك على الصحيحين، دار الكتاب العربي –بيروت –لبنان.

- **أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة**

13- سنن ابن ماجة، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، [1975م]، ج/2، رقم الحديث: 2340

- **أحمد الخطيب**

14- جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، [1985م]

- **أحمد بن علي بن أحمد شوقي**

15- ديوان أحمد شوقي "الشوقيات"، ط/1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان، د.ت

- **أحمد خلكان**

16- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، مطبعة بولاق، القاهرة، [1299هـ]، ج/2

- **أحمد توفيق المدني**

17- كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب –الجزائر، ط/2، س: [1984م]

- **أحمد عبادي**

18- الإسلام وهموم الناس، كتاب الأمة، العدد: 49، دار الكتب –قطر، ط/1، [1996م]

- **أحمد بن خلكان**

19- وفيات الأيان وأنباء الزمان، مطبعة بولاق –القاهرة، [1299هـ]، ج/2

-ج-

- **جمعية العلماء المسلمين**

20- سجلّ مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتب –الجزائر، [1982م]

- **جمال الدين عطية**

21- المنهجية الإسلامية، بحث ضمن مناهج التجديد، تحرير وحوار عبد الجبار الرفاعي، دار الفكر المعاصر، بيروت –لبنان، دار الفكر –دمشق –سوريا، ط/1، [2000م]

-ح-

- حسن الترابي

22- تجديد الفكر الإسلامي، دار البعث -قسنطينة -الجزائر، ط/1، [1990م]

23- الفكر الإسلامي هل يتجدّد؟ مكتة الجديد -تونس، د.ت

-ر-

- رابح تركي

24- التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ش.و.ن.ت - الجزائر، ط/2، [1981م]

25- الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط/4، [1984م]

-س-

- سليمان بن الأشعث السجستاني أبو داود

26- سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، ج/2، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قدر المائة، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان

-ش-

- شارل أندري جوليان

27- إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الدار التونسية للنشر -تونس، ط/3، [1976م]

-ط-

- **طه جابر العلواني**

28- أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي، ضمن كتاب الفكر الإسلامي المعاصر، تحرير عبد الجبار الرفاعي، دار الفكر، بيروت، [1981م]

29- إسلامية المعرفة فكرة ومشروعا [ضمن مناهج التجديد، سلسلة آفاق التجديد، تحرير وحوار: عبد الجبار الرفاعي]، دار الفكر، دمشق –سوريا، ط/1، [2000م]

-ع-

- **عادل نويهض**

30- البشير الإبراهيمي، عظيم من الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت –لبنان، ط/2، ج/1

- **عبد الحميد أحمد أبو سليمان**

31- أزمة العقل المسلم، دار الهدى –الجزائر، ط/2، [1992م]

- **عبد المؤمن محمد النعمان**

32- قضايا في ظلال الفكر، دار العلم، للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، ط/1، [1985م]

- **عبد المجيد النجار**

33- في فقه التدين فهمًا وتنزيلاً، كتاب الأمة، دار الكتب –قطر، ط/1، [1989م]، ج/1

34- تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري، سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن –فيرجينيا –الولايات المتحدة الأمريكية، ط/2، [1995م]

- **عبد الوهاب كحيل**

35- الرأي العام والسياسات الإعلامية، مكتبة المدينة، القاهرة، ط/2، [1987م]

- **عبد الكريم بوصفصاف**

36- جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، دار البعث –قسنطينة –الجزائر، ط/1، [1981م]

- **علي شريعتي**

37- الأمّة والإمامة، مؤسسة الكتاب الثقافية –طهران -إيران، [2006م]

-ف-

- **فاروق النبهان**

38- منهج التجديد في الفكر الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، المملكة العربية السعودية، ، د.ت

- **فرحات عباس**

39- ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، الرباط، المغرب، د.ت

- **فهمي جدعان**

40- أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط/2، [1981م]

-ك-

- **كوليت وفرنسيس، جانسون**

41- الجزائر الثائرة، ترجمة محمد علوي الشريف، خليل فهمي، هنري يوسف، سردار، دار الهلال –القاهرة –مصر، [1957م]

-م-

- **مالك بن نبي**

42- شروط النهضة، دار الفكر، (الجزائر-دمشق-سوريا)، ط/4، [1987م]

43- وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق –سوريا[1981م]

- **محمد بن شاكر الشريف**

44- تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مجلة البيان، مكتبة الملك فهد الوطنية –الرياض، ط/1، [1425هـ-2004م]

- **محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ابن قيم الجوزية**

45- أعلام الموقعين عند ربّ العالمين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل –بيروت ج/4، [1973م]

- **محمد مهداوي**

46- البشير الإبراهيمي، نضاله وأدبه، دار الفكر –دمشق –سوريا، ط/1، [1988م]

- **محمد الطاهر فضلاء**

47- الإمام الرائد، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مطبعة البحث –قسنطينة –الجزائر، [1967م]

- **محمد خير الدين**

48- مذكرات محمد خير الدين، مطبعة دحلب –حسين داي –الجزائر، [1985م]، ج/1

- **محمد ناصر**

49- المقالة الصحفيـــة، الجزائريـــة –نشأتها –تطورها –أعلامها من [1903م-1931م]، ش.و.ن.ت –الجزائر، [1978م]، ج/1

- **محمد علي دبوز**

50- أعلام الإصلاح في الجزائر، دار البعث، قسنطينة، ط/1، [1974م]، ج/1

- **محمد عبد اللطيف صالح الفرفور**

51- خصائص الفكر الإسلامي، دار الإمام الأوزاعي، دمشق

- **محمد البهي**

52- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، الغربي، مكتبة وهبه –القاهرة، [1981م]

- **محمد التومي**

53- المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب –الجزائر، ط1، [1986م]

- **محمد زرمان**

54- الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي الحديث، جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة –الجزائر، [1994-1995م]

- **محمد إقبال**

55- تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار آسيا للطباعة، القاهرة، [1985م]

- **محمد أبو زهرة**

56- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد، دار الفكر العربي، [1946م]، ج/1

- **محمد أحمد الراشد**

57- أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية، دار المحراب، زيورخ، سويسرا، فان كوفر –كند، ط/1، [2002م]، ج/1

- **محمد بدوي**

58- المجتمع والمشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ت النشر

- **محمد ريش**

59- حاجتنا إلى علوم المستقبل العربي –بيروت –لبنان، ع: 144، [1991م]

- **محمد قطب**

60- واقعنا المعاصر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية –الجزائر، ط/2، [1989م]

- **محسن عبد الحميد**

61- تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر –مصر، [1985م]

- **منير شفيق**

62- الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار النشر –بيروت، [1991م]

–و–

- **وحيد الدين خان**

63- قضية البعث الإسلامي، المنهج والشروط، ترجمة محسن عثمان، الندوي، مراجعة الدكتور عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع –القاهرة، [1984م]

64- واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام، دار الصحوة، القاهرة، ط/1، [1984م]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- يوسف القرضاوي

65- من أجل صحوة راشدة، تجدد الدين وتنهض بالدنيا، ط/1، [1988م]

66- أولويات الحركة الإسلامية، الدوحة –قطر [1990م]

67- الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، [1994م]

68- الاجتهاد شروطه حكمه مجالاته وحاجتنا إليه اليوم، مؤسسة اتحـــاد المغرب العربي للتأليف والترجمة والنشر والتوزيع، –البليدة –الجزائر، [1983م]

69- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، مع نظرات تحليلية في الاجتهاد المعاصر، دار القلم، الكويت، ط/1، [1985م]

70- ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق –القاهرة، ط/1، [2000م]

71- من فقه الدولة في الإسلام، دار الشروق –القاهرة، ط/4، [2005م]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب- المعاجـــم

- **أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور**

72- لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت، [1996م]، ج/3

- **محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي**

73- مختار الصحاح، دار مكتبة لبنان، بيروت، [1995م]

- **عمر رضا كحالة**

74- معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق، [1957-1961م]، ج/9

- **عبد الرؤوف المناوي**

75- فيض القدير، شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت –لبنان، ط2، [1972م]، ج/2

- **مجمع اللغة العربية بالقاهرة**

76- دار الدعوة، اسطنبول –تركيا، ط/2، عام [1989م]، ج/1

ج- المجلات والجرائد

77- مجلة الثقافة، عدد: 87، وزارة الثقافة والسياحة –الجزائر، السنة: 15، [1985م]

78- الموافقات، عدد: 4، مطبعة زاعياش للطباعة والنشر، السنة: 4، الجزائر

79- مجلة البيان، مكتبة الملك فهد الوطنية –الرياض، ط/1، [2004م]

80- مجلة الاجتهاد، عدد: 9، دار الاجتهاد –بيروت، السنة: 3، [1990م]

د- المقـابـلات

81- السيد/زقادة عبد الحميد، رئيس الجمعية الدينية لمسجد أبي بكر الصديق، بمدينة خنشلة جوان 2006م.

و- المواقـــع

82- عبد الفتاح سيف الدين أستاذ النظرية السياسية، جامعة القاهرة، [موقع إسلام أون لاين –مفاهيم ومصطلحات]

83- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الموسوعة الفقهية، الكويت، ج/1، ص: 168 www.islam.gov.kw

84- ياسين بن طه كراوية المعاملات المالية المعاصرة في الفكر الاقتصادي الإسلامي، ص: 35 ww.kantakji.org

85- جمال الدين عطية، توسيع مجال الاجتهاد...آفاق وعقبات [موقع إسلام أون لاين] [2003/02/25]

86- محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية www.elazhar.gov

87- الحسن الحمدوشي، التجديد الفكري، قراءة في المفهوم www.kalema.net

88- يوسف القرضاوي، مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي موقع القرضاوي مع أئمة التجديد ورؤاهم في الفكر والإصلاح www.qaradawi.net

89- يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة، فتوى تعدد الأحزاب في ظل الدولة الإسلامية ج2، www.qaradawi.net

90- محمد سعد رمضان البوطي، نقاط هامة استوقفتني في فكر الإمام الإبراهيمي، النبراس المنير، www.binbadis.net/al_ibrahimi

فهرس الموضوعات

مقدمـــــة

الفصل الأول: **الشخصية وعوامل التكوين** 01

المبحث الأول: البيئة التي نشأ فيها الإبراهيمي وتأثيراتها على شخصيته 02

أولا: الوضع السياسي 03

ثانيا: الوضع الاجتماعي 08

ثالثا: الوضع الثقافي 10

رابعا: الوضع الديني 13

المبحث الثاني: شخصية البشير الإبراهيمي 18

أولا: مولده ونشأته 18

ثانيا: رحلاته ومكونات ثقافته 20

1- في القاهرة 21

2- في المدينة المنورة 22

3- انتقاله إلى دمشق 24

4- عودته إلى الجزائر ومشاركته في تأسيس جمعية العلماء 26

5- رحلته إلى المشرق العربي 33

المبحث الثالث: معالم الشخصية 38

أولا: التأسيس الشرعي والتحصيل العلمي 38

ثانيا: القدرة على الحركة وتحمّل الجهد 40

ثالثا: الفطنة والحنكة 42

رابعا: الجرأة في قول الحق والشجاعة في إبداء الرأي 43

المبحث الرابع: وفاته وآثاره 46

الفصل الثاني: **مفهوم التجديد ومجالاته في الفكر الإسلامي** 51
المبحث الأول: التجديد مشروعيته ومقتضياته 52
أولا: مفهوم التجديد 52
1- "الجديد" –لغة- 52
2- مفهوم التجديد –اصطلاحا- 54
ثانيا: مشروعية التجديد 56
ثالثا: دواعي التجديد ومقتضياته 58
المبحث الثاني: ضوابط التجديد 65
أولا: ألاّ يؤدي الفكر التجديدي إلى التّصادم مع النّصوص الشرعية أو الإخلال بها 66
ثانيا: أن يكون تخصصيًا 68
ثالثا: المزاوجة بين النصوص والمقاصد 70
رابعا: أن يكون جماعيا 71
خامسا: الجمع بين الانتقاء والإنشاء 73
المبحث الثالث: أسس التجديد ومرتكزا ته 76
أولا: القرآن والسنة 76
ثانيا: الإحاطة بعلمي الفقه وأصوله 79
ثالثا: مبدأ اعتبار المقاصد 80
رابعا: معرفة الواقع وفهمه 82
خامسا: ضرورة التراث وأهميته في فهم الدين 85
سادسا: التواصل في حركة التاريخ الحضاري الإسلامي 88
المبحث الرابع: مجالات التجديد 91
أولا: التجديد في مجال العقيدة 92
ثانيا: التجديد في مجال النظر والاستدلال 94
ثالثا: التجديد في السّلوك الفردي والاجتماعي 97

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: التجديد في مواجهة التّحديات المعاصرة عبر الاجتهاد 99
خامسا: التجديد في الجانبين (الإقتصادي المالي والطب الحديث) 101
الفصل الثالث: **منهج التجديد عند البشير الإبراهيمي** 105
المبحث الأول: مفهوم التجديد عند الإبراهيمي 106
المبحث الثاني: شروط وأسس التجديد عند الإبراهيمي 115
أولا: القرآن والسنة 116
ثانيا: الإلمام بعلمي الفقه وأصوله 118
ثالثا: معرفة اللغة العربية والإحاطة بقواعدها وفنونها 119
رابعا: مبدأ اعتبار المقاصد 121
خامسا: معرفة الواقع وفهمه 122
سادسا: أهمية التراث في فهم الدين 124
سابعا: حركة التواصل في التاريخ الحضاري 126
المبحث الثالث: أهداف التجديد وغاياته عند الإبراهيمي 130
أولا: تحرير الوطن وإتحاد الأمة 131
ثانيا: تجديد الدين وإحياؤه 133
ثالثا: إحياء اللغة العربية وتثبيت عروبة الجزائر 135
رابعا: العمل على استرداد مؤسسات الأمة واستقلالها 137
خامسا: التّصدي للحملات التبشيرية والإلحاد والإدماج 140
سادسا: التجديد في السلوك الفردي والجماعي 143
سابعا: التقريب بين الاتجاهات الإسلامية وإيجاد رأي عام وطني 144
المبحث الرابع: وسائل وأساليب التجديد عند الإبراهيمي 148
أولا: مؤسّسة المسجد 149
ثانيا: مؤسّسة التربية والتعليم 154
ثالثا: مؤسّسة الصحافة 166

رابعا: انتداب العلماء وإيفادهم في خرجات تعليمية 168
خامسا: تأسيس النوادي العلمية 170
سادسا: تأسيس الجمعيات وتفعيل دورها 171
سابعا: السياحة طريق المعرفة والتجديد..... 172
الفصل الرابع: **مضامين التجديد عند البشير الإبراهيمي**..... 176
المبحث الأول: التجديد في المجال العقدي 177
أولا: تصحيح العقيدة الإسلامية في فكر المسلمين 178
ثانيا: موقفه من التصوّف ومقاومته لحركات الابتداع في الدين 181
ثالثا: محاربة التوسل والاستغاثة 182
رابعا: تحذير الناس من حركات وضع الأحاديث..... 184
خامسا: الدعوة إلى تجديد الفقه، والثّورة على الجمود الفكري..... 185
المبحث الثاني: التجديد في المجال التربوي والثقافي 194
أولا: أهداف التربية والتعليم عند الإبراهيمي 197
1- إصلاح العلماء صلاح للأمة 197
2- إعداد الفرد الجزائري للحياة 198
3- أهمية التربية السلوكية في العملية التربوية 199
4- البعد الغائي من التربية والتعليم..... 200
ثانيا: منهاج التربية والتعليم عند الإبراهيمي 201
1- اعتماد مسلك التربية قبل التعليم 202
2- تجاوز الجزئيات التي أفرزتها النّزعة المذهبية 202
3- السعي إلى توحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم..... 202
ثالثا: دوائر التربية الأخلاقية ودورها عند الإبراهيمي 203
1- دائرة الأسرة 204
2- دائرة المدرسة وأهميتها في صناعة جيل الغد 204

3- المجتمع كوسط تربوي 205
رابعا: البعد الثقافي والإعلامي عند الإبراهيمي 206
المبحث الثالث: التجديد في المجال الاجتماعي 211
أولا: قيمة الفضيلة بين الفرد والجماعة 212
ثانيا: المفاهيم الأساسية لقضايا الأسرة ومشكلاتها في نظر الإبراهيمي 214
1- الشباب والزواج في نظر الإبراهيمي 215
2- تعليم البنت تعليما إسلاميا 217
3- محاربة العوائد البالية في نظام الأسرة 218
4- محاربته لوباء الفجور 219
ثالثا: الطلاق وتداعياته على سلوك الفرد والمجتمع في نظر الإبراهيمي 219
رابعا: الإبراهيمي وموقفه من تحرير المرأة 222
خامسا: محاربته لظاهرة الأمية 224
المبحث الرابع: التجديد في المجال السياسي 228
أولا: جمعية العلماء المسلمين والسياسة 229
ثانيا: التربية السياسية عند الإبراهيمي 230
ثالثا: دعائم التربية السياسية عند الإبراهيمي 232
1- الرّبط بين الدين والسياسة 232
2- إيقاظ الوعي بوجوب تحرير الوطن 233
3- إيقاظ الوعي بوجوب إقامة دولة القرآن 234
4- إيقاظ الوعي بوجوب الوحدة والاتحاد 235
5- التنديد بالأحزاب والحزبية 236
6- الاهتمام بقضايا الأمة العربية والإسلامية 240
رابعا: قيام الثورة الجزائرية المباركة 243
خاتمـــــة 248

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــارس:

فهرس الآيات القرآنية 254
فهرس الأحاديث النبوية 255
فهرس الأعلام 256
فهرس المصادر والمراجع 263
المعاجـــم 271
المجلات والجرائـــد 271
المقابلات 271
المواقـــع 272
فهرس الموضوعات 273

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية